شَيْخُ الإسْلَام

ابْنُ تَيْمِيَّةَ

وجُهُودُه في تفسيْر القُرآن الكريْم تطبيْقًا على آياتِ السُّنَنِ الربَّانيّة

وفاء عبد العظيم عبد الوهاب محمد

تقديم أ.د محمد عمارة

دَارُ البَشِيْر
لِلثقَافَةِ وَالعُلُوم

شيخُ الإسلام ابن تيمية

وجهودُه في تفسير القرآن الكريم

تطبيقًا على آيات السّنن الربانية

الطبعة الأولى
1439 هـ
2018 م

اســـم الكتـاب: شيخُ الإسلام ابن تيمية وجهودُه في تفسير القرآن الكريم
التـــأليـــف: وفاء عبد العظيم عبد الوهاب محمد
موضوع الكتاب: دراسة إسلامية
عـدد الصفحات: 456 صفحة
عـدد المـلازم: 28.5 ملزمة
مقـاس الكتاب: 17 x 24
عـدد الطبعـات: الطبعة الأولى
رقـم الإيـداع: 9525 / 2018
التـرقيم الـدولي: 2 - 686 - 278 - 977 - 978

دار البشير للثقافة والعلوم

elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com
01152806533 - 01012355714

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع، والتصوير، والنقل، والترجمة، والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي، وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من الدار.

شيخُ الإسلام ابن تيمية

وجهودُه في تفسير القرآن الكريم
تطبيقًا على آيات السّنن الربانية

وفاء عبد العظيم عبد الوهاب محمد

تقديم

د. محمد عمارة

دار البشير للثقافة والعلوم

بسم الله الرحمن الرحيم

الاستهلال

قال تعالى:

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ
ٱلْمُكَذِّبِينَ ١٣٧ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ١٣٨ ﴾.

[آل عمران: ١٣٧، ١٣٨]

الإهداء

- إلى جيل النصر والتمكين الذي ترتقبه البشرية، وتهفو إلى مجيئه نفوسُ الأحرار.. كلّ الأحرار.
- وإلى الدّعاة الصامدين الصابرين الصادقين الذين بذلوا أرواحهم وأموالهم في سبيل نصرة الحقّ والحرية.
- وإلى كلّ مَن يضع لبنةً في ميدان علم السنن ليخرج جيلَ التمكين، ويمدّ الدعاة بقوانين الصمود والتمكين...

أهدي هذا العمل.

الشكرُ والتقدير

- إلى دولة السودان، بلدنا الثاني على ما آوتْ وأكرمت....
- وإلى والديَّ الكريمين اللّذين كان أملهم أنْ يروا هذه اللحظات الطيبة لينعموا بغراسهم، ويسعدوا بثمرة تعبهم...
- إلى العالم الجليل فضيلة الأستاذ الدكتور الطاهر أحمد عبد القادر عرفانًا وشكرًا؛ على ما بذل من جهد وصبر، وذلّل من عسير وصعب..
- وإلى كلّ مَن أعانَ وأسهم، ولو بكلمة أو دعاء...

أسأل اللّه للجميع القبولَ والسّتر في الدنيا والآخرة.

تقديم

بقلم أ. د. محمد عمارة

في التاريخ الفكري للحضارة الإسلامية، تألق عددٌ من أعلام علماء الإسلام في سماء الفكر حتى أصبحوا منارات هادية، لا لعصورهم فقط، ولا لمحيطهم فحسب، وإنما لكلّ العصور وعلى امتداد أوطان عالم الإسلام.. بل وامتدت تأثيراتهم إلى ما وراء عالم الإسلام.. لقد مثّل كلُّ واحدٍ منهم «ظاهرة فكرية» دائمة العطاء.. وضمنوا الخلود؛ لأنهم ارتبطوا بمصادر الخلود: البلاغ الإلهي الخالد- القرآن الكريم- والبيان النبوي لهذا البلاغ، سنّة رسول الله ﷺ... مع جمعهم بين الاجتهاد الفكري وبين الجهاد العملي في سبيل إعزاز دين الله وأمّة رسوله ودار الإسلام.

ولقد كان شيخُ الإسلام ابن تيمية (٦٦١- ٧٢٨هـ ١٢٦٣- ١٣٢٨م) واحدًا من صفوة هذه الصفوة من أعلام علماء الإسلام.

وإذا كان المقامُ لا يسمح بتفصيل الحديث عن حيثيات هذه الحقيقة- حقيقة تحوّل ابن تيمية إلى «ظاهرة فكرية» متعدّيةً للعصور والآفاق- فإنّ إشارات إلى بعض إجاباته على عددٍ من «مشكلات عصرنا وواقعنا المعيش» هي دليلٌ على حضور هذا العقل الذي رحل صاحبُه عن عالمنا قبل سبعة قرون.

إنّ عالمنا- في شرقه وغربه وشماله وجنوبه- لا يزال حائرًا حول علاقة العقل بالنقل.. فهناك مَن يطوون صفحة النقل عندما يطبّقون على الكتب السماوية نظرية «موت المؤلف»، ويحلّون تأويلات العزاء محلّ المقاصد الإلهية في الوحي الإلهي.

وهناك التأويلات الباطنية الغنوصية التي عمّمت التأويل العبثي، المنفلت من قواعد اللغة وثوابت العقيدة، فحوّلت كلّ الحقائق إلى مجازات وخيالات..

وهناك ردّ الفعل الذي وقف بأصحابه عند الجحود على ظواهر النصوص- محكمات كانت هذه النصوص أو متشابهات-.

وأمام هذا «المشكل- المعْضل» لا تزال إجابات شيخ الإسلام ابن تيمية حاضرةً ووافية وشافية.. فعنده: «أنّ ما عُرف بصريح العقل لا يُتصور أن يعارضه منقول صحيح قطّ.. ولقد تأمّل في ذلك في عامّة ما تنازع الناس فيه فوجدت ما خالف النصوص الصحيحة شبهات فاسدات يُعلم بالعقل بطلانُها، بل يُعلم بالعقل ثبوتُ نقيضها الموافق للشرع. وهذا تأمّلته في مسائل الأصول الكبار، كمسائل التوحيد والصفات ومسائل القدر والنبوات والمعاد، وغير ذلك.

ووجدتُ ما يُعلم بصريح العقل لم يخالف لسمع قطّ، بل السمع الذي يُقال إنه يخالفه إمّا حديث موضع أو دلالة ضعيفة، فلا يصحّ أن يكون دليلا لو تجرّد عن معارضة العقل الصريح، فكيف إذا خالف صحيح المعقول؟.

ونحن نعلم أنّ الرسل لا يخبرون بمجالات العقول، بل يخبرون بمجازات العقول: فلا يخبرون بما يعلم العقل انتقاءه، بل يخبرون بما يعجز العقل عن معرفته[1].

والقول كلّما كان فاسدًا في الشرع كان أفسد في العقل، فالحقّ لا يتناقص، والرّسل إنما أخبرت بحقّ، والله فطَرَ عباده على معرفة الحقّ، والرسل بُعثت بتكميل الفطرة لا بتغيير الفطرة.

قال الله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾.

[فصلت: ٥٣]

فأخبر أنّه سيريهم الآيات الأفقية والنفسية المبينة لأنّ القرآن الذي أخبر به عباده حقّ، فتتطابق الدلالة البرهانية القرآنية والبرهانية العيانية، ويتصادق موجب الشرع المنقول والنظر المعقول..»[2].

(١) ابن تيمية: [بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول] ج١ ص٨٣، طبعة القاهرة الأولى ١٣٢١هـ.

(٢) ابن تيمية: [منهاج السنة النبوية] ج١ ص ٨٢ طبعة القاهرة الأولى ١٣٢١هـ.

وفي قدرة العقل على التحسين والتقبيح، وإدراك التحسين والتقبيح: «وإدراك الحُسن والقُبح في الأشياء لا يزال الجدل قائمًا.. ولحسم هذا الجدل العقيم نجد الإجابة الشافية في تراث شيخ الإسلام الذي يقول: «إنّ أكثر الطوائف على إثبات الحُسن والقُبح العقليّين.. وهذا قول الحنفية.. وهو قول كثير من المالكية والشافعية والحنبلية.. وكذلك أهل الحديث.. بل لقد ذكر هؤلاء أنّ نفي ذلك هو من البدع التي حدثت في الإسلام.. وقالوا: إنّ نفي الحُسن والقُبح العقليين مطلقًا لم يقله أحدٌ من سلف الأمّة ولا أئمتها، بل ما يؤخذ من كلام الأئمة والسلف في تعليل الأحكام وبيان حكمةِ الله في خلقه وأمره وبيان ما فيما أمر الله به من الحُسن الذي يُعلم بالعقل وما في مناهيه من القُبح المعلوم بالعقل، ينافي قول النّفاة.

والحُسن والقُبح من أفعال العباد يرجع إلى كوْن الأفعال نافعةً لهم وضارّةً لهم، وهذا مما لا ريب أنّه يُعرف بالعقل..

وأخصّ صفات العقل عند الإنسان أنْ يعلم ما ينفعه ويفعله، ويعلم ما يضرّه ويتركه، والمراد بالحُسن هو النافع، والمراد بالقُبح هو الضّار، فكيف يُقال: إنّ عقل الإنسان لا يميّز بين الحُسن والقُبح؟ وهل أعظم تفاضل العقلاء إلّا بمعرفة هذا مِن هذا؟ بل وجنس الناس يميل إلى مَن يتّصف بالصّفات الجميلة وينفر عمّن يتصف بالقبائح، فذاك يميل جنس الإنسان إلى سمع كلامه ورؤيته، وهذا ينفّر عن رؤيته وسمع كلامه..

إنّ العقل يحبّ الحقّ ويلتذّ به، ويحبّ الجميل ويلتذّ به، وإنّ محبّة الحمد والشكر والكرم هي من العقليات.. وإنّ للإنسان قوتين: قوة علمية فهي تحبّ الحقّ، وقوة عملية فهي تحبّ الجميل، والجميل هو الحُسن، والقبيح ضده.. »[1].

هكذا تألّق شيخ الإسلام ابن تيمية فيلسوفًا في العقلانية المؤمنة.. وفي الحسن والجمال.. يقدّم الإجابات الشافية والوافية على المشكلات التي لا تزال مثارة في واقعنا المعيش.

(١) ابن تيمية: [كتاب الردّ على المنطقيّين] ص ٤٢٠ - ٤٢٢ - ٤٢٩ - ٤٣٠ - ٤٣٣. طبعة دار المعرفة، بيروت.

- وفي الموقف من الغلو الديني، الذي أشبع أصحابه «ظاهرة التكفير» في واقعنا المعيش، نجد ابنَ تيمية حاضرًا بكلماته النفيسة التي يقول فيها:

«والذي نختاره أنْ لا نكفّر أحدًا من أهل القبلة».. والدليلُ عليه أنْ نقول: المسائل التي اختلف أهلُ القبلة فيها مثل:

أنّ الله تعالى هو عالم بالعلم أو بالذات؟

وأنّه تعالى هل هو موجدٌ لأفعال العباد أم لا؟

وأنّه هو متحيّز؟ وهل هو في مكانٍ وجهة؟ وهل هو مرئي أم لا؟

لا تخلو- [هذه المسائل]- إمّا أن تتوقّف صحة الدين على معرفة الحقّ فيها أو لا تتوقّف؟ والأوّل باطل؛ إذْ لو كانت معرفة هذه الأصول من الدين لكان الواجبُ على النبي- صلّى الله عليه وسلم- أنْ يطالبهم بهذه المسائل، ويبحث عن كيفية اعتقادهم فيها، فلمّا لم يطالبهم بهذه المسائل، بل ما جرى حديثٌ من هذه المسائل في زمانه عليه السلام ولا في زمان الصحابة والتابعين رضي الله عنهم، علمنا أنه لا تتوقّف صحّة الإسلام على معرفة هذه الأصول، وإذا كان كذلك، لم يكن الخطأ في هذه المسائل فادحًا في حقيقة الإسلام، وذلك يقتضي الامتناعَ عن تكفير أهل القبلة».

إنّ الكفر إنما يكون بتكذيب الرسول فيما أخبر به، أو الامتناع عن متابعته مع العلم بصدقه..»[1].

هكذا نزع ابنُ تيمية فتيلَ التكفير من حقل الاختلاف حول هذه «المسائل الأصولية»، فأصبح الاختلاف فيها كالاختلاف في الفقهيات والسياسات لا تكفير فيه.. ووقفت معايير الاختلاف عند الخطأ والصواب، دونما تكفير.. لأن التكفير هو- فقط- تكذيب الرسول ﷺ، فيما أخبر به أو الامتناع عن متابعته مع العلم بصدقه.

(١) ابن تيمية: [بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول] ج١ ص٥٠، ١٤٤، ١٤٥.

ولقد أشار ابن تيمية- في دعم اجتهاده هذا- إلى أنّ هذا هو موقف العديد من أئمّة مذاهب أهل السنة والجماعة.

***

ولأنّ هذه هي حقيقةُ مكانة شيخ الإسلام- مكانة «الظاهرة الفكرية» المتعدّية للقرون والآفاق.. فقد استلهمَ أعلام اليقظة الإسلامية الحديثة- روّاد مدرسة الإحياء والتجديد- الفكر التجديدي لشيخ الإسلام، ليكون زادًا للبحث الإسلامي الحديث في مواجهة التغريب.. وفي مواجهة الجمود والتقليد.

- فرأينا الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده [١٢٦٦ - ١٣٢٣هـ ١٨٤٩ - ١٩٠٥م] الذي لفت الأنظار إلى تراثنا في علم مقاصد الشريعة، وسعى لتجديد مناهج الفكر- يلفت الأنظار إلى تراث شيخ الإسلام ابن تيمية، فيشير بطبْع كتابيْه النفيسين: [بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول] و[منهاج السنة النبوية].. ويتصدّى للدفاع عن صاحبهما- ضدّ ظالميه وجاهليه- فيقول عنه: «إنه أعلمُ الناس بالسنة، وأشدّهم غيرةً على الدين.. ولقد قال فيه قومٌ يعدّون أنفسهم مسلمين: إنه ضالٌّ مُضل، وجاء على أثر هؤلاء مقلّدون يملئون أفواههم بهذه الشتائم.. وعليهم إثمُها وإثمُ مَن يقفوهم بها إلى يوم القيامة»(١).

- وعلى هذا الدّرب سار أعلامُ اليقظة الإسلامية على امتداد عالم الإسلام.. ففي الجناح الغربي لهذه اليقظة يقول الإمام محمد البشير الإبراهيمي [١٣٠٦ - ١٣٨٥هـ ١٨٨٩ - ١٩٦٥م] عن موقع شيخ الإسلام في مواجهة الفكر الخرافي المتحالف مع الاستعمار والاستلاب الحضاري:

«لا زلنا نلمح وراء كلّ داجية في تاريخ الإسلام نجمًا يشرق، ونسمع بعد كلّ خفتة فيه صوتًا يخرق، من عالم يعيش شاهدًا ويموت شهيدًا، ويترك بعده ما تتركه الشمس من شفق

(١) محمد عبده [الأعمال الكاملة] ج٣ ص ٣٥٩. دراسة وتحقيق د. محمد عمارة. طبعة دار الشروق - القاهرة ١٩٩٣.

يهدي السارين المدلجين إلى حين.. ولم يكن من الذين قرأنا أخبارهم، وتقفّينا آثارهم من علماء الإسلام مَن كان مثلًا مشهودًا له بشجاعة الرأي العام أكمل من الإمام أحمد بن تيمية.. الذي كانت كتبه عاملًا له أثره في التمهيد للدعوة الإصلاحية»(١).

ومع البشير الإبراهيمي– في الجناح الغربي لليقظة الإسلامية الحديثة– يقول الإمام عبد الحميد بن باديس [١٣٠٨ – ١٣٥٩هـ – ١٨٨٩ – ١٩٤٠م]: «إنّ كتب ابن تيمية وآراءَه لهي بابُ الشريعة الإسلامية»(٢). وفي الشام، يتحدّث الأستاذ محمد كرد علي [١٢٩٢ – ١٣٧٢هـ – ١٨٧٦ – ١٩٥٣م] الذي شبّه تجديد ابن تيمية للإسلام بتجديد مارتن لوثر [١٤٨٣ – ١٥٤٦م] للمسيحية–.. يتحدّث عن جهود الشيخ طاهر الجزائري [١٢٦٨ – ١٣٣٨هـ – ١٨٥٢– ١٩٢٠م] في إحياء تراث ابن تيمية لينهض بدوره في تزكية تيار اليقظة الإسلامية ببلاد الشام(٣).

– وفي مشرق العالم الإسلامي، يتحدّث العلامة أبو الأعلى المودودي [١٣٢١ – ١٣٩٩ هـ ١٩٠٣ – ١٩٧٩] عن مكانة المشروع التجديدي لابن تيمية في تاريخ التجديد والمجددين للإسلام.. فينوّه بنقده للمنطق اليوناني والفلسفة اليونانية.. وإقامة الأدلة والبراهين على استقامة عقائد الإسلام وأحكامه وقوانينه.. ورفعه النكير على التقليد والجمود.. ومزاولة الاجتهاد على طريقة المجتهدين في القرون الإسلامية الأولى.. والجهاد القوي والعنيف ضدّ البدع وتقاليد الشرك وضلال العقائد والأخلاق.. وما لاقاه في سبيل ذلك من المصائب العظمى.. مع الجهاد بالسيف ضدّ همجيّة التتار ووحشيتهم.

---

(١) محمد البشير الإبراهيمي. طبعة بيروت ١٩٩٧م.

(٢) [ابن باديس.. حياته وآثاره] ج٤ ص ١٥٧. جمعها وقدم لها د. عمار الطالبي. طبعة الجزائر ١٣٨٨هـ ١٩٨٦م.

(٣) المصدر السابق. ج٤ ص ١٥٦.

وينبّه المودودي إلى أنّ مشروع التجديد لابن تيمية لو قدّر له امتلاك الدولة التي تتبنّاه؛ لتغيّر مجرى الحضارة الإسلامية، ولما دخلت طور التراجع الذي مكّنَ منها الاستعمار الغربي في العصر الحديث[١].

– وفي مصر، قلب العالم الإسلامي.. وفي الأزهر الشريف، القبلة العلمية للأمّة الإسلامية، يقول شيخه الأكبر الإمام مصطفى عبد الرازق [١٣٠٢ – ١٣٦٦هـ ١٨٨٥ – ١٩٤٦م) عن ابن تيمية:

«إنّه شيخ المجدّدين في تاريخ الإسلام.. لقد دافع عن القياس، إذْ ليس في الشريعة شيء يخالف القياس، ولا في المنقول عن الصحابة الذين لا يُعلم لهم فيه مخالف، إذ القياس الصحيح دائرٌ مع أوامر الشريعة ونواهيها وجودًا وعدمًا.. كما أنّ المعقول الصريح دائرٌ مع أخبارها وجودًا وعدمًا، فلم يخبر الله ولا رسوله بما يناقض صريح العقل، ولم يشرع ما يناقض الميزان والعدل.. والأنبياء– صلوات الله وسلامه عليهم– إنما يخبرون بمجازات العقول لا بمجالات العقول.

ولقد كان نظر ابن تيمية في الكلام والتصوف والفلسفة نظرًا عميقًا، فكتبه تدلّ على سعة اطّلاعٍ على المذاهب الفلسفية وتاريخها، وحسن تصويره لما يعرض للردّ عليه من مذاهب الفلسفة ينبئ عن علمٍ وفهْم، وطريقته في جودة الترتيب والتقسيم والتبْيين لا تخلو من أثر الفلسفة.. كما كان نقده لما انتقد من المذاهب الفلسفية مستندًا إلى مخالفتها صريح المعقول، وليس لمخالفتها الدين فحسب..

ويضيف الشيخ الفيلسوف مصطفى عبد الرازق: «ولو أنّ دراساتنا المنطقية سارت منذ عهد ابن تيمية على منهاجه في النقد، بدل الشرح والتفريع والتعميق؛ لبلغنا بهذه الدراسات من التجديد والرقي مبلغًا عظيمًا».

(١) المودودي: [موجز تاريخ إحياء الدين وتجديده] ص ٧٣، ٧٦ – ٧٩. ترجمة: محمد كاظم سباق. طبعة بيروت ١٣٩٥هـ ١٩٧٥م..

كما أشار شيخُ الأزهر إلى تميّز ابن تيمية وامتيازه بالجهاد- بالسيف- ضدّ أعداء الإسلام- التتار.. والنصيرية- الذين انحازوا إلى التتار والصليبيّين.

مع لفت الأنظار إلى ردّه على الصوفية القائلين بوحدة الوجود..»(١).

هكذا شهد أعلامُ اليقظة الإسلامية الحديثة لشيخ الإسلام ابن تيمية، ولمنهاجه في التجديد الأصولي. والأصالة المجدة.. وهكذا استلهموا تراثه في البعث الإسلامي الحديث.

ولقد دفع ابن تيمية الأثمانَ الغالية من راحته وحريته في سبيل اجتهاداته وشجاعته الفكرية، فسُجن مرّات عدّة- بالقاهرة.. والإسكندرية.. ودمشق- حتى لقد صعدت روحُه إلى بارئها وهو سجين!..

ولقد أمضى بالسجن – ٧٢١هـ ١٣٢١م – خمسة أشهر وثمانية عشر يومًا بسبب فتواه بأنّ الطلاق الثلاث إنما يقع طلقةً واحدة.. وهي الفتوى التي اعتمدتها الأمّة الإسلامية الآن في سائر بلاد الإسلام!

***

تلك لمحةٌ- مجرّد لمحةٍ- إلى «الظاهرة الفكرية» التي تمثّلت في الاجتهاد الفكري وفي الجهاد العملي لشيخ الإسلام ابن تيمية.. الذي تألّق في تاريخنا الفكري منارةً هادية، عبّرت عنها كلمةُ الإمام محمد عبده: «إنّه أعلم الناس بالسنة، وأشدّهم غيرةً على الدين».

ولأنّ هذه هي حقيقة مكانة ابن تيمية في التراث المتجدد لحضارة الإسلام، كان مشروعه الفكري- وسيظلّ- ميدانًا للدراسات العلمية الجديدة والجادة.. ومنها هذه الدّراسة المتميزة والممتازة التي ارتادت صاحبتُها- الأستاذة وفاء عبد العظيم عبد الوهاب محمد- ميدانًا جديدًا

(١) مصطفى عبد الرازق: [الأعمال الكاملة] ج٣ت ص٥٦٩ – ٥٨٢. دراسة وتحقيق: د. عصمت نصار. طبعة القاهرة ١٤٣٤هـ ٢٠١٣م..

من ميادين فكر شيخ الإسلام ابن تيمية.. ميدان علم السنن الربانية كما تجلّت في تفسيره للقرآن الكريم.. وهي شاهدٌ جديد على أنّ العطاء الفكري لابن تيمية كان- وسيظلّ- «ظاهرة فكرية» ملهمة، ومتعدّية للزمان والمكان، وذلك لارتباطها بالمعجز المحفوظ ربانيًّا- القرآن الكريم- والبيان النبوي لهذا النبأ العظيم.

رحم الله شيخَ الإسلام ابن تيمية.. ووفّق صاحبة هذه الدراسة الممتازة- التي نقدّم بين يديها- للمزيد من العطاء الفكري، الذي هو ميدانٌ عظيم من ميادين الجهاد في واقعنا الإسلامي المعيش.

دكتور
محمد عمارة
١٥ رمضان ١٤٣٩هـ
٣١ مايو ٢٠١٨

ملخص الكتاب

لقد قضت سنّة الله ورحمته بأمّة الإسلام أن قيّض لها مَن يجدّد لها دينها، ويرشدها إلى طريق ربّها، وشيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- مِن العلماء الربانيّين الذين جعلوا كتاب الله وآياته وسنة نبيه منهاجًا ونبراسًا يعيشون به ويدرّسونه للناس، وقد شغل شيخ الإسلام حياته كلّها بالعلم والفقه والتفسير والحركة والدعوة والجهاد بالقلم والسيف، كما أنه ترك لنا تراثًا ضخمًا فخمًا أثرى المكتبةَ الإسلامية في كافة المجالات، وخاصة التفسير وعلوم القرآن والسّنن الربانية. ولقد تناولت هذا مُستخدمةً المنهج التاريخي في مرحلة الحديث عن ابن تيمية وعصره والترجمة له والمنهج الاستقرائي في مرحلة جمع المعلومات والمنهج التحليلي النقدي في مرحلة الاستنباط والاستنتاج.

واشتملت هذا الكتاب على أربعةِ فصول، شملت حياته وعصره ومَن تأثّر بهم وجهودَه في التفسير وعلوم القرآن ومنهجه في التفسير، وتناولت جهوده في علم السنن الربانية من ناحيتي التأصيل والتطبيق، ولقد بيّنت أنّ شيخنا ابن تيمية له مكانته البارزة وتراثه الزاخر في التفسير وعلوم القرآن، وأنه قدّم لنا منهاجًا في التفسير جديدًا ومميزًا كان بمثابة المنبع الصافي لمَن جاء بعده مِن المفسّرين، فكان- بحقّ- مجدّدًا في طريقته وأدائه.

كما قدّم لنا حلولًا جِذرية لمشكلات الأمّة من خلال تناوله لعلم السنن تأصيلًا وتطبيقًا، وقد قدّم للأمة قناعات تطبيقية بأنّ حياتها كلها وسرَّ نجاحها وتقدمها مرتبطٌ بكتاب الله- عزّ وجلّ- فهمًا وتطبيقًا، وأنّ كتاب الله عزّ وجلّ زاخر بما ينفعها إلى يوم القيامة، رحم الله شيخ الإسلام ابن تيمية وجزاه عنّا خير جزاء.

Abstract

It is according to Allah’s Sunnah(His decree and laws) and out of His mercy to send for the Muslim Nation people who shall revive their religion and guide them to the straight path of their lord as the holy Prophet (PBUH) indicated in the following Hadith، “Allah shall send for this Ummah at the head of every hundred years a person who shall revive their religion for them” (Abu Dawood، Hakim، Baihaqi). Sheikh Al-Islam Ibn Tayymiyyah (May Allah be merciful to him) was one of the God-fearing scholars who took Allah’s book، His verses، and the Sunnah of his messenger as a way and a guidance to live by and to teach to other people.

Sheikh Al-Islam Ibn Tayymiyyah spent his whole life occupied with knowledge، Fiqh (jurisprudence)، Tafseer (Exegesis of the Quraan)، dynamic effort، da’wa (missionary activity) and Jihad whether by tongue or sword. Also، he has left for us a great and lofty heritage that enriched the Islamic Library with masterpieces of volumes and books in all fields of knowledge، specially Tafseer (Exegesis of the Quraan)، the science of the Quran and divine Sunnan (divine laws). In this research، I will use the historical approach to talk about Ibn Tayymiyyah، his era، and his biography. Then I will refer to the inductive approach in collection

of information and critical analytical approach in both inference and deduction stages.

This thesis includes four chapters covering his life، his era، those who had influence on him، his effort in Tafseer (Exegesis of the Quraan) and the sciences of the Quran as well as his approach in Tafseer (Exegesis of the Quraan). It also addresses his efforts related to the divine Sunnan (divine laws) in terms of induction and application. This study has shown that Ibn Tayymiyyah holds a prominent position and has an abundant heritage in Tafseer (Exegesis of the Quraan) and the sciences of the Quran.

The study also proved that he has provided us with an innovative and distinguished approach in Tafseer (Exegesis of the Quraan). This approach is considered a pure source for the Exegete the (Al-Mufseroon) who came after him. He was a truly inventive in his methodology and style، May Allah be merciful to him، and reward him well.

based on such thesis، he provided us with fundamental solutions for this Ummah's problems through his approach for the divine Sunnan (divine laws) in terms of the induction and application. He also provided the Islamic Ummah with applied practical convictions that their lives and the secret of their success are connected to the understanding and application of Allah's book (Quran)، and that the Quran is full of benefits for this Ummah till the day of resurrection، May Allah be merciful to Sheikh Al-Islam Ibn Tayymiyyah، and reward him well.

مقـدمة

الحمد لله، حمدًا كثيرًا مباركًا طيبًا مباركًا فيه، كما ينبغي لجلال وجه ربنا وعظيم سلطانه، ملء السموات وملء الأرض، وملء ما بينهما، كما يحب ربنا ويرضى.

يا ربي لك الحمد أولًا وآخرًا، ولك الحمد في كلّ وقت وحين، لك الحمد في السراء، ولك الحمد في الضراء، ولك الحمد في المنع والعطاء، ولك الحمد دائمًا أبدًا.

اللهم زوّدنا بالتقوى، وارزقنا العلم والخشية، وتوفّنا وأنت راضٍ عنّا، يا حنان يا منان.

أمّا بعد..

فإنّ من نعم الله على هذه الأمّة أنْ قيض لها- على تطاول الأعصار وتباعد الأمصار- مَن يجدّد لها دينها، ويرشدها إلى طريق ربها، ويهديها إلى صراطها المستقيم.

وشيخ الإسلام ابن تيمية مِن الذين شغلوا الدنيا فقهًا وتفسيرًا ودعوة وحديثًا وبيانًا وأدبًا، فالناظر في تراثه يجد أنه ترك تراثًا ضخمًا فخمًا يتوزع على: التفسير وعلوم القرآن، والحديث وعلومه، والفقه وأصوله، والفتوى والدعوة والتربية، وغيرها.

وقد أثرى المكتبة الإسلامية في جانب التفسير وعلوم القرآن بعدد من الدراسات التحليلية والموضوعية، وفي القلب من ذلك قضية: «**السنن الربانية**»، التي تناولها في دراسات مفردة، وعاشها حركة وجهادًا، وعملاً وتطبيقًا، ودعوة، وعيشة حقيقية واقعية.

وهذه الدراسة لمحةٌ من لمحات الوفاء أكتبها عن هذا الإمام الحجة الذي أثرى الدراسات الإسلامية عامّة، والقرآنية خاصّة.

ويمكن بيان ذلك مِن خلال النقاط الآتية:

أولًا: أهمية الموضوع وأسباب اختياره:

وتبدو أهميةُ الموضوع في النقاط الآتية:

١ـ أهمية موضوع السنن الربانية وضرورته للأمة الإسلامية خصوصًا في مراحلها الراهنة.

٢ـ أنّ الوعي بالسنن الربانية والسير بها في الحياة يعالج كثيرًا من مشكلات الأمّة التي تغيّبت كثيرًا عن دورها الحضاري، ومهمتها الريادية لقيادة الأمم.

٣ـ الوعي بالسنن وقضاياها صورةٌ من صور تعميق الفهم لكتاب ربنا - عز وجل -، وتقديم الجديد في وعْيه، وصورة من صور ربطنا بمنهاج الله- تعالى- وشريعته.

٤ـ أن القرآن الكريم سيظلّ هو الدستور والمنهاج الذي يقدم باستمرار الحلول الدائمة لكافة قضايا البشرية، والتعمق في فهمه وتفسيره من زاوية السنن الربانية يفتح مجالات خصبة لدراسات جديدة في القرآن الكريم وعطائه.

ولدراسة هذه القضية أسبابٌ دفعتني إليها، منها:

١ـ أنّ شخصية شيخ الإسلام ابن تيمية شخصية عملاقة قلّ أن تتكرّر في تاريخنا المعاصر؛ فهو نموذج أمثل للشخصية التي تجمع بين العلم والتطبيق، مع توفّر الجانب الخلقي والسلوكي الذي يعيد لنا سيرة السلف الصالح من الصحابة والتابعين.

٢ـ أنّ ابن تيمية استطاع أنْ يقدّم تصورًا بديعًا عن السنن الربانية بصورتيه: التأصيلية والتطبيقية على حدٍّ سواء، فجمع في تراثه بين الوعي بها والتطبيق لها، وقلّ مِن العلماء مَن توفّر لديه هذا التمازج البديع بين التأصيل والتطبيق في علم السنن خاصّة.

٣ـ لابن تيمية جهودٌ مباركة في تفسير القرآن الكريم عامّة، وقضية السنن خاصّة، وله آراءٌ لها اعتبارها وتقديرها في نظر العلماء لا ينبغي إغفالها أو تجاوزها حتى نفيد منها.

٤ـ جمعَ ابن تيمية بين المنهج السلفي الأصيل والآراء الحرّة المستندة إلى الأدلة، فلا تعارض لديه بين صريح المعقول وصحيح المنقول، فأردت أن أبرز هذا النموذج الفذّ من خلال تلك القضية الهامّة؛ حتى يبين للرائي مدى سبق سلفنا الصالح في جوانب متعدّدة من الوعي والعمل.

ثانيًا: مشكلة البحث:

تدور مشكلة البحث حول بيان جهود شيخ الإسلام ابن تيمية في تفسير القرآن الكريم في زاويةٍ من زوايا التجديد لديه، وهي زاوية السنن الربانية وآياتها.

ثالثًا: أسئلة البحث:

تدور أسئلةُ البحث حول سؤالٍ رئيس، هو: ما جهود شيخ الإسلام ابن تيمية في تفسير القرآن الكريم؟ ومدى تطبيق ذلك على آيات السنن الربانية؟ ويتفرّع عن هذا السؤال الرئيس أسئلة أخرى فرعيّة، منها:

١ـ ما مدى تأثير عصر ابن تيمية عليه، ومَن أبرز مَن تأثّر بهم؟

٢ـ ما جهود ابن تيمية ومنهجه في التفسير وعلوم القرآن؟

٣ـ ما جهوده في علم السنن الربانية خاصة؟

٤ـ هل لديه جوانب تطبيقية من السنن الربانية، فحفل بها تراثه؟

رابعًا: أهداف الدراسة:

تكمن أهداف الدراسة في الإجابة على السؤال الرئيس الذي تعرّض له، وهو: ما جهود ابن تيمية في تفسير القرآن الكريم؟

وتتحقّق بالإجابة على أسئلته الفرعية، وهي بيان:

١ـ مدى تأثير عصر ابن تيمية عليه، وبيان أبرز مَن تأثر بهم.

٢ـ بيان جهود ابن تيمية ومنهجه في التفسير وعلوم القرآن.

٣ـ بيان جهود ابن تيمية في علم السنن الربانية خاصّة.

٤ـ بيان الجوانب التطبيقية من السنن الربانية في تراث ابن تيمية.

خامسًا: حدود الدراسة:

تقتصر الدراسة على بيان جهود شيخ الإسلام ابن تيمية في التفسير، وخصوصًا جانب السنن الربانية منه، مُستعينة في ذلك- بعد الله- بتراث شيخ الإسلام، وما خلّفه من كتب، وما كتبَ عنه من دراسات وبحوث مفردة أو جماعية، خصوصًا ما يتعلّق بجانب التفسير وعلومه، وتفيد الدراسة من كلّ ما تستطيع أن تصل إليه من كتابات في هذا الجانب.

سادسًا: منهج البحث وأداته:

يعتمد البحث أكثرَ من منهجٍ في سبيل الوصول إلى مبتغاه حسب طبيعة كلّ مرحلة من مراحله، فيعتمد المنهج التاريخي في مرحلة الحديث عن عصر ابن تيمية والترجمة له، ويعتمد المنهج الاستقرائي في مرحلة جمع المعلومة، والمنهج التحليلي والنقدي في مرحلة الاستنباط والاستنتاج.

سابعًا: هيكل البحث:

هذا وقد قسّمت تلك الدراسة بعد المقدّمة إلى أربعةِ فصول وخاتمة:

الفصلُ الأول

ابن تيمية.. حياتُه وعصره وأبرز مَن تأثّر بهم

وفيه ثلاثةُ مباحث:

- **المبحث الأول:**

اسمه ونسبه، حياته ونشأته وشخصيته السياسية.

- **المبحث الثاني:**

عصره.

- **المبحث الثالث:**

تكوينه العلمي وعطاؤه الفكري.

- **المبحث الرابع:**

ثناء العلماء عليه.

الفصلُ الثاني

جهود ابن تيمية ومنهجه في التفسير وعلوم القرآن

(الجانب التأسيسي)

وفيه مباحث:

•المبحث الأول:

منزلة ابن تيمية في التفسير.

•المبحث الثاني:

تصنيف نوعي لمؤلفات ابن تيمية في التفسير.

•المبحث الثالث:

منهجه في التفسير وعلوم القرآن.

•المبحث الرابع:

مصادر ابن تيمية في التفسير.

•المبحث الخامس:

أثر ابن تيمية فيمَن جاء بعده من المفسرين.

•المبحث السادس:

شيخ الإسلام ابن تيمية وعلوم القرآن.

•المبحث السابع:

ألوان التفسير لدى شيخ الإسلام ابن تيمية.

الفصلُ الثالث

جهودُه في علم السنن الربانية

وفيه مباحث:

• المبحث الأول:

روافد علم السنن عند شيخ الإسلام ابن تيمية.

•المبحث الثاني:

التدبّر السنني عند شيخ الإسلام ابن تيمية.

•المبحث الثالث:

تعريفه لعلم السنن.

•المبحث الرابع:

خصائص السنن الإلهية عند شيخ الإسلام.

•المبحث الخامس:

حجيّة السنن الربانية عند شيخ الإسلام ابن تيمية.

•المبحث السادس:

بين السنن الإلهية الجارية والمعجزة عند شيخ الإسلام ابن تيمية.

•المبحث السابع:

العلاقة بين المسطور والمنظور عند شيخ الإسلام ابن تيمية.

•المبحث الثامن:

السنن الربانية والإرادة الإلهية.

•المبحث التاسع:

كيفية الاستدلال على السنن الإلهية.

•المبحث العاشر:

أنواع السنن الإلهية عند شيخ الإسلام ابن تيمية.

الفصلُ الرابع

الجوانبُ التطبيقية مِن السنن الربانية في تراث ابن تيمية

وفيه مباحث:

•المبحث الأول:

سنة الله في الأسباب والمسببات.

•المبحث الثاني:

سنة الله في الاختلاف.

•المبحث الثالث:

سنة الله في المتساوين والمختلفين.

•المبحث الرابع:

سنة الله في الفرقان بين الحقّ والباطل.

•المبحث الخامس :

سمة الله في الهدى والضلال والرشد والغي.

•المبحث السادس :

سنة الله في الابتلاء.

•المبحث السابع:

سنة الله في الخائنين للأمانة.

•المبحث الثامن:

سنة الله في التسخير.

•المبحث التاسع:

سنة الله في السعادة والشقاء.

•المبحث العاشر:

من سنن الله في خلقه أن جعل لهم أميرًا ولا يصلح حالهم إلّا بهذه الإمارة.

•المبحث الحادي عشر:

من سنن الله في الأمّة المسلمة.

•**المبحث الثاني عشر:**

سنة الله في قبول الأعمال.

•**المبحث الثالث عشر:**

من سنن الله في العدل.

•**المبحث الرابع عشر:**

سنة الله في النصر والهزيمة.

•**المبحث الخامس عشر:**

سنة الله في الغرابة.

•**المبحث السادس عشر:**

سنة الله في التمكين.

•**المبحث السابع عشر:**

سنة الله في الاستبدال.

•**المبحث الثامن عشر:**

سنة الله في التدافع.

•**المبحث التاسع عشر:**

سنة الله في أوليائه.

•**المبحث العشرون:**

سنة الله في الأنبياء.

• **المبحث الحادي والعشرون:**

سنة الله في التداول.

•المبحث الثاني والعشرون:

سنة الله في الكافرين والمشركين.

•المبحث الثالث والعشرون:

سنة الله– تعالى– في المظهرين للإيمان.

•المبحث الرابع والعشرون:

سنة الله فيمَن يعرض عن ذكره.

•المبحث الخامس والعشرون:

سنة الله في شانئ الرسول.

•المبحث السادس والعشرون:

مِن سنن الله– تعالى– في المخلوقات أنْ خلقهم أزواجًا وأقرانًا.

•المبحث السابع والعشرون:

سنة الله في الأنفس.

•المبحث الثامن والعشرون:

سنة الله في المحبة والكراهية.

•المبحث التاسع والعشرون:

سنة الله في إهلاك الأمم.

•المبحث الثلاثون:

سنة الله في بقاء الأمم.

•المبحث الحادي والثلاثون:

سنة الله في التغيير.

•المبحث الثاني والثلاثون:

التوازن عند شيخ الإسلام ابن تيمية.

•المبحث الثالث والثلاثون:

منهجية شيخ الإسلام ابن تيمية في عرض السنن.

•المبحث الرابع والثلاثون:

ملاحظات حول السنن لدى ابن تيمية.

الخاتمة: وشملت نتائج البحث والتوصيات.

فهرس المراجع والمصادر.

فهرس الموضوعات.

والله من وراء القصد.

الفصلُ الأول

ابنُ تيمية.. حياته، وعصره، وأبرز مَن تأثّر بهم

وفيه ثلاثة مباحث:

- المبحث الأول: اسمه ونسبه، حياته ونشأته، وشخصيته السياسية.
- المبحث الثاني: عصره.
- المبحث الثالث: تكوينه العلمي وعطاؤه الفكري.
- المبحث الرابع: ثناء العلماء عليه.

المبحثُ الأول

اسمه ونسبه، وحياته ونشأته، وشخصيته السياسية

•اسمُه ونسبُه:

هو الشيخ الإمام العالم المفسر الفقيه المجتهد الحافظ المحدث شيخ الإسلام، نادرة العصر، ذو التصانيف الباهرة، والذكاء المفرط، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم الخضر بن محمد بن تيمية النميري الحراني، ثمّ الدمشقي الحنبلي(١).

(١) انظر ترجمته:
١- ذيل تاريخ الإسلام للإمام شمس الدين الذهبي، ص(٢٢).
٢- الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية للحافظ عمر بن علي البزار ت ٧٤٩، تحقيق: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، ط: ٣، ١٤٠٠هـ، بيروت، لبنان، ص(١٢).
٣- ترجمة شيخ الإسلام ابن تيمية لابن حجر العسقلاني، ت: سعيد نغشاشة، دار ابن حزم، ط: ١، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م، ص(١٩).
٤- العقود الدرية في مناقب ابن تيمية، لمحمد بن أحمد بن عبد الهادي الدمشقي الصالحي ت ٧٠٥/ ٧٤٤هـ، دراسة وتحقيق: طلعت فؤاد الحلواني، ط: أولى، الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، ص(٣).
٥- الكواكب الدرية في مناقب ابن تيمية، تأليف الإمام مرعي بن يوسف الكرمي الحنبلي المتوفّى سنة ١٠٣٣هـ، تحقيق وتعليق: نجم عبد الرحمن خلف، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م.
٦- الشهادة الزكية في ثناء الأئمة على ابن تيمية، لمرعي بن يوسف الكرمي الحنبلي (ت ١٠٣٣هـ)، تحقيق: نجم عبد الرحمن خلف، دار الفرقان، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م، ص(٢٣).
٧- الدّرر الكامنة لابن حجر، ص(٥٢٣) من الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية خلال سبعة قرون، جمَعَه ووضع فهارسه: محمد عزيز شمس، ومحمد بن علي العمران، بإشراف: العلامة بكر بن عبد الله أبو زيد، ط مؤسسة الراجحي، دار علم الفوائد.
٨- ترجمة ابن تيمية لابن كرد علي، ط ١، ١٣٨١هـ، دمشق، ط٢، ١٣٩١هـ، دمشق.
٩- مختصر طبقات علماء الحديث، للعلامة محمد بن أحمد بن عبد الهادي الحنبلي (ت ٧٢٤)، ص(٢٤٨)، من الجامع لآثار ابن تيمية.
انظر: البداية والنهاية، (١٣/ ٢٥٥)، (١٧/ ٤٥١)، الجامع.

• **مولده:**

كان مولد شيخ الإسلام ابن تيمية في عاشر ربيع الأول سنة إحدى وستين وستمائة بحرّان[١]، وقدِمَ مع والده إلى دمشق[٢].

بقي ابن تيمية في حرّان إلى أن بلغ سبع سنين، ثمّ انتقل إلى دمشق بعد غارات التتار[٣] عليها.

وحرّان بلدةٌ قديمة كانت مِن أهمّ مراكز الديانات القديمة شمال شرقي الجمهورية التركية، قرب أورفة.

• **سببُ تسمية شيخ الإسلام بابن تيمية:**

قيل: إنّ جده محمد بن الخضر حجّ على درب تيماء، فرأى هناك طفلة، فلمّا رجع وجدَ امرأته قد ولدت له بنتًا، فقال: يا تيمية، يا تيمية، فلُقّب بذلك.

قال ابن النجار: ذكر لنا أنّ جده محمدًا كانت أمُّه تسمّى تيمية، وكانت واعظة، فنُسب إليها وعرف بها[٤].

• **سببُ تلْقيبه بشيخ الإسلام:**

يقول صاحبُ الردّ الوافر: «إنّ لفظ شيخ الإسلام يحتمل وجوهًا من معاني الكلام:

---

(١) حران بلدة قديمة كانت من أهم مراكز الديانات القديمة شمال شرق الجمهورية التركية قرب أورفة، وهي الآن بلدة عامرة، والنسبة إليها حراني وهو الشايع، والصواب حرناني. راجع: معجم البلدان، (٢/ ٢٣٥)، ومعجم ما استعجم، (١/ ٣٣٥).

(٢) انظر: ذيل تاريخ الإسلام، للحافظ شمس الدين الذهبي، ت/ محمد بن ناصر العجمي، ط: أولى، ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م، دار ابن الأثير، الكويت، ص(٢٢).

انظر: البداية والنهاية، (١٣/ ٢٥٥)، (١٧/ ٤٥١) سنة (٦٦٦)، وفي البداية والنهاية أنّ عمره كان ستّ سنوات.

الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية، للحافظ ابن عمر بن علي البزار، المتوفى سنة ٧٤٩ هـ، تحقيق: زهير الشاويش، ط٢، سنة ١٣٩٦هـ، ص(١٦).

(٣) التتار: قبائل كانت تسكن أواسط آسيا، بين بحيرة بايسكال وجبال التائي، منهم المغول. والمغول دولتان: الأولى أسسها جنكيز خان في آسيا الوسطى، والثانية أسسها أحفاد تيمور لنك في الهند ١٥٢٦م.

(٤) العقود الدرية، ص(٤) لمحمد عبد الهادي، والكواكب الدرية، ص(٥٢)، والشهادة الزكية، ص (٢٥)، ومختصر طبقات الحديث للعلامة محمد بن أحمد بن عبد الهادي الحنبلي، ص (٢٤٨).

منها: أنه شيخ قد شاب وانفرد عمّن مضى عن الأتراب، وحصل على الوعد المبشّر بالسلامة أنه شاب في الإسلام، فهي له نور يوم القيامة.

ومنها: ما هو في عرف العوام أنه العدّة، ومفزعهم إليه في كلّ شدة.

ومنها: أنه شيخ الإسلام بسلوكه طريقةِ أهله؛ قد سلم من شرّ الشباب وجهله، فهو على السنّة في فرضه ونفله.

ومنها: شيخ الإسلام بالنسبة إلى درجة الولاية، وتبرك الناس بحياته، فوجوده فيهم الغاية.

ومنها: أنه معناه المعروف عند الجهابذة النقاد، والمعلوم عند أئمة الإسناد أنّ مشايخ الإسلام والأئمة الأعلام هُم المتبعون لكتاب الله - عز وجل - المقتفون لسنة النبي ﷺ، الذين تقدّموا بمعرفة أحكام القرآن ووجوه قراءاته، وأسباب نزوله وناسخه ومنسوخه، والأخذ بالآيات المُحكمات والإيمان بالمتشابهات، قد أحكموا مِن لغة العرب ما أعانهم على علمِ ما تقدّم، وعلموا بالسنة نقلًا وإسنادًا وعملًا كما يجب به العمل اعتمادًا وإيمانًا بما يلزم مِن ذلك اعتقادًا واستنباطًا للأصول والفروع من الكتاب والسنة، قائمين بما فرض الله عليهم، مُتمسكين بما ساقه الله من ذلك إليهم، متواضعين لله العظيم الشأن، خائفين من عثرة اللّسان، لا يدّعون العصمة، ولا يفرحون بالتبجيل، عالمين أنّ الذين أوتوا من العلم قليل، فمَن كان بهذه المنزلة حكم بأنه إمام، واستحقّ أن يقال له: شيخ الإسلام.

فهذا هو شيخ الإسلام، وقد تمثّلت به هذه الصفات جميعها خيرَ تمثيل، لذلك استحقّ هذا اللقب الكريم(١).

•**نشأته وأسرته**(٢):

نشأ ابن تيمية في حرّان إلى أن بلغَ سبع سنين، ثمّ انتقل إلى دمشق المحروسة.

---

(١) الردّ الوافر، ص(٤٤٩) عن القول الجلي، للعلامة سيد صفي الدين الحنفي، ط: دار لينة للنشر، دمنهور، مصر.

(٢) انظر: الأعلام العلية، ص(١٦)، وابن تيمية حياته وعصره وآراؤه الفقهية، محمد أبو زهرة، ط: دار الفكر العربي، ١٩٩١م القاهرة، ص(١٧).

نشأ في بيت علمٍ وفقْه ودين، وأبوه وأجداده وإخوانه، وكثير من أعمامه كانوا من العلماء المشاهير.

لقد كان ابن تيمية حنبليًّا بنشأته وأسرته، وثقافته الفقهية وميله في دراسته، مع أنّ له اختيارات من غير مذهب أحمد.

كان والد ابن تيمية– رحمه الله– له كرسي للدراسة والتعليم والوعظ والإرشاد، وقد ذاع صيتُه وفضله بمجرّد أن وصل دمشق، وتولى مشيخة دار الحديث السكرية، وبها كان سكنه، وتربى ولدُه تقي الدين بها، وكان يتميز بقوة الحافظة والقدرة على البيان، وثبات الجنان، ولقد ورث شيخ الإسلام ابن تيمية هذه الصفات.

وكان عمّه فخر الدين[١] عالمًا وخطيبًا وواعظًا، وجمع تفسيرًا للقرآن حافلًا في مجلّدات ضِخام، وقد تخرج عن ابن الجوزي خطيب بغداد وواعظها، وحلّ محلّه في الوعظ، وقد أخذ ابن تيمية العلم عنه.

وأيضًا كان جدّه أبو البركات مجدّ الدين[٢] من أئمة المذهب الحنبلي وكبار علمائه، يقول الإمام الذهبي مادحًا له: كان الشيخ مجد الدين معدوم النظير في زمانه، رأسًا في الفقه وأصوله، بارعًا في الحديث ومعانيه، له اليدُ الطولى في معرفة القرآن والتفسير، صنّف التصانيف، واشتهر وبَعُد صيته، كان فريد زمانه في معرفة المذاهب، مفرط الذكاء، متين الديانة، كبير الشأن[٣].

---

(١) هو محمد بن الخضر بن محمد بن الخضر بن علي بن تيمية الحراني، الحنبلي، مفسر وخطيب وواعظ، كان شيخ حرّان وخطيبها، ولد في حرّان: ٥٤٢هـ، وتوفي عام ٦٢٢هـ، ومن كتبه: التفسير الكبير، ويقع في عدّة مجلدات، وتخليص المطلب في تلخيص المذهب، وترغيب القاصد. انظر الوافي بالوفيات، (١٨/ ٢٦٠)، والأعلام، (٦/ ١١٣).

(٢) هو مجد الدين عبد السلام بن عبد الله بن الخضر بن محمد بن تيمية الحراني أبو البركات مجد الدين، فقيه حنبلي محدّث مفسّر، ولد بحران عام ٥٩٠هـ، وحدث بالحجاز والعراق والشام ثمّ ببلده حرّان، وتوفي بها عام ٦٥٢هـ، كان فرد زمانه في معرفة المذهب الحنبلي، من كتبه: تفسير القرآن العظيم، وهو جدّ الإمام ابن تيمية. راجع: فوات الوفيات، (١/ ٢٧٤)، والأعلام، (٤/ ٦).

(٣) انظر: شيخ الإسلام أحمد بن تيمية رجل الإصلاح والدعوة للعليمي، ص(٤٩)، ط: أولى، ١٤٢٢هـ– ٢٠٠٢م، بيروت، لبنان.

قال الحافظ الشريف عزّ الدين: «حدث بالحجاز والشام والعراق وبلدة حرّان، وصنف ودرس، وكان من أعيان العلماء وأكابر الفضلاء ببلده، وبيته مشهور بالعلم والدين والحديث».

أخذ عنه العلمَ جماعةٌ من العلماء أشهرهم ابنه شهاب الدين عبد الحليم، والحافظ عبد المؤمن الدمياطي، وآخرون.

له من المصنّفات: كتاب الأحكام الكبرى، وكتاب المنتقى من أحاديث الأحكام، وله المسودة في الأصول، والتي زاد فيه ولده شهاب الدين، ثمّ حفيده أبو العباس تقي الدين.

توفّي- رحمه الله تعالى- يومَ عيد الفطر بعد صلاة الجمعة من سنة اثنتين وخمسين وستمائة بحرّان، ودفن بظاهرها[١].

نشأ ابن تيمية- رحمه الله تعالى- في تصوّن تام، وعفاف وتألّه، واقتصاد في المأكل والملبس، برًّا بوالديه، تقيًّا عابدًا ناسكًا صوّامًا قوّامًا[٢].

يقول الحافظ عمر بن علي البزار المتوفى سنة ٧٤٩هـ: «إنه نشأ في دمشق أتمّ إنشاء وأزْكاه، وأنبته الله أحسنَ النبات وأوفاه، وكانت مخايل النجابة عليه في صغره لائحة، ودلائل العناية فيه واضحة، ثمّ ذكر أنه منذ صغره كان مُستغرق الأوقات في الجدّ والاجتهاد، وختم القرآن صغيرًا، ثمّ اشتغل بحفظ الحديث والفقه والعربية حتى برع في ذلك، مع ملازمته مجالس الذكر والآثار، ولقد سمع غير كتاب على غير شيخ من ذوي الروايات الصحيحة العالية.

أمّا دواوين الإسلام الكبار كـ: مسند أحمد[٣] وصحيح البخاري[٤] ومسلم[٥] وجامع

---

(١) انظر: مقدمة الجامع لسيرة شيخ الإسلام، الشيخ بكر أبو زيد، ص(١٨).
(٢) الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية خلال سبعة قرون، محمد عز الدين شمس، وعلي بن محمد العمران، إشراف وتقديم الدكتور بكر أبو زيد، ط: مؤسسة الراجحي، دار علم الفوائد، ط: ٢، ١٤٢٢هـ، ص(١٩).
(٣) هو الإمام أحمد بن محمد بن حنبل، ولد ١٦٤، توفي عام ٢٤١ هـ ببغداد.
(٤) محمد بن إسماعيل البخاري، ولد عام ١٩٤، وتوفي عام ٢٥٦هـ.
(٥) مسلم بن الحجاج القشيري، ولد عام ٢٠٤ هـ، وتوفي عام ٢٦١هـ.

الترمذي[١] وسنن أبي داود السجستاني[٢] والنسائي[٣] وابن ماجه[٤] والدارقطني[٥]؛ فإنه- رحمه الله ورضي عنهم وعنه- سمع كلّ واحدٍ منها عدّة مرات.

وأوّل كتاب حفظه في الحديث «الجمع بين الصحيحين» للإمام الحميدي[٦].

وقلّ كتاب من فنون العلم إلّا وقف عليه.

وكأنّ الله قد خصّه بسرعة الحفظ، وإبطاء النسيان، لم يكن يقف على شيء أو يستمع لشيء- غالبًا- إلّا ويبقى على خاطره، إمّا بلفظه أو معناه، وكان العلم كأنه اختلط بلحمه ودمِه وسائره، فإنه لم يكن له مستعارًا، بل كان له شعارًا ودثارًا، لم يزل آباؤه أهل الدّراية التامّة والنقد والقدم الراسخة في الفضل، لكن جمع الله له ما خرق بمثله العادة، ووفّقه في جميع أمره لأعلام السعادة، وجعل مآثره لإمامته من أكبر شهادة، حتى اتّفق كلّ ذي عقل سليم أنه ممّن عنى نبينا ﷺ بقوله: «**إن الله يبعث على رأس كلّ مائة سنة مَن يجدّد لهذه الأمّة أمر دينها**»[٧]؛ فلقد أحيا الله به ما كان قد درس من شرائع الدين، وجعله حجّة على أهل عصره أجمعين، والحمد لله رب العالمين»[٨].

لقد هيّأ الله لشيخ الإسلام ابن تيمية نفسًا صافية زكيّة مُقبلة على العلم محبّة له، ولعلّ بيئته كانت من أكبر الحوافز على ذلك؛ لذلك تعلّم الخطّ والحساب في الكتّاب، وحفظ القرآن وهو في الصغر، أتقن العلومَ من التفسير والحديث والفقه والأصول والعربية والتاريخ والجبر والمقابلة والمنطق والهيئة وعلم أهل الكتابين والملل الأخرى، وعلم أهل البدع وغيرها؛ وهو ابن بضع عشرة سنة، حتى إنه حذق العربية في أيام، وفهِمَ كتاب سيبويه في أيام، وفي الحديث والتفسير كان منقطع النظير.

---

(١) هو الإمام محمد بن عيسى الترمذي، ولد عام ٢٠٠ هـ، وتوفي ببلده ترمذ ٢٧٩ هـ.
(٢) أبو داوود سليمان بن الأشعث، ولد عام ٢٠٢ هـ، ومات عام ٢٧٥هـ.
(٣) أحمد بن علي النسائي، ولد عام ٢١٥، وتوفي عام ٣٠٣ هـ.
(٤) ابن ماجه هو محمد بن يزيد بن ماجه، ولد ٢٠٩، وتوفي عام ٢٧٣هـ.
(٥) هو الإمام علي بن عمر الدارقطني، ولد عام ٣٠٦، وتوفي عام ٣٨٥هـ.
(٦) هو محمد بن فلوح، ولد عام ٤٢٠، وتوفي عام ٤٨٨هـ.
(٧) سنن أبي داود، (٤/ ١٠٩)، وقال الألباني: صحيح.
(٨) الأعلام العلية، ص(١٦-١٩).

لقد ناظر واستدلّ وهو دونَ البلوغ، وأفتى في سن السابعة عشرة من عمره، أي: سنة ٦٧٧هـ، ودرّس في الحادية والعشرين من عمره، أي: سنة ٦٨١؛ بعد موت أبيه في المدرسة السكرية، وتولّى مشيختها يوم الاثنين ٢/ ١/ ٦٨٣هـ.

بدأ يدرّس بالجامع الأموي في١٠/ ٢/ ٦٩١هـ، أي: وهو ابن ثلاثين سنة، واستمر سنين مُتطاولة.

حجّ مرّة واحدة سنة ٦٩٢هـ، أي: وعمره إحدى وثلاثون سنة، وبعد عودته من الحج آلتْ إليه الإمامةُ في العلم والدين.

ونشر العلم في دمشق، والقاهرة والإسكندرية وفي سجونهما.

درّس بالمدرسة الحنبلية في يوم الأربعاء ١٧/ ٨/ ٦٩٥هـ.

أوّل رحلاته إلى مصر في القاهرة والإسكندرية مرّتين سنة ٧٠٠هـ، ثمّ عاد إلى دمشق، ثمّ رجع إلى مصر سنة ٧٠٤هـ، وكانت إقامته بها نحو سبع سنين وسبع جمع، أي: إلى سنة ٧١٢هـ، متنقلًا في جلّها بين سجون القاهرة والإسكندرية.

بدأ في التأليف وهو ابنُ سبع عشرة سنة(١).

يقول الذهبي- واصفًا فضل ابن تيمية-: وكان يقضي منه العجب إذا ذكر مسألة من مسائل الخلاف واستدلّ ورجّح يحقّ له الاجتهاد؛ لاجتماع شروطه فيه، فإنني ما رأيت أحدًا أسرع انتزاعًا للآيات الدّالة على المسألة التي يوردها، ولا أشدّ استحضارًا لمتون الأحاديث(٢).

• **صفاته الخِلقية:**

كان الشيخ أبيض، أسودَ الشعر واللّحية، قليل الشّيب، شَعْرُه إلى شحمة أذنيه، كأنّ عينيه لسانان ناطقان، ربعة من الرجال، بعيدَ ما بين المنكبين، جهْوَري الصوت، فصيحًا، سريع القراءة، تعتريه حدة، ثمّ يقهرها بحلم وصفح، وإليه كان المنتهى في فرط الشجاعة والسماحة وقوة الذكاء(٣).

(١) مقدمة الجامع، ص(١٩-٢٠).
(٢) ثلاث تراجم نفيسة للأئمة الأعلام، ص(٢٣).
(٣) ذيل تاريخ الإسلام، ص(٢٢-٢٣).

«وكان متوسطًا في لباسه وهيئته، لا يلبس فاخرَ الثياب بحيث يرمق، ويمدّ النظر إليه، ولا أطمارًا ولا غليظة تشهر حالَ لابسها، وهيئته كغالب الناس ومتوسطهم، ولم يكن يلزم نوعًا واحدًا من اللّباس، فلا يلبس غيره، بل كان يلبس ما اتّفق وحصل»[١].

وقد وهبه الله – عز وجل – ذكاء مفرطًا، وقوة حافظة، وسرعة إدراك[٢].

• **صفاته الأخلاقية:**

كتب كثيرٌ من المؤرخين والعلماء عن صفات شيخنا الفاضل ابن تيمية، وذلك لما خصّه الله به من صفات جعلته آيةً من آيات الله في زمانه، وفي أزمنة أخرى كثيرة.

لقد كان في نجابته وذكائه وأخلاقه وإقباله على العلم والتعلم وعلو الهمة في كلّ مناحي الخير؛ مضربَ الأمثال. ولقد كتب كثيرٌ من العلماء عن أخلاقه إمّا بصورة إجماليّة مثل: محمد بن أحمد بن عبد الهادي الحنبلي المتوفّى سنة٧٤٤هـ؛ حيث ذكر أنه نشأ في تصوّن تامّ وعفاف وتألّه واقتصاد في الملبس والمأكل، ولم يزلْ على ذلك خلفًا صالحًا سلفيًّا برًّا بوالديه تقيًّا ورعًا عابدًا ناسكًا، صوّامًا قوّامًا ذاكرًا لله– تعالى– في كلّ أمر وعلى كلّ حال، رجّاعًا إلى الله في سائر الأحوال والقضايا، وقّافًا عند حدود الله، وأوامره ونواهيه، آمرًا بالمعروف، ناهيًا عن المنكر، نفسُه لا تشبع من العلم، ولا تُروَى من المطالعة، ولا تملّ من الانشغال، ولا تكلّ من البحث، وقلّ أن يدخل في علمٍ من العلوم في بابٍ من أبوابه إلّا أن يُفتح له من ذلك الباب أبوابٌ، ويستدرك أشياء في العلم على حذّاق أهله، وكان يحضر المدارس والمحافل في صغره، ويتكلّم ويناظر ويفهم الكبار، ويأتي بما يتحيّر منه أعيانُ البلد في العلم، وأفتى وله نحو سبع عشرة سنة، وشرع في الجمْع والتأليف في ذلك الوقت، ودرّس وله نحو إحدى وعشرين سنة، وحجّ سنة إحدى وتسعين، وله ثلاثون سنة، ورجع وقد انتهت إليه الإمامة في العلم والعمل، والزّهد

(١) ترجمة شيخ الإسلام ابن تيمية لمحمد كرد علي– رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق، ط١، ١٣٨١هـ، دمشق ص(٢)، ١٣٩١، دمشق في كتابه كنوز الأجداد ص(١٨)، وفوات الوفيات، ص(٣٩٠) لابن شاكر الكتبي، والأعلام العلية، ص(٥٣).

(٢) الدرر الكامنة، (١/ ١٥٤)، وترجمة شيخ الإسلام ابن تيمية، ص(١٨)، والعقود الدرية، ص(٢٠).

والورع والشجاعة والكرم والتواضع والحلم والأَناة والجلالة والمهابة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مع الصدق والأمانة والصيانة وحُسن القصد والإخلاص والابتهال إلى الله وشدّة الخوف منه، ودوام المراقبة له، والتمسّك بالأثر والدعاء إلى الله، وحسن الأخلاق، ونفْع الخلق والإحسان.

وكان- رحمه الله- سيفًا مسلولًا على المخالفين، وشجى في حلوق أهلِ الأهواء والمبتدعين، وإمامًا قائمًا ببيان الحقّ ونصرة الدين، طنّت بذكره الأمصار، وضنّت بمثله الأعصار[1].

لقد كان ابنُ تيمية آيةً من آيات الله في ذكائه ونجابته وإقباله على العلم والتعلّم والحفظ، كما كان- رحمه الله- مضربَ الأمثال في أخلاقه. ولقد كتب الكثيرون عن أخلاقه الرائعة التي لا نستطيع الإلمامَ بكلّ ما قيل عنه في هذه الدّراسة، وتلك نبذة قصيرة عن أخلاقه التي اشتُهر بها بين الناس، ومِن ذلك:

- **الرّبّانية:**

كان ابن تيمية محبًّا لله – عز وجل – حبًّا شديدًا يملك عليه نفسَه؛ حيث جعل عبادته لربّه محورَ حياته، فتراه مُنشغلًا بالعبادة بكلّ أنواعها، خاليًا بربّه، ضارعًا مواظبًا على تلاوة القرآن الكريم، مُحافظًا على العبادات النّهارية والليلية.

يقول البزار- رحمه الله- واصفًا صلاتَه: كان إذا ذهب الليل وحضر مع الناس بدأ بصلاة الفجر يأتي بسنّتها قبل إتيانه إليهم، وكان إذا أحرمَ بالصلاة تكاد تنخلعُ القلوب لهيبة إتيانه بتكبيرة الإحرام، فإذا دخل في الصلاة ترتعدُ أعضاؤه، تُميله يمنة ويسرة، وكان إذا قرأ يمدّ قراءته مدًّا كما صحّ في قراءة رسول الله ﷺ، وكان ركوعه وسجوده وانتصابُه عنهما مِن أكمل ما ورد في صلاة الفرائض، وكان يخفّف جلوسه للتشهد الأوّل خفّة شديدة، ويجهر بالتسليمة الأولى حتى يسمع كلّ مَن حضر، فإذا فرغ من صلاته أثنى على الله – عز وجل –[2].

(١) مختصر طبقات علماء الحديث، محمد أحمد عبد الهادي الحنبلي، ص(٢٤٨).
(٢) الأعلام العلية، (٣٦، ٣٧).

وكان حريصًا على الدّعاء بعد كلّ صلاة بالمأثور عن النبي ﷺ والدعاء له وللمسلمين، ثمّ يأخذ في تلاوةِ أوراده بعد صلاة الفجر بذكر الله، لا يكلّمه أحدٌ ولا يتكلّم مع أحدٍ من الناس حتى ترتفع الشمس، ثمّ يذهب إلى المنزل، فإذا مرّ بجنازة شيّعها، ويمرّ على الناس يسلّم عليهم ويتفقّد أحوالهم، ثمّ يعود إلى مسجده فلا يزال تارة في إفتاء الناس وقضاء حوائجهم حتى صلاةِ الظهر، ثمّ يصلي المغرب، ثمّ يتطوّع لقراءة مؤلفاته حتى يصلّي العشاء، ثمّ يعود إلى العلم مرة أخرى، فلا يزال ذاكرًا لله طوالَ وقته يوحّده ويستغفره، وكان دائمًا يعود المرضى في كلّ أسبوع، خاصّة بالمارستان، وهكذا يقضي نهاره وليلَه ما بين العلم والعبادة وخدمة الناس، وإفادتهم، ولا ينسى أبدًا ذكره لله(١).

إنّنا نجد أنّ ابن تيمية كانت له شخصيةٌ نظيفة من الأنانية وحبّ الذات؛ حيث كان هدفه في الحياة تعلّمَ الدين وتعليمَه للآخرين، فكان سعيُه دائمًا لإعلاء شأن الدين وتصحيح العقيدة لدى الناس، وتنظيفها ممّا علق بها من الشوائب، وما كان هذا الأمر ليتحقّق لو كان للدنيا نصيبٌ في حياته، ويضاف إلى الإخلاص والتفاني في خدمة الدين شجاعةٌ نادرة تميّزت بالجَلَد والصبر، لذلك لم يكنِ ابن تيمية ليتردّد لحظة واحدة في إعطاء الدّروس أينما وجِد، وكذلك التدخّل في النقاش مهْما يكنِ الموضوع، ما دام في الشريعة واتباعًا لسنة المصطفى ﷺ، وكان يجاهد آمرًا ومأمورًا في سبيل الله حين يتطلّب الأمر مثل ذلك، كما حدث في اشتراكه في الحروب ضدّ التتار في أكثر المواقع(٢).

• **فقرٌ وإيثار:**

كان - رحمه الله - تاركًا للدّنيا فقيرًا فيها، وكان مع ذلك يتصدّق بالقليل والكثير، حتى إذا لم يجدْ شيئًا يتصدّق به؛ نزع بعض ثيابه المحتاج إليها وأعطاها للفقير، وكان يتصدّق بقوته وطعامه ولو برغيف أو رغيفين، مؤثرًا بذلك على نفسه، وكان أكثر تصدّقه على الغرباء وطلبة العلم الفقراء، مِن الفقهاء والقراء، ومساعدته لهم ولغيرهم من المحتاجين(٣).

---

(١) الأعلام العلية، ص(٣٩-٤١)، والكواكب الدرية، ص(٨٣).
(٢) ابن تيمية حياته وعصره، محمد أبو زهرة، ص(٨٥)، وما بعدها.
(٣) الأعلام العلية، ص(٤٨-٥٠).

• التواضع:

كان الشيخ ابن تيمية – رحمه الله – لا يبخلُ بمجلسه على أحد؛ فكان يحضر مجلسَه الصغيرُ والكبير والعبدُ والحرّ، والأنثى والذكر؛ فهو عامّ لجميع الناس، وكان يتواضع للكبير والصغير والجليل والحقير والغني الصالح والفقير، وكان يخدمه بنفسِه ويُعينه على قضاء حاجته، جبرًا لقلبه وتقرّبًا إلى الله بذلك.

كان– رحمه الله– لا يسأم مِن الفتوى، ويقابل الناس بالبَشاشة وسعة الصدر حتى يُفهِمَهم ما يسألون عنه، فقد كان متواضعًا في جميع أحواله، فكان يجلس تحت الكرسي ويدعُ صدرَ المجالس[1].

يقول عنه البزار: وأظهر لي مِن حسن الأخلاق والمبالغة في التواضع بحيث إنه كان إذا خرجنا مِن منزله بقصد القراءة يحملُ هو بنفسه النّسخة، ولا يدع أحدًا منّا يحملها، وكنت أعتذر إليه من ذلك خوفًا من سوء الأدب، فيقول: لو حملته على رأسي لكان ينبغي، ألا أحمل ما فيه كلام رسول الله[2].

• زهدُه وتقاعدُه عن الدنيا:

إذا تأمّلنا حياة هذا الشيخ الجليل لوجدنا أنه عاش حياته منذ صغره لهدفٍ محدّد، وهو إرضاء ربّ العالمين، والسعي للدار الآخرة، ولقد جعله هذا الهدف غير راغب في الدّنيا، ومُتحرّرًا من عبوديتها له، فمنذ أنْ كان صبيًّا رافضًا للجائزة التي جعلها له والده لتحفّزه على حفظ كتاب الله، قائلًا: إنّه لا يأخذ على القرآن أجرًا، إلى أنْ كان شيخًا اشتُهر في أهل زمانه أنه أزهدُ الناس وأكملُهم في رفض فضول الدنيا، فلم يُسمَع عنه رغبتُه في زوجةٍ حسناء أو دارٍ أو بستان أو عقار، ولا سعى للرئاسات وأبواب الملوك كما يسعى غيرُه، بل سعى إليه الأمراءُ والملوك والتجار خاضعين لقوله وفضله[3].

---

(١) الأعلام العلية، ص(٥٠، ٥١).
(٢) الأعلام العلية، ص(٥٢).
(٣) الأعلام العلية، ص(٤٥، ٤٦)، والكواكب الدرية، ص(٨٤).

• ورعُه وكرمُه:

كان – رحمه الله – غايةً في الورع، فما خالط الناسَ في بيع ولا شراء، ولا معاملةٍ ولا تجارة، ولا مشاركة ولا زراعة، ولا عمارة، ولا كان ناظرًا مباشرًا لحال وقف، ولم يكن يقبل جراية ولا صلة لنفسه من سلطان ولا أمير ولا تاجر، ولا كان مدّخرًا دينارًا ولا درهمًا، ولا متاعًا ولا طعامًا، وإنما كانت بضاعته مدّة حياته وميراثه بعد وفاته – رحمه الله – العلمَ اقتداءً بسيد المرسلين ﷺ.

أمّا عن كرمه، فقد كان مَجبولاً على الكرم؛ فهو له سجيّة، فقد كان لا يردّ مَن يسأله شيئًا يقدرُ عليه من دراهم ولا دنانير ولا ثياب ولا كتب ولا غير ذلك، وإذا سأله فقيرٌ شيئًا ليس عنده أعطاه أي شيء مِن لباسه ولم يدعْه يذهب بلا شيء، بل ربّما قسَمَ عمامتَه نصفين لمَن لم يجدْه مُعتمًّا، واعتمَّ هو بالنصف الآخر، لقد كان جوادًا بالميسور كائنًا ما كان[1].

وهذا مِن أبلغ إخلاص العمل لله – عز وجل –، وهو– أيضًا– كان لا يمنع أحدًا من كتاب ينتفع به أو مصحفٍ قد اشتراه بدراهم كثيرة، وكان ينكر على مَن يمنع الناسَ الكتبَ والعلم، فسُبحان الموفّق إلى العمل الصالح الذي يحبّه ويرضاه[2].

• قوّةُ قلبه وشجاعتُه:

يقول البزار: كان – رحمه الله – مِن أشجع الناس وأقواهم قلبًا، ما رأيت أحدًا أثبت جأشًا منه، ولا أعظمَ عناء في جهاد العدو منه، كان يجاهد في سبيل الله بقلبه ولسانه ويدِه، ولا يخاف في الله لومةَ لائم، وأخبر غيرُ واحدٍ أنّ الشيخ τ إذا حضر مع عسكر المسلمين في جهادٍ يكون بينهم واقيتَهم، وقطبَ نباتهم، إنْ رأى مِن بعضهم هلعًا أو رقّة أو جبانة شجّعه وثبّته وبشّره، ووعدَه بالنصر والظفر والغنيمة، وبيّن له فضلَ الجهاد والمجاهدين وإنزالَ الله عليهم السّكينة، وكان إذا ركب الخيل يتحنّك ويجول في العدو، كأعظم الشجعان، ويقوم كأثْبَت الفرسان ويكبر تكبيرًا أنكى في العدو مِن كثير مِن الفَتك، ويخوض فيهم خوضَ رجلٍ لا يخاف الموت[3].

---

(١) الأعلام العلية، ص(٤٢–٤٤)، والكواكب الدرية، ص(٨٥، ٨٦).
(٢) الأعلام العلية، ص(٦٣–٦٦).
(٣) الأعلام العلية، ص(٦٧، ٦٨).

وطرفًا مِن شجاعته- أيضًا- أنه كان لا يخاف السلاطين، فكان يذهب إليهم وينصحهم ويسألهم دون خوف أو تردّد، ومِن ذلك موقفه مع السطان غازان، وأيضًا- في موقفه مع السلطان الملك الناصر محمد ما يشهدُ له بذلك[١].

• **قوّتُه في مرضاة الله - عز وجل -:**

كان للشيخ من القوة والجَلَد في مرضاة الله والصبر على الشدائد والثبات على الحقّ ما شهدَ به جميعُ علماء وأهل زمانه، وعرف عنه أنه كان ذا نظرٍ لا يحيد لحظةً عن رؤية الحقّ والجهاد في سبيل الله، فكرهه بعضُ الناس وحقد عليه وحسده ضعافُ النفوس وطلّاب الرئاسة، وكثر الواشون به عند السلاطين؛ لأنه كان يقول الحقّ ولا يخاف في الله لومة لائم، ولا يُثْنيه عن قول الحقّ تحاسد أو عداء، ولقد سُجن أزمانًا وأعصارًا وسنين وشهورًا، ولم يوَلّهم دبُرَه فرارًا، ولقد قصد أعداؤه الفتكَ به مرارًا وأوْسعوا حيلَهم عليه إعلانًا وإسْرارًا، فجعل الله حفظه منهم له شعارًا ودثارًا، ولقد ظنّوا أنّ في حبْسه شينة؛ فجعل الله له فضيلة وزينة، وظهر له يوم موته ما لو رآه وادُّه أقرّ به عينه؛ فإنّ الله- تعالى- لعلمه بقرب أجلِه ألبسه الفراغَ عن الخلق للقدوم على الحقّ أجمل حُلَلِه، كوْنه حُبس على غير جريرةٍ ولا جريمة، بل على قوّة في الحقّ وعزيمة[٢].

إنّ شخصية ابن تيمية لعجيبةٌ في كلّ شيء؛ في حرصها على العلم، وفي حرصها على طاعة الله، والدار الآخرة، وفي حرصها على النّيل والظفر بدرجات الفضائل كلّها، فكان لها أنْ تسمو إلى أعلى، وأنْ يهبها الله بكلّ ما يزيدها ولا ينتقصها.

لقد وهبَهُ الله الفراسةَ والكرامة، وجعله حجّة عصره، وشيخًا رائعًا للإسلام والمسلمين.

«حَتَّى إنّ أهل البَلَد البعيد عَنهُ كَانُوا يرسلون إليه بالاستفتاء عَن وقائعهم، ويعوّلون عَلَيْهِ في كشف ما التبس عَلَيهم حكمه، فيشفي غلّتهم بأجوبته المسدّدة، ويبرهن على الحقّ من أقوال العلماء المقيدَة، حتَّى إِذا وقف عَليها كلّ محقّ ذُو بَصيرَة وتقوى ممَّن قد وفق لترك الهوى أذعَنَ

(١) الأعلام العلية، ص(٦٧).
(٢) الأعلام العلية، ص(٧٦، ٧٧).

بقبولها، وَبان لَه حقّ مَدلولها، وإنْ سمع عَن أحدٍ مِن أهل وقته مُخالفَته في حقّه المَشهور يكون ممَّن قد ظهر عليه للخاصّة وللعامّة فعل الشرور والاشتغال بترّهات الغرور»(١).

• **شخصيتُه السياسيّة:**

عاش ابن تيمية حياتَه كلّها وهو يضع نصبَ عينيه أنّ حال الأمّة لن يكون صالحًا إلّا إذا تمسّك بشرع الله نقيًّا خاليًا من الأدْران والبدع، ولعلّ محور حياته كلّها دار حول هذا الهدف، ولن يتحقّق هذا الهدف إلّا بالنظرة الشمولية للإسلام، فهو قولٌ وعمل، وحياة اجتماعية ودينية وسياسية لا انفصام بين هذه الجوانب ولا اختلاف، بل هناك تلاصق تامّ، وتمازُج رهيبٌ بين جميع الجوانب كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمّى والسهر.

لذلك اهتمّ شيخ الإسلام بالحياة السياسية كما اهتمّ بغيرها، ولعلّ أهمّ المواقف التي جعلت ابن تيمية يعي معنى السياسة وتأثيرها في حياة الناس موقفُه عندما خرج مع والديه تاركًا بلدته (حرّان) التي تربّى بها، لا يهتمّون فيها بمنازلهم وأموالهم، خرجوا حرصًا على حياتهم من هوْل التتار ووحشيتهم، وهُم يعانون المشقّة في الطريق، كما أنه رأى فزعَ الناس وهروبهم إلى دمشق، فكَرِهَ التتارَ وكرهَ الغزاة والظالمين، ثمّ استوى رجلًا فأخذ يقودُ الجحافل لقتالهم، لقد كان يراهم بُغاةً ظالمين يجب قتالهم حتى يتوبوا أو يقدر عليهم قضاؤهم حتى تخرج الشعوب التي يهضمون حقوقَها من تحت سلطانهم، ويعيثون فسادًا في الأرض»(٢).

وظهرتْ شخصية ابن تيمية الفعليّة منذ سنة ستّ وتسعين وستمائة، وبدأ تعويل الأمّة عليه في دفع أعدائها عنها في نوبة غازان، فقام بأعباء الأمْر بنفسه، واجتمع بنائبه، وتوجّه بعد ذلك إلى الدّيار المصرية لمّا اشتدّ الأمر بالشام من المغول، واستصرخ بأركان الدّولة، وحضّهم على الجهاد، ثمّ عاد بعد أيام على دمشق، وظهر اهتمامه بجهاد التتار وتحريضه الأمراء على ذلك، إلى

(١) السابق، ص(٧٩).
(٢) ابن تيمية حياته وعصره، ص(١٨) بتصرف.

أن ورد الخبر بانصرافهم، وقيامه المحمود في وقعة شقحب[١] سنة اثنتين وسبعمائة، واجتماعه بالخليفة والسلطان، وأرباب الحلّ والعقد، وتحريضهم على الجهاد.

ثمّ توجّهه في آخر سنة أربع وسبعمائة لقتال الكسروانيّين واستئصال شأفتهم.

ثمّ مناظرته للمخالفين في سنة خمس وسبعمائة في المجالس التي عقدت له بحضرة نائب السلطنة الأفرم، وظهوره عليهم بالحجّة والبرهان، ورجوعهم إلى قوله طائعين ومُكرَهين[٢].

لقد كان دورُه في انتصار دولة المماليك على التتار اليدَ الطولى التي لا تنكر، ودلّ أنه في السياسة كما هو في الدّين إمامٌ عظيم، وأنّ الدين لا ينفصل عن السياسة في نظره، وما سمع لأحدٍ من علماء الدّين في عصره صوتٌ مثل صوته في إحقاق الحقّ ونصرة سلطان الإسلام، ولم يرضَ يوم عقد الصلح مع التتار أن يتخلّى عن الأسرى من النصارى واليهود فقال: إنهم ذمّتنا ولا بدّ من إرجاعهم إلى ديارهم[٣].

لقد عانى ابن تيمية كثيرًا مِن لجوء المخالفين له في الرأي إلى الحكام مُختلقين الأسبابَ من أجل المَساس به حسدًا وحقدًا، وتسبّبوا في سجْنه عدّة مرّات حتى توفي وهو في سجنه- رحمه الله- وما ذلك إلّا لأنه رفض استمرارَ المجتمع في البدع، واستمراءهم للخرافات، فواجههم بالردّ والحجّة، مُستعينًا بالله - عز وجل - موضّحًا رأي السلف والسنة والصحابة - رضي الله عنهم - في هذه الآراء، ولعلّ مسألة شدّ الرحال إلى قبور الأنبياء والأولياء والصالحين خيرُ دليلٍ على ذلك.

لقد عاش الشيخ عمرًا حافلا بالعلم والمعرفة، وزاخرًا بالجهاد بشتّى صنوفه، صابرًا مُحتسبًا حياتَه لها، مُفعمة بالنّور والحياة؛ فرحَمَهُ الله رحمةً واسعة، وجزاه عنِ الإسلام والمسلمين خيرَ الجزاء.

---

(١) شقحب: قرية في جنوب غرب دمشق تبعد عنها ٢٥ ميلًا وكانت بها معركة بين التتار وأهل الشام.
(٢) ترجمة شيخ الإسلام ابن تيمية، ص(٢١-٢٣).
(٣) السابق، ص(٣٢، ٣٣).

المبحثُ الثّاني

عصرُ ابن تيمية

إنّ للعصر تأثيرًا بالغًا على العالم الذي تربّى فيه، فقد يؤدي فسادُ العصر إلى فساد الرّجل، وقد يكون التأثير عكسيًّا، فكثرة الفساد تحمل على التفكير الجدّي في الإصلاح، وكثرة الشرّ تحمل على حفْز العزائم لنشر الخير، وقد تكون من الدوافع المهمّة التي تبثّ في نفس المصلح اقتلاعَ الشرّ ومحاربته، وهذا هو حال ابن تيمية مع عصره، فقد نفذت روحه ممّا درس في حياته، وما عكف عليه في كهولته وشيخوخته من الرجوع إلى ينابيع الشّرع الأولى، وكنوز السنة النبوية المشرفة، وما كان عليه سلف المؤمنين، فاستطاع أن يقارن بين ما درس من الإسلام من النور الساطع وبين هذا الظلام الدامي في هذا العصر، والفساد الشديد في كلّ نواحي الحياة، يرى في الإسلام عزًّا واتحادًا، ويرى في عصره ذلًّا وانكسارًا وانقسامًا، يرى في الماضي حكمًا صالحًا، وأمور المسلمين شورى بينهم، ويرى في حاضره استبدادًا وطغيانًا، وقد أكل القوي الضعيف، واستمرأ الحاكم لحمَ المحكوم ومالَه، لذا تقدّم شيخ الإسلام ابن تيمية ليصلح ويداوي، وقد وجد الدواء في كتاب الله وسنة رسوله، وأعمالِ الصحابة وكبار التابعين، فكانت آراؤه العلمية دواءً لهذا العصر، ولو فتّشت عن البواعث التي بعثته على الجهر بكلّ ما جهر به؛ لوجدت أنّ الباعث على المجاهرة عيبٌ في الزمان، وفساد أهل العصر في العمل أو الفكر أو فيهما معًا[(١)].

ويمكن أنْ نتناول ملامح العصر الذي عاش فيه ابن تيمية من خلال الحالات الآتية:

- **الحالة السياسيّة:**

انقسم الناسُ في هذا العصر (السابع والثامن من الهجرة) إلى دويلاتٍ صغيرة، يحكمها مجموعةٌ من المماليك، جاءوا بعد الدولة الأيوبيّة، وانتهت بدخول الجيوش العثمانية، ولقد كانت المنافسة بين هؤلاء الحكام على أشدّها، وكانت المنازعات على المصالح والمنافع تبلغ ذروتها،

(١) انظر: ابن تيمية، حياته وعصره وآراؤه الفقهية، للعلامة محمد أبي زهرة، ص(١٠٥)، ط: دار الفكر، ١٩٩١م.

وأخذوا يتسلّطون على الضعفاء من عامّة الشعب، غير خاضعين لسلطان الخلافة في بغداد؛ لأنّها لم تكن قويّة بالقدر الذي تستطيع فيه إخضاع هؤلاء الحكام لها، وذلك لضعف خلفاء بني العباس وانشغالهم بالشهوات وجمع الأموال في أكثر الأوقات، فقد خرج عن بني العباس بلادُ المغرب، ملَكَها بعضُ مَن بقي مِن بني أمية مِن ذرية عبد الرحمن بن معاوية، والدولة الفاطمية ببلاد مصر، وبعض بلاد المعرب، وبلاد الشام، وبلاد الحرمين، وكذلك خرجت خراسان وما وراء النهر، وتداولتها الملوك دولًا بعدَ دولٍ حتى لم يبقَ للخليفة فيهم إلّا بغداد وبعض بلاد العراق، واستمرت دولة الفاطميّين قريبًا من ثلاثمائة سنة، وكان آخر خلفاء بني العباس عبد الله المعتصم[(١)].

٢- أدى هذا الانقسام والضّعف إلى طمع أعداء الإسلام من التتار والذين أقبلوا من الشرق، والفرنجة من الغرب يعيثون في البلاد فسادًا، يقول ابن الأثير في ذلك: «لقد بلي الإسلامُ والمسلمون في تلك الأزمان بمصائب لم يبْتَلِ بها أحدٌ من الأمم.

منها: ظهور التتار- قبّحهم الله، أقبلوا من المشرق ففعلوا الأفعال التي يستعظمها كلّ مَن سمع بها.

ومنها: خروج الفرنج من المغرب إلى الشام، ومقصدهم ديار مصر وغيرها أنْ يملكوها، لولا لطف الله- تعالى- ونصره عليهم.

ومنها: أنّ السيف بينهم مسلول والفتنة قائمة»[(٢)].

ولقد أشارَ ابن تيمية إلى أسباب هذه الحروب الصليبية في كتاباته، فقال: «فلمّا ظهر النّفاق والبدع والفجور المخالف لدين الرسول؛ سُلّطَت عليهم الأعداء، فخرجت الرّوم النّصارى إلى الشام والجزيرة مرّة بعد مرّة، وأخذوا الثغور الشاميّة شيئًا فشيئًا، إلى أنْ أخذوا بيت المقدس...

(١) البداية والنهاية، (١٣/ ٢٣٩).
(٢) الكامل في التاريخ، (٩/ ٣٣).

وبعد هذا بمدّة حاصروا دمشق، وكان أهلُ الشام بأسوأ حال، بين الكفار النصارى والمنافقين الملاحدة»[١].

ولعلّ خيرَ ما يوصف به هذا العصر قولُ النبي ﷺ: «**يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى القومُ على قصعتهم». قيل: مِن قلّة؟ قال: «لا، ولكنّه غثاء كغثاء السيل، يجعل الوهن في قلوبكم، وينزع الرعب من قلوب عدوكم بحبكم الدنيا وكراهيتكم الموت**»[٢].

٣- يظهر، أيضًا، في هذا العصر موالاة أهل الذمّة للأعداء أيًّا ما كان لونهم، بل كان مِن الفِرق الإسلامية مَن يمهّد السبيل للتتار؛ يقول ابن تيمية واصفًا تحزّب هذا العدو مِن مغولٍ وغيرهم مِن أنواع الترك ومِن فرس مستعرب ونحوهم من أجناس المرتدّة مِن نصارى الأرض وغيرهم: «ونزل هذا العدو بجانب ديار المسلمين، ومقصودُهُم الاستيلاءُ على الدار واصطلام أهلها»[٣].

٤- لقد كان لوحشيّة التتار في هذا العصر مظهرٌ بارز، لوَّن هذا العصر وميّزه عن باقي العصور؛ لأنه كان مِن أفظع المصائب التي جرتْ على الأمّة الإسلامية، يقول ابن الأثير واصفًا وحشيّة التتار: «لقد بقيت عدّة سنين معرضًا عن ذكْر هذه الحادثة؛ استعظامًا لها، كارهًا لذكْرها، وها أنا ذا أقدّم إليها رِجْلًا وأؤخّر أخرى، فمَن الذي يسهل عليه أن يكتبَ نعي الإسلام والمسلمين، ومَن الذي يهون عليه ذكرُ ذلك، فيا ليتَ أمّي لم تلدْني، ويا ليتني متّ قبل هذا وكنتُ نسيًا منسيًّا! إلى أن حثّني جماعةٌ من الأصدقاء على تسطيرها وأنا متوقّف، ورأيت أن تركَ ذلك لا يجدي نفعًا»[٤].

---

(١) الفتاوى، (١٣/ ١٧٣).
(٢) شعب الإيمان، لأبي بكر البيهقي، (٧/ ٢٩٧)، وجامع الأحاديث لجلال الدين السيوطي، (٢٤/ ٢٨١)، وأخرجه البزار كما في مجمع الزوائد، (٨/ ٢٩١)، وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح غير أحمد بن يحيى الأودي وهو ثقة، وأخرجه الطبراني، (٢/ ٢١٥)، رقم(١٨٨٠).
(٣) الفتاوى، (٢٨/ ٤٤).
(٤) الكامل في التاريخ، (١٠/ ٣٩٩).

لقد جاء هؤلاء التتار بقيادة جنكيز خان بكلّ ما يملكون من وحشيّة وتعطّش لسفك الدّماء ونهب الأموال، وتخريب الديار، ولم يزل خطر هؤلاء التتار يزداد وتسقط المدن في أيديهم حتى سقطت بغداد سنة٦٥٦ هـ، وقُتل الخليفةُ المستعصم[١].

ثمّ دخلت سنة سبع عشرة وستمائة، في هذه السنة عمّ البلاء وعظُمَ العزاء بجنكيز خان المسمّى بتموجين- لعنه الله تعالى-، ومَن معَه من التتار- قبّحهم الله أجمعين، واستفحل أمرُهم واشتدّ إفسادهم من أقصى بلاد الصين إلى أنْ وصلوا بلاد العراق وما حولها حتى انتهوا إلى إربيل[٢] وأعمالها، فملكوا في سنة واحدة- وهي هذه السنة- سائرَ الممالك إلا العراق والجزيرة والشام ومصر، وقهروا جميعَ الطوائف التي بتلك النواحي...، وقتلوا في هذه السنة من طوائف المسلمين وغيرهم في بلدان متعدّدةٍ كبارٍ ما لا يُحدّ ولا يوصف، وبالجملة فلَمْ يدخلوا بلدًا إلّا قتلوا جميعَ مَن فيه مِن المقاتلة والرّجال، وكثيرًا مِن النساء والأطفال، وأتلفوا ما فيه بالنّهب إنِ احتاجوا إليه، وبالحريق إنْ لم يحتاجوا إليه، حتى إنّهم كانوا يجمعون الحرير الكثير الذي يعجزون عن حمْله فيطلقون فيه النار وهُم ينظرون إليه، ويخرّبون المنازل وما عجزوا عن تخريبه؛ يحرقونه، وأكثر ما يحرقون المساجدُ والجوامع، وكانوا يأخذون الأسارى من المسلمين فيقاتلون بهم ويحاصرون بهم، وإنْ لم ينصحوا في القتال قتلوهم[٣].

لقد كان التتار يعبدون الشمس، ولا يحرّمون شيئًا، ويصف ابن كثير[٤] سقوطَ بغداد في يدِ التتار، وحالَ هذه المدينة وهي في أيديهم، فيقول: «ولمّا انقضى الأمر المقدّر وانقضت الأربعون

(١) انظر: حوادث سنة ٦٥٦ من البداية والنهاية، (٢/ ٢٠٤٣)، طبعة بيت الأفكار الدولية، والوافي بالوفيات، (٢٧/ ٢٣٣).

(٢) مدينة أربل: اسم لمدينة صيداء التي بالساحل من أرض الشام. (معجم البلدان ١/ ١٣٩).

(٣) البداية والنهاية، (١٣/ ١٠٣).

(٤) إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء بن كثير القيسي البصروي الشيخ عماد الدين ولد سنة سبعمائة أو بعدها بيسير، ومات أبوه سنة ٧٠٣، ونشأ هو بدمشق وسمع مِن ابن الشحنة وابن الزراد وإسحاق الآمدي وابن عساكر والمزي وابن الرضي، وطائفة وأجاز له من مصر الدبوسي والواني والختني وغيرهم، واشتغل بالحديث مطالعةً في متونه ورجاله فجمع التفسير وشرع في كتاب كبير في الأحكام لم يكمل، وله تصانيف مُفيدة، مات في شعبان سنة ٧٧٤هـ، وكان قد أضرّ في أواخر عمره. راجع: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة (١/ ٤٤٦).

يومًا، بقيت بغداد خاويةً على عروشها ليس بها أحدٌ إلا الشاذّ من الناس، والقتلى في الطرقات كأنها التلول، وقد سقط عليهم المطر فتغيّرت صورهم وأنتنت مِن جيفهم البلد، وتغيّر الهواء فحصل بسببه الوباءُ الشديد حتى تعدّى وسرى في الهواء إلى بلاد الشام، فمات خلقٌ كثير من تغيّر الجوّ وفسادِ الريح، فاجتمع على الناس الغلاءُ والوباء والفناء والطّعن والطّاعون، فإنا لله وإنا إليه راجعون»[(١)].

ويصف ابن الأثير في كتابه الكامل هذا الاعتداءَ من التتار فيقول: «هذا فصل يتضمّن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التي عقمتِ الليالي والأيام عن مثلها، عمّت الخلائق وخصّت المسلمين، فلو قال قائل: إنّ العالم منذ خلق الله آدم وإلى الآن، لم يبتلوا بمثلها لكان صادقًا، فإنّ التواريخ لم تتضمّن ما يقاربها ولا يدانيها، ومِن أعظم ما يذكرون مِن الحوادث ما فعلَ بُخْتنصر[(٢)] ببني إسرائيل مِن القتل، وتخريب بيت المقدس، وما بيت المقدس بالنسبة إلى ما خرّب هؤلاء المَلاعين من البلاد، التي كلّ مدينةٍ منها أضعاف البيت المقدس، وما بنو إسرائيل بالنسبة لما قتلوا، فإنّ أهل مدينةٍ واحدة ممّن قتلوا أكثرُ من بني إسرائيل، ولعلّ الخلائق لا يروْن مثل هذه الحادثة إلى أن ينقرض العالم، وتفنَى الدنيا إلّا يأجوج ومأجوج[(٣)]، وأمّا الدّجال فإنه يُبقي على مَن اتّبعه، ويهلك مَن خالفه، وهؤلاء لم يبقوا على أحد، بل قتلوا الرجال والنساء والأطفال، وشقّوا بطونَ الحوامل، وقتلوا الأجنّة.

فإنّا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلّا بالله العلي العظيم، لهذه الحادثة التي استطار شررُها، وعمّ ضررُها، وسارت في البلاد كالسّحاب استدبَرته الرّيح، فإنّ قومًا خرجوا مِن أطراف الصين، فقصدوا بلاد تركستان.. ثمّ منها إلى بلاد ما وراء النهر مثل سمرقند وبخارى

---

(١) البداية والنهاية، (١٣/ ٢٣٦).

(٢) بخت نصر: رجل سلطه الله على اليهود فقتلهم بعد قتل اليهود ليحيى بن زكريا عليه السلام، ودخل المسجد الأقصى واستولى عليه، وقيل أيضًا لمّا كثرت ذنوب بني إسرائيل سلّطِ عليهم بخت نصر فقتل منهم عددًا كبيرًا واستولى على بيت المقدس، وهذه هي الكرّة الأولى، ثمّ تأتي الكرّة الثانية في آخر الزمان، البداية والنهاية: ١٣/ ١٠٣.

(٣) مأجوج: قبيلة همجيّة يقرن اسمها بـ (يأجوج)، وهما قبيلتان مِن ولد يافث بن نوح، وقد بنى ذو القرنين سَدًّا حجزهم وراءه. - يأجوج: قبيلة همجيّة، بنى ذو القرنين سدًّا لمنع شرورها عن جيرانها.

وغيرهما، فيملكونها، ويفعلون بأهْلها ما نذكره، ثمّ تعبر طائفة منهم إلى خراسان فيفرغون منها ملكًا، وتخريبًا وقتلًا ونهبًا، ثمّ يجاوزونها إلى الرّي وهمذان وبلد الجبل وما فيه من البلاد إلى حدّ العراق، ثمّ يقصدون بلاد أذربيجان وأرانية ويخرّبونه، ويقتلون أكثرَ أهلها، ولم ينجُ منهم إلا الشريد النادر في أقلّ من سنة.

• **هذا ما لم يُسمَع بمثله.**

ثمّ ساروا إلى دربند شرْوان فملكوا مدنَه، ولم يسلم غير قلعته التي بها ملكهم، وعبروا عندها إلى بلد اللان، [و] اللكز ومن في ذلك الصقع من الأمم المختلفة، فأوسعوهم قتلًا ونهبًا وتخريبًا... وهُم مِن أكثر التّرك عددًا، فقتلوا كلّ مَن وقف لهم وهربَ الباقون إلى الغياض وملكوا عليهم بلادهم، وسارت طائفةٌ أخرى إلى غزنة[1] وأعمالها، وما يجاوِرْها مِن بلاد الهند وسجستان وكرمان، ففعلوا فيها مثلَ أفعال هؤلاء وأشدّ، هذا ما لم يطرقِ الأسماعَ مثلُه؛ فإنّ الإسكندر الذي اتّفق المؤرّخون على أنه ملَكَ الدنيا لم يملكها في سنة واحدة، إنّما ملكها في نحْو عشر سنين، ولم يقتل أحدًا، بل رضي من الناس بالطّاعة، وهؤلاء قد ملَكوا أكثرَ المعْمور من الأرض وأطيبَه وأحسنَه عمارة، وأكثرَه أهلًا وأعدلَهم أخلاقًا وسيرةً في نحو سنة، ولم يتّفق لأحدٍ مِن أهل البلاد التي لم يطرقوها بقاء إلّا وهو خائف مترقّب وصولَهم، وهُم مع ذلك يسجدون للشمس إذا طلعت، ولا يحرّمون شيئًا، ويأكلون ما وجدوه مِن الحيوانات والميتات- لعنهم الله تعالى.

قال: وإنّما استقام لهم هذا الأمر لعدم المانع؛ لأنّ السلطان خوارزم شاه محمدًا كان قد قتل الملوك مِن سائر الممالك واستقرّ في الأمور، فلمّا انهزم منهم في العام الماضي وضعفَ عنهم وساقوا وراءه فهرب فلا يدرى أين ذهب، وهلك في بعض جزائر البحر، خلت البلاد ولم يبقَ لها مَن يحميها ﴿لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗا﴾ [الأنفال: ٤٢]، وإلى الله ترجع الأمور»[2].

---

(١) غزنة: بفتح أوله وسكون ثانيه ثمّ نون هكذا يتلفظ بها العامّة، والصحيحُ عند العلماء غزنيّين ويعربونها فيقولون جزنة، وهي مدينة عظيمة وولايةٌ واسعة في طرف خاراسان، وهي الحدّ بين خاراسان والهند في طريق فيه خيراتٌ واسعة، وهي شديدة البرودة. (معجم البلدان ٢٠١/ ٤).

(٢) البداية والنهاية، (١٣/ ١٠٣)، وابن تيمية لأبي زهرة، ص(١١٢، ١١٣).

لقد خرجت الخلافة مِن بغداد، ثمّ استمرّ التتار في عدوانهم على البلاد، وذهبوا إلى دمشق سنة ٦٥٨هـ، واستولوا عليها قاصدين مصر، فكانت نهايتهم، وانتصر المسلمون عليهم بقيادة قطز سنة ٦٥٨هـ، فقتلوهم وشرّدوهم وأسروا منهم أعدادًا كبيرة، وواصل الجيشُ المصري انتصاراتِه عليهم، فأَجْلاهم عن دمشق ثمّ عن سوريا والثّغور بقيادة الظاهر بيبرس، فانكسرت شوكةُ التّتار بفضل الله تعالى ورحمته(١).

وكانت حوادث التتار قبل ميلاد ابن تيمية وواقعة عين جالوت بنحو ثلاث سنين، حيث كانت سنة ٦٥٨هـ، وميلاده كان سنة ٦٦١هـ، ولقد أعاد الظاهر بيبرس الخلافة الإسلامية لبني العبس بعد أن استمرّ ذلك المنصب شاغرًا ثلاث سنوات، بعد قتل الخليفة العباسي، وجعل القاهرة مستقرًّا له ومقامًا(٢).

ولد شيخ الإسلام ابن تيمية والخطرُ الصليبي في نهايته، وذلك سنة تسعين وستمائة للهجرة، أمّا الخطر التّتري فقد عاينه شيخ الإسلام ابن تيمية وعائلته وعانى منه الأَمَرّين؛ حيث اضطرّوا للهجرة من بلدهم بسبب هجوم التتار المتكرّر عليها، وتخريبهم لها، فهُم قد انسابوا مِن المشرق فما مرّوا على بلدة إلّا جعلوها كالرميم، لا يبقون من معالم الحضارة في البلاد التي مرّوا عليها شيئًا(٣).

ويقول ابن تيمية معرّفًا تلك الحادثة الخطيرة: «ينبغي للعاقل أن يعتبر سنة الله وآياته في عباده، ودأب الأمم وعاداتهم، لاسيّما في هذه الحادثة العظيمة التي طبق الخافقين خبرها، واستطار في جميع ديار الإسلام شرّها، وأطلع فيها النفاق ناصية رأسه، وكشّر فيها الكفر عنْ أنيابه وأضراسه، وكادَ فيه عمود الكتاب أن يجتث ويخترم، وحبل الإيمان أن ينقطع ويصطلم، وعقر دار المؤمنين أن يحلّ بها البوار، وأن يزول هذا الدين باستيلاء الفجرة التتار، وظنّ المنافقون والذين في قلوبهم مرضٌ أنْ ما وعدهم الله ورسوله إلّا غرورًا، وأن لنْ ينقلب حزبُ الله ورسوله

(١) البداية والنهاية، (٢/ ٢٠٥٢)، ط: بيت الأفكار الدولية.
(٢) ابن تيمية حياته وعصره، ص(١٦).
(٣) البداية والنهاية، (٣/ ٣٣٨).

إلى أهليهم أبدًا، وزيّن ذلك في قلوبهم، وظنّوا ظنّ السوء، وكانوا قومًا بورًا، ونزلت فتنة تركت الحليمَ فيها حيرانًا، وأنزلت الرجل الصاحي منزلة السّكران، وتركت الرجل اللبيب- لكثرة الوسواس- ليس بالنّائم ولا باليقظان، وتناكرت فيها قلوبُ المعارف والإخوان، حتى بقي للرجل بنفسه شغلٌ عن أن يغيث اللّهفان، وميّز الله فيها أهل البصائر والإتقان مِن الذين في قلوبهم مرضٌ أو نفاق وضعفُ إيمان، ورفع بها أقوامًا إلى الدرجات العالية كما خفضَ بها أقوامًا إلى المنازل الهاوية، وكفّر بها عن آخرين أعمالهم الخاطئة، وحدث من أنواع البلوى ما جعلها قيامةً مختصرة من القيامة الكبرى»[(١)].

وهكذا استقرّ في وعي ابن تيمية الفظائع الوحشية التي قام بها التتار في كلّ مكان، قال: «وعندما كان قدْ قارب سبع سنين شنّ التتار حملةً على مسقط رأسه حران في شمال سورية، بين دجلة والفرات، ولقد خرجت أسرته شأنَ الأسرِ الكثيرة من حران فرارًا من فظائع التتار وتوجّهت إلى دمشق، ولكنّ ابن تيمية وَعَى بعد ذلك انتصارَ المسلمين في عين جالوت الذي وقع قبل مولده بثلاث سنين، كما أنّ فتوح الملك الظاهر بيبرس كانت أحاديثَ صباه وسميرَ المجالس في ذلك العصر»[(٢)].

وعاش ابن تيمية في عصر الدولة المملوكيّة الأولى التي كانت مصر والشام تحت سلطانها، وعاصر ابن تيمية السلطان الناصر الذي جاء بعد الظاهر، وابتلي بمجيء التتار إلى دمشق، ولكن تصدّى لهم الناصر بتحريض ابن تيمية ومعاونته، حيث قام بحثّ الناسِ على الجهاد وحمل السلاح خارجًا إلى ميدان الجهاد، وقادَ الجيش[(٣)].

- **الحالة الاجتماعيّة:**

شهدَ ابنُ تيمية مجتمعًا تمازجت مكوّناته من عناصر مختلفة، وأجناس مُتباينة، فهناك مُخلّفات الحروب الصليبيّة؛ حيث امتزج الشّرق بالغرب، وتلاقت الحضارات والدّيانات والعادات

(١) مجموع الفتاوى، (٢٨/ ٤٢٧).
(٢) رجال الفكر والدعوة، للأستاذ الندوي، تعريب سعيد الأعظمي، تقديم الدكتور عدنان زرزور، ط: دار القلم، دمشق، ط: أولى، ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٢م، (٢/ ٨).
(٣) البداية والنهاية، (٢/ ٢٠٥٩).

والأفكار، على الرغم مِن المحاربة، فالعدوى النفسية سارية، وكذلك في حروب التّتار التقت الأقوامُ من أقْصى الشرق في الصين حاملين عاداتهم وأخلاقهم وأهواءهم ومنازعهم بأهلِ الإسلام الذين اعْتدلت أمزجتهم وأفكارهم واستقامت عقائدهم، وهُم خاضعون لنُظم مقرّرةٍ ثابتة، استنبطها العلماءُ مِن كتاب الله الهادي إلى سواء السبيل، وسنة النبي المُبيّنة لأقومِ منهاجٍ مستقيم، التقى هؤلاء وهؤلاء فكان ذلك اللّقاء اضطرابًا في العادات والمنازع[1].

لقد خلطت الحربُ القاسية- أيضًا- بين أصناف المسلمين في الأمصار المختلفة، فأهلُ العراق يفرّون إلى الشام عندما يُغير التتار عليهم، وأهلُ الموصل وما حولها يفرّون إلى دمشق، وأهلُ دمشق ينتقلون إلى مصر، بل إلى بلاد المغرب، فقد خرج علماءُ دمشق وولاتُها والقادرون فيها عندما ساوَرَها التتار، وبقي ابن تيمية مع الضعفاء من العامّة، ومَن لا حول لهم ولا قوّة، وهذه الخلطة الإجبارية تؤدي إلى خلطةٍ فكرية ونفسية واجتماعية، ويتكوّن منها مجتمعٌ مضطرب ليس فيه قرار ولا سكون[2].

لقد بدا هذا جليًّا في مصرَ التي كانت مثابة كلّ هذه الأجناس، فهذا الاضطراب السّياسي الذي كان سببُه طمعَ المماليك والصراع بيْنهم على الحكم أدّى إلى اضطراب اجتماعي واضح.

ولقد كان للأسرى الِفرنج والتّتر شأنٌ في الحياة الاجتماعية؛ لأنّهم مثّلوا طبقة لا تندمج مع الشعوب كما كانت الوظائف والإمارات وقيادةُ الجيش تحت سيطرتهم، خاصّة مع المماليك الذين أسروا أو اشترتهم الدّولة الأيوبية، ثمّ آل المُلك إليهم.

ولقد كان لهؤلاء الطوائف خيطٌ يجمع بينهم، وهو أنّهم كلّهم أسرى أو كلّهم مماليك، فانتشر بينهم الحقدُ والتّنافس وحبّ السيطرة على الناس والتعالي عليهم، والحرص على مصلحتهم الخاصة، وكذلك الوافدون انتشروا في البلاد، وكان لهم من التقاليد والعادات التي انتشرت معهم، وحتى عندما دخل التتار في الإسلام كانوا يطبّقون أحكام جنكيز خان والاقتداء بحكم الياسة[3].

---

(١) ابن تيمية حياته وعصره، ص(١٢٧).

(٢) ابن تيمية حياته وعصره، ص(١٢٥، ١٢٦)، ورجال الفكر والدعوة، ص(٢٣، ٢٤).

(٣) رجال الفكر والدعوة، ص(٣٨-٤٠) بتصرف، وسير أعلام النبلاء، ط الرسالة، (٢٢/ ٢٢٨)، والياسة: هي شريعةُ المغول وقانونهم.

كان حكامُ المماليك دائما يشعرون بالأفضلية، ويتكلّمون بالتركية فيما بينهم، ما عدا بعض المناسبات أو خطابهم مع العلماء أو الحديث مع الجماهير، وكانوا مع ذلك يقدّرون العلماء، ويحبّون المشايخ، ويقبلون على بناء المساجد، وتأسيس المدارس، لم يكونوا يتحيّزون في تقسيم المناصب إلى فئةٍ دون فئة، أو جنسٍ دون جنس، إلّا أنّ المناصب الإدارية والعسكرية كانت ملكًا لهم، وقد كان المماليك والتّتار هُم أصحاب الإقطاعات، وكان دورُهم في استغلال المزارعين والعمال، وفرض الضرائب؛ واضحًا.

كما كان طبيعيًّا- وهذا نظامُ المجتمع؛ حيث الحروب المتوالية من غارات الفرنجة والتتار والتّطاحن على السلطة- أن تضطرب حالةُ الأمن في البلاد، وينتشر الفزع، ويختفي الاستقرار الاجتماعي، ويكون تابعًا لذلك كسادٌ في الحياة الزراعية والتجارية والاقتصادية، ومن مظاهر ذلك نقص المحاصيل والغلاء والفقر الشديد.

ولقد أشار ابن تيمية إلى ذلك من انتشار الثلوج الشديدة التي أثّرت على المحاصيل.

وأيضًا تلا ذلك غارات التتار وتساقط الجثث، وانتشار الأوبئة والأمراض.

كما ظهرت- أيضًا- عادة تطفيف المكاييل، والغشّ في البيع، واضطرّ شيخ الإسلام أن يكتب كتاب الحِسبة في الإسلام؛ ليحضّ فيه ولاة أمور المسلمين والمُحتسبين على متابعة أمورِ ومصالح جماعة المسلمين، وإنزال العقوبة الرّادعة بالمفسدين في الأرض، وفرض تسعيرات تحفظ للناس أرزاقهم وأقواتهم(١).

كما نتجَ عن اختلاف المجتمع أنْ تتأثر الحالة الدينية وتختلط الأفكار، وتظهر الحركات والتوجّهات، والفلسفات المختلفة، بدا ذلك ظاهرًا في كتب شيخ الإسلام عن الفرق الباطنية(٢) والمتصوفة، وديانات التّتار والنصارى، وانتشار البدع والخرافات التي وقف العلماء ورجال

---

(١) رجال الإصلاح والدعوة، إبراهيم محمد العلي، ط: دار القلم، دمشق، ص(٢٨، ٢٩) بتصرف.

(٢) الباطنية: هي فرقةٌ من فرق القرامطة انتسبوا إلى إسماعيل بن جعفر، وسبب تسميتهم بالباطنية أنهم ادّعوا أنّ لظواهر القرآن وللأخبار باطنًا، وغرضهم من ذلك إبطال الشرائع، وهُم فرقة من فرق الشيعة. (الفرق الإسلامية جـ٦ صـ٢١،٢٠) (الملل والنحل للشهرستاني ١/ ١٩٠).

الدين على اختلاف مذاهبهم لها بالمرصاد، كلّ يحاول أن يزيل الغشاوة عن المجتمع بطريقته، كما أدى هذا الاختلاف إلى انتشار المذهبية والتعصب والتقليد، ومثال هذا الاختلاف في ديانات التّتار، فقد كان منهم مَن يعبد الشمس، ولا يحرّمون شيئًا، ويتجاوزون الحدّ في المنكرات، ويأكلون الميتة وتظهر الوحشية في القتل وسفْك الدّماء، كما أنّ المرأة حقّها ضائعٌ بينهم، فهي ملك مُشاع للرجال، وإذا جاء الولد لا يُنسَب إلى أحد، حتى بعد دخولهم الإسلام «نجد أنّهم لقّنوا القرآن، وعرفوا أحكام الملّة المسلمة، لكنهم جمعوا بين الجيد والرّديء، وفوّضوا إلى قاضي القضاة كلّ ما يتعلق بالأمور الدينية من الصلاة والصوم والزكاة والحج، وأناطوا به أمر الأوقاف والأيتام، وجعلوا إليه النظر في الأقضية الشرعية وكتداعي الزوجين وأبواب الدين، ونحو ذلك، واحتاجوا في ذات أنفسهم إلى الرجوع إلى عادة جنكيز خان، والاقتداء بحكم الياسة»[(١)].

كما أنّ النصارى غالبًا كانوا يميلون إلى أعداء المسلمين، ويستميلونهم، كما حدث أيامَ غزو الفرنجة؛ حيث ذهب النصارى إليهم يستميلونهم، ومالؤوا التتار وكاتبوهم، يقول المقريزي في حوادث سنة ٦٥٨هـ: واستطال النصارى بدمشق على المسلمين، وأحضروا فرمانًا من هولاكو بالاعتناء بأمرهم وإقامة دينهم، فتظاهروا بالخمر في نهار رمضان، ورشّوه على ثياب المسلمين في الطرقات، وصبّوه على أبواب المساجد، وألزموا أرباب الحوانيت بالقيام إذا مرّوا بالصليب عليهم، وأهانوا مَن امتنع عنِ القيام للصليب، وصاروا يمرّون به في الشوارع إلى كنيسة مريم، ويقفون به ويخطبون في الثناء على دينهم، وقالوا جهرًا: ظهر الدّينُ الصحيح.. دين المسيح. فقلق المسلمون من ذلك، وشكوا أمرَهم لنائب هولاكو وهو «كتبغا» فأهانهم وضرب بعضهم، وعظّم قدرَ قساوس النصارى، ونزل إلى كنائسهم وأقام شعارهم»[(٢)].

ويقول ابن كثير: «وذهب طائفةٌ من النصارى إلى هولاكو، وأخذوا معهم هدايا وتُحفًا وقدموا مِن عنده ومعهم أمان فرمان مِن جهته، ودخلوا مِن باب توما ومعهم صليبٌ منصوب

(١) ابن تيمية محدثًا، د/ أحمد محمد العليمي، دار ابن حزم، ط: أولى، ١٤٢٢هـ- ٢٠٠٢م، ص(٣٧) بتصرف.
(٢) السلوك لمعرفة دول الملوك، (١/ ١٤٠).

يحملون على رءوس الناس، وهُم ينادون بشعارهم، ويقولون: ظهرَ الدين الصحيح.. دينُ المسيح، ويذمّون دين الإسلام وأهلَه، ومعهم أواني فيها خمر، لا يمرّون على بابِ مسجد إلّا رشّوا عنده خمرًا، وقماقم ملآنة خمرًا يرشّون منها على وجوه الناس وثيابهم، ويأمرون كلّ مَن يجتازون به في الأزقّة والأسواق أن يقومَ لصليبهم»[(١)].

- **الفرقُ الباطنية:**

تحدث شيخُ الإسلام ابن تيمية عنهم في رسالته إلى الملك الناصر، وقد دعا إلى محاربتهم؛ لأنّهم من أهل البدع والمنكرات، وأنّهم مارقون عن الإسلام، مفارقون للشريعة والطاعة، ومثل هؤلاء مِن أهل الجبل والكسروان فهُم مِن أكابر المفسدين في الدّين والدنيا، باعتقادهم أنّ أبا بكر وعمر وعثمان وأهل بدر وبيعة الرضوان وجمهور المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان وأئمة الإسلام وعلماءهم أهل المذاهب الأربعة وغيرهم ومشايخ الإسلام وعبادهم وملوك المسلمين وأجنادهم وعوام المسلمين وأفرادهم؛ كلّ هؤلاء عندهم كفّار مرتدّون، أكفرُ مِن اليهود والنصارى؛ لأنهم مرتدّون عندهم، والمرتدّ شرّ من الكافر الأصلي، ولهذا السبب يقدمون الفرنج والتتار على أهل القرآن والإيمان، ولهذا لمّا قدِمَ التتار إلى البلاد وفعلوا بعسكر المسلمين ما لا يحصى من الفساد، وأرسلوا إلى أهل قبرص، فملكوا بعض الساحل، وحملوا راية الصليب وحملوا إلى قبرص من خيل المسلمين وسلاحهم وأسراهم ما لا يحصي عددَه إلا الله، وأقام سوقهم بالساحل عشرين يومًا يبيعون فيه المسلمين والخيل والسلاح على أهل قبرص وفرحوا بمجيء التتار..... ولمّا خرجت العساكر الإسلامية من الديار المصرية ظهر فيهم من الخزي والنكال ما عرفه الناس منهم، ولمّا نصر الله الإسلام النصرة العظمى عند قدوم السلطان كان بينهم شبيه بالعزاء، كلّ هذا وأعظم منه عند هذه الطائفة التي كانت من أعظم الأسباب في خروج جنكيز خان إلى بلاد الإسلام، وفي استيلاء هولاكو على بغداد، وفي قدومه الى حلب، وفي نهْب الصالحية، وفي غير ذلك من أنواع العداوة للإسلام وأهله»[(٢)].

---

(١) البداية والنهاية، (١٣/ ٢١٩).

(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية، (٢٨/ ٤٠٠، ٤٠١)، وانظر: إغاثة الغريق وإنارة الطريق إجابات لشيخ الإسلام ابن تيمية، ص(١٥)، ولمحات من حياة شيخ الإسلام ابن تيمية، ص(٥٣).

كما يقول- رحمه الله: «ولقد كان جيرانهم من أهل البقاع وغيرها معهم في أمرٍ لا يضبط سرّه. كلّ ليلة ينزل عليهم منهم طائفة، ويفعلون من الفساد ما لا يحصيه إلّا ربّ العباد، وكانوا في قطع الطرقات، وإخافة سكّان البيوتات على أقبح سيرةٍ عُرفت مِن أهل الخيانات، ترد إليهم النصارى من أهل قبرص فيضيفونهم، ويعطونهم سلاح المسلمين، ويقعون بالرجل الصالح من المؤمنين، فإمّا أن يقتلوه أو يسلبوه، وقليل مَن تفلّت منهم بالحيلة»[١].

لقد احتكر المماليكُ الأرض، وكانت عامّة الناس من صنّاع وزرّاع يعملون عندهم كادحين، والحصاد لذوي السلطان دونَ غيرهم، كما كانت طبقة أهل الدين الطبقة الثانية في المجتمع؛ لمكانة الدين، لهم منازل خاصة، ولهم الطاعة في شئون الدين، ولا تتعرّض سلطتهم للمخالفة، إلّا عندما يقفون أمام السلطان أو ضرائبه، كما فعل الظاهر مع النووي[٢]، فقد كان لا يهمّ السلاطين إلّا المال؛ حيث يحتالون عليه بكلّ الحيل، فالظاهر بيبرس يفرض الضرائب الكثيرة، ويحاول إخراج الأرض من أيدي أهلها، ويقف أمامه النووي – رحمه الله – معترضًا في الأمرين، وكان يضعف سلطان رجال الدين أن معيشتهم ممّا يفيض بها الوالي عليهم من بيت المال، ومنهم من كانت تنزله الحاجة أو حبّ المال والطمع إلى ما لا يليق بالعلماء»[٣].

• **الحالةُ العلمية:**

كان للناحية السياسية وما زخرتْ به من اضطرابات ومنازعات، وما توالى على الأمّة من حروب طاحنة؛ أثرُه- أيضًا- على الحركة العلمية؛ فقلّ الإنتاج العلمي المبني على الفكْر والتحليل والمقارنة، وكثُرَ الإنتاج العلمي المبني على الجمع والتصنيف للكتب القديمة في كلّ مذهب عدّة مرّات.

---

(١) رسالة من ابن تيمية إلى الملك الناصر، ص(٥)، ومجموع الفتاوى، (٢٨/ ٤٠٣)، ولمحات من حياة شيخ الإسلام ابن تيمية، ص(٥٥).

(٢) هو الشيخ محيي الدين يحيى بن شرف، عالم بالفتوى، له كتب كثيرة منها الأذكار للنووي ورقائق النووي وله كتاب المنهاج. راجع: الكواكب السائرة في أعيان المائة العاشرة ١/ ١٦٦)، الوافي بالوفيات ١/ ٣٦٤م.

(٣) ابن تيمية، حياته وعصره، ص(١٢٨).

واتّسم العلم والتأليف في هذا القرن بالسّعة وقلّة التعمّق، ويغلب طبع النّقل والاقتباس على التفكير والدّراسة والتعمّق في العلم، باستثناء عددٍ من الشخصيات والمآثر العلمية[1].

يقول الأستاذ هرّاس: «لقد قلّ الإنتاج العلمي، وركدت الأذهان، وأقفل بابُ الاجتهاد في الأصول والفروع جميعًا، فحرم الأخذُ من الأصول بغير المذهب الأشعري، وفي الفروع بغير مذاهب الأئمة الأربعة، وأصبح قصارى جهْد العالم أن يفهم ما قيل مِن غير بحثٍ ولا مناقشة، وعمد العلماء إلى جمع المعلومات المتعلّقة بكلّ فنّ فنظموها في سلكٍ واحد، وألّفوا فيها كتبًا مطوّلة أحيانًا، ومختصرة أحيانًا، وسلكوا منهجًا حسنًا في التأليف، ولكنْ لا أثر فيه للابتكار والتجديد.

وغلبت على العلماء في هذا العصر نزعة التقليد، وسيطر الجمود الفكري، وأصبح العالم إنما يُقاس بكثرة ما حفظ من كلام الأولين، وعرف من آرائهم، وإن لم يكن له من استقلال الفكر، وحرية الرأي أدنى نصيب؛ بحيث يمكن تسمية هذا العصر (عصر دوائر المعارف)»[2].

وتكوّنت للمذاهب الفقهية قوالبُ من حديد؛ لا تقبل المرونة والتسامح، وإن كان القول السائد: إنّ الحقّ دائرٌ بين المذاهب الأربعة، ولكن أتباع كلّ مذهب يحصرون الحقّ في مذهبهم في الواقع، ولا يزيدون- إذا توسّعوا- كثيرًا على أنْ يقولوا: رأي إمامنا صوابٌ يحتمل الخطأ، ورأي غيرنا خطأ يحتملُ الصواب.

لقد كان أتباع كلّ مذهب يرجّحون مذهبهم الفقهي على سائر المذاهب الفقهية الأخرى، ويعتبرونه مقبولًا ومؤيّدًا من الله، وكانوا يبذلون كلّ ذكائهم، وقوةَ بيانهم وتأليفهم في ترجيحه وتفضيله على غيره.

أمّا النظرة التي كان أتباع المذاهب ينظرون بها إلى مذاهبهم العقلية التي كانت تسودُ على أهلها؛ فيمكنُ تقدير ذلك بأنّ الملك «الظاهر بيبرس» لمّا نصّب لكلّ مذهب قاضيًا للقضاة

(١) رجال الفكر والدعوة، ص(٤٤).
(٢) ابن تيمية السلفي، نقده لمسائل المتكلمين والفلاسفة في الألوهيات، محمد خليل هراس، ط: أولى، ١٣٨٧هـ- ١٩٥٢م، ص(١٧).

خاصًّا به خلافًا للعادة المتّبعة في زمنه، وهي ألّا يكون قاضي القضاة إلّا شافعيًّا؛ استنكرَ ذلك فقهاء الشافعية؛ إذْ كانوا لا يرضون إلّا أن يروا مصر خاضعة للقاضي الشافعي؛ لأنها مدفن الإمام الشافعي، ولمّا انتهى حكم الملك الظاهر، وانتقلت المملكة من أسرته إلى غيره، رأى ذلك بعضُ الشافعية نقمةً إلهيّة، وعقابًا لفعلته التي فعلها[١].

وقد كان التعصّب الكلامي مع التحزّب الفقهي بالغًا مداه، بينما أتباع المذاهب الأربعة تلاميذ وشيوخًا؛ يتبادلون الحبّ والزيارة، غير أنّ اتحاد الأشاعرة مع الحنابلة كان شبهَ مستحيل؛ لأنهما كانا يختلفان في الفكْر والإسلام، وليس على الأفضلية؛ فقد كانت كلّ طائفة تُلحّ على تكفير الأخرى، وكانت المباحث الاعتقادية وتقعّر المتكلمين، يتغلّب على جميع المباحث الأخرى، حتى إنّ الأشاعرة كانوا يعتبرون الحنابلة قرناء للنّصارى، وقد كتب منشئ المدرسة الرواسية في دمشق في حجّة وقفيّة هذه المدرسة نصًّا يمنع دخولَ اليهود والنصارى والحنابلة لهذه المدرسة[٢].

«وعلى الرّغم من ذلك الجمود في التأليف؛ إلا أنّ العلم كان في انتشار مستمرّ؛ فقد وجدت مدارس كبيرة، ودورٌ للحديث، تلك التي أسّسها الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، وكان يؤمّها الطلاب من أنحاء العالم؛ لتلقي العلوم الدينية والتجريبية، وكانت مكتباتٌ كبيرة تابعة لهذه المدارس، وأخرى مستقلّة بذاتها تحتوي على ذخائر علمية، ونوادر في كلّ علم وفن، ولا يوصد بابُها عن أيّ دارس، ولقد كانت المكتبة التابعة للمدرسة الكاملية- التي أسسها (الكامل محمد الأيوبي) سنة ٦٢١هـ- تحتوي وحدها على مائة ألفِ كتاب»[٣].

كما توفّرت دورٌ كثيرة لتدريس القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، وأيضًا مدارس للحنفية والشافعية، وأخرى للمالكية والحنابلة[٤].

---

(١) رجال الفكر والدعوة، ص(٤٣).
(٢) ابن تيمية حياته وعصره، ص(١٣١).
(٣) رجال الفكر والدعوة، ص(٤٢، ٤٣).
(٤) ابن تيمية محدثًا: (٤٦).

كما نهض في أوساط هذا القرن أئمةٌ كبار، كالعلامة تقي الدين أبي عمرو بن الصلاح (٤٦٣-٥٧٧هـ)، وشيخ الإسلام عزّ الدين بن عبد السلام (٥٧٨-٦٦٠هـ)، والإمام محيي الدين النووي (٦٣١-٦٧٦هـ).

وظهر في أواخر هذا القرن علماء كبار، مثل المحدّث الكبير تقي الدين بن دقيق العيد (٦٢٥-٧٠٢هـ)، والأصولي العلامة علاء الدين الباجي (٦٣١-٧١٤هـ)، وقد كان من معاصري ابن تيمية كبارُ المحدثين والمؤرخين، كالعلامة جمال الدين أبي الحجاج المزي (٦٥٤-٧٤٢هـ)، والحافظ علم الدين البرزالي (٦٦٥-٧٣٩هـ)، والعلامة شمس الدين الذهبي (٦٧٣-٧٤٧هـ)، الذين كانوا يعدّون الأركان الثلاثة للحديث والرواية في عصرهم، والذين يعتمد على كتبهم المتأخرون من العلماء.

كما نبغ في عصره أساتذة الفنّ البارعون، وعلماء ذوو كفاءات علمية قوية، كانت مرجع الخلق، وطار صيتُهم العلمي في الآفاق، كقاضي القضاة جمال الدين بن الزملكاني (٦٦٧-٧٢٧هـ)، وقاضي القضاة جلال الدين القزويني (ت٧٣٩)، والعلامة أبو حيّان النحوي (٦٥٤- ٧٤٥هـ)، وقاضي القضاة تقي الدين السبكي (٦٨٣-٧٥٦هـ) وغيرهم.

وقد أُلف في نفس هذا القرن كتبٌ جليلة تُعتبر مرجعًا للمتأخرين من العلماء؛ كمقدمة العلامة تقي الدين بن الصلاح، والقواعد الكبرى للشيخ عز الدين بن عبد السلام (٥٨٧-٦٦٠هـ)، والمجموع شرح المهذب، وشرح مسلم للإمام النووي، وكتاب الإلمام وإحكام الأحكام لابن دقيق العيد، وتهذيب الكمال لأبي الحجاج المزي، وميزان الاعتدال، وتاريخ الإسلام للعلامة الذهبي، إضافة إلى عددٍ من الشخصيات والمآثر العلمية.

الاتجاهاتُ الفكرية السائدة في هذا العصر:

يمكن أن نلخّص الاتجاهات الفكرية السائدة في هذا العصر في النقاط الآتية:

١ـ العلماء في التخصّصات الشرعية.

٢ـ الفلاسفة المسلمون.

٣ـ المتصوّفة.

٤ـ الفرق الإسلامية.

ونفصّل ذلك فيما يأتي:

كانت الحياة الفكرية في عصر ابن تيمية متشعّبة؛ فنجد التخصّصات الشرعية من الحديث والتفسير والنحْو والفقه والعقائد، كذلك كان الفلاسفة المسلمون الذين ينطلقون في دراستهم مُنتهين إلى ما تتأدّى بهم إليه النتائج، غير مُلتفتين وراء ذلك، وبين هؤلاء وهؤلاء علماء حاولوا أن يربطوا بين الفلسفة والدين، كما فعل أصحاب «رسائل إخوان الصفا»، وكما فعل ابن رشد في كتابه «فصل المقال فيما بين الشريعة والفلسفة من الاتصال».

وفي وسط ذلك الجمود الفكري، والشطط الفلسفي؛ نجد علماء أفذاذًا، قد جمعوا بين المعقول والمنقول، وقوة الفكر مع قوة الدين، كالعز بن عبد السلام، ومحيي الدين النووي، وابن دقيق العيد، والغزالي، وفخر الدين الرازي.

أيضًا بجوار هؤلاء العلماء نجد المتصوّفة، الذين جمعوا بين المناهج الفلسفية العقلية، والمنازع الروحية الخالصة، وخلصوا من ذلك بفلسفة روحية تقرب أو تبعد من المناهج الدينية التي سلكها علماءُ الدين بالمصباح المنير من كتاب الله المبين، وسنة رسوله النبي الكريم ﷺ.

ومن وراء ذلك المتصوّفة المتفلسفة، كان أصحاب الطريق يقودون العامة، ويرشدونهم إلى مناهج السلوك الذي سنّه علماء الصوفية، وقد يشتطّون فيبتعدون عن الدين، ومسالكُهم في الإرشاد والتقويم تقوم على التهذيب الشخصي من الشيخ لمريديه، بما يُشبه الاسْتهواء، وجاء من وراء ذلك تقديس الأشياخ والاعتقاد فيهم، واتباعهم في الحياة، وتكريمهم بالزيارة بعد الوفاة، حتى كان من وراء ذلك الاعتقاد بمنازلهم من الله، وكرامتهم، وشاعت حولهم الأقوال التي تتجاوز بهم المراتب الإنسانية.

كما كان للفرق الإسلامية في هذا المجتمع مهمات بارزة؛ حيث إن التنازع بدا واضحًا بين هذه الفرق، وظهر فيها التعصب لفكرها واضحًا، وكان الجدل بينهم عقيمًا لا يستند إلى

دليلٍ يقْنع، وإنّما كانت المناظرات للغلبة والسيطرة، وليست للحقّ ومساندته؛ ولذلك فقدت الباعثَ الحسن؛ فكان التناحر الفكري الذي ورّث عداوة القلوب، والتفرقة بين أهل الملّة، حتى صاروا شيعًا وأحزابًا ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٣]، ثمّ انتقل الأمر من الجدل والمناظرة إلى المكايدة وتدبير المؤامرات، وموالاة أعداء الإسلام، ووضع الكمين لأذى الأمين، وفساد الأمر عند أولياء الأمر؛ كما كان الأمر بين الجماعة والشيعة(١).

ويمكننا أن نلخّص أبرز معالم ذلك العصر في عددٍ من النقاط، منها:

١- انتهاء الخطر الصليبي وبقاء آثارُه السيئة على البلاد والعباد.

٢- اجتياح التتار لبلاد المسلمين، وبروز جهود ابن تيمية في جهادهم وقتالهم.

٣- كثرة الحكّام في هذا العصر كثرةً جعلت الحياة السياسية مليئة بالأحداث والمخالفات، ممّا جعل للعلماء دورًا بارزًا في نصح الحكام وحثّهم على إقامة أحكام الدين ومبادئه الأساسية.

٤- كثرة الخلافات الفكرية والمذهبية في هذا العصر الناتجة عن تعدّد الأجناس البشرية في المكان الواحد وتعدّد القضايا.

كما اتّسم هذا العصر بنُشوء المدارس العلمية، وبزوغ الأئمة الأعلام أصحاب الكفاءات العلمية، كما ساد هذا العصر التعصّب الفكري الذي لم يكنْ يقبلُ الاجتهاد، كما ظهرت بدعُ الصوفية وتأويلات المتكلّمين.

***

(١) ابن تيمية حياته وعصره، ص(١٣٢، ١٣٣) بتصرف.

المبحثُ الثالث

تكوينه العلمي وعطاؤه الفكري

• ابنُ تيمية ومكانته العلمية:

كان ابنُ تيمية عظيماً في شخصيته حيث اجتمعت له صفات لم تجتمع في أحدٍ مِن عصره، فهو الذّكي الألْمعي، وهو الكاتب العبقري، وهو الخطيب المصقع، وهو الباحث المُنقب والعالم المطّلع، الذي درس أقوال السابقين وقد أنضجها الزمان وصقلتها التجاربُ ومحّصتها الاختبارات، فنفذت بصيرته إلى لبّها وتغلغلَ في أعماقها، وعرف أسرارها، وفحص الروايات ووازَنَ بين الآيات، وطبّقها على الزمان مع إدراكٍ للقوانين الجامعة، وربط للجزئيات وجمع للأشتات المتفرّقة ووضعها في قرن واحد.

امتازَ ابنُ تيمية بخصائص علميّة منها:

• غزارة علومه:

لم يكنِ ابنُ تيمية مُقتصرًا على فنٍّ مِن الفنون العلمية، ولكنه أجاد ونبغَ في كثير من العلوم خاصّة علوم القرآن والسنة النبوية، بالإضافة إلى الرياضيات والفلك والجغرافيا والطبّ وغيرها، كما أنّه أحاط بالمذاهب الباطلة التي نشأت في عصره آنذاك ليردّ عليها، وليأخذ بأيدي مُعتنقيها إلى الصلاح.

ومِن هذه العلوم التي تميّز فيها:

١ – علوم القرآن:

كان علمُه بكتاب الله لافتًا؛ فقد كان يعرف دقائق القرآن ويستنبط المعاني بمهارة بالغة، وينقل أقوالَ العلماء في التّفسير ويستشهد بالدّلائل، «وَلَقَد كَانَ إِذا قرئ فِي مَجْلِسه آياتٌ من القُرْآن العَظِيم يشرع فِي تَفْسيرها فينقضي المَجْلس بجُملته والدرس برمّتِه وهوَ فِي تَفْسير بعض

آيَة مِنها، وَكانَ مَجلِسه فِي وَقت مُقَدّر بِقدر ربع النَّهار يفعل ذَلِك بديهةً من غير أن يكون لَه قارِئ معين يقْرأ لَه شيئًا معيّنًا يبيته ليستعدّ لتفسيره، بل كانَ مَن حضر يقرَأ مَا تيَسّر وَيأخُذ هُو فِي القَول على تَفْسيره، وَكانَ غالبًا لا يقطع إلَّا وَيفهم السامعون أنّه لَولا مُضيّ الزّمن المُعْتاد لأورد أشْياء أخَر في معنى ما هُو فيهِ من التَّفسير، لَكِن يقطع نظرًا في مصالح الحاضرين، وَلقَد أملى في تَفْسير ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ مجلدًا كبيرًا، وَقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥] نَحْو خمس وَثلاثينَ كراسة، وَلقَد بَلغني أنه شرع في جمع تَفْسير لَو أتمّه لبلغ خمسين مجلدًا»[١].

٢- علمُه بالسنة:

أمّا السنّة، فقد كان- أيضًا- مميّزًا في فهْمها والوقوف عليها، وكان بصره بِسنة رَسول الله ﷺ وأقواله وأفعاله وقضاياه وَوَقائعه وغزواته وسراياه وبعوثه، وَما خصّه الله- تعالى- مِن كراماته ومعجزاته ومعرفته بِصَحيح المَنْقول عَنه وسقيمه وَبَقِيَّة المَنْقول عَن الصَّحابَة - رضي الله عنهم- فِي أقْوالهم وأفعالهم وقضاياهم وفتاويهم وأحوالهم وأحوال مجاهداتهم في دين الله، وَما خصّوا بِه من بَين الأمّة، فإنَّه كانَ - رحمه الله - مِن أضبط النّاس لذلِك وأعرفهم فيه وأسرعهم اسْتحضارًا لما يُريده منْه؛ فإنَّه قلّ أنْ ذكر حديثًا في مُصَنّف أو فَتوَى أو اسْتشهد بِه أو استدلَّ بِه إلا وَعزاهُ فِي أي دواوين الإسلام هُو، وَمن أَي قسْم من الصَّحيح أو الحسن أو غَيرهما، وَذكر اسْم روايه مِن الصَّحابَة، وَقلّ أنْ يسْأَل عَن أثر إلَّا وَبَيّن في الحال حَاله وَحال أمره وذاكره»[٢].

• ابنُ تيمية بين العلماء:

لم يكنِ ابنُ تيمية مختصًّا كالأئمّة السابقين؛ فأبو حنيفة كان فقيهًا ولم يعرف إلّا أنّه فقيه، وإنْ كانت له في صدْر حياته جولة في علْم الكلام، فقد طرح الخلاف في علم الكلام إلى التخصّص

(١) الأعلام العلية، ص(٢١٢)، والكواكب الدرية، ص(١٤٩).
(٢) الأعلام العلية، ص(٢١، ٢٢).

في الفقه واستنباط الأحكام، ومالك كان فقيهًا ومحدّثًا، ولم تكن قدْ تميّزت التّفرقة بين الفقه والحديث تميّزًا كاملًا، والشافعي وإنْ كان الفصيح الأديب فقد تخصّص في الفقه وأصوله، ولذلك كانت دراسة علومهم سهلة؛ لأنها ناحية واحدة من العلم، والنواحي الأخرى كانت آراءً اعْتقدوها بوصف كوْنهم علماء مسلمين لا بوصف كوْنهم علماء مختصّين.

أمّا ابن تيمية، فجولاته في الفقه جعلته فقيهَ عصره، وجولاته في علم الكلام جعلته أبرزَ شخصية فيه، وتفسيراتُه للقرآن الكريم ودراسته لأصول التفسير ووضعه المناهج لها جعلته في صفوف المفسّرين، وله في كلّ هذه العلوم آراءٌ مبنيّة على فحص ودراسة، ويعدّ أوّل مَن جهر بها، وإنْ كان يقول: إنها مذهب السّلف وليست بدعًا ابتدعه، ولا بديئًا ابتكره، وإنّما هي رجعةٌ إلى حيث كان الإسلام في إبّان مجْدِه أيام كان غضًّا لم تلقِ عليه السنون غبارَ التقليد والنسيان[1].

لقد بلغ ابنُ تيمية بمواهبه الفطرية وعلوّ نفسه ومقدرتِه الفكرية وبعْدِ غايته وسموِّ قصدِه وإحاطته بزمَنه وأحوال أهلِه وبمختلف العلوم درسًا وتحصيلًا وتدريسًا وتأليفًا؛ رُتبةَ الاجتهاد في الفقه والإمامة في كلّ فنٍّ مارسه على فطاحل العلماء، وفاقَ فيه الأعْيان والنظراء، وتحدّث عن ذلك الثّقات من العلماء، وأثنوا عليه الثناءَ الحسن، وكان أتبعَ الناس للكتاب والسنّة وأقوال الصحابة والتابعين المقتفين آثارَ النبوة، فكان سلفيَّ العقيدة والمنهج[2].

• **نشأتُه العلمية:**

يقول الذّهبي- رحمه الله- واصفًا نشأةَ ابن تيمية العلمية التي بهرتِ العلماء والحكماء شارحًا لبعض صفاتِه الخُلقية والخِلقية:

«تحوّل به أبوه وأقاربه إلى دمشق في سنة سبعٍ وستين عند جوْر التتار منهزمين في الليل، يجرّون الذريّة والكتب على عجلة، فإنّ العدو ما تركَ في البلد دوابّ سوى بقر الحرْث، وكلّت

(١) ابن تيمية حياته وعصره، ص(١٣، ١٤).
(٢) شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية، للعلامة الشيخ حسنين مخلوف، ضمن تقدمة ديوان ابن تيمية، جمع وتحقيق وشرح: د محمد عبد الرحيم، ص(٣٩-٤١).

البقر من نقل العجلة، ووقفت، وخافوا أن يدركهم العدو، ولجئوا إلى الله- تعالى- فسارت البقرُ بالعجلة، ولطف الله- تعالى- حتى انْحازوا إلى حدّ الإسلام.

فسمع مِن ابن عبد الدايم[(١)] وابن أبي اليسر[(٢)] والكمال بن عبد[(٣)]، وابن أبي الخير[(٤)]، وابن الصيرفي، والشيخ شمس الدين[(٥)]، والقاسم الإربيلي[(٦)]، وابن علان[(٧)]، وخلق كثير، وأكثرَ وبالغَ وقرأ بنفسه على جماعة، وانتخب ونسخ عدّة أجزاء، و«سنن أبي داود»، ونظر في الرجال والعِلل، وصار مِن أئمّة النقد ومِن علماء الأثر، مع التديّن والنّبالة والذّكر والصيانة، ثمّ أقبل على الفقه ودقائقه وقواعده وحججه، والإجماع والاختلاف، حتى كان يقضى منه العجب إذا ذكر مسألةً من مسائل الخلاف، ثمّ يستدلّ ويرجع ويجتهد، وحقّ له ذلك؛ فإنّ شروط الاجتهاد كانت قد اجتمعتْ فيه، فإنني ما رأيت أحدًا أسرعَ انتزاعًا للآيات الدالة على المسألة

---

(١) محمد بن أبي بكر بن أحمد بن عبد الدائم المقدسي، ولد سنة ثمان أو ٦٤٩، وتوفّي في رجب سنة ٧٤٣، وسمع من جدّه السراجيات الخمسة. انظر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ٢/ ٤١٥، إكمال الكمال ٥/ ١١٣.

(٢) إسماعيل بن إبراهيم بن أبي اليسر شاكر بن عبد الله بن محمد بن عبد الله ابن أبي المجد مسند الشام تقي الدين شرف الفضلاء أبو محمد التنوخي المعري الأصل الدمشقي، ولد سنة تسع وثمانين وتوفي سنة اثنين وسبعين وستمائة، تفرّد بأشياء كثيرة، وكان متميّزًا في كتابة الإنشاء، جيّد النظم، حسن القول، ديّنًا، متصونًا، صحيح السماع، من بيت كتابة وجلالة، وكان جدّه كاتب الإنشاء لنور الدين. انظر: الوافي بالوفيات للصفدي ٣/ ١٩٥.

(٣) الكمال بن عبد: هو محمد بن علي بن عبد القوي الصالحي الحنبل، درس وأفتى وحذق وبرع في العربية واللغة، وعاش سبعين سنة.

(٤) ابن أبي الخير: هو أحمد بن سلامة بن إبراهيم الدمشقي الحنبلي المقرئ الخياط الدلال. ولد سنة ٥٨٩هـ، الموافق ١١٩٣م، وتوفي سنة ٦٧٨هـ الموافق ١٢٧٩م.

(٥) شمس الدين بن عطاء الحنفي، هو محمد بن إبراهيم بن عبد الله بن يوسف بن القاضي شمس الدين بن عطاء الحنفي الدمشقي، سمع من الفخر من مشيخته، كان قاضيًا، وتوفّي بدمشق في شوال سنة ٧٦٤ ه، (المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي) ٩٩/ ١، (الدّرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ٢/ ٣١٨).

(٦) القاسم بن أبي بكر القاسم بن غنيمة العدل أمير الدين أبو محمد الأربكي المقرئ المحدث.
ولد سنة خمس وتسعين، وتوفي ثماني وستمائة، وروى صحيح مسلم عن الطوى المؤبد بدمشق، من غير أصل. سمع منه ابن تيمية وابن الفتح. راجع: الوافي بالوفيا ١/ ١٩٨.

(٧) ابن علان: فقيه ومحدّث، وهو آخرُ مَن روى مِن الحفاظ عن الحافظ بن عساكر بدمشق. توفي عن عمرٍ يناهز التسع وثمانين سنة. البداية والنهاية (١٣/ ١٨٦).

التي يوردها منْه، ولا أشدّ استحضارًا لُمتون الحديث وعزْوها إلى الصحيح، أو إلى المسند أو إلى السّنن منه، كأنّ الكتاب والسنن نُصْب عينيه وعلى طرفِ لسانه، بعبارة رشيقة وعين مفتوحة، وإفحام للمخالف.

وكان آيةً من آيات الله- تعالى- في التّفسير والتوسّع فيه، لعله يبقى في تفسير الآية المجلسَ والمجلسين.

وأمّا أصول الدّيانة ومعرفتها ومعرفة أحوال الخوارج والروافض والمعتزلة وأنواع المبتدعة، فكان لا يشقّ فيه غباره، ولا يلحق شأوه.

هذا ما كان عليه من الكرم الذي لم أشاهدْ مثله قطّ، والشجاعة المفرطة التي يضرب بها المثل، والفراغ عن ملاذِ النفس من اللّباس الجميل والمأكل الطيب والراحة الدنيوية.

ثمّ استكمل الحديث واصفًا مؤلفاتِه بقوله: «ولقد سارت بتصانيفه الرّكبان في متون من العلم وألوان، ولعلّ تواليفه وفتاويه والأصول والفروع والزهد واليقين والإخلاص وغير ذلك تبلغ ثلاثمائة مجلدًا، لا بل أكثر من ذلك.

كان قوّالا بالحقّ، نهّاءً عن المنكر، لا تأخذه في الله لومةَ لائم، ذا سطوة وإقدام وعدم مداراة الأغيار، ومَن خالطه وعرفه قد ينسبني إلى التقصير في وصفه، ومَن نابذه وخالفه ينسبني إلى التّغالي فيه، وليس الأمر كذلك، مع أنني لا أعتقد فيه العِصمة، كلّا فإنّه مع سعة علمه، وفرط شجاعته، وسَيلان ذهنه وتعظيمه لحرمات الدّين؛ بشَرٌ من البشر، تعتريه حدّة في البحث وغضب، وشظف للخصْم يزرع له عداوة في النفوس، ونفورًا عنه، وإلّا- والله- لو لطف الخصوم ورفق بهم ولزم المجاملة، وحسن المكالمة؛ لكان كلمة إجماع، فإنّ كبارهم وأئمتهم خاضعون لعلومه وفقهه، مُعترفون بشغوفه وذكائه، مُقرّون بندور خطَئه، لست أعني بعضَ العلماء الذين شعارهم وهجيراهم الاستخفاف به، والازْدراء بفضله، والمَقت له، حتى استجهلوه وكفّروه، ونالوا منه مِن غير أن ينظروا في تصانيفه، ولا فهموا كلامَه، ولا لهم حظّ تامّ من التوسّع في المعارف، والعالمُ منهم قد ينصفه ويردّ عليهم بعلم، وطريق العقل السكوت عمّا شجر بين الأقران، رحم الله الجميع.

يواصل الذهبي- رحمه الله- الحديثَ عن شيخ الإسلام ابن تيمية موضحًا غزارة علمِه، وطرفًا مِن خلاف أعداء الشّيخ له، موضحًا ردّه على مَن اتّهمه بالكفر، واقعًا على أسباب هذا العداء، فيقول- رحمه الله:

«وأنا أقلّ مِن أن ينبه على قدْره كلمي، أو أنْ يوضّح نبأه قلمي، فأصحابُه وأعداؤه خاضعون لعلمه مَقرون بسرعةِ فهمه، وأنه بحرٌ لا ساحل له، وكنزٌ لا نظير له، وأنّ جوده حاتمي، وشجاعته خالديّة، ولكن قد ينقمون عليه أخلاقًا وأفعالًا، مُنصفهم فيها مأجور، ومقتصدُهم فيها معذور، وظالُمهم فيها مأزور، وغاليهم مغْرور، وإلى الله ترجع الأمور.

وكلّ أحدٍ يؤخذ من قوله ويُترك، والكمال للرسل، والحجّة في الإجماع، فرحِمَ الله أمرًا تكلّم في العلماء بعلم، أو صمت بحلم، وأمعن في مضايق أقاويلهم بتؤدة وفهم، ثمّ استغفرَ لهم ووسّع نطاق المعْذرة، وإلّا فهو لا يدري، ولا يدري أنه لا يدري، وإن أنت عذرت كبارَ الأئمّة في معضلاتهم، ولا تعذر ابن تيمية في مفرداته فقد أقررْت على نفسك بالهوى وعدم الإنصاف.

وإنْ قلت: لا أعذره لأنه كافر، هو والله- تعالى- ورسوله محافظٌ على الصلاة والوضوء وصوم رمضان، معظّم للشريعة ظاهرًا وباطنًا، لا يؤتى مِن سوء فهم، بل له الذّكاء المُفرط، ولا من قلّة علم، فإنه بحر زخّار بصيرٌ بالكتاب والسنة، عديم النظر في ذلك، ولا هو بمُتلاعب بالدين، فلو كان كذلك لكان أسرع شيء إلى مداهنة الخصوم وموافقتهم ومنافقتهم، ولا هو يتفرّد بمسائل بلا تشهّي، ولا يفتي بما اتفق، بل مسائله المفردة يحتجّ لها بالقرآن والحديث أو بالقياس، ويبرهنها ويناظر عليها ويطيل البحث أسوةً بمَن تقدّمه مِن الأئمة، فإنْ كان قد أخطأ فله أجرُ المجتهد من العلماء، وإنْ كان قد أصاب فَلَهُ أجْران، وإنّما الذّم والمقت لأحدِ رجُلين: رجل أفتى في مسألة بالهوى ولم يبدِ حجّة، ورجل تكلّم في مسألة بلا خميرة من علمٍ ولا توسّع في نقل، فنعوذ بالله من الهوى والجهل.

ولا ريبَ أنه لا اعتبار بذمّ أعداء العالم، فإن الهوى والغضب يحملهم على عدم الإنصاف والقيام عليه، ولا اعتبار بمدح خواصّه والغلاة فيه، فإنّ الحبّ يحملهم على تغطية هَناته، بل

قد يعدّوها له محاسن، وإنّما العبرة بأهل الورع، والتقوى من الطرفين الذين يتكلّمون بالقسط، ويقومون لله ولو على أنفسهم وآبائهم، فهذا الرجل لا أرجو على ما قلتُه فيه ذنبًا ولا مالًا ولا جاهًا بوجْه أصلًا، مع خبرتي التامّة به، ولكن لا يسعني في ديني وعقلي أنْ أكتم محاسنه، وأدفن فضائله، وأبرز ذنوبًا له مغفورة في سعة كرم الله تعالى، وصفحة مغْمورة في بحر علمه وجوده، فالله يغفر له ويرضى عنه، ويرحمنا إذا صرْنا إلى ما صار إليه، مع أني مُخالف له في مسائل أصلية وفرعية، قد أبديتُ آنفًا أنّ خطأه فيها مغفور، بل قد يثيبه الله- تعالى- فيها على حُسن قصده، وبذل وسْعِه، مع أني قد أوذيت لكلامي فيه مِن أصحابه وأضداده، فحسبي الله»[1].

• **ابن تيمية وجهادُه الفكري:**

استطاع ابنُ تيمية بأخلاقه وعلمه أنْ يصل إلى درجة الإمامة في العلم والعمل، والزهد والورع والشجاعة، والكرم والتواضع، والحلم والأناة والجلالة والمهابة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مع الصدق والأمانة، والعفة والصيانة وحسن القصد والإخلاص والابتهال إلى الله تعالى، وشدة الخوف منه، ودوام المراقبة له، والتمسّك بالأمر بالمعروف والدعاء إلى الله تعالى، وحسن الأخلاق، ونفع الخلق والإحسان إليهم[2].

وحريًّا برجُلٍ هذه صفاته أن يقف على مشكلات عصره، خاصّة بعدما رآها وقد خالفت وتجاوزت الحدّ في البُعد عن الكتاب والسنة ومنهج الصحابة - رضي الله عنهم - والسلف الصالح، وحياتهم المليئة بالأمجاد والتضحيات، من أجل الإسلام وإعلاء كلمته؛ أنْ يضع نفسَه مصلحًا ومجاهدًا لتلك النقائص التي تنتابُ عصره، وقد جعل الله ذلك فرضًا مِن فروض

---

(١) انظر: الدرر الكامنة لابن حجر العسقلاني، ص(٥٤٠، ٥٤١) الجامع.
ترجمة ابن تيمية من كتاب ذيل تاريخ الإسلام للحافظ شمس الدين الذهبي، تحقيق وتعليق: محمد بن ناصر العجمي، ط١، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م، دار ابن الأثير، الكويت، ص(٢٢، ٢٣).
انظر: ترجمة شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- الحافظ ابن حجر العسقلاني، تحقيق: ابن عبد الرحمن سعيد مغشاشة، دار ابن حزم، ط١، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م، ص(٣٩، ٤٠).
وانظر: مقدمة كتاب اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية للإمام أبي عبد الله الذهبي صاحب سير أعلام النبلاء، ص(٤، ٥، ٦).
(٢) ترجمة شيخ الإسلام، ص(١٣).

الكفاية على المسلمين؛ لذلك عمل جاهدًا على إزالة الأغشية التي غشيته بفعْل العصور وتوالي الجمود على أفكار لم تستق مِن منابع الشرع والدين؛ لذلك تعرّض لمخالفة علماءِ المُسلمين وفرق معتدلة لم تكن مُغالية أو لم تكن مُبتدعة، ثمّ تعرّض لمخالفة الصوفية فجاءه العَداء من ناحية التيّار الأشعري والماتريدي، ثمّ من ناحية الصوفية الذين كانوا يشعْوذون إنْ لم يكن في قلوبهم ونيّاتهم الكيد للإسلام، ثمّ مِن ناحية الفقهاء الذين خرج عليهم بآرائه الفقهية، التي لم يكن لهم عهدٌ بها، فكان كلّ أولئك مُنازعين على مودّة في أحيان قليلة، وعلى عداوة في أكثر الأحيان، فناظر كلّ طائفةٍ من هذه الطوائف، وجادلها بالقول في المجالس الحافلة، وبالرسائل يرسلها قويّة بالحجّة الدافقة، حتى ابتلي وسُجن[(١)].

ولعلّ ما قام به ابن تيمية يُمكننا أن نلخصه في النقاط الآتية:

١- تجديد عقيدة التوحيد، وإبطال العقائد الشركية.

٢- نقد الفلسفة والمنطق وعلم الكلام، وترجيح منهج الكتاب والسنة وأسلوبها على كلّ منهج وأسلوب.

٣- الردّ على الفرق والمِلل غير الإسلامية، ومقاومة عقائدها وتقاليدها وتأثيرها.

٤- تجديد العلوم الشرعية، وبعث الفكر الإسلامي.

٥- قيامه بالجهاد بالنفس وتغْيير المنكر، وكان رائدًا للتجديد والإصلاح والنهضة السلفية وإعادة البناء بعد سقوط الخلافة[(٢)].

- **وسائلُ ابن تيمية في عطائه العلمي:**

تعدّدت وسائلُ ابن تيمية في مجال جهاده بالعلم إلى وسائل متعدّدة ومتنوّعة طبقًا للظروف والأحوال، فهو مع عامّة الناس ومؤيّديه؛ تجد الفتاوى والمحاضرات المتنوعة الطويلة، والرسائل القوية التي توضّح لهم ما غمض عليهم، أو حلول واعية لكلّ ما يعْتريهم مِن مُشكلات، ومع

(١) ابن تيمية حياته وعصره، ص(١٠٥).
(٢) رجال الفكر والدعوة، ص(٦).

المخالفين تجدُ المناظرات والمناقشات الجادّة المستندة إلى الأدلّة الواضحة مِن الكتاب والسنة؛ لمحْو البدع وتصحيح الأفكار من العقائد الفاسدة، متحمّلًا كلّ المشاقّ والانتقادات والخلافات في سبيل الوصول إلى الحقيقة الناصعة.

وأيضًا في كلّ الأوقات المتاحة تقريبًا نجدُه مؤلفًا شارحًا كلّ ما يستطيع تقديمه للناس من قضايا وحلول فكرية واجتماعية، أو سياسية دولية، فهو لا يرى نفسه إلّا مُصلحًا قدِ اختاره الله – عز وجل – لهذا الزّمن ليجدّد للناس دينهم، ويخلّصهم من المفاسد التي اعْترتهم من تكْرار الغفوة عن المنهج الرباني.

أمّا فتاويه فيبيّنها البزار في كتابه الماتع «الأعلام العليّة» بأنها أكثر مِن أن يحصيها «ومصنفاته فإنَّها أكثر من أن أقدر على إحصائها أو يحضرني جملَة أسمائها، بل هَذا لا يقدر عَليه غالبًا أحد؛ لأنَّها كَثيرَة جدًّا كبارًا وصغارًا، وَهي منشورة في البلدانِ، فَقلّ بلد نزلته إلَّا وَرأيْت فِيه مِن تصانيفه»[1].

وقد صدق؛ فقد أفردت بدراسات مُفردة كدراسة ابن القيم، وكالتي جمعَها علّامة الحجاز الفاضل الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد بعنوان الجامع لآثار ابن تيمية– كما سيأتي.

• **دروسُه:**

وأمّا دروسه، فيبيّنها بيانًا واضحًا البزار نفسُه بقوله: «وأمّا ذكر دروسه فقد كنت في حال إقامتي بِدمَشق لا أفوتها، وَكانَ لا يهيئ شيئًا من العلم ليلقيه ويوردَه، بل يجلس بعد أن يُصَلّي رَكعَتَيْن فيحمد الله ويثني عَلَيه ويُصلي على رَسوله ρ على صفة مُسْتحسنة مُسْتعذبة لم أسمعْها من غيره، ثمّ يشرع فَيفتح الله عَلَيه إيراد عُلوم وغوامض ولطائف ودقائق وفنون ونُقول واستدلالات بآيات وَأحاديث وأقوال العلماء وَنصر بَعضها وَتبين صِحَّته أو تزييف بَعضها وإيضاح حجَّته، واستشهاد بأشعار العَرَب، وَرُبما ذكر اسْم ناظمها، وهُو مَع ذَلك يجْري كَما يجْري السَّيْل، وَيفيض كَما يفيض البَحْر، وَيصير منذُ يتكَلَّم إلَى أن يفرغ كالغائب عَن الحاضرين

(١) الأعلام العلية، ص(٢٦).

مُغمضًا عَيْنيه، وَذلكَ كُله معَ عدم فكر فيهِ أو رويّة من غير تعجْرف، وَلا توقف ولا لحْن، بل فيض إلهي حتَّى يبهر كلّ سامع وناظر، فَلا يزال كَذلك إلَى أن يصمت، وَكنت أراه حينئذٍ كأنَّه قد صار بحضرَة من يشْغلهُ عَنْ غَيره، وَيقَع عَلَيه إذْ ذاك مِن المهابة ما يرعد القُلوب ويحيّر الأبْصار والعقول، وَكانَ لا يذكُر رَسول الله ﷺ قطّ إلّا وَيصلي وَيسلم عَلَيه، وَلا والله ما رَأيْت أحدًا أشدّ تَعظيماً لرَسول الله ﷺ وَلا أحرص على اتّباعه وَنَصْر ما جاءَ به مِنْه، حتَّى إذا كانَ وردّ شيء من حَديثه في مَسْألة، ويرى أنه لم ينسخه شَيء غَيره من حَديث يعْمل بهِ وَيقضي ويفتي بمقْتضاهُ وَلا يلْتَفت إلى قَول غَيره من المخلوقين كائِنًا مَن كان»[١].

• **مؤلفاتُه:**

بدأ شيخُ الإسلام التأليفَ في سنّ مُبكرة وله تسعة عشر عامًا، وعاش سبعًا وستين عامًا؛ لذلك كثرت مؤلفاته، وتعدّدت أقوال العلماء في عددِ مؤلفاته؛ فقد ذكر الذهبي أنّ تصانيفه بلغت أربعة آلاف كرّاسة أو أكثر[٢]، وأوصل السيوطي عددَها إلى ثلاثمائة، وحكى الصفدي[٣] وابن شاكر عن الذهبي أنه عدّها خمسمائة مؤلفًا[٤].

وقيل: إنها بلغت مائتي مجلد أو أكثر[٥].

وقيل: إنها ألف[٦].

وأجمع أغلبُ العلماء على أنّ مُصنّفاته أكثر مِن أن تحصى؛ لأنها كثيرة جدًّا، كبارًا وصغارًا، وهي مَنشورة في البلدان، ولعلّ سببَ اختلاف العلماء في عددها كثرتها، وأنّ منهم مَن حصرها مجلدات، ومنهم مَن حصرها كتبًا، أو رسائل.

---

(١) السابق، ص(٢٨).
(٢) ترجمة شيخ الإسلام ابن تيمية، ص(١٧).
(٣) خليل بن أيبك بن عبد الله الأديب صلاح الدين الصفدي أبو الصفاء، ولد سنة ستّ أو سبع وتسعين وستمائة تقريبًا، وتعلّم صناعة الرسم فمَهَر فيها، ثمّ حُبّب إليه الأدب فولع به، وكتب الخط الجيد، ومات بدمشق في ليلة عاشر شوال سنة ٧٦٤، الدرر الكامنة: ٢/ ٢٠٧ وما بعدها
(٤) شذرات الذهب، (٦/ ٨٤).
(٥) الأعلام العلية، ص(٢٦).
(٦) الشهادة الزكية، ص(٤٣)، والعقود الدرية، ص(٢٣).

• أسبابُ كثرة مؤلّفات ابن تيمية:

كثرتْ مؤلّفات ابن تيمية كثرةً لافتةً للنظر، ولذلك أسبابٌ كثيرة، منها: أنه بدأ التأليف من صغره- كما سبق، واستمرّ عليه ولم يتركْه، حتى في فترات المحنة وسنوات السّجن، كما كان يؤلّف من صدره لحفظه لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وما دوّن فيهما مِن شرح، وما قاله العلماء في تفسيرهما، وقد ساعدته كثرةُ محفوظاته وفيضُ خاطره وسعةُ بيانه على تدوين حقائق لم يكتبْ لعالم مثله في موضوعه، ولو لم يكنْ له سوى منهاج السنة لَكَفاه على الأيام فخرًا[1].

• أسبابُ تعذّر حصر مؤلفاته:

حصرُ مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية متعذّرة وغير مُمكنة بشهادة كثيرٍ مِن العلماء، ويرجع ذلك لأسبابٍ، منها:

١- سرعة كتابته؛ فهو يكتب مِن حفظه، مِن غيْر نقل، ويكتب في كلّ زمان ومكان، وعلى أي حال.

٢- صعوبة خطّ الشيخ؛ لهذا لا يبيّض ما كتبه، وقد شعر الشيخ بذلك فطلب إظهارَ ذلك وعدمَ كتمانه؛ لينتشر، ولكنّ التلاميذ لم يفعلوا فانتشر بعد وفاته.

٣- أنّه كان يكتب الجوابَ لبعض السائلين فيذهب بخطّه، وبما كتب فيه فإنِ اطّلع عليه بعض التلاميذ بيّضَه، وإلّا ذهب معه، فقد يظهر يومًا من الأيام بعد وفاة الشيخ، أو لا يظهر أبدًا.

٤- يكتب الشيخ المجلدَ في اليوم الواحد أو أكثر من ذلك.

٥- يجيب الشيخُ على الأسئلة الموجّهة إليه مكتوبة كتابة بأكثر من مجلد؛ لهذا كثرتْ مؤلّفاته مع جَهالة اسم المؤلف؛ لأنها إجابةٌ لسؤال، فقد يسمّى باسم السائل.

٦- الفتن والامتحانات التي تعرّض لها شيخ الإسلام.

٧- خوف أصحابه من إظهار كتبه بعد حبْس الشيخ، وذهاب كلّ واحدٍ بما عنده، وتفرّقهم.

---

(١) ترجمة شيخ الإسلام ابن تيمية، ص(٢٨).

٨- أكثر ما كتبه في الحبْس صودرَ وأخذه منه خصومه، ومنها ما أتلف، وحتى بعدَ وفاته إلى عصور متأخّرة؛ حيث قام بعضُ أعيان دمشق من خصوم الشيخ بمحاولاتٍ عديدة لإتلاف كتبه(١).

يقول الإمام الصفدي في معرض الحديث عن عدم حصْر كتب الشيخ وتصانيفه، وصعوبة ذلك: «مَن الذي يأتي على مجموعها، ولله درّ القائل:

إنّ في الموج للغريق لعذرًا واضحًا أن يفوته تعداده»(٢)

وقد نصّ ابنُ رجب على ذلك بقوله: «وأمّا تصانيفه- رحمه الله- فهي أشهرُ مِن أن تُذكر، وأعرف مِن أن تُنكر. سارت مسير الشمس في الأقطار، وامتلأت بها البلاد والأمْصار، قد جاوزت حدّ الكثرة، فلا يمكن لأحدٍ حصرها، ولا يتّسع هذا الكلام لعدّ المعروف منها ولا ذكرها، وقد بلغت ثلاثمائة مجلدة.

وكتب بخطّه من التصانيف والتعاليق المفيدة، والفتاوى المشبعة في الأفرع والأصول والحديث وردّ البدع بالكتاب والسنة؛ شيئًا كثيرًا، يبلغ عدّة أحمال، وقد امتحن وأوذي مرارًا»(٣).

ويقول ابن عبد الهادي: «وعددُ مصنّفاته تحتاج إلى أوراق كثيرة، ولا أعلم مِن المتقدّمين ولا مِن المتأخّرين مَن جمع مثل ما جمع، ولا صنّف نحو ما صنّف، ولا قريبًا مِن ذلك، مع أنّ تصانيفه كان يكتبها مِن حفظه»(٤).

• صفةُ مصنّفاته:

يقول ابن الزملكاني عن مصنفات الشيخ وصفاته العلمية: كان إذا سئل عن فنٍّ مِن العلم ظنّ الرائي والسّامع أنه لا يعرف غير ذلك الفن، وحكم أنّ أحدًا لا يعرف مثله، وكان الفقهاء مِن سائر الطوائف إذا جلسوا معه استفادوا في مذاهبهم منه ما لمْ يكونوا عرفوه قبْل ذلك، ولا

(١) انظر: جهود شيخ الإسلام ابن تيمية في توضيح الإيمان بالقدر، د/ تامر متولي، ص(٤٥).
(٢) انظر: منهج شيخ الإسلام ابن تيمية في التأليف، ومراحله المتعددة، ط: أولى، ١٤٢٠هـ- ١٩١٩م، د/ عبد الله محمد الحجيلي، ص(٢٢)، وانظر البيت في: زهر الأكم في الأمثال والحكم، (٢/ ٢٥٨).
(٣) طبقات المفسرين للداوودي، (١/ ٤٩) ضمن الجامع.
(٤) مختصر طبقات علماء الحديث، ص(٢٥٧) ضمن الجامع.

يعرف أنه ناظرَ أحدًا فانْقطع معه، ولا تكلّم في علم من العلوم سواء كان مِن علوم الشرع أو غيرها إلّا فاقَ فيه أهله والمنسوبين إليه، وكانت لهُ اليدُ الطولى في حُسن التّصنيف وجودة العبارة والترتيب والتقسيم والتبيين»(١).

لقد كان أسلوبُ ابن تيمية موسوعيًّا خاليًا من الجفاف، مُعتمدًا على الاستدلال بالقرآن والسنة، نابذًا للمنطق وعلم الكلام(٢).

• **أسماءُ مؤلفاته:**

ذكر كثيرٌ من العلماء مؤلفاته، فمنهم مَن ذكرها مُفردة كابن القيم وابن الرشيق، ومنهم مَن ذكرها ضمْن ترجمته مثل ابن عبد الهادي في طبقات علماء الحديث، والكواكب الدريّة، والصفدي في الوافي بالوفيات، والداودي في طبقات المفسرين، والبزار في الأعلام العليّة، فنرى البزار- مثلًا- يتحدّث عن كتب الشيخ وكثرتها، وتنوّعها بقوله: «وَمن أعجب الأَشْيَاء في ذَلِك أنه في محنته الأولى بِمصْر لما أُخذ وسجن وحيل بَينه وَبَين كتبه؛ صنّف عدَّة كتب صغارًا وكبارًا، وَذكر فِيهَا مَا احْتَاجَ إِلَى ذكره من الأَحَادِيث والآثَار وأقوال العلمَاء وَأَسْمَاء المُحدثين والمؤلفين ومؤلفاتهم، وَعزا كلّ شيء من ذَلِك إِلَى ناقليه وقائليه بأَسْمائِهِمْ، وَذكر أَسمَاء الكتب الَّتِي ذكر فِيهَا، وَأي مَوضِع هُوَ مِنْها، كلّ ذَلِك بديهة من حفظه؛ لأَنَّهُ لم يكن عِنْده حِينَئِذٍ كتاب يطالعه، ونقبت واختبرت واعتبرت فَلم يُوجد فِيهَا بِحَمْد الله خلل، وَلا تغيّر، وَمن جُمْلَتهَا كتاب الصارم المسلول على شاتم الرَّسول»(٣).

ومِن عجائبه- أيضًا- ما أخبر به تلميذُه الإمام البزار بقوله: أَخْبرنِي الشَّيْخ الصَّالح تَاج الدّين مُحَمَّد المَعْرُوف بابْن الدوري أنه حضر مجْلِس الشَّيْخ - رحمه الله - وَقد سَأَلَهُ يَهُودِيّ عَن مسألة فِي القدر قد نظمها شعرًا في ثَمانِيَة أبْيَات، فَلَمَّا وقف عَلَيْهَا فكر لَحْظَة يسيرَة وأنشأ يكْتب جوابها، وَجعل يكْتب وَنحن نظن أنه يكْتب نثرًا، فَلَمَّا فرغ تَأمله من حضر من أَصْحَابه وَإِذا هُوَ

(١) الردّ الوافر، ص(٥٨)، والعقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، ص(٣٨٩)، ولمحات تاريخية من حياة ابن تيمية، (٤/ ١٠٩)، والشهادة الزكية في ثناء الأئمة على ابن تيمية، ص(٣٦).
(٢) ترجمة شيخ الإسلام ابن تيمية، ص(٢٨).
(٣) الأعلام العلية، ص(٢٢).

نظم في بَحر أَبْيَات السُّؤَال وقافيتها تقرب من مائة وَأَرْبَعَة وَثَمَانِينَ بَيْتًا، وَقد أبرز فِيهَا من الْعُلُوم مَا لَو شرح بشرح لجاء شَرحه مجلدين كبيرين، هَذَا من جملَة بواهره، وَكم من جَوَاب فَتْوَى لم يسْبق إِلَى مثله»[١].

وقد جمعَ ابن القيم كتبَ ورسائل شيخ الإسلام ابن تيمية التي قام بتأليفها في رسالة وهي مطبوعة، يقول البزار- رحمه الله: «وَأما مؤلفاته ومصنفاته فَإِنَّهَا أَكثر من أن أقدر على إحصائها أو يحضرني جملَة أسمائها، بل هَذَا لا يقدر عَلَيْهِ غالبًا أحد؛ لأَنَّهَا كَثِيرَة جدًّا كبارًا وصغارًا، وَهِي منشورة فِي البلدانِ فَقلّ بلد نزلته إِلَّا وَرَأَيْت فِيهِ من تصانيفه، فَمِنْهَا مَا يبلغ اثني عشر مجلدًا كـ: تَلخِيص التّلبيس على أساس التَّقْدِيس وَغَيره، وَمِنْهَا ما يبلغ سبعَةَ مجلّدات كـ: الجمع بَين العقل والنَّقْل، وَمِنْهَا ما يبلغ خمسَةَ مجلدات، وَمِنْهَا منهاج الاسْتِقَامَة والاعتدال وَنَحْوه، وَمِنْهَا مَا يبلغ ثَلاثة مجلدات كـ: الرَّد على النَّصارَى وَشبهه، وَمِنْهَا مجلّدان كـ: نِكاح الْمُحَلّل وَإِبْطال الحيَل وَشرح العقيدة الأصبهانيّة، وَمِنْهَا مُجَلّد وَدون ذَلِك.

وَهَذانِ القسمان من مؤلفاته فَهِيَ كَثِيرَة جدًّا لا يمكنني استقصاؤها، لَكِن أذكر بَعْضها استئناسًا، كتاب تَفْسِير سُورَة الإخلاص مُجلد، كتاب الكَلام على قَوْله – عز وجل –: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾، كتاب الصارم المسلول على شاتم الرَّسول، مُجلد، كتاب الفرْقَان الْمُبين بَين الطَّلاق وَاليَمين، كتاب الفرق بَين أَوْلِيَاء الرَّحْمَن وأولياء الشَّيْطان، كتاب اقْتِضاء الصِّراط الْمُسْتَقيم مُخالفَة أَصْحاب الجَحيم، كتاب الكَلم الطّيب، كتاب إِثْبات الكَمال، كتاب الرَّد على تأسيس التَّقْديس، كتاب الجمع بَين العقل وَالنَّقْل، كتاب نقض أَقْوَال المبتدعين، كتاب الرَّد على النَّصارَى، كتاب منهاج الاسْتِقامَة، كتاب إبطال الحيَل وَنِكَاح الْمُحَلّل، كتاب شرح العقيدة الأصبهانية، كتاب الفتاوى، كتاب الدّرّ الْمُلْتَقط، كتاب أَحْكَام الطَّلاق، كتاب الرسالَة، كتاب اعْتِقَاد الفرْقَة النَّاجِية، كتاب رفع الملام عَن الأَئِمَّة الأَعْلام، كتاب تَقْرير مسائِل التَّوْحيد، كتاب الاستغاثة والتوسّل، كتاب المسائِل الحموية، كتاب المسائِل الجزرية، كتاب المسائِل المفردة»[٢].

---

(١) الأعلام العلية، ص(٢٦، ٢٧).

(٢) الأعلام العلية، ص(٢٣) وما بعدها.

• **خصائصُه العلمية:**

يُمكننا بعدما ذكرنا ثناءَ العلماء عليه وعلى مؤلفاته، وتحدّثنا عن صفة تلك المؤلفات وأسمائها؛ أنْ نذكر الخصائص العلمية لشيخ الإسلام ابن تيمية؛ بيانًا لتطابق تلك الشهادات الزكيّة في ثنائهم عليه، وعنايتهم به، على النحْو الآتي:

١- النظرة الشموليّة للعلوم؛ حيث إنه لم يقتصرْ على علمٍ بعينه، وهذا ما أهّله للقيام بعلم السنن قيامًا لافتًا للنظر، مسترعيًا للانتباه.

٢- تمكّنه من هذه العلوم، واستحضاره لها في وقت الحاجة بمهارةٍ فائقة، وهذا ما يفسّر لنا تلك الكثرة والتنوّع في مؤلفاته- كما سبق.

٣- السّعة والغزارة مِن تلك العلوم، حتى تناولت معظم الدراسات الشرعية، وتعمّقت حتى أفاضت بالجديد مِن الآراء.

٤- الاستغراق الذّهني التامّ في العلم، حتى إنه ملك عليه نفسه، فلا يلتفت إلى شيءٍ من الدنيا، مِن ملاذّها وأهوائها.

٥- سموّ الغاية في تحصيل العلْم، فهو لم يتعلّم العلم ليسودَ الناس أو ليجهل عليهم، أو ليماري به السّفهاء، أو للحصول على منزلةٍ مادية عارضة، ولكنه تعلّم العلم ليتقرّب به إلى الله، ويقوم بإصلاح المسلمين وواجبه نحوهم من النّصح والنّفع.

٦- وضوح الغاية والتمسّك بها، ووضع أسس منظّمة ومنهج واضح للوصول إلى هذه الغاية، وتلك الأسس مُعتمدة على ميراث الأنبياء والرسل والسلف الصالح.

٧- غزارة مؤلفاته، كما سبق البيان عنها، حتى وصلت إلى ألفي مؤلف، غير الرسائل وما فقده أثناء محْبسه.

٨- امتازت كتبُه بالاتزان والتّنظيم والنظرة الشمولية الجامعة للقضايا التي يشرحها في مهارةٍ عالية ولغةٍ قويّة وفصاحة وسهولة، وحُسن ترتيب.

وهكذا أهّلَت ابن تيمية تلك المكانةُ العلمية أنْ يكون سيفًا مسلولًا على المخالفين، وشجى في حلوق أهلِ البدع والأهواء، وإمامًا قائمًا ببيان الحقّ ونصرة الدين طنّت بذكره الأمصار، وضنّت بمثله الأعصار(١).

• **شيوخُ ابن تيمية، ومصادرُ تلقّيه للعلم:**

نشأ ابنُ تيمية في حجور العلماء، راشفًا كؤوس المفهوم، راتعًا في رياض التفقّه، ودوحات الكتب الجامعة لكلّ فنّ مِن الفنون، لا يلوي إلى غير المطالعة والاشتغال والأخذ بمعالي الأمور، وخصوصًا علم الكتاب والسنة النبوية ولوازمها.. هكذا وصفه بعضُ قرناء الشيخ- رحمه الله(٢).

لقد كانت نشأةُ ابن تيمية الأولى هي الشيخَ الأول الذي أورثه عشقَ العلم واحترامه، وعلمته الاتزان النفسي؛ فورث عقلًا نابهًا قادرًا على الاختيار والتمييز بين الحقّ والباطل، كما أورثته قلبًا نابضًا يحبّ الله – عز وجل –، يستطيع دائمًا التفرقةَ بين الكذب والصّدق، الحقّ والباطل، الصواب والخطأ، فكان محصّلته الفكرية تابعة لشخصيته الذاتيّة، فهو حريصٌ على التعلّم والفهم والإدراك لكلّ ما يجده أمامه، ووسيلته إلى ذلك التي ورثها ولا يثق إلّا بها هي الكتاب والقراءة والحرص على العلم الموسوعي في كلّ المَجالات؛ ليزداد إدراكًا وفهمًا للحياة وللكوْن والمجتمع، ثمّ ليتعلّم كيف يصحّح الأخطاء، ويردّ الأمور إلى الصواب الذي تربّى عليه، ولم يرَ غيره في حياته.

لقد كانت بيئةُ ابن تيمية هي أولَ تأثير في حياته العلمية، حيث كان لأبيه دورٌ بارز في تلقّيه المذهب الحنبلي، كما أنّ صلة والده بالعلماء أورثته معرفةً قويّة بالعلماء وامتزاجًا بهم.

لقد تنوّعت مصادر المعرفة في عصر ابن تيمية، فلم يكنِ التلقّي من أفواه الرجال فقط كما كان الشأنُ في عصر أبي حنيفة ومالك، بل كان تلقي العلم كما هو في عصر تدْوين العلم مِن ناحيتيْن: مِن الرجال الذين يوجّهون ويلقنون ويتخرّج العالم عليهم، ومِن الكتب؛ يدرسها ويفْحصها وينقّب فيها، ومِن مجموع ما يتغذّى ممّا يتناوله مِن شيوخه، وما يستخرجُه مِن بطون

(١) ترجمة شيخ الإسلام ابن تيمية، ص(١٣).
(٢) العقود الدرية، ص(٩).

الكتب تتكوّن المادة العلمية التي يبني عليها، ويستنبط منها، ويزيد عليها، وقد يأتي بلونٍ آخر مِن ألوان الفكر.

- **مادّتُه الأولى فيما درس:**

لقد بلغ شيوخُ ابن تيمية الذين سمعَ منهم أكثرَ مِن مائتي شيخ، يقول صاحب الكواكب الدريّة: «فلمْ يزلْ إبّان صغره مستغرقَ الأوقات في الجدّ والاجتهاد، وختم القرآن صغيرًا، ثمّ اشتغل بحفظِ الحديث والفقه والعربية، حتى برعَ في ذلك مع ملازمته مجالس الذّكر وسماع الأحاديث والآثار، ولقد سمع غيرَ كتاب على غيرِ شيخ من ذوي الرّوايات الصحيحة العالية.

أمّا دواوين الإسلام الكبار كمُسند أحمد وصحيح البخاري ومسلم، وجامع الترمذي وسنن أبي داود السجستاني والنسائي وابن ماجه والدارقطني؛ فإنه سمعَ كلًّا منْها مرّات عديدة، وأول كتابٍ حفظَه في الحديث الجمْعُ بين الصحيحين للإمام الحميدي، كذا قال الشيخ الحافظ سراج الدين أبي حفص عمر.

وسمعَ مِن مشايخ كابن عبد الدايم المقْدسي وطبقته، وطلب بنفسه قراءة وسماعًا من خلق كثير، وقرأ الكتبَ الكبار وكتب الطبقات، ولازَمَ السماع، واشتغل بالعلوم.

قال ابن عبد الهادي بنُ قدامة: وشيوخُه الذين سمع منهم أكثرُ مِن مائتي شيخ، وسمع مسندَ الإمام أحمد مرّات، وسمع الكتب الكبار والأجزاء، ومِن مسموعاته معجم الطبراني الكبير، وعُني بالحديث، وقرأ ونسخَ وانتقى، وتعلّم الخطّ والحساب في الكتّاب، وحفظ القرآن وأقبلَ على الفقه، وقرأ في العربية، وأخذ يتأمّل كتاب سيبويه حتى فهمَه وبرعَ في النحو، وأقبل على التفسير إقْبالًا كليًّا حتى حازَ فيه قصَبَ السّبق، وأحكم أصولَ الفقه وغير ذلك، هذا كلّه وهو بعْدُ ابنُ بضع عشرة سنة، فانبهر الفضلاء من فرْط ذكائه، وسَيلان ذهْنه، وقوة حافظته وسرعة إدراكه[1].

---

(١) ابن تيمية حياته وعصره، ص(٥٦).

وذكر ابنُ عبد الهادي[١] في كتاب «ذيل طبقات الحنابلة» أنه سمع من ابن أبي اليسر والكمال بن عيد[٢]، والشيخ شمس الدين الحنبلي[٣]، والقاضي شمس الدين بن عطاء الحنفي[٤]، والشيخ جمال الدين بن الصيرفي[٥]، ومجد الدين بن عساكر[٦]، والنجيب المقداد[٧] وابن أبي الخير[٨] وابن علان[٩]، وأبي بكر الهروي[١٠] والكمال عبد الرحيم فخر الدين بن البخاري[١١]، وابن شيبان، والشرف بن القواس، وزينب بنت مكي[١٢]، وخلق كثير[١٣].

---

(١) محمد بن أحمد بن عبد الهادي بن عبد الصمد بن عبد الهادي بن محمد بن قدامة المقدسي الحنبلي شمس الدين، ولد في رجب سنة ٧٠٥، تردّد إلى ابن تيمية، مهَرَ في الحديث والفقهِ والأصول والعربيةِ وغيرها، مِن أهمّ كتبه الأحكام في ثمانية مجلدات، والمحرّر في الحديث، وجمع التفسير المسند، كان حافظًا علّامة ناقدًا، حصل من العلوم ما لا يبلغه الشيوخ الكبار، وبرع في الفنون، وكان بارعًا في العلل والطرق والرجال. (البدر الطالع بمحاسن من بعْد القرن السابع ٢/ ١٠٢، ذيل طبقات الحنابلة ١/ ٣٥٧)

(٢) هو محمّد بن علي بن عبد القوي الصالحي الحنبلي. توفي بمارستان البلد في رجب. درس وأفتى وحذق وبرع في العربية واللغة، وعاش سبعين سنة.

(٣) شمس الدين الحنبلي كان من الأئمة الأجلّاء، ضليعًا بعلوم الفقه والتفسير، أخذ عنه ابن تيمية وغيره، انظر البداية والنهاية: ١٤/ ١٣٦.

(٤) هو من أساتذة شيخ الإسلام ابن تيمية، البداية والنهاية: ١٤/ ١٣٦.

(٥) جمال الدين الصيرفي: عالم فقيه محدث و معتمد* ثبته الإمام ابن كثير و دققه في البداية والنهاية ثمّ كان من أساتذة ابن تيمية. درس عليه الفقه والتفسير. (البداية والنهاية ١٤/ ١٢٦).

(٦) هو القاسم بن أبي غالب المظفر بن محمود طبيب عالم بالحديث كتبت له مشيخة في سبعة مجلدات لزم بيته منقطعا إلى تدريس الحديث، انظر الدرر الكامنة: ٣/ ٢٣٩، والبداية والنهاية: ١٤/ ١٠٨، والأعلام: ٥/ ١٨٥.

(٧)) النجيب المقداد هو نجيب الدين المقدار بن أبي القاسم القيسي، قال ابن النجار: كان حافظا حجة نبيلا جم العلم كثير المحفوظ من أعلام الدين وأئمة المسلمين كثير العبادة والتهجد والصوم وله شعر جيد في الزهديا وسمع منه المصريون والبرزالي أي روح والمؤيد، مات في ربيع الآخر سنة ٦١٩ .(سير أعلام النبلاء ٢٢/ ١٦٥).

(٨) هو أحمد بن سلامة بن إبراهيم الدمشقي الحنبلي المقرئ الخياط الدلال. ولد سنة ٥٨٩هـ الموافق ١١٩٣ م وتوفي سنة ٦٧٨هـ الموافق ١٢٧٩م، انظر: المنهل الصفي والمستوفي بعد الوافي: ١/ ٥٧.

(٩) فقيه و محدث و هو آخر من روى من الحفاظ عن الحافظ بن عساكر بدمشق. توفي عن عمر يناهز التسع وثمانين سنة. البداية والنهاية (١٣/ ١٨٦).

(١٠) السائح علي بن أبي بكر الهروي الزاهد الفاضل الجوال الشيخ علي بن أبي بكر الهروي الذي طوّف، غالب المعمور وقلّ أن تجدَ موضعًا معتبرًا إلّا وقد كتب اسمه عليه مولده بالموصل واستوطن حلب، وله بها رباط، وجمع تواليف وفوائد وعجائب، وله كتاب المزارات وألّف خطبًا، مات في رجب٦١١. (إكمال الكمال ٢/ ٣٩) (إكمال الكمال ٤/ ٥٦١) (سير أعلام النبلاء ٢٢/ ٥٦،٥٧).

(١١) عالم ومحدّث، أخذ عليه ابن تيمية الفقه، البداية والنهاية، ١٤/ ١٣٥.

(١٢) هي زينب بنت مكي بن علي الحراني، فقيهة، ازدحم عليها الطلبة لطلب العلم، ولدت عام ٥٩٤ هـ، وتوفيت في دمشق عام ٦٨٨هـ.

(١٣) ص(٢٤٩).

لقد ذكر الشيخ الذهبي- رحمه الله- بعضَ أسماء مشايخ ابن تيمية مثل: ابن عبد الدايم، وابن أبي اليسر، والكمال بن عبد، وابن أبي الخير، وابن الصيرفي، والشيخ شمس الدين والقاسم الإربلي، وابن علان[١].

ونذكر بعضًا مِن أسماء شيوخِه:

١- الإمام المحدّث الفقيه مسند الشام أبو العباس زين الدين أحمد بن عبد الدايم بن أحمد المقدسي المولود سنة ٥٧٥ هـ، من شيوخ الحنابلة، عالم بالحديث، توفي سنة ٦٦٨ هـ[٢].

٢- الشيخ الإمام العالم العلّامة، الزاهد قاضي القضاة شمس الدين، أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن قدامة المقدسي الحنبلي، ولد في محرم سنة ٥٩٧هـ، وتوفي سنة ٦٨٢هـ، وكان عالمًا في الفقه والحديث والأصول[٣].

٣- الإمام الفقيه القاضي شرف الدين أبو العباس أحمد بن أحمد بن نعمة المقدسي الشافعي، المولود سنة ٦٢٢ هـ، برع في الفقه والأصول والعربية، توفي سنة ٦٩٤هـ[٤].

٤- والده الإمام الفقيه العلامة المحدث أبو المحاسن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني، المتوفّى سنة ٦٨٢هـ، سمع منه بحرّان سنة ٦٦٦هـ[٥].

٥- الإمام الفقيه المحدث زين الدين أبو البركات المنجي بن عثمان بن أسعد بن المنجيّ بن البركات التنوخي الدمشقي الحنبلي، المولود سنة ٦٣٢هـ، أخذ عنه ابن تيمية الفقه، توفي سنة ٦٩٥هـ[٦].

---

(١) ذيل تاريخ الإسلام للذهبي، ص(٢٢).
(٢) شذرات الذهب، (٥/ ٣٧٦)، والبداية والنهاية، (١٣/ ٢٠٧).
(٣) البداية والنهاية، (١٣/ ٣٢)، وشذرات الذهب، (٥/ ٣٧٦).
(٤) البداية والنهاية، (١٣/ ٣٤١)، وشذرات الذهب، (٥/ ٤٢٣، ٤٢٤).
(٥) الدارس في تاريخ المدارس، لعبد القادر بن محمد النعيمي الدمشقي، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م، (١/ ٧٤)، والبداية والنهاية، (١٣/ ٢٨٧)، وشذرات الذهب، (٥/ ٣٧٦).
(٦) البداية والنهاية، (١٣/ ٣٤٥)، وذيل طبقات الحنابلة، (١/ ٢٠١)، وشذرات الذهب، (٥/ ١٧).

٦- الإمام الفقيه النحوي شمس الدين أبو عبد الله محمد بن عبد القوي بن بدران المقدسي المرداوي، فقيهٌ محدّث، نحوي، ناظم، قرأ ابن تيمية عليه العربية، توفي سنة ٦٩٦هـ[(١)].

٧- الإمام الفقيه القاضي شمس الدين أحمد بن إبراهيم بن المغني السروجي الحنفي، توفي سنة ٧١٠هـ[(٢)].

٨- الإمام فخر الدين أبو الحسن علي بن أحمد بن عبد الواحد بن أحمد السعدي المقدسي الصالحي الحنبلي المعروف بابن البخاري، المولود سنة ٥٩٥هـ، كان شيخًا عالمًا فقيهًا زاهدًا عابدًا مسندًا مكثرًا مكرمًا للطلبة، حدّث نحوًا من ستين سنة، توفي سنة ٦٩٠هـ[(٣)].

٩- الشيخ الفقيه الإمام العالم البارع جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن سليمان بن سعيد بن سليمان البغدادي، المولود سنة ٥٨٥هـ بحرّان نزيل دمشق، توفي سنة ٦٧٢هـ[(٤)].

١٠- الإمام المحدث مسند الشام الكاتب المنشئ تقي الدين أبو محمد بن إسماعيل بن أبي اليسر التنوخي، ولد سنة ٥٨٩هـ، وسمع منه ابن تيمية سنة ٦٦٩هـ، وتوفي سنة ٦٧٢هـ[(٥)].

• **تلامذتُه:**

عُرف شيخ الإسلام ابن تيمية بكثرة تلاميذه والمستفيدين منه، وكان من الطبيعي أن يكونَ له نفوذٌ قوي في عصره الذي عاش فيه، بما قد رزقه الله من حياة مشغولة بالعمل الإسلامي العظيم، ومِن شخصيّة عملاقة جبارة، ولا غرْوَ أن يتجمّع حوله حشدٌ كبير مِن تلاميذه والمعجبين به[(٦)].

لقد ربّى شيخ الإسلام ابن تيمية جيلًا عالمًا مجاهدًا، شارك معه أحداث عصره، فأصابه ما أصاب الشيخ من السرّاء والضّراء، ووقف معه يجابه الأحداث من قتال للتتار، وقيام بواجب

---

(١) الوافي بالوفيات، (٣/ ٢٨٧)، والبداية والنهاية، (١٣/ ٣٣٣)، وشذرات الذهب، (٥/ ٤٥١).
(٢) البداية والنهاية، (١٤/ ٦٠)، وطبقات الحنفية، (١/ ٥٣).
(٣) شذرات الذهب، (٥/ ٤١٣)، والبداية والنهاية، (١٣/ ٢٨٧).
(٤) شذرات الذهب، (٥/ ٣٣١)، والبداية والنهاية، (١٤/ ١٣٧)، والعبر، (٥/ ٢٩٣).
(٥) انظر: شذرات الذهب، (٤/ ٣١٦)، والبداية والنهاية، (١٣/ ٢٦٧)، والعبر، (٥/ ٢٩٩)، وراجع: شيخ الإسلام ابن تيمية رجل الإصلاح والدعوة، إبراهيم محمد العلي، ص(١١٣: ١١٧).
(٦) رجال الفكر والدعوة، ص(٣٠٣).

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بالقوة حينًا وبالموعظة الحسنة حينًا آخر، كما شاركه الدعوة والإرشاد والتدريس والإفتاء، والكتابة والتصنيف والتأليف(١).

إنّ شيخ الإسلام فاقَ في كثرة تلامذته كلّ شيوخ عصره، حيث كان له تلاميذ ومريدين، في كلّ البلاد التي انتقل إليها، من الشام والإسكندرية والقاهرة بمصر(٢).

ولعلّ كثرةَ تلاميذ شيخ الإسلام ابن تيمية ترجعُ إلى أسبابٍ، منها:

١- ما كانَ يتمتّع به من شخصيةٍ عملاقة جبّارة تستهوي الأذكياء، وأصحاب القدرات العالية، مع ما أوتيه مِن قدرةٍ على التأثير في مَن حوله، مع عمل دءوب للإسلام على مختلف الجبهات والمجالات المختلفة.

٢- غزارة علمه، وسعة معارفه واطّلاعه على شتى العلوم والمعارف التي كانت معروفةً في عصره ممّا جعله مَقصدًا لطلبة العلم الراغبين في أن ينهلوا من هذه الينابيع الغزيرة من العلوم المختلفة، ممّا أعطاه قدرةً عالية في جذب طلبة العلم إليه، مع ما أوتيه من فصاحة لسانٍ وقدرةٍ بيانية عالية.

٣- كثرة تنقّلاته بين مصر والشام ممّا كان له أكبر الأثر في استفادة الكثيرين من علومه حيثما نزل أو ارْتحل، لا يحول بينه وبين الاستفادة من علومه حائل، حتى أخذوا عليه في المعتقلات حيث سُجن- رحمه الله تعالى.

٤- إلقاؤه الدروسِ العامّة التي أكسبته علاقاتٍ اجتماعيةً كبيرة مع شرائح واسعة في المجتمع الدّمشقي والقاهري، واكتسب مِن خلال جرأته في قول الحقّ فيها مهابة واحترامًا عند العامّة والخاصّة، فكان له مِن المحبّين في كلّ الطبقات الاجتماعية، وفي ذلك يقول ابنُ الوردي- رحمه الله: «.... له محبّون مِن العلماء والصّلحاء والجند والأمراء والتجّار والكبراء وسائر العامة تحبّه»، ويضاف إلى ذلك الدروس الخاصّة التي كان يُلقيها على خاصّة تلاميذه، والتي مِن خلالها برزت مداركُه وقدراته الهائلة في العلم والمعارف.

---

(١) أحمد بن تيمية رجل الإصلاح والدعوة، ص(١٣٤).
(٢) ابن تيمية حياته وعصره، ص(٤٣٧).

٥- احترامه ومحبّته لتلاميذه وبذْله العلم لهم، مع تلمّسه حاجاتهم وقدراتهم، وحسن تعامله مع هذه القدرات والكفاءات تهذيبًا وتنمية وتعميقًا ممّا رزقه هؤلاء التلاميذ كثيرًا من الثّقة بالنفس، والجرأة في قول الحقّ والدّفاع عنه، مهْما كانت العوائق التي تعوق ذلك(١).

بيْدَ أنّه يلاحظ أنّ تلاميذه نوعان؛ لأنّ دروسه كانت نوعيْن: فالنوع الأول من درْسه دروس عامّة يلقيها على العامة في المسجد الجامع يرشدهم ويبين لهم الاتباع وحقيقته، ويجنّبهم الابتداع، كما كان الشأنُ في كثير من دروسه بمصر، وببعض دروسه العامة في الشام، وحيثما حلّ، كما فعل بغزّة عندما مرّ بها، وهو مُقبلٌ إلى مصر، وقد كان له تلاميذ في هذه الدّروس العامّة يلازمونه، وإن كان الأحْرى أنْ ليسوا أكثر مِن مُريدين؛ لأنّهم لا طاقة لهم بأنْ يدركوا كلّ مدارك الشيخ حتى يكونوا تلاميذ بالمعنى الخاص الذي يرثون فيه علمَه.

والقسمُ الثاني مِن دروسه: دروس خاصّة كان يلقيها على تلاميذه الذين اختصّوا بعظَم المدارك، وصلحوا لأنْ يكونوا ورثته في علمِه مِن بعده، والقائمين على تركته الفكريّة وخلفاءَه عليها، وهؤلاء هُم الذين كان يلقي عليهم كلّ تفكيره ومنهاجه في مدارس الشام وبعض الاجتماعات الخاصّة في مصر والشام.

وإنّ هذا القسْم من التلاميذ الذين قاموا على تركتِه الفكرية مِن بعْده، وأكثرهم مِن الحنابلة وكثير منهم مِن الشافعيّة، وعددُهم لا يحصى، فقد كانوا كثيرين لطول المدّة التي ألقى دروسَه فيها، فقد ألقى دروسَه نحْوًا مِن ستّة وأربعين عامًا، دائبًا لا يني ولا يملّ ولا يكلّ، أي: مِن وقتِ أنْ توفي أبوه وهو في الحادية والعشرين إلى أنْ قبضه الله إليه، وقد بلغ السابعة والستين، ولقد كان أولئك الخاصّة مِن تلاميذه ينالهم الاضطهاد إذا اعْتقل، فقد كانوا معَه في البلاء كما كانوا معه في الدرس(٢).

وقد تميّز مِن بيْن هؤلاء التّلاميذ تلميذُه النّجيب الحافظ ابن قيم الجوزية، الذي يعتبر خليفتَه الراشد ومدوّن علومه مِن بعده؛ لأنه تفرّد بخصائص ومزايا لا تتوفّر في غيره مِن تلاميذه، فقد

(١) شيخ الإسلام أحمد بن تيمية رجل الإصلاح والدعوة، ص(١٣٧، ١٣٨).
(٢) ابن تيمية حياته وعصره، ص(٤٣٧، ٤٣٨).

ظلّ يشارك أستاذه في أحواله وأعماله، ولم يفارقْه حتى آخر لمحةٍ من حياته، وثبت على جادته بعد وفاته، من غير أن يفتر حبّه له، وإعجابه به، وإنّ خدماته العلمية وجلالة قدره وفضائله لجديرةٌ بتأليف كتابٍ مستقلّ عنه، يبحث عن مؤلفاته ودراساته الطيبة بغايةٍ من التفصيل[١].

وللإمام ابن القيِّم فضائلُ لا تخفى، حتى إنّ الحافظ ابن حجر ٨٥٢ هـ صاحب فتح الباري يقول: «لو لم يكنْ للشيخ تقي الدين مِن المناقب إلّا تلميذه الشيخ الشهير شمس الدين ابن القيم الجوزي صاحب التصانيف النافعة السائرة التي انتفع بها الموافِقُ والمخالف لكان غايةً في الدّلالة على عظم منزلته، فكيف وقدْ شهد له بالتقدم في العلوم والتميّز في المنطوق والمفهوم أئمةُ عصرِه من الشافعية وغيرهم، فضلًا عن الحنابلة، وكان تلميذه الذهبي له فضلٌ على الأمّة لا يُنسى في تأليف كتب التراجم»، وذكر السنهاري وقيعة التاج السبكي في الذهبي فقال: ويكفينا في جلالته شرب شيخنا (أي: ابن حجر) ماءَ زمزم لنيل مرْتبته، وهل انتفع الناس في هذا الفنّ بعده وإلى الآن بغير تصانيفه، والسعيد مَن عدّت غلطاته[٢].

وسنذكر أسماءَ أهمّ تلاميذه على النحو الآتي:

١ـ الإمام ابن القيم صاحب زاد المعاد، وهو محمد شمس الدين أبو عبد الله الزرعي، ولد في دمشق عام ٦٩١ هـ، وتوفي عام ٧٥١هـ[٣].

٢ـ الحافظ ابن عبد الهادي المقدسي، وهو شمس الدين الملقب بالعماد، ويكنى أبا عبد الله وأبا العباس، وعُرف بوجْه عام بابن عبد الهادي، ولد عام ٧٠٤، وتوفي عام ٧٤٤هـ[٤].

٣ـ الحافظ ابن كثير، وهو عماد الدين إسماعيل بن عمر، يكنّى أبا الفداء، ويُعرف بابن كثير، ولد عام ٧٠٤، وتوفي عام ٧٧٤ [٥].

---

(١) رجال الفكر والدعوة، للإمام أبي الحسن الندوي، ص(٣١٧).
(٢) دعوة شيخ الإسلام وأثرها على الحركات الإسلامية المعاصرة، وموقف الخصوم منها، ص(٧٩، ٨٠)، ط: دار ابن الأثير، الكويت، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م.
(٣) شذرات الذهب، (٦/ ١٦٧)، والبداية والنهاية، (١٤/ ٤٠٢).
(٤) البداية والنهاية، (١٤/ ٢٢١)، ومعجم المؤلفين، (٨/ ٢٨٧).
(٥) شذرات الذهب، (٦/ ٢٣٠)، وذيل طبقات الحنابلة، (١/ ٢٢٤)، وتذكرة الحفاظ، (٤/ ١٥٠٨).

٤ـ الحافظ ابن رجب، وهو عبد الرحمن بن أحمد بن رجب، ولد سنة ٧٣٦، وتوفي سنة ٧٩٥هـ[١].

٥ـ علم الدين البرزالي وفاته سنة ٧٣٩هـ، وهو صاحب التاريخ والمعجم[٢].

٦ـ جمال الدين المزي، وفاته سنة ٧٤٢هـ، وهو صاحب تهذيب الكمال في الرجال[٣].

٧ـ شمس الدين الذهبي، وفاته ٧٤٨هـ، صاحب تذكرة الحفاظ، وميزان الاعتدال[٤].

٨ـ سليمان بن عبد القوي الطوخي الصرصري، توفي سنة ٧١٦هـ[٥].

٩ـ عمر بن المظفر بن عمر بن محمد بن أبي الفوارس المعري الحلبي، توفي سنة ٧٤٩هـ[٦].

١٠ـ عمر بن علي بن قوس بن خليل البغدادي البزار، توفي سنة ٧٤٩هـ[٧].

١١ـ عمر بن سعد الله بن عبد الأحد الحراني، ثمّ الدمشقي، توفي سنة ٧٤٩هـ[٨].

١٢ـ محمد بن علي بن أبي الفتح بن أسعد بن المنجي الحميلي، توفي سنة ٧٥٤هـ[٩].

١٣ـ حمد بن مفلح بن محمد بن مفرج المقدسي الراميني الدمشقي، توفي سنة ٧٦٣هـ[١٠].

١٤ـ محمد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن بن شاكر الداراني الدمشقي، توفي سنة ٧٦٤هـ[١١].

١٥ـ أحمد بن الحسن بن الخطيب بن قدامة المقدسي قاضي الجبل، توفي سنة ٧٧١هـ[١٢].

---

(١) طبقات الحفاظ، (١/ ١١٤)، وشذرات الذهب، (٦/ ٣٣٩)، وطبقات المفسرين، (١/ ٢٥٣).
(٢) البداية والنهاية، (١٤/ ٢١٦)، والشهادة الزكية، (١/ ٦٠).
(٣) تذكرة الحفاظ، (٤/ ١٩٣)، والبداية والنهاية، (١٤/ ١٩١)، وشذرات الذهب، (٦/ ١٣٥).
(٤) البداية والنهاية، (١٤/ ١٦٤)، وشذرات الذهب، (٦/ ١٥١-١٥٦)، والوافي بالوفيات، (١/ ٢١٧).
(٥) شذرات الذهب، (٦/ ٣٨).
(٦) البدر الطالع، (١/ ٤٩١)، والدرر الكامنة، (٢/ ٢٤٦).
(٧) شذرات الذهب، (٦/ ١٦١)، والدرر الكامنة، (١/ ٤٠٤).
(٨) ذيل طبقات الحنابلة، (١/ ٣٦٠)، والدرر الكامنة، (١/ ٣٩٩)، وشذرات الذهب، (٦/ ١٦٢).
(٩) الدرر الكامنة، (٣/ ٣٩)، وشذرات الذهب، (٦/ ١٧٦).
(١٠) شذرات الذهب، (٦/ ١٩٨)، والبداية والنهاية، (١٤/ ٢٥٢).
(١١) البداية والنهاية، (١٤/ ٣٠٣)، والنجوم الزاهرة، (٥/ ٢٧٥)، وشذرات الذهب، (٦/ ٢٠٣).
(١٢) معجم المؤلفين، (١/ ١٩٤)، وشذرات الذهب، (٦/ ٢١٧)، والبداية والنهاية، (١٤/ ٢٧٢)، والدرر الكامنة، (٤/ ٨٥).

وهناك عددٌ كبير من العلماء في القرن الثامن والتاسع عدّوا تلاميذَ لشيخ الإسلام ابن تيمية وتلاميذَ تلاميذه المذكورين ممّن لا يصرّح التاريخ بأنهم تلاميذُ مدرسة شيخ الإسلام، إلّا أنّ مؤلفاتهم تنطق بأفكار شيخ الإسلام وروحه وعلمه، ودعوته، وسواء استفاد هؤلاء العلماءُ مِن تلاميذ شيخ الإسلام ومؤلفاته أمْ لَمْ يستفيدوا فإنهم لاتحاد ذوقهم وفكرهم جديرون بالاعتبار في وصفِ تلاميذه، والمتخرّجين من مدرسته.

وأخصّ بالذّكر مِن بين هذه الشخصيات مؤلف كتاب الموافقات العلّامة البارع أبا إسحاق الشاطبي المتوفي سنة ٧٩٠هـ، الذي يبدو كتابه (الاعتصام) حلقة مِن هذه السّلسلة الإصلاحية التي كان قد بدأها شيخ الإسلام في عصره، وهو كتابٌ جيد في موضوع السنّة والبدعة يمتاز بمعلوماته الغزيرة وجودته الأصولية(١).

• **وفاتُه:**

بَقِي الشَّيْخ - رحمه الله - إلى لَيْلَة الاثْنَينِ العشرين من ذِي القعدَة الحَرام، وَتُوفِّي إلى رَحْمة الله- تعالى- ورضوانه فِي بكرَة ذَلك اليَوم، وَذَلِكَ مِن سنة ثَمانٍ وَعشْرين وَسبعمائة، وَهُوَ على حَاله مجاهدًا فِي ذَات الله- تعالى- صابرًا مُحتسبًا، لم يجبنْ وَلم يهلعْ وَلم يضعفْ وَلم يتَتَعْتع، بل كانَ - رحمه الله - إلى حِين وَفاته مُشتغلًا بِاللَّه عَن جَمِيع مَا سواه.

قالوا: فَما هُوَ إلَّا أن سمع النَّاس بِمَوْتِه، فَلم يبْق فِي دمشق من يَستَطيع المجيء للصَّلاة عليه وأراده إلَّا حضر لذَلِك، وتفرّغ لَه حتَّى غلقت الأسواق بدِمَشْق، وعطلت معايشها حينَئذٍ، وَحصل للنَّاس بمصابه أمرٌ شغلهمْ عَن غالب أمورهم وأسبابهم، وَخرج الأمراء والرؤساء وَالعُلَماء وَالفُقَهاء والأتراك والأجناد وَالرِّجال وَالنِّساء وَالصبيان مِن الخَواص والعوام. قَالوا: وَلم يتَخَلَّف أحد مِن غَالب النَّاس- فِيما أعْلَم- إلَّا ثَلاثَة أنفس كَانُوا قد اشتهروا بمُعاندته، فاختفوا من النَّاس خوفًا على أنفسهم بِحَيثُ غلب على ظنّهم أنّهم مَتى خَرجُوا رجمَهُم النَّاس فأهلكوهم.

(١) رجال الفكر والدعوة، ص(٣٢٦).

فَغسّل – رحمه الله – وكفّن.

قَالوا: وازدحم مَن حضرَ غُسله من الخاصَّة والعامة على المَاء المُنْفَصِل عَن غسله حَتَّى حصل لكلّ واحِد مِنْهُم شَيء قَليل، ثمّ أخرجت جنازَته فَما هُوَ إلَّا أن رَآهَا النَّاس فأكبّوا عَلَيْها مِن كلّ جَانب، كلًّا مِنهُم يقْصد التَّبرُّك بها حتَّى خشِي على النّعش أن يحطم قبل وُصُوله إلَى القَبْر، فأحدق بها الأمراء والأجناد واجْتمعَ الأتراك فَمنعوا النَّاس مِن الزّحام عَلَيها خَشيَة مِن سُقُوطها، وَعلَيْهم مِن اختناق بَعضهم، وَجعلوا يردّونهم عَن الجِنازَة بِكُلّ ما يُمكنُهم، وهُم لاَ يزدادون إلَّا ازْدحامًا وكَثْرَة حتَّى أدخلت جامع بني أُميَّة المحروس ظنًّا مِنْهُم أنّه يسعُ النَّاس، فَبقيَ كثيرٌ من النَّاس خَارج الجامع.

وَصُلّيَ عَليهِ – رحمه الله – في الجامع، ثمّ حُمل على أيْدي الكبراء والأشراف وَمَن حصل لَه ذَلِك مِن جَميع النَّاس الى ظاهِر دمشق، وَوضع بِأرْض فسْحة متّسعة الأطراف، وَصلّى عَليه النَّاس(١).

***

(١) الأعلام العلية، ص(٨٣، ٨٤).

المبحثُ الرّابع

ثناءُ العلماءِ عليه

تعدّدت مناقبُ ابن تيمية ومميّزاته؛ فزادت مكانتُه العلمية، وأعلى الله ذكرَه بين الناس، وتعدّد ثناؤهم عليه، قُدامى ومُحدثين، مُعاصرين له وتالين، حتى قال بعضهم عنه: «ابنُ تيمية أكبرُ مِن أن ينبّه مثلي على نعوته، فلو حلفت بين الرّكن والمقام لحلفتُ أنّي ما رأيت بعيني مثلَه، ولا رأى هو مثل نفسِه في العلم، وكان فيه قلّة مُداراة وعدم تؤدة غالبًا، ولم يكنْ من رجال الدّول، ولا يسلك معهم تلك النواميس»[١].

ومِن هؤلاء الذين أثْنوا عليه الإمام الذهبي[٢] تلميذُه النجيب، فقد أحبّ الذهبي شيخه ورفيقه، وأعجبَ به، فقال بعدَ أنْ مدحه مدحًا عظيماً: «وهو أكبرُ مِن أن ينبّه مثلي على نُعوته، فلو حلفت بين الرّكن والمقام لحلفتُ أنّي ما رأيت بعيني مثله، ولا والله ما رأى هو مثل نفسِه في العلم»[٣].

ووضّح الذّهبي جوانبَ ومؤهلات ابن تيمية لهذه المنزلة بأنّه «نظر في العقليات، وعرفَ أقوال المتكلمين وردّ عليهم ونبّه على خطئهم وحذّر، ونصر السنّة بأوضح حجج وأبْهر براهين، وأوذي في ذاتِ الله مِن المخالفين، وأخيف في نصْر السنة المحْضة حتى أعلى الله منارَه، وجمع قلوبَ أهل التّقوى على محبّته والدّعاء له، وكبتَ أعداءه، وهدى بِه رجالًا كثيرة من أهْل الملل والنحل، وجبل قلوبَ الملوك والأمراء على الانقياد له غالبًا، وعلى طاعته، وأحيى به الشام بل

(١) أبجد العلوم الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم للقنوجي، (٣/ ١٣٣)، والعقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية، (١/ ٥١).

(٢) هو الحافظ الذهبي محمد بن أحمد بن عثمان، شمس الدين أبو عبد الله، حافظ مؤرخ علّامة محقّق، تركماني الأصل، ولد في دمشق عام ٦٧٣ هـ، وتوفي عام ٧٤٨، له تصانيف كثيرة كبيرة تقارب المائة منها: دول الإسلام، سير أعلام النبلاء، تذكرة الحفاظ، العبر في خبر من غبر). راجع: سير أعلام النبلاء، (١/ ٦٥)، وما بعدها، والدرر الكامنة، (٣/ ٣٣٦).

(٣) سير أعلام النبلاء، (١/ ٣٧).

الإسلام بعد أن كاد ينثلم، خصوصًا في كائنة التتار، وهو أكبرُ مِن أن ينبّه على سيرته مثلي، فلو حلفت بين الركن والمقام لحلفت أني ما رأيت بعيني مثله، وأنه ما رأى مثل نفسه» انتهى كلام الذهبي.

وكتب الشيخ كمال الدين بن الزملكاني[1] تحت اسم ابن تيمية: كان إذا سئل عنْ فنٍّ مِن العلم ظنّ الرائي والسّامع أنه لا يعرف غير ذلك الفن، وحكم أن أحدًا لا يعرفه مثله، وكان الفقهاء مِن سائر الطوائف إذا جالسوه استفادوا في مذاهبهم منه أشياء، ولا يعرف أنه ناظرَ أحدًا فانقطع معه، ولا تكلّم في علمٍ من العلوم سواء كان مِن علوم الشّرع أو غيرها إلا فاق فيه أهلَه، واجتمعت فيه شروطُ الاجتهاد على وجْهها.

وكتب الحافظ ابن سيد الناس[2] في جواب سؤالات الدمياطي في حقّ ابن تيمية: ألفيته ممّن أدرك مِن العلوم حظًّا، وكان يستوعب السننَ والآثار حفظًا، إن تكلّم في التفسير فهو حاملُ رايته، وإنْ أفتى في الفقه فهو مُدرك غايته، أو ذاكر بالحديث فهو صاحبُ علمه وذو روايته، أو حاضر بالنّحل والملل لم يرَ أوْسع مِن نحلته، ولا أرفع مِن درايته، برز في كلّ فنّ على أبناءِ جنسه، ولم ترَ عين مَن رآه مثله، ولا رأتْ عينه مثلَ نفسه»[3].

---

(١) هو محمد بن علي بن عبد الواحد الأنصاري، كمال الدين، المعروف بابن الزملكاني، فقيه انتهت إليه رياسة الشافعية في عصره، ولد في دمشق عام ٦٦٧هـ وتعلّم بها، وتصدّر للتدريس والإفتاء، وولي نظر ديوان الأفرم، ونظر الخزانة ووكالة بيت المال، وكتب في ديوان الإنشاء، وولي القضاء في حلب، فأقام سنتين وطلب لقاءَ مصر فقصدها، وتوفي في بلبيس عام ٧٢٧هـ، ودفن في القاهرة). راجع: البدر الطالع، (٢/ ٢٠٥)، والعبر في خبر من غبر، (١/ ٢٨٩)، وشذرات الذهب، (٨/ ٢٥٣، والوافي بالوفيات، (٢/ ٢٥).

(٢) الحافظ فتح الدين محمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن سيد الناس أبو الفتح العمرى، صاحب التصانيف في الحديث منها: سيرة كبرى جليلة، وأخرى صغيرة جدًّا وهى مفيدة، وشرح قطعة من الترمذي، وبها أكثر فوائده وأبرعه ويعزّ كماله على نمطه الغريب، الحديث من الشيخ تقى الدين القشيري وغيره، ورحل إلى الشام سنة تسعين وستمائة فلم يدرك الفخر بن البخاري، فمات وهو في الكسوة فدخلها، وسمع من غيره، وحدث وعاد بجامع ابن طولون). راجع: العقد المذهب في طبقات حملة المذهب، ص(٤٢٧).

(٣) شذرات الذهب في أخبار من ذهب، (٦/ ٨١).

وللشيخ أثير الدين أبي حيان النحوي[١]: لمّا دخل الشيخ مصر واجتمع به فأنشد أبو حيان:

لمّا رأينا تقي الدين لاحَ لنا ... داع إلى الله فردًا ما له وزر
على محيّاه مِن سيما الأولى صحبوا ... خير البرية نور دونه القمر
حبر تسربَل منه دهره حبرًا ... بحر تقاذف من أمواجه الدرر
قام ابن تيمية في نصْر شرعتنا ... مقام سيد تيم إذ عصت مضر
فأظهر الدين إذْ آثاره درست ... وأخمد الشرك إذ طارت له شرر
يا مَن تحدّث عن علم الكتاب أصخ ... هذا الإمام الذي قد كان ينتظر

يشير بهذا إلى أنه المجدّد.

وممّن صرّح بذلك الشيخ عماد الدين الواسطي[٢]، وقد توفّي قبل الشيخ، وقال في حقّ الشيخ- بعْد ثناءٍ طويل جميل- ما لفظه: فوَ الله، ثمّ والله، ثمّ والله، لم يُرَ تحت أديم السّماء مثل شيخكم ابن تيمية علما وعملًا وحالًا وخلقًا واتّباعًا وكرمًا وحلمًا وقيامًا في حقّ الله عند انتهاك حرماته، أصدقُ الناس عقدًا، وأصحّهم علمًا وعزمًا، وأنفذهم وأعْلاهم في انتصار الحقّ وقيامه همّة، وأسخاهم كفًّا، وأكملهم اتّباعًا لنبيه محمد، ما رأينا في عصرنا هذا مَن تستجلي النبوّة المحمدية وسننها مِن أقواله وأفعاله إلّا هذا الرّجل، يشهد القلب الصحيح أنّ هذا هو الاتباع حقيقة.

---

(١) محمد بن يوسف بن علي بن حيان بن يوسف الأندلسي أثير الدين أبو حيان: إمام أهل عصره في النحو، والتصانيف، له: «البحر المحيط في التفسير»، و«شرح التسهيل»، و«الإرشاد» وغير ذلك، وكانت له معرفة بالقراءات، ودرس بالقبة المنصورية في الحديث وبالجامع الطولوني في التفسير، وتذهّب للشافعي). راجع: العقد المذهب في طبقات حملة المذهب، ص(٤٢٣).

(٢) هو الإمام العارف الزاهد القدوة عماد الدين أحمد بن شيخ الحزامين إبراهيم بن عبد الرحمن الواسطي، صاحب التواليف في التصوف، كان من سادة السالكين، له مشاركة في العلوم، وعبارة عذبة، ونظم جيد، ولد ٦٥٧هـ بشرق واسط، وتوفي عام ٧١٢هـ. راجع: العبر في أخبار من غبر، (١/ ٢٧٣)، وتذكرة الحفاظ، (٤/ ٣١٩)، وذيل طبقات الحنابلة، (١/ ٣٢٦).

وقال الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد[١]- وقد سُئل عن ابن تيمية بعد اجتماعه به: كيف رأيته؟ فقال: رأيتُ رجلًا سائرُ العلوم بين عينيه، يأخذُ ما شاء منها، ويترك ما شاء.

فقيل له: فلمَ لا تتناظرا؟

قال: لأنّه يحبّ الكلام، وأحبّ السكوت.

وقال برهانُ الدين بن مفلح في طبقاته: كتب العلامة تقي الدين السبكي إلى الحافظ الذهبي في أمر الشيخ تقي الدين بن تيمية: فالمملوك يتحقّق قدره وزخارة بحْره وتوسعته في العلوم الشرعية والعقلية وفرط ذكائه واجتهاده، وأنه بلغَ من ذلك كلّ المبلغ الذي يتجاوزه الوصْف، والمملوك يقول ذلك دائمًا، وقدره في نفسي أكبر من ذلك وأجلّ، مع ما جمعَه الله له مِن الزّهادة والورع والدّيانة ونصرة الحقّ والقيام فيه، لا لغرضٍ سواه، وجريه على سنن السّلف، وأخذه مِن ذلك بالمأخذ الأوفى، وغرابة مثله في هذا الزمان، بل مِن أزمان» انتهى.

وقال العلّامة الحافظ ابن ناصر الدين في شرح بديعته- بعد ثناء جميلٍ وكلام طويل: حدّث عنه خلقٌ منهم؛ الذهبي، والبرزالي، وأبو الفتح بن سيد الناس، وحدثنا عنه جماعة من شيوخنا الأكياس، وقال الذهبي في عدّ مصنّفاته المجودة: وما أبعد أنّ تصانيفه إلى الآن تبلغ خمسمائة مجلدة، وأثنى عليه الذّهبي وخلْقٌ بثناء حميد، منهم الشيخ عماد الدين الواسطي العارف، والعلامة تاج الدين عبد الرحمن الفزاري[٢] وابن الزملكاني وأبو الفتح وابن دقيق العيد، وحسبه من الثناء الجميل قولُ أستاذ أئمة الجرح والتعديل أبي الحجاج المزي الحافظ الجليل؛ قال عنه: ما رأيت مثلَه، ولا رأى هو مثلَ نفسِه، وما رأيت أحدًا أعلمَ بكتاب الله وسنة رسوله

---

(١) هو محمد بن علي بن وهب بن مطيع، أبو الفتح تقي الدين القشيري المعروف بابن دقيق العيد، قاضي، من أكابر العلماء في الأصول، مجتهد أصل أبيه من منفلوط بمصر، انتقل إلى قوص، ولد سنة ٦٢٥هـ، وتوفي ٧٠٢هـ، له تصانيف منها: إحكام الأحكام، الإلمام بأحاديث الأحكام، تحفة اللبيب في شرح التقريب، ولي القضاء في الديار المصرية سنة ٥٩٥هـ. راجع: الوافي بالوفيات، (٢/ ١٧)، والبدر الطالع، (٢/ ٢٢١، ٢٢٣)، وتذكرة الحفاظ، (٤/ ٣١٨).

(٢) هو أحمد بن حصن بن عبد الرحمن الفزاري النسائي، روى عن ابن أبي الزبير والأوزاعي وجرير بن حازم. راجع: تهذيب التهذيب، (٤/ ١٣٤).

ولا أتبَعَ لهما منه، وترجمه بالاجتهاد، وبلوغ درجته، والتمكّن في أنواع العلوم والفنون. ابن الزملكاني والذهبي والبرزالي وابن عبد الهادي، وآخرون.

ولا يخلف بعده مَن يقاربه في العلم والفضل»(١).

وقال عنه بعضُهم: إنه «ممّن أدرك من العلوم حظًّا، وكاد يستوعب السنن والآثار حفظًا، إنْ تكلّم في التّفسير فهو حاملُ رايته، أو أفتى في الفقه فهو مدركٌ غايته، أو ذاكر بالحديث فهو صاحبُ علمه وذو روايته، أو حاضر بالنّحل والمِلل لم يُرَ أوسع من نحلته في ذلك، ولا أرفع من درايته، برز في كلّ فنٍّ على أبناء جنسه، ولم ترَ عين من رآه مثله، ولا رأت عينه مثل نفسه، كان يتكلم في التفسير فيحضر مجلسه الجمّ الغفير، ويردون مِن بحر علمه العذب النّمير، ويرتعون مِن ربيع فضله في روضة وغدير»(٢).

وقال الشيخ علمُ الدين البرزالي في معجم شيوخه معرّفًا بالشيخ واصفًا علمه، وما نبغَ فيه، مُظهرًا كيف حازَ رتبة الاجتهاد، مُبينًا سعةَ ثقافته، ومدى انتفاع الناس به وبكلامه؛ بأنّ ابن تيمية «مجمَعٌ على فضله ونُبله ودينه، قرأ الفقهَ وبرع فيه، والعربية والأصول، ومهَرَ في علمي التفسير والحديث، وكان إمامًا لا يلحق غباره في كلّ شيء، وبلغ رتبةَ الاجتهاد، واجتمعت فيه شروط المجتهدين، وكان إذا ذكر التفسير بهِتَ الناس من كثرةِ محفوظه، وحُسن إيراده، وإعطائه كلّ قولٍ ما يستحقّه من الترجيح والتّضعيف والإبطال، وخوضه في كلّ علم، كان الحاضرون يقضون منه العجب، هذا مع انقطاعه إلى الزّهد والعبادة والاشتغال بالله- تعالى، والتجرّد من أسباب الدنيا، ودعاء الخلق إلى الله- تعالى، وكان يجلس في صبيحة كلّ جمعة على الناس يفسّر القرآن العظيم، فانتفع بمجلسِه وبركة دعائه وطهارة أنفاسه وصدق نيّته وصفاء ظاهره وباطنه وموافقة قولِه لعمله، وأناب إلى الله خلقٌ كثير، وجرى على طريقةٍ واحدة من اختيار الفقر والتقلّل من الدنيا»(٣).

---

(١) شذرات الذهب في أخبار من ذهب للدمشقي، (٦/ ٨٢).

(٢) العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية، (١/ ٦).

(٣) العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية، (١/ ٧).

وعن حبّ النّاس له من العامّة والخاصّة يذكر ابن رجب أنّ العلماء والصّلحاء والجند والأمراء والتجار وسائر العامة كانت تحبّه؛ لأنّه مُنتصب لنفعهم ليلًا ونهارًا بلسانه وعلمه»[١].

وكانتْ لابن تيمية خبرةٌ تامّة بالرجال وجرحهم وتعديلهم وطبقاتهم ومعرفة بفنون الحديث، وبالعالي والنازل، والصّحيح والسقيم، مع حفظه لمتونه الذي انفرد به، وهو عجيبٌ في استحضاره واستخراج الحجج منه، وإليه المنتهى في عزْوه إلى الكتب الستّة والمسند بحيث يصدق عليه أنْ يقال: كلّ حديث لا يعرفه ابن تيمية فليس بحديث، ولكن الإحاطة لله، غير أنّه يغترف فيه مِن بحر، وغيره من الأئمّة يغترفون من السّواقي، وأمّا التفسير فسلم إليه، وله في اسْتحضار الآيات للاستدلال قوةٌ عجيبة، ولفرط إمامتِه في التفسير وعظمة اطّلاعه بين خطأ كثيرٍ مِن أقوال المفسرين، ويكتب في اليوم والليلة مِن التّفسير أو مِن الفقه أو مِن الأصلين أو مِن الردّ على الفلاسفة والأوائل نحوًا مِن أربعة كراريس، وما يبعد أنّ تصانيفه إلى الآن تبلغ خمسمائة مجلدة، وله في غيْر مسألة مصنّف مُفرد كمسألة التحليل سمّاه: بيان الدليل على إبطال التحليل، مجلد وغيرها، وله: مصنّف في الردّ على ابن مطهر الرافضي الحلي في ثلاثة مجلّدات كبار سمّاه: منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية وتصنيف في: الردّ على تأسيس التقديس للرازي في سبعة مجلّدات، وكتاب في: الردّ على المنطق، وكتاب في: الموافقة بين المعقول والمنقول في مجلّدين، وقد جمع أصحابه مِن فتاواه ستّة مجلّدات كبار، وله باعٌ طويل في معرفة مذاهب الصحابة والتابعين قلّ أنْ يتكلّم في مسألة إلّا ويذكر فيها مذاهب الأربعة، وقد خالف الأربعة في مسائلَ معروفة، وصنّف فيها واحتجّ لها بالكتاب والسنة «[٢].

• **خلاصةٌ واستنتاج:**

وقفنا في هذا الفصل على بعض الملامح الباهرة في حياة ابن تيمية- رحمه الله، على مستوى الصفات الخلقية، وعلى مستوى الصفات العلميّة، وامتاز عصرُه بأحداث جِسام بالغة الأهميّة

---

(١) شذرات الذهب في أخبار من ذهب، (٦/ ٨٢).
(٢) أبجد العلوم الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم للقنوجي، (٣/ ١٣١).

والخطورة؛ فقد وقع في عصره اعتداءاتُ الصليبيّين والتتار بوحشيّتهم وأطماعهم على الأمّة المسلمة، ممّا حدّد اتجاهه وهدفه في الحياة، فقد كان إمامًا مجاهدًا عن الأمّة ضدّ هؤلاء.

لقد نشأ شيخُ الإسلام في تصوّن تامّ في بيتٍ به العلماء والأتقياء؛ فقد كان أبواه وأجداده وإخوانه وكثيرٌ من أعمامه مِن العلماء المعروفين.

كان ابنُ تيمية حنبليًّا بنشأته وأسرته وثقافته الفقهية، ولكن له اختياراته من غير مذهب أحمد.

وشاءت إرادة الله- تعالى- أنْ يولَد ابن تيمية والدولةُ الإسلامية في حالةٍ من الضّعف والتمزّق الشديديْن؛ فقد زالت هيبةُ الخلافة، وزالت وحدة الأمّة، وتصارع الأمَراء على الجاهِ والدّنيا، وظهر التتار فنهبوا البلادَ وقتلوا العباد، ولم يكن الشيخ بعيدًا عن أحداثِ عصره؛ بل شارك في تلك الأحداث مشاركةَ العالم العامل المجاهد، فامْتشقَ حُسامه وحارب التتار بسيفه كما حاربهم بلسانه وقلمه.

حاول الشيخُ جمعَ الأمّة وتوحيدَها مؤمنًا بأنّ النزاع والخلاف سببُ هزيمة الأمّة، فأعلن الدّعوة إلى توحيد الجميع على الكتاب والسنة، ويجمع هذا قلوب جميع الموحّدين، عملًا بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩ ﴾ [النساء: ٥٩].

وتلبية للنداء الإلهي: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٥ ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

ودعا إلى ترك المذاهب الباطلة، التي لا تتّفق مع الكتاب والسنة، وردّ على الباطنية وغيرهم، وهكذا كانت طريقتُه في الإصلاح.

لقد قام بدراسة الكتب الفلسفية وكتب المنطق للردّ عليهم ردًّا نزيهًا معتبرًا.

وابتلي ابن تيمية ابتلاءً شديدًا؛ فقد أعلن المخالفون له الحربَ عليه ودبّروا له الفتن والدّسائس، فسُجن مرّتين حتى توفي في سجنه صائمًا مُعتكفًا على كتاب الله تعالى، وكانت حياته سجلًّا حافلًا بالبطولة والكفاح.

اجتمعت على الشيخ كثيرٌ من قوى الخارج والداخل؛ ففي الخارج تجمّع الصليبيون والتتار، ومِن الدّاخل غلاة الصوفية والباطنية وغيرهم.

امتاز الشيخ- رحمه الله- بخصائص علمية كثيرة، ومنها غزارة العلم، وتنوّع المعرفة؛ فقد أجادَ في علوم القرآن، وعلوم السنة النبوية، وعلوم الفقه، وأحاط بالمذاهب الباطنية، ولم يكن ابن تيمية مختصًّا في علمٍ واحد، بل كان موسوعيًّا في علوم كثيرة.

لقد بدأ التأليف في سنّ مبكرة، كان له تسعة عشر عامًا، وعاش سبعة وستين عامًا كلّها خير وبركة على العلم والعلماء.

امتازت مؤلفاته بغزارة العلم وحسن التصنيف وجودة العبارة والترتيب والتقسيم، وكانت نظرته شمولية ومتمكّنة، كما اتسمت بسموّ الغاية ونبل الهدف.

لقد نال ثناءَ العلماء في عصره وفي غير عصره؛ فكان كما وصفه بعضُ الواصفين: كالبحر لا تكدّره الدّلاء، رحمه اللهُ رحمة واسعة، وأجزل مثوبته.

***

الفصلُ الثّاني

جهودُ ابن تيمية في التّفسير وعلوم القرآن

المبحث الأول

منزلةُ ابن تيمية في التفسير

بلغتْ منزلةُ ابن تيمية في التفسير مبلغًا مميزًا، وبهَرَ علماء عصره بفهمه لكتاب الله- تعالى- ومقدرته على تفسيره، تفسيرًا يصلُ آخر هذه الأمّة بأولها، ويعيد للقرآن منزلتَه التي كاد أنْ يفتقدها بمزاحمة العلوم الأرضية والمناهج البشرية، فعلّم الناس منزلةَ القرآن، وأنه هو الشفاء لهذه الأمّة، وتبوّأ الشيخ الصدارةَ بين علماء عصره في التفسير، فسارت بذكْره الرُّكبان، حتى أخبر المسافرون أنه نودي بعد موته بأقصى الصّين للصلاة عليه يومَ الجمعة بنداء: الصلاة على ترجمان القرآن[(١)].

لقد تعدّدت مناقب ابن تيمية- رحمه الله وأعلى الله ذكره، وشهد كثيرٌ من العلماء بذلك، نذكر من أقوالهم هذه الأقوال لتضع أيدينا على هذه المكانة البارزة في هذا العلم الجليل.

وذكر في موضع آخر أنه فسّر كتاب الله مدّة سنين من صدره أيام الجمع، ولقد تحدّث البرزالي- أيضًا- عن براعته في التفسير وغزارة علومه فيها، و«ذكر معرفته بعلوم القرآن المجيد واستنباطه لدقائقه ونقله لأقوال العلماء في تفسيره واستشهاده بدلائله، وما أودعه الله- تعالى- فيه من عجائبه وفنون حكمه وغرائب نوادره، وباهر فصاحته وظاهر ملاحته، فإنه فيه من الغاية التي ينتهى إليها، والنهاية التي يعول عليها.

ولقد كان إذا قرئ في مجلسه آيات من القرآن العظيم يشرع في تفسيرها فينقضي المجلس بجُملته والدرس برُمّته وهو في تفسير بعض آية منها، وكان مجلسه في وقت مقدر بقدر ربع النهار يفعل ذلك بديهة من غير أن يكون له قارئ معين يقرأ له شيئًا معينًا يبيته ليستعد لتفسيره، بل كان من حضر يقرأ ما تيسر، ويأخذ هو في القول على تفسيره، وكان غالبًا لا يقطع إلّا ويفهم

(١) انظر: اختيارات ابن تيمية في التفسير ومنهجه في الترجيح لابن زيلعي هندي، ص(٧٦).

السامعون أنه لولا مضي الزمن المعتاد لأورد أشياء أخرى في معنى ما هو فيه من التفسير، لكن يقطع نظرًا في مصالح الحاضرين.

ولقد أملى في تفسير ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ مجلدًا كبيرًا، وقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ نحو خمس وثلاثين كراسة، ولقد بلغني أنه شرع في جمع تفسير لو أتمّه لبلغ خمسين مجلدًا»(١).

يقول ابن عبد الهادي: «ومهر في علمي التفسير والحديث... وكان إذا ذكر التفسير أبهر الناس من كثرة محفوظه وحسن إيراده وإعطائه كلّ قول ما يستحقه من الترجيح والتضعيف والإبطال»(٢).

برع الشيخ في التصانيف التي كتبها في التفسير، ويدل على ذلك ما قاله الإمام ابن عبد الهادي نقلًا عن كاتبه ابن الرشيق: «كتب الشيخ- رحمه الله- نقول السلف مجردة عن الاستدلال على جميع القرآن، وكتب في أوله قطعة كبيرة بالاستدلال، ورأيت له سورًا وآيات يفسرها ويقول في بعضها: كتبته للتذكّر ونحو ذلك، ثمّ لما حُبس في آخر عمره كتبت له أن يكتب على جميع القرآن تفسيرًا مرتبًا على السور»(٣).

وكان يتوقد ذكاء، وسماعاته من الحديث كثيرة، وشيوخه أكثر من مائتي شيخ، ومعرفته بالتفسير إليها المنتهى»(٤).

ومن أقواله مؤكدًا براعته في التفسير: «وكتب على تفسير القرآن جملة كبيرة تشتمل على نفائس جليلة ونكت دقيقة ومعان لطيفة، وأوضح مواضع كثيرة أشكلت على خلق من المفسرين»(٥).

---

(١) الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية، (١/ ٢٠، ٢١).
(٢) مختصر طبقات علماء الحديث، ضمن الجامع، ص(٢٥١).
(٣) العقود الدرية، (١/ ٤٣).
(٤) العقود الدرية، (١/ ٣٩).
(٥) مختصر طبقات علماء الحديث، ص(٢٦١).

ويقول- أيضًا- في موضعٍ آخر: «فمن ذلك ما جمعه في تفسير القرآن العظيم، وما جمعه من أقوال مفسري السلف الذين يذكرون الأسانيد في كتبهم، وذلك في أكثر من ثلاثين مجلدًا، وقد بيّض أصحابه بعض ذلك، وكثيرًا منه لم يكتبوه بعد، وكان- رحمه الله- يقول: ربّما طالعت على الآية الواحدة نحو مائة تفسير، ثمّ أسأل الله الفهْمَ وأقول: يا معلّم آدم وإبراهيم علّمني، وكنت أذهب إلى المساجد المهجورة ونحوها وأمرّغ وجهي في التّراب، وأسأل الله- تعالى- وأقول: يا معلّم إبراهيم فهّمني»[١].

وأيضًا- تحدّث عن منزلة ابن تيمية في التفسير الحافظ ابن سيد الناس فقال: «فألفيته ممّن أدرك من العلوم حظًّا، وكاد يستوعب السنن والآثار حفظًا، إن تكلم في التفسير فهو حامل رايته»[٢].

ويقول عنه أبو الحجاج المزي: «ما رأيت مثله، ولا رأى هو مثل نفسه، وما رأيت أحدًا أعلم بكتاب الله وسنة رسوله ولا أتبع لهما منه»[٣].

ويقول ابن الزملكاني: «وأمّا التفسير فمسَلّم إليه، وله في استحضار الآيات من القرآن وقت إقامة الدليل بها على المسألة قوة عجيبة، وإذا رآه المقرئ تحيّر فيه، ولفرط إمامته في التفسير وعظمة اطّلاعه يبين خطأ كثير من أقوال المفسرين، ويوهي أقوالًا عديدة، وينصر قولًا واحدًا موافقًا لما دلّ عليه القرآن والحديث، ويكتب في اليوم والليلة من التفسير أو من الفقه أو مِن الأصليْن أو من الردّ على الفلاسفة والأوائل نحوًا من أربعِ كراريس أو أزيد»[٤].

ويقول الإمام الذهبي: «... وأمّا التفسير فمسلّم إليه، وله في استحضار الآيات من القرآن- وقت إقامة الدليل بها على المسألة- قوة عجيبة، وإذا رآه المقرئ تحيّر فيه، ولفرط إمامته في التفسير وعظم اطّلاعه يبين خطأ كثير من أقوال المفسرين، ويوهي أقوالًا عديدة، وينصر قولا واحدًا موافقًا لما دلّ عليه القرآن والحديث.

---

(١) العقود الدرية، (١/ ٤٢).
(٢) العقود الدرية، (١/ ٢٦).
(٣) شذرات الذهب، (٦/ ٨٤)، والعقود الدرية، (١/ ٢٣).
(٤) العقود الدرية، (١/ ٤١).

ويكتب في اليوم والليلة من التفسير أو من الفقه أو من الأصلين أو من الردّ على الفلاسفة والأوائل نحوًا من أربعِ كراريس أو أزيد، وما أبعد أن تصانيفه الآن تبلغ خمسمائة مجلدة، وله في غير مسألة مصنّف مفرَد في مجلد»[1].

وتحدّث ابن كثير عن تفسير ابن تيمية موضحًا ذلك بأنه جلس الشيخ تقي الدين -أيضًا- بالجامع الأموي بعد صلاة الجمعة على منبر قد هيئ له لتفسير القرآن العزيز، فابتدأ من أوله في تفسيره، وكان يجتمع عنده الخلق الكثير والجمّ الغفير من كثرة ما كان يورد من العلوم المتنوعة المحررة، مع الديانة والزهادة والعبادة، سارت بذكره الرّكبان في سائر الأقاليم والبلدان، واستمرّ على ذلك مدّة سنين متطاولة»[2].

ويرى الإمام الذهبي أن شيخ الإسلام كان رائعًا في استحضار الآيات والأدلة، فيقول: وما رأيت أحدًا أسرع انتزاعًا للآيات الدالة على المسألة التي يوردها منه».

وقال: «كان آية من آيات الله في التفسير والتوسّع فيه، لعله يبقى في تفسير الآية المجلس والمجلسيْن».

ويصف ثقافته التفسيرية وعلمه بكتب التفسير بقوله: «حكى لي من سمعه يقول: إني وقفت على مائة وعشرين تفسيرًا، أستحضر من الجميع الصحيح الذي فيها»[3].

ويتحدث الذهبي عن شيخ الإسلام ابن تيمية وبراعته في التفسير، وأنه يمتلك موهبة خاصة في هذا العلم جعلته مميزًا عن غيره من المفسرين، مبينًا أنه «برع في تفسير القرآن، وغاص في دقيق معانيه بطبْعٍ سيّال وخاطر وقاد إلى مواضع الإشكال ميال، واستنبط فيه أشياء لم يسبق إليها»[4].

وفي ذلك- أيضًا- مدحه الصفدي بأنه له اليدُ الطولى قائلًا: «وأما التفسير فيده فيه طولى، وسرده فيه يجعل العيون حُولًا»[5].

(١) مختصر طبقات علوم الحديث، ص(٢٥٦).
(٢) البداية والنهاية، ط إحياء التراث، (١٣/ ٣٥٥).
(٣) الوافي بالوفيات، ص(٣٦٨)، ضمن الجامع.
(٤) شذرات الذهب، ص(٦٣٠)، ضمن الجامع.
(٥) أعيان العصر، ص(٣٤٨)، ضمن الجامع.

وهكذا نجد من كلام العلماء أن شيخ الإسلام ابن تيمية يمتلك منزلة رائعة بين المفسرين، وربما تعزو هذه المنزلة إلى الأسباب الآتية:

١ـ فرط ثقافته، وغزارة علمه.

٢ـ قدرته الرائعة على الاستدلال وجمع الأدلة في المسألة الواحدة، ثمّ الربط بين هذه الأدلة.

٣ـ معرفته الرائعة باللغة العربية ودلالات الألفاظ.

٤ـ معرفته المستوعبة بالسنة النبوية ودرجات الأحاديث ومعرفة الرجال.

٥ـ منهجه المميّز عن باقي المفسرين.

٦ـ ارتباطه القوي قولًا وعملًا بالكتاب والسنة والصحابة ومنهج السلف الصالح.

٧ـ معرفته بعلم السنن والعلوم الكونية والاجتماعية جعلته مستوعبًا لما يحتاجه الناس، وما يصدر عليهم من قوانين إلهية لا تتحوّل ولا تتبدّل، وارتباط هذه القوانين بالآيات القرآنية؛ لأن كلّ ذلك حلقة كاملة لا تنفصم عن بعضها، بل وحدة كاملة لو اختلت حلقة فيها لاختلّ جميع الكون، وهو يؤكد ذلك دائمًا.

٨ـ أنه، حقًّا، الداعية الذي وضع نصبَ عينيه مساعدة الناس للرجوع إلى ربهم، والتفسير وجميع العلوم التي عرفها تخدم هذا الهدف؛ لذلك تميز في تفسيره عن باقي المفسرين.

٩ـ المَلَكة الربانيّة التي وهبه الله إيّاها، فهو نحسبه كذلك من العارفين الصادقين، وذلك يذْكره ويؤكده كثيرٌ من العلماء المعاصرين له، كما سبق.

- **كتابات حول الشيخ في التفسير وعلوم القرآن:**

حفَلَ العلماء المسلمون قديمًا وحديثًا بابن تيمية وكتاباته لتميّزه في منهجيته وشموليته في تفسيره، ومِن أبرز الكتابات حوله في التفسير وعلوم القرآن ما يأتي:

١ـ أصول التفسير عند شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره من المفسرين، عبد الله ديريه ابتدون، ماجستير من الجامعة الإسلامية ١٤٠٣هـ.

٢ـ القراءات في فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، عبد الفتاح إسماعيل شلبي، محاضرات الموسم الثقافي لكلية اللغة العربية ١٤٠٢، ١٤٠٣هـ، ٩ محاضرات.

٣ـ منهج ابن تيمية في تفسير القرآن الكريم، صبري المتولي رسالة دكتوراه، ط: عالم الكتب ١٩٨١م.

٤ـ ابن تيمية ومنهجه وأثره في التفسير، د/ ناصر بن محمد الحميد، رسالة دكتوراه، جامعة الإمام، كلية أصول الدين، قسم القرآن الكريم وعلومه، ١٤٠٥هـ.

٥ـ الإمام ابن تيمية وموقفه من قضية التأويل، د/ محمد السيد الجليند، ط: القاهرة، ١٣٩٣هـ.

٦ـ المعجزات والكرامات وأنواع خوارق العادات، ومنافعها ومضارها لشيخ الإسلام ابن تيمية، ت: أبي عبد الله محمود بن إمام، مكتبة الصحابة بطنطا، ١٤٠٦هـ.

٧ـ ابن تيمية كمصدر عند ابن كثير، د/ مسعود الرحمن خان الندوي، ضمن ندوة عالمية حول شيخ الإسلام.

٨ـ ابن تيمية حياته العلمية ومواقفه الخالدة، ط: ١٤٠٨هـ.

٩ـ ابن تيمية حامل راية الكتاب والسنة، د/ محمد نعمان السلفي، ضمن الندوة حول الشيخ.

١٠ـ مقارنة بين منهج ابن تيمية في التفسير ومنهج الفراهي، الأستاذ/ أشهد رفيق الندوي، ضمن الندوة.

١١ـ ابن تيمية وعلم التفسير، للشيخ عبد الواحد عبد القدوس، ضمن الندوة.

١٢ـ ابن تيمية وجهوده في التفسير، إبراهيم خليل بركة، رسالة ماجستير، ط: المكتب الإسلامي، رسالة في كلية أصول الدين، جامعة الأزهر، ١٩٨٥م.

١٣ـ مقارنة بين الإمامين ابن تيمية وابن القيم في تفسير المعوذتين، عبد السلام محمود، رسالة ماجستير من قسم التفسير كلية أصول الدين، جامعة الأزهر، ١٩٩٥م.

١٤ـ آيات الأحكام عند شيخ الإسلام ابن تيمية قسم العبادات والمعاملات، وليد محنوس الزهراني، رسالة ماجستير.

١٥ـ آيات الأحكام كتاب النكاح والجنايات والقضايا، عبد الحي دخيل المحمدي، رسالة ماجستير.

١٦ـ تفسير ابن تيمية بين النظرية والتطبيق، صبري المتولي، رسالة ماجستير.

١٧ـ تفسير سورة الإخلاص لشيخ الإسلام ابن تيمية، دراسة عقدية وتحقيق: فوزية محمد حمد البدر.

١٨ـ منهج ابن تيمية في التفسير، سعدى أحمد زيدان.

١٩ـ إعجاز القرآن عند شيخ الإسلام ابن تيمية مع المقارنة بكتاب إعجاز القرآن للباقلاني، محمد بن عبد العزيز العواجي[١].

• **ما كتبه شيخُ الإسلام ابن تيمية في التفسير:**

أولًا: آثارُ ومصنّفات ابن تيمية في التفسير إجمالا:

١ـ مقدمة في أصول التفسير.

٢ـ الإكليل في المتشابه والتأويل.

٣ـ تفسير سورة الإخلاص.

٤ـ تفسير سورة النور.

٥ـ تفسير المعوذتين.

٦ـ دقائق التفسير، قام بجمعه وترتيبه: د/ محمد السيد الجليند.

(١) انظر في ذلك: دليل الرسائل الجامعية في علوم شيخ الإسلام، إعداد: عثمان بن محمد الأخضر شوشان، الرياض، ١٤٢٤هـ. وإعجاز القرآن الكريم، ص(٨٤، ٨٥)، د/ محمد عبد العزيز العواجي، مكتبة دار المنهاج، تقديم: د/ حكمت بشير، د/ محمد عمر عبد الله حوبة، وأوراق مجموعة من حياة شيخ الإسلام ابن تيمية، محمد بن إبراهيم الشيباني، ط: أولى، ١٤٠٩هـ- ١٩٨٩م، مكتبة ابن تيمية.

٧ـ تفسير آيات أشكلت.

٨ـ أقسام القرآن.

٩ـ رسالة في المعاني المستنبطة من سورة الإنسان.

١٠ـ قاعدة في تحزيب القرآن، وما يتعلّق بذلك، وما ورد فيه من الآثار.

١١ـ قاعدة في تفسير أول البقرة.

١٢ـ فضائل القرآن.

١٣ـ تفسير سورة الفاتحة.

١٤ـ تفسير سورة المائدة.

١٥ـ تفسير سورة ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ البيّنة.

وهذه المصنفات بعضها مجلد كبير، وبعضها صغير، وله في مسألة القرآن مؤلفات كثيرة وقواعد وأجوبة وغير ذلك، إذا اجتمعت بلغت مجلدات كثيرة.

المبحثُ الثّاني

تصنيفٌ نوْعي لما كتبَه شيخُ الإسلام ابن تيمية في التفسير

١ - التفسير التحليلي:

وكتبَ فيه عددًا من المصنّفات منها: التفسير الكبير، التفسير الدقيق، تفسير سورة الإخلاص، تفسير سورة النور، تفسير المعوذتين.

٢- التفسير الموضوعي:

ومِن أهمّ مصنّفاته فيه: رسالة في المعاني المستنبطة من سورة الإنسان، رسالة في السنن، تفسير سورة الفاتحة، تفسير سورة المائدة، تفسير ﴿لَمۡ يَكُنِ﴾، رسالة في الفرقان، رسالة في الحسنة والسيئة، رسالة في المحبة، رسالة في علم الظاهر والباطن، بيان طريقة القرآن في الدعوة وما بينها وبين الطرق الكلامية، الكيلانية، القادرية، الأزهرية، المسألة المصرية.

٣- ما كتبَه في علوم القرآن:

وممّا كتبه فيه: أقسام القرآن، أمثال القرآن، تحزيب القرآن، فضائل القرآن، قاعدة في القرآن وكلام الله، القرآن العظيم كلام الله ليس فيه كلام لغيره، مسألة الأحرف التي أنزل الله على آدم هل هي كلام الله، الحقيقة والمجاز، حديث الأحرف السبعة، قاعدة في فضائل القرآن، شكل ونقط المصاحف.

٤ - المُتشابه:

وكتبَ فيه كتابه: تفسير آيات أُشكلت.

٥- أصول التفسير:

وفيه: مقدّمة في أصول التفسير.

وهاكم نبذة عن بعض هذه المصنّفات:

أوّلًا: التفسير التحليلي:

جمع معظم تفسير القرآن لابن تيمية في أربعة مجلّدات، وتناول شيخ الإسلام في هذه المجلّدات تفسير القرآن الكريم مركزًا على ما أشكل على المفسرين فهمه، مستخدمًا المنهج الموضوعي لتفسيره مرّة، والمنهج التحليلي مرّة أخرى، ذاكرًا لأوجه التفسير عند العلماء في الآية الواحدة أو الكلمة الواحدة أو المعنى الواحد، ومرجّحًا أفضل هذه الآراء طبقًا لفهْمه للقرآن والسنة، وما أُثر عن الصحابة، وما ورد في اللغة العربية.

ويظهر عمقُ علمِه وثقافته في اللغة والنحو والأدب والشعر، ويظهر طابعه الخاص ونبعه الصافي في هذا التفسير، حيث تشعر بخيطٍ واحد يجمع كلّ كتاباته، وهو التركيز على أنّ القرآن الكريم هو كتابٌ لهداية البشر وسعادتهم، ويحتاج منّا إلى عمق الفهْم والتأمّل الواعي في كلّ ما جاء فيه من قضايا وأحكام، وأنه هو منهج الحياة لكلّ البشر، ومركزًا على أنّ وسائلنا في هذا الفهْم لا بدّ ألّا تخرج عن إطار ما ورد عن النبي ﷺ والسلف الصالح، وهدايات التابعين- رضي الله عنهم وأرضاهم[١].

ثانيًا: ما كتبَه في التفسير الموضوعي:

جواب أهل العلم أنّ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ تعدل ثلثَ القرآن

تحدّث شيخُ الإسلام عن سورة الإخلاص موضحًا أفضليتها وكلامَ العلماء في أنها تعدل ثلثَ القرآن، شارحًا لمعانيها وسبب هذه الأفضلية، وأثناء ذلك تحدّث عن سبب نزولها، وهذا التناول من قبيل التفسير الموضوعي لهذه السور؛ حيث تناول في ذلك كلّ ما يخصّ سورة الإخلاص من قضايا عقدية، ومقدرًا آراء الصوفية وغيرهم في ذلك مثبتًا ما ورد عن النبي ﷺ والصحابة مستشهدًا بكلام الله – عز وجل – على كلّ معنى من المعاني التي تناولتها هذه السورة.

ولقد تناولها موضوعيًا؛ حيث إنّ معانيها دارت حول قضية التوحيد، والتوحيد هو أساس الإيمان.

(١) مجموع الفتاوى: (جـ ١٤، ١٥، ١٦، ١٧)

السنّة في القرآن الكريم:

تناول شيخُ الإسلام السنة في القرآن الكريم تناولًا موضوعيًّا، فوضّح معناها وصفاتها مُستدلًّا بالآيات القرآنية التي توضح هذا المعنى، وسيأتي تفصيل ذلك في هذا الفصل- إن شاء الله.

قاعدةٌ في المحبة، وهي تفسير موضوعي:

تحدّث فيها شيخُ الإسلام عن أهمية هذه القاعدة مبينًا أنّ الحبّ أساس عمل كلّ الأفعال، وأنّ الكراهية هي أساس ترك كلّ الأعمال، وأنّ رأس الإيمان هو الحبّ في الله والبغض في الله، ووضّح أنواع المحبّة، وأنّ منها ما هو محمود، ومنها ما هو مذْموم، وأنّ لها آثارًا ونتائج، وبيّن طبيعة الحبّ والبغض أنهما لا يبقيان على حالة واحدة؛ فهُمَا يزدادان وينقصان ويتغيّران.

وتعرّض في هذا الباب لآراء الصوفية في المحبّة، وكيف تكون محبة الله للعبد، وكيف تكون محبة العبد لله - عز وجل -، وأيضًا محبة الله للعبد والفرق بينهما.

ما هو العشق، وهل هو مرض، وما هي حدوده؟

وبين أحوال الناس في محبّتهم لله - عز وجل -.

الباقيات الصالحات:

تحدّث شيخُ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- في هذه القاعدة عنِ الباقيات الصالحات (سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر).

حيث بدأ كلامَه ببيان فضل هذه الكلمات كما وردت في حديث النبيﷺ، ثمّ ذكر الآياتِ التي تدلّ على التسبيح، والمواضع المستحبة للتسبيح، وكذلك في التكبير والحمد والتهليل.

وهي مِن قبيل التفسير الموضوعي حيث يذكر الآيات ويقوم بتفسير دلالاتها من كتب التفسير وأحاديث النبي ﷺ وأقوال الصحابة[1].

---

(١) الفتاوى: جـ١٧ صـ٥، ٢٥ بتصرف.

رسالةُ الفرقان دراسة موضوعية:

وهي رسالة تتحدّث عن الفرقان بين الحقّ والباطل تناولها شيخُ الإسلام ابن تيمية بأنْ جمع كلّ التعريفات لكلمة الفرقان، ثمّ تحدّث عن المعنى الذي يرجّحه، وهو التفريق بين الحقّ والباطل، معززًا ذلك بأقوال المفسرين، كما تحدّث عن مرادفات الكلمة وموقعِ ذلك في كتاب الله – عز وجل –.

وتحدّث – أيضًا – عنْ أمثلة لهذا الفرقان ذُكرت في كتاب الله – سبحانه وتعالى – مثل: التفرقة بين الحسنة والسيئة، والحقّ والباطل، والصالحين والمفسدين، والفرق بين الخالق والمخلوق، وتحدّث فيها – أيضًا – عن أهل النّفاق والبدع، وذكر أمثلةً على ذلك، وأهل الإيمان متناولًا الفرقَ الباطلة التي ظهرت، وتوضيح مدى مخالفتها لما شرعه الله – عز وجل – ، ومثّل لذلك بالكلمة الطيبة والخبيثة[1].

الرّسالة العرشية أو الإحاطة:

وسُمّيت بهذا الاسم لأنّها تناولت الردّ على ما أثير حول قضية العرش وكرويّته، كما تناولت أسبابَ اتجاه العبد إلى العلو في دعائه.

سُئل فيها عن العرش: هل هو كروي أم لا؟ وإن كان كرويًّا والله محيطٌ به؛ فما فائدة أنّ العبد يقصد العلو حين دعائه؟ .. إلخ

الجواب بثلاثِ مقامات، أنه لم يثبت أنّ العرش كرويّ مستدير.

لقد ردّ في هذه الرسالة على مَن نفى العلو عن الله – سبحانه وتعالى – ، حيث يقول: «لا يجوز أن يكون التوجّه إلى الله إلّا إلى العلو مع كوْنه على عرشه مباينًا لخلقه، وسواء قدر مع ذلك أنه محيط بالمخلوقات كما يحيط به إذا كانت في قبضته، أو قدر مع ذلك أنه فوقها من غير أن يقبضها ويحيط بها؛ فهو على التقديرين يكون فوقها ومباينًا لها، فقد تبيّن أنه على هذا التقدير في الخالق، وعلى هذا التقدير في العرش لا يلزم شيء من المحظور والتناقض».

---

(١) الفتاوى (١٤) ص(٥-٢٣٠)

وبيّن شيخُ الإسلام أنّ هذه الشبهة جاءت من اعتقاديْن فاسدين:

أنْ يظنّ أنّ العرش إذا كان كرويًّا والله فوقه وجبَ أن يكون كرويًّا فيصبح التوجّه إليه من جميع الجهات.

وردّ على ذلك بأنه- سبحانه- ليس كمثله شيء، مع أنّ الله فوق العرش، وإن كان العرش كرويًّا، ويقول - عز وجل -: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر: ٦٧].

٢- أنه ما كان فلكًا يصحّ التوجّه إليه من الجهات الستّ خطأ باتّفاق أهل العقل الذين يعلمون الهيئة، وأهل العقل الذين يعلمون أن القصد الجازم يوجب فعل المقصود بحسب الإمكان.

ووضّح- رحمه الله- أنّ قصد الله - عز وجل - من ناحية العلو سيتوافق مع الفطرة التي فطر الناس عليها، كما أنّ ذلك ما يقبله العقل والشرع.

وهو في هذه الرسالة قد أتى بالآيات التي تتحدّث عن السموات والأفلاك وقدرة الله - عز وجل - في الإحاطة بها، كما جاء بالآيات التي تدلّ على العرش وشرحها، وأكّد هذه المعاني بالأحاديث النبوية، وأقوال الصحابة، وهذا قريب جدًّا من التفسير الموضوعي(١).

الكيلانية:

هذه الرّسالة سُمّيت بهذا نسبة إلى عبد القادر الكيلاني(٢) (٤٧٠-٥٦١هـ) وجاءت هذه الرسالة ردًّا على قوم يقولون: إنّ كلام الناس وغيرهم قديم سواء كان صدقًا أو كذبًا أو غير ذلك، ولا فرق بين كلام الله - عز وجل - وكلامهم في القدم إلّا من جهة الثواب.

وبيّن شيخ الإسلام أنّ كلامهم هذا مردودٌ وخطأ محرم بإجماع المسلمين، وأنّ هذا منكَر ومحرّم وكُفر يجبُ نهيهم عنه، ويجب على ولاة الأمر عقوبة مَن لم ينته منهم عن ذلك.

---

(١) مجموع الفتاوى: (٦/ ٥٤٥-٥٨٤).

(٢) هو أبو محمد عبد القادر بن موسى بن عبد الله، يلقب في المغرب بالشيخ أبو علام الجيلاني وفي المشرق بعبد القادر الجيلاني، ويعرف بسلطان الأولياء وهو إمام صوفي وفقيه حنبلي.

ثمّ بيّن أنّ هذا القول مخالف للعقل والدين، مناقض للكتاب والسنة وإجماع المسلمين، وأنه بدعةٌ شنيعة لم يقلها أحدٌ من قبل لا علماء السنة ولا علماء البدعة، ولا يقولها عاقلٌ يفْهم، ولكن وضّح أنّ هذه شبهة وقام بتفنيدها، وأثبت أن كلّ ما في السموات والأرض ليس شيء منه خارج عن ربوبيته، ولا شيء من الملك خارج عن ملكه، ولا شيء من المحدثات خارج عن خلقه، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ٦٢ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٦٣﴾.. [الزمر: ٦٢-٦٣].

وأوضح أنّ الله- سبحانه- وكيلٌ على كلّ ما في الكون، وكل حركة أو سكون تحت مشيئته وقدرته وعلمه، وأيضًا هذا لا ينفي الجبر للإنسان فالعبد له مشيئته وقدرته وإرادته، وهو فاعلٌ لفعله حقيقة، والله خالق هذا كله، كما وضّح- أيضًا- مسألة اللفظ بالقرآن.

وفي هذه الرّسالة وضع هذه الأقوال الفلسفية وبدع المتكلمين وبيَّن رأي أهل السنة والجماعة ودحَضَ هذه الشبهات، وردّها، وجرّمَ أصحابها.

فقد بيّن شيخُ الإسلام بالأدلة بالكتاب والسنة أنّ الله - عز وجل - متّصف بكلّ صفات الكمال، ومنزّه عن صفات النّقص، وأن الكمال صفة من صفات الله - عز وجل - ، كما بيّن أنه ما يقرؤه الناس من القرآن هو كلام الله - عز وجل - ، وإنْ كان ذلك الصوت هو صوت الشخص الذي يتلوه؛ حيث قال النبيﷺ: «زينوا القرآن بأصواتكم»[(١)].

المسألة المصرية:

هذه المسألة ردّ فيها شيخُ الإسلام على اختلاف المسلمين في كلام الله- تعالى- حيث ذهب الناسُ في هذه المسألة إلى أنحاءٍ ثلاثة، فقومٌ إلى أنه قديم الحرف والصوت وهُمُ الحشوية، وقومٌ أنّه حادث بالصوت والحرف وهُمُ الجهمية ومَن تابعهم، وقومٌ أنه قديم بلا صوت ولا حرف إلى معنى قائم بذات الله وهُمُ الأشعرية.

(١) مجموع الفتاوى(١٢/ ٣٢٣-٥٠١) بتصرف. والحديث أخرجه أبو داود في سننه: (٢/ ٥٩٤)، وهو صحيح.

يقول شيخُ الإسلام ابن تيمية في ذلك: إنّ الأقوال الواردة في هذه المسألة تبلغ سبعة أو أكثر.

وقام بتوضيح كلّ طريقة على حدَة، والردّ على آرائهم، وتفنيدها، وإظهار الصحيح والخطأ.

وذكر بعد ذلك أنّ مسألة القرآن قد كثر فيها اضطراب الناس، وغالبهم يقصد وجهًا من الحقّ، ويعزبُ عنهم وجهٌ آخر.

وذكر أنّ أصحّ الأقوال وأشدّها هي أقوال الصحابة والأئمة والتابعين الذين لهم في الأمّة لسان صدق، وأنّ كلامهم يطابق صحيح المعقول وصحيح المنقول، وذكر شيخ الإسلام أنّ هذه الخلافات تعود إلى إطلاقات لفظية لا إلى معانٍ عقلية، وأحسن الناس طريقةً مَن كان إطلاقه موافقًا للإطلاقات الشرعية والمعاني التي يقصدها معان صحيحة تطابق الشرع والعقل.

ووضّح- رحمه الله- أنّ منشأ النزاع بين المسلمين في هذا الباب أنّ المتكلمين من الجهمية والمعتزلة سلكوا في إثبات حدوث العالم وإثبات الصانع طريقًا مبتدعة في الشرع، مضطربةً في العقل، وأوجبوها، وزعموا أنّه لا يمكن معرفة الصانع إلّا بها، وتلك الطريق فيها مقدّمات مجملة لها نتائج مُجملة، فخلط كثير من سالكيها في مقْصود الشارع ومُقتضى العقل، فلم يفهموا ما جاءت به من نصوص نبوية، ولم يحرّروا ما اقتضته الدّلائل العقلية، وذلك أنهم قالوا: لم يمكن معرفة الصانع إلّا بإثبات حدوث العالم، ولا يمكن إثبات حدوث العالم إلّا بإثبات حدوث الأجسام.

ووضّح شيخُ الإسلام أنّ الذي يجب على المسلمين اتباعه هو "أنّ القرآن الذي أنزله الله على عبده ورسوله كلامُ الله- تعالى، وأنّه منزّل غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود، فإنّه قرآن كريم في كتابٍ مكنون لا يمسّه إلّا المطهرون..

ويجب عليهم أنْ يلزموا سنة رسول الله ﷺ وسنة الخلفاء الراشدين والسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، وما تنازعت فيه الأمّة وتفرّقت إن استطاع أن

يفصل النزاع بالعلم والعدل والاستمساك بالجُمل الثابتة بالنصّ والإجماع، وأعرض عن الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعًا، فإنّ مواضع التفرقة والاختلاف عامتها تصدر عن اتّباع الظّن، وما تهوى الأنفس، ولقد جاءهم من ربّهم الهدى[1].

التّبيان في نزول القرآن:

وضّح شيخُ الإسلام في هذه الرسالة أنّ هناك أخطاءً في تفسير النزول، ووضّح أنّ النزول في كتاب الله ثلاثة أنواع:

١- نزول مقيّد بأنه منه.

٢- نزول من السماء.

٣- نزول مُطلق.

ووضّح أنّ كثيرًا من الناس فسّروا النزول في مواضع من القرآن بغير معناه المعروف؛ لاشتباه المعنى في تلك المواضع، وصار ذلك حجّة لَمن فسّر نزول القرآن بتفسير أهل البدع.

وهذه الرسالة من أبواب علوم القرآن، ولكن طريق التناول من باب التفسير الموضوعي؛ لأنه تتبّع الموضوع مؤكدًا ذلك بآيات القرآن شارحًا لها.

وذكر أمثلةً على أنواع النزول منها: النزول المقيد بأنه منه، وهو لم يرد إلّا في القرآن، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام: ١١٤]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ١٠٢﴾ [النحل: ١٠٢]، والنزول المقيد بالسماء، مثل: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ١٨﴾ [المؤمنون: ١٨]، ﴿ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ٦٩﴾ [الواقعة: ٦٩]، ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ [النور: ٤٣].

وأمّا المُطلق ففي مواضع من إنزال السكينة، ومن إنزال الميزان، وإنزال الحديد.

---

(١) مجموع الفتاوى: (١٢/ ١٦٢-٢٣٤) بتصرف.

وبيّن في تناوله لهذه الأنواع خطأ أهل الكلام الذين أولوا النزول بأنه الخلق، أو بمعنى الإعلام والإفهام، ووضّح أنّ كلمة النزول هي الكلمة الموافقة للغة العرب، وهي التي جاء بها القرآن(١).

قاعدةٌ في القرآن وكلام الله:

لقد تحدّث ابن تيمية عنْ هذه القاعدة، مبيِّنا أنّ الأمّة قد اختلفت في كتاب الله – عز وجل –؛ وذلك لأنّ الأمّة أخذت تدخل في دائرة الهوى والظنون، لذلك ظهرت فيهم الفرق الباطلة مثل: الجهمية المشتقة من الصابئة، وكان هذا الاختلاف نوعيْن:

١- اختلاف في التنزيل، وهذا هو الأعظم، وهو الذي ذمّه الله – عز وجل – في كتابه، وهو اختلاف الحقّ الواجب الإيمان به، والذي لا يؤمن بالكتاب كله أو يؤمن ببعض ويكفر ببعض يعدُّ كافرًا آثمًا.

٢- اختلاف في التأويل.

ولكنّ المقصود في هذه الرسالة الاختلافُ الأول.

ولقد ذكر أمثلة كثيرة من قصص الأنبياء والأمم السابقة عن اليهود والنصارى والصحابة تبيّن جهود الأقوام الماضية التي آمنت ببعض الرسل وكفرت بآخرين، أو آمنت ببعض الكتب وكفرت بأخرى، وفي هذه الأمّة الضلالات المبتدعة من الإيمان ببعض الكتاب والكفر بالبعض الآخر، أو ببعض صفات التكليم والرسالة والنبوة دون بعض، وذلك إمّا في التنزيل أو في التأويل، وهذه القاعدة من علوم القرآن، وتناول الشيخ فيها من التفسير الموضوعي(٢).

الأحرفُ التي أنزلها الله على آدم:

سئل شيخُ الإسلام عن رجليْن تجادلا في الأحرف التي أنزلها الله على آدم، فقال أحدُهما: إنها قديمة ليس لها مبتدأ، وشكلها ونقطها محدث.

(١) مجموع الفتاوى: (١٢/ ٢٤٦-٢٥٨) بتصرف.
(٢) مجموع الفتاوى: (١٢/ ٦-٣٧) بتصرف يسير.

فقال الآخر: ليست بكلام الله، وهي مخلوقة بشكلها ونقطها، والقديم هو الله، وكلامه منه بدأ وإليه يعود، ومنزل غير مخلوق، ولكنه كتب بها.

وسئل: أيهما أصوب قولًا وأصحّ اعتقادًا؟

فأجاب: الحمدُ لله رب العالمين، أصل هذه المسألة هو معرفة كلام الله- تعالى، ومذهب سلف الأمّة وأئمتها من الصحابة والتابعين لهم بإحسان وسائر أئمة المسلمين كالأئمة الأربعة وغيرهم ما دلّ عليه الكتاب والسنة، وهو الذي يوافق الأدلة العقلية الصريحة أنّ القرآن كلام الله منزل غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود، فهو المتكلم بالقرآن والتوراة والإنجيل وغير ذلك من كلامه ليس ذلك مخلوقًا منفصلًا عنه، وهو-سبحانه- يتكلّم بمشيئته وقدرته، فكلامه قائم بذاته ليس مخلوقًا بائنًا عنه.

وقال أيضًا: إنّ كلام الله لا نهاية له.

ووضّح- أيضًا- أقوال السلف بالتفصيل، مع توضيح الآراء المخالفة لهم، وبيان خطئهم في ذلك.

ووضّح أسباب تنازع الناس في الحروف الموجودة في كلام الآدميّين، أمّا الأحرف التي أنزلها الله على آدم فقد أورد في ذلك كلام ابن جرير الطبري ونحوه، وفنّد آراءهم في ذلك، وقال: لقد علّم الله آدمَ الأسماء كلها، وأنطقه بالكلام المنظوم، أمّا تعلّم حروف مقطّعة فهو لا ينفع، ولكن هذه الحروف جعلت للمبتدئين في تعلم القراءة، وما ذكر في ذلك من أحاديث فهي واهية الأسانيد(١).

طريقةُ شيخ الإسلام ابن تيمية في التفسير:

كان لشيخ الإسلام ابن تيمية أسلوبٌ خاص به في التفسير ميّزه عن غيره من المفسّرين، جوهره أنّ التفسير وسيلة رائعة لهداية الناس إلى منهج الله، وترى هذا الهدف واضحًا من

(١) مجموع الفتاوى: (١٢/ ٣٧-١١٧).

خلال كتاباته في التفسير، فهو يأخذك بكلّ جوارحك مع هذه المعاني المستنبطة من السورة ليوصلك إلى أسمى معاني الهدايات القرآنية.

كما ميّز شيخ الإسلام في تفسيره طريقته في تعامله مع النصوص، يقول الشيخ أبو عبد الله بن الرشيق وكان من أخصّ أصحاب شيخ الإسلام وأكثرهم كتابة لعلمه وحرصًا على جَمْعه: «كتب الشيخ- رحمه الله- نقولُ السلف مجرّدة عن الاستدلال على جميع القرآن، وكتب في أوّله قطعة كبيرة بالاستدلال، ورأيت له سورًا وآيات يفسّرها ويقول في بعضها: كتبته للتذكّر، ونحو ذلك.

ثمّ لّما حُبس في آخر عمره كتبت له أنْ يكتب على جميع القرآن تفسيرًا مرتبًا على السور.

فكتب يقول: إنّ القرآن فيه ما هو بيّنٌ بنفسه، وفيه ما قد بيّنه المفسرون في غير كتاب، ولكن بعض الآيات أشكل تفسيرها على جماعة من العلماء، فربما يطالع الإنسان عليها عدّة كتب ولا يتبيّن له تفسيرها، وربما كتب المصنف الواحد في آية تفسيرًا ويفسر غيرها بنظيره، فقصدت تفسير تلك الآيات بالدليل؛ لأنه أهمّ من غيره، وإذا تبيّن معنى آية تبيّن معاني نظائرها.

وقال: قد فتح الله عليّ في هذه المرّة من معاني القرآن ومن أصول العلم بأشياء كان كثيرٌ من العلماء يتمنّونها، وندمت على تضْييع أكثر أوقاتي في غير معاني القرآن»[1].

وهكذا نرى مِن هذا الكلام أنّ شيخ الإسلام- رحمه الله- كانت له طريقتُه المميزة عن غيره، التي جعلته يبلغ في التفسير مبلغًا عظيمًا، بهر علماء عصره بهذا الفهم الرّائع لكتاب الله، واختصاصه بتفسير ما أشكل من الآيات وتبيينها للناس، ملتزمًا في ذلك بما ورد عن السلف الصالح من أقوال في هذه الآيات، منسقًا وشارحًا لهذه الآيات، ومرجّحًا لبعضها على بعض، في ترتيب يخطف الأذهان، مستخدمًا ثقافته الكبيرة في اللغة العربية في توضيح المعاني المترادفة، مُستشهدًا بالشعر والنحو في ترجيح بعض هذه الأقوال على بعض، مبينًا بالدليل لماذا اختار هذا القول وأسباب الاختيار، مسندًا كلّ قول إلى صاحبه، في أمانةٍ علمية رائعة، فكان في طريقته نموذجًا لكلّ مَن جاء بعدَه مِن العلماء والمفسرين.

(١) العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، ص(٤٣).

كما يتّضح لنا أنه لم يكتب تفسيرًا مرتبًا من أول القرآن إلى آخره بالطريقة المعتادة عند كثيرٍ من المفسرين، ولكنه اتخذ منهجًا خاصًّا في تناوله لتفسير القرآن، يظهر ذلك من خلال ردّه على أحد تلاميذه حين سأله أن يكتب تفسيرًا كاملًا للقرآن الكريم، فهو اعتنى بتفسير ما خفي على الناس، وترك ما لا يحتاج إلى تفسير.

***

المبحثُ الثّالث

منهجُ شيخ الإسلام ابن تيمية في التفسير

كتبَ كثيرٌ من العلماء في هذا المنهج وفصّلوا فيه، وأوضحوا مميزاته وخصائصه، ولم يتركوا شيئًا لم يقوموا بتحليله والإفادة منه؛ لأنّ هذا المنهج كان نبراسًا وطريقًا لغيره مِن المفسّرين، فهو منهجٌ يربط الإنسان بذلك الخير العميم الذي استقى منه العالم هداياته، وتلك القرون التي هي خيرُ القرون التي مرّت عليها البشرية.

يقول الإمام محمد أبو زهرة: «كان سلفيًّا في تفسيره، لا يعدو منهاج السلف، وكان منهاجه من كلّ الوجوه آراء السلف دائمًا لا يتجاوزها إلى غيرها، ولا يعدوها قيد أنملة، وحيثما وجد فكرًا سلفيًّا ليس في الآثار ما يناقضه اعتبره شيخ الإسلام في موضعها لا يتجاوزها إلى غير سبيلها؛ لأن سبيلهم سبيل المؤمنين، وشرع رب العالمين»[1].

ونلاحظ في منهج ابن تيمية في التفسير أنه يرى أنّ النبي ﷺ بيَّن القرآن كله، ولم يترك فيه جزءًا يحتاج إلى بيان لم يبيّنه، ولا جزءًا يحتاج إلى تفصيل لم يفصله، ولا مجملًا يحتاج إلى توضيح لم يوضحه؛ لأنّ هذا جزء من الإيمان بالقرآن؛ لأن الله – عز وجل – قد أمر النبي بتبليغ الناس ما نزل إليهم[2].

السّماتُ العامّة لمنهج شيخ الإسلام ابن تيمية في التفسير:

كتب الكثيرُ من العلماء والباحثين حول منهاج شيخ الإسلام ابن تيمية في التفسير، ونستطيع أن نُجمل تلك السماتِ في النقاط الآتية:

١ـ التركيز على المُشكل في التفسير.

٢ـ دقّة الاستنباط.

---

(١) ابن تيمية، ص(١٨٢).

(٢) مقدمة التفسير لابن تيمية، ص(٢٩).

٣ـ تحليل المعاني.

٤ـ موضوعيّة المناقشة.

٥ـ إيراد العِلل وتمييزها.

٦ـ العناية بأقوال السلف.

٧ـ المقارنة بين تفاسير النظائر.

٨ـ تأصيل الأقوال وبيان منشئها.

٩ـ ذكر الأقوال في المسائل الخلافيّة في الآيات المقصودة بالتفسير.

١٠ـ عدم التعصّب، فلم يسيطر عليه فكرٌ مُعين يتعصّب له ويجمد عليه، بل كان حرَّ التفكير، خلع نفسه مِن كلّ ما يقيده إلّا الكتاب والسنة وآثار السلف الصالح، ولقد كان في نشأته حنبليًّا، ولكنه ما إن شبّ حتى درس المذاهب الإسلامية كلها، ثمّ حلّق في مصادرها؛ فهو يعرف كلّ رأي، ومِن أين جاء.

المنهجُ الخاصّ لشيخ الإسلام ابن تيمية في التفسير[١].

أمّا منهج شيخ الإسلام الخاصّ في التفسير فيمكن أن نراه في النقاط الآتية:

١ـ تفسير القرآن بالقرآن:

يقول شيخ الإسلام في هذا المعنى: «إنّ أصحّ الطرق في ذلك أن يفسّر القرآن بالقرآن؛ فما أجْملَ في مكانٍ فإنه قد فسّر في موضع آخر، وما اختُصر من مكان فقد بُسط في مكان آخر».

ومِن هذا الكلام يتّضح لنا رؤية شيخ الإسلام من أنّ القرآن الكريم يفسّر بعضه بعضًا، بيانًا وتفصيلًا وإجمالًا، والأمثلةُ على ذلك كثيرة.

٢ـ تفسير القرآن بالسنة:

ويبيّن الإمامُ هذا المعنى بقوله: «فإنْ أعياك ذلك- أي: التفسير بالقرآن- فعليك بالسنّة؛ فإنها شارحة للقرآن وموضّحة».

---

(١) راجع في هذا مقدّمة شيخ الإسلام في أصول التفسير، ومجموع الفتاوى، (١٣/ ٣٦٣) وما بعدها.

ويفهم مِن هذا أنّ السنة شارحة للقرآن، وهي- أيضًا- وحيٌ من الله- تعالى- لنبيه، وقد أعطاه الله تفصيلَ وبيان القرآن الكريم بقوله: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل: ٤٤].

٣ـ أقوال الصحابة:

ويبيّن- رحمه الله- منزلةَ قول الصحابي من التفسير فيقول: «وإذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة؛ فإنهم أدرى بذلك؛ لما شاهدوه مِن القرائن والأحوال التي اختصّوا بها، ولما لهُم من الفهْم التامّ، والعلم الصحيح، والعمل الصالح، لا سيّما علماؤهم وكبراؤهم، كـ: الأئمة الأربعة، والخلفاء الراشدين، والأئمة المهديّين، مثل: عبد الله بن مسعود.. والحبر البحر عبد الله بن عباس ابن عمّ رسول الله ترجمان القرآن».

٤ـ الرجوع إلى أقوال التابعين:

كما يرى شيخُ الإسلام أنّ الرجوع إلى أقوال التابعين يكون في مرتبة رابعة بعد القرآن والسنة وأقوال الصحابة، وخصّ بالذّكر من هؤلاء التابعين مَن اهتمّوا بتفسير القرآن مثل: مجاهد بن جبر؛ فإنه كان آيةً في التفسير، وسعيد بن جبير، وعكرمة مولى ابن عباس، وعطاء بن رباح، والحسن البصري، ومسروق، والأجدع، وسعيد بن المسيب، وأبي العالية، والربيع بن أنس، وقتادة، والضحاك بن مزاحم.

وهكذا يظهر واضحًا من هذا المنهج ترتيب هذه المقامات، فلا يتأتّى لأحدٍ أن ينتقل مِن مرحلةٍ إلى أخرى حتى يستوفي هذه المرحلة.

***

المبحثُ الرّابع

مصادرُ شيخ الإسلام ابن تيمية في التفسير

اعتمد شيخُ الإسلام على القرآن في تفسيره للقرآن، وأوْلى اهتمامًا بالغًا بالسنة النبوية المطهّرة، وأقوال الصحابة، وما أجمع عليه التابعون، وهو يمتلك بلاغة وعلمًا رائعًا في اللّغة، ومع ذلك اعتمدَ على بعض كتبِ التفسير، ومن هذه الكتب:

١ـ تفسير ابن أبي حاتم (٣٧٢هـ)، وقد ورد ذكره في تفسيره اثنتين وعشرين مرّة.

٢ـ تفسير البغوي (٥١٦هـ)، وقد ورد ذكره أربع عشرة مرّة.

٣ـ تفسير ابن جرير الطبري (٣١٠هـ)، وقد ورد ذكره ستّ مرّات.

٤ـ تفسير الثعلب (٤٢٧هـ)، وقد ورد ذكره خمس مرّات.

٥ـ تفسير السدي (١٢٧هـ)، وقد ورد ذكره مرّة.

٦ـ تفسير وكيع بن الجراح (١٩٧هـ)، وقد ورد ذكره مرّة واحدة.

٧ـ تفسير عبد الرازق (٢١١هـ)، وقد ورد ذكره مرّتين.

٨ـ تفسير سنيد (٢١٦هـ) مرّتين.

٩ـ تفسير إسحاق بن راهويه، وقد ورد ذكره مرّة واحدة.

١٠ـ تفسير أحمد بن حنبل (٢٤١هـ)، وقد ورد ذكره مرّة واحدة.

١١ـ تفسير دحيم (٢٤٥هـ)، وقد ورد ذكره مرّة واحدة.

١٢ـ تفسير عبد بن حميد (٢٤٩هـ)، وقد ورد ذكره مرّتين.

١٣ـ تفسير بقي بن مخلد (٢٧٦هـ)، وقد ورد ذكره مرّة واحدة.

١٤ـ تفسير أبي يعلى الموصلي (٣٠٧هـ)، وقد ورد ذكره مرّة واحدة.

١٥ـ تفسير أبي بكر بن عبد العزيز (٣٦٢هـ)، وقد ورد ذكره مرّة واحدة.

١٦ـ تفسير أبي الشيخ الأصبهاني (٣٦٩هـ)، وقد ورد ذكره مرّة واحدة.

١٧ـ تفسير أبي بكر بن المنذر (٣١٠هـ)، وقد ورد ذكره مرّة واحدة.

١٨ـ تفسير ابن مردويه (٤١٠هـ)، وقد ورد ذكره مرّة واحدة.

١٩ـ كتاب التفسير من صحيح البخاري، وقد نقل منه مرّة واحدة.

وقد كان رجوع شيخ الإسلام ابن تيمية إلى هذه الكتب يتمّ إمّا بالنقل المباشر، أو الإشارة إليها، أو بعزْو الأقوال إليها، ومع التعقيب بالنقد أو التوضيح[١].

***

---

(١) راجع في ذلك اختيارات ابن تيمية في التفسير ومنهجه في الترجيح، د/ محمد بن زيلعي هندي.

المبحثُ الخامس

أثرُ شيخ الإسلام ابن تيمية على مَن جاء بعده مِن المفسرين

سبق أنْ تناولنا الحديثَ عن سيرة شيخ الإسلام ومسيرته، وما قاله العلماء عنه، وإشادتهم بتفسيره وفهمه للقرآن الكريم، وغزارة علمه؛ حيث إنّه قرأ كتب المفسّرين واستوعبها سواءً بالمأثور أو الرأي، بالإضافة إلى ثقافته الواسعة العالية في اللغة وعلومها، وعلمه بالقراءات، ومعرفته بتفاسير الصحابة، وفهمهم للقرآن، بالإضافة إلى فهْم التابعين، ثمّ موهبته الربّانية وذكائه الفطري وحُسن تدبره لكتاب الله، كلّ تلك الأسباب مع حُسن صلته بالله، كلّ ذلك أدى إلى عطاء ابن تيمية عطاءً مميزًا، فخلف لنا مِن بين ما خلّف تفسيرًا مُميزًا عن غيره، فهو ليس هاضمًا لما قرأه واستوعبه، بل ناقدًا محلّلًا ذا رأي خاص، يبيّن خطأ المخطئين في الآراء، ويفنّد هذه الآراء ويصحّحها، مُستندًا في كلّ ذلك إلى الأدلة من القرآن والسنة واللغة، وكل ذلك بأسلوب سهل وعذب يفيدُ منه الجميع، ولا غرْو في ذلك فهو مصبوغ بروح عالم ارتبط بأخلاق الصالحين وروح الدعاة المصلحين[١].

تعدّدت أوْجه تأثير ابن تيمية فيمَن جاء بعده مِن المفسرين مِن هذه الأوجه:

١ـ أصالة المنهج.

٢ـ الفكر الخالي من التقليد.

٣ـ كتبه وتراثه التفسيري الرائع.

ولعلّنا نوضّح هذا ببعض البيان في الآتي:

أولًا: أصالةُ منهج ابن تيمية في التفسير:

وضعَ ابن تيمية في التفسير منهجًا جديدًا كان له أثرٌ بارز فيمَن جاء بعده؛ فهو مجدّد في التفسير بحقّ؛ حيث إنه جدّد وأحيا ما كان عليه السلف بوضعه هذه الأسس وهذا المنهج، في الوقت الذي ابتعد فيه كثيرٌ من المفسرين عن هذا المنهج، كما ظهر في التفسير كثيرٌ من البدع ممّا

(١) انظر: على ساحل ابن تيمية، ص(٣٧) بتصرّف كبير.

جعل الحاجة قائمة للتأكيد على هذه الأسس والدعوة إليها، ممّا حمل ابن تيمية على ترسيخ تلك الأسس والدعوة إلى العمل بها.

ومِن أسس التجديد في منهج ابن تيمية:

١ـ الرجوع إلى المصادر الأصلية.

٢ـ بيان كيفية التعامل مع الإسرائيليات.

٣ـ التحذير من الاتجاه المنحرف في التفسير.

٤ـ اهتمامه بما تدعو الحاجة إلى تفسيره.

أثرُ ذلك على المفسرين:

أثرُ ابن تيمية على كثيرٍ من المفسرين بمنهجه في التفسير، ومن هؤلاء الذين تأثروا به العلامة ابن كثير، الذي قال فيه الشيخ الذهبي: فلم نرَ مِن المفسرين رجلًا كان له من قوّة النقد للمأثورات وتمييز جيادها من زيوفها مثل ما كانَ لابن كثير- رحمه الله.

وقال عنه الدكتور محمد أبو شهبة، وهو يتحدّث عن تفسيره: من خصائص هذا التفسير العظيم أنه يعتبر نسيجًا وحدَه في التّنبيه على الإسرائيليات والموضوعات في التفسير، وقد تأثّر في هذا بشيخه الإمام ابن تيمية.

ولم يقتصر هذا الأثر على ابن كثير وحدَه؛ لأن مَن جاء بعد ابن كثير ممّن أعرض عن الإسرائيليات وانتقدها كالشوكاني[١] والآلوسي[٢] ورشيد رضا[٣]، والشيخ محمد حسين الذهبي[٤]، وغيرهم، وقد تأثّروا بهذا المنهج الذي رسمه ابن تيمية وطبقه ابن كثير[٥].

(١) محمد بن علي بن محمد الشوكاني، ولد سنة ١١٧٣هـ ١٧٥٩م، وتوفي سنة ١٢٥٠هـ ١٨٣٩م في صنعاء، راجع البدر الطالع: ٢/ ١٠٢.

(٢) شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي، ولد ١٢١٧هـ ١٨٠٢م ببغداد، وتوفي عام ١٢٧٠ هـ ١٨٥٧م. له روح المعاني في التفسير. راجع طبقات المفسرين ١/ ٦٤.

(٣) هو محمد رشيد السيد رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين، من رواد الإصلاح الإسلامي، له تفسير المنار، توفي عام ١٣٥٨هـ، المعجم الجامع في تراجم العلماء وطلبة العلم المعاصرين، ١/ ٧٤ وما بعدها.

(٤) هو العلامة المفسّر صاحب التفسير والمفسرون، توفي سنة ١٣٩٨هـ.

(٥) انظر: أسس التجديد في منهج ابن تيمية في التفسير، د/ فرقان إسماعيل، بحث مطبوع في مجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية القانونية، (٢١/ ٢٠٠٥).

وظهر تأثّرُ المفسرين بكتب شيخ الإسلام ابن تيمية في التفسير واضحًا، خاصّة من خلال مقدّمته في التفسير؛ حيث اعتمد الحافظُ ابن كثير في مقدّمة تفسيره المشهورة في بيانه لأحسن طُرق التفسير على مقدّمة التفسير لابن تيمية، وأفاد منها الزركشي(١) صاحب البرهان في علوم القرآن، وكثيرًا ما نَقل منها بالحرف دون أن يعْزو إليه أو ينسب إليه.

وتأثر- أيضًا- السيوطي(٢) بمقدّمة ابن تيمية؛ فقام بتلخيص فصول هذه الرسالة في كتابه الإتقان وهو (أوجه الاختلاف في التفسير وأسبابها)، تحت عنوان: معرفة شروط المفسر وآدابه، وأثنى على هذا الفصل بقوله: «وهو كلام نفيس جدًّا»، ممّا يدلّ على إعجابه بما كتبَه في باب التفسير بالرأي وطبقات المفسرين.

وممّن لخّص هذه المقدّمة- أيضًا- الشيخ محمد راغب الطباخ(٣)، في كتابه (الثقافة الإسلامية) بعد أن أعجب بها وأثنى عليها.

وكذلك الشيخ محمد بهجت البيطار أعجب بها وأثنى عليها قائلًا: «رسالته هذه فيضٌ من بحره، قد أملاها مِن فؤاده، وقد أودعها لآلئه ودرَرَه، فهي تُريكَ صفحةً ناصعة من دراسة سلفنا للقرآن وفهمه، وتهديك لحلّ بعض مشكلات التفسير ومصطلحاته، وتدلّك على أهدى المفسرين، وأفضل كتبهم، وتحذّرك عمّا انتحلوا لأنفسهم من عقائد وأصولٍ بَنَوا تفاسيرهم عليها، وردّوا كلام الله وسنة رسوله إليها».

تأثرُ المفسّرين بفكر شيخ الإسلام ابن تيمية:

تأثّر الشيخ محمد عبده(٤) بمدرسةِ ابن تيمية إلى حدٍّ ما في دعوته إلى تحرير العقل والفكر من التقليد، وإلى فهْم الدين عن طريق السلف قبل ظهور الخلاف، وإلى الرجوع في جُملة أصوله إلى

---

(١) هو الإمام محمد بن بهادر بن عبد الله المصري الزركشي الشافعي الإمام العلّامة، ولد عام ٧٤٥هـ، وأهمّ كتبه البرهان في علوم القرآن، ٧٩٤هـ الدرر الكامنة: ١/ ٤٧٩، شذرات الذهب: ٦/ ٣٣٤.

(٢) هو عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد، ولد سنة ٨٤٩ هـ، وهو صاحب الإتقان في علوم القرآن وطبقات المفسرين، وغيره من الكتب، توفي عام ٩١١هـ.

(٣) هو محمد راغب بن محمود بن هاشم الطباخ من أهل حلب الشهباء، حفظ المتون وتفقّه ودرس في كلية الشريعة في حلب، مِن أهمّ تصانيفه في الدروس الدينية، إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، راجع الأعلام للزركلي: ٦/ ٣٥٩. معجم المؤلفين: ٩/ ٣٠٥، الموسوعة الفقهية: ١١/ ٧٢.

(٤) هو محمد عبد بن حسن خير الله، رائد الإصلاح في العصر الحديث، ولد عام ١٢٦٦هـ ١٨٤٩م، وتوفي عام ١٣٢٣هـ، ١٩٠٥ م. راجع المعجم الجامع في ترادم العلماء.١/ ٣٢٣.

الكتاب والسنة حتى ترجع الأمور الاعتقادية والتعبدية إلى ما كانت عليه في عهد السلف بلا زيادة ولا نقصان(١).

كما انتفع الشيخُ رشيد رضا بكتب الشيخ وتلميذه ابن القيم- رحمهما الله، وذكر أنه لمْ يطمئن قلبُه بمذهب السلف تفصيلًا إلّا بممارسة هذه الكتب، وظلّ يعتزّ بقراءة هذه الكتب وبآراء الشيخين، ويستشهد بهما، وينقل عنهما طيلةَ حياته.

وكثيرًا ما نقل صاحبُ محاسن التأويل الشيخ جمال الدين القاسمي(٢) من كتب الشيخ، واستشهد بآرائه حتى إنه عقد في مقدّمة تفسيره في الجزء الأول فصلًا كاملًا تحتَ عنوان: «هل في القرآن مجاز أم لا؟» بما لا يقلّ عن ثلاثين صفحة من الحجم المتوسّط، فنقله بتمامِه من كتاب الإيمان لابن تيمية.

والإمام الشوكاني تأثّر- أيضًا- بكتب ابن تيمية وأفاد منها، وبالغ في الثناء عليه، قال عنه وعنِ ابن حزم الأندلسي(٣): «وما أظنّ أنه سمع الزمان ما بين عصري الرّجلين بما يشبههما أو يقاربهما»(٤).

كما لا يخفى على أحدٍ من الدارسين لسيرة شيخ الإسلام تأثّر تلميذه ابن القيم به، ويظهر ذلك في مواضع مختلفة من كُتبه، فمِن ذلك ما قاله ابن القيم- رحمه الله- عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]: «وكان شيخ الإسلام أبو العباس- قدّس الله روحه- يقول: «والصحيح أنّ معنى الآية أنّ الصلاة فيها

(١) انظر: تفسير المنار، (١/ ٩، ١٠).

(٢) هو جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي، العلامة المفسر، ولد عام ١٢٨٣هـ، ١٨٦٦م، أحد روّاد النهضة العلمية الحديثة ببلاد الشام حفظها الله، له التفسير المعروف وقواعد التحديث، توفي عام ١٣٣٢هـ، ١٩١٤م. التأريخ والوفيات: ١م ٣٢.

(٣) هو علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب الأندلسي القرطبي، ولد عام ٣٨٤هـ، هو أحد أئمة الإسلام في الأندلس، له كتاب المحلى وغيره من الكتب التي تقارب أربعمائة كتابًا، توفي عام ٤٥٦هـ. راجع طبقات الحفاظ: ١/ ٨٨.

(٤) انظر: ابن تيمية وجهوده في التفسير وعلوم القرآن، إبراهيم خليل بركة، ص(١٨١-١٨٣) بتصرف.

مقصودان عظيمان، وأحدهما أعظم من الآخر؛ فإنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، وهي مشتملة على ذكر الله تعالى، وما فيها من ذكر الله أعظم مِن نهيها عن الفحشاء والمنكر»[1].

علاقةُ شيخ الإسلام بعلم أصول التفسير:

لعلّ أفضل ما قدّمه شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- في هذا العلم هو تخْصيص كتاب في هذا العلم، وهو (مقدّمة في أصول التفسير)، وفي ذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية عن سبب حديثه في هذا العلم: «لقد سألني بعضُ الإخوان أنْ أكتب له مقدّمة تتضمّن بعض القواعد الكلية، تعينه على فهم القرآن، ومعرفة تفسيره ومعانيه، والتمييز في منقول ذلك ومعقوله بين الحقّ وأنواع الأباطيل، والتنبيه على الدليل الفاصل بين الأقاويل».

فجاء جوابُه عنها برسالةٍ عظيمة في هذا الباب، وقد ذكرت مقدّمته هذه موضوعات عامة وتفصيلية.

أمّا العامّة فهي:

١ـ بيان الرسول ﷺ ألفاظَ القرآن ومعانيه للصحابة.

٢ـ اختلاف الصحابة والتابعين وأتباعهم في التفسير وأنواعه، وأنّ سبب الاختلاف من جهة المنقول ومن جهة الاستدلال.

٣ـ بيان طرق التفسير.

٤ـ بيان التفسير بالرأي.

لقد بنى شيخ الإسلام ابن تيمية تفسيره على أصول، أهمّها:

١ـ أنه وضعَ مراتب للتفسير، وهي أنها على الترتيب: القرآن بالقرآن، تفسير القرآن بالسنة، ثمّ تفسير القرآن بأقوال الصحابة، ثمّ التفسير بأقوال التابعين.

٢ـ الاكتفاء بالتفسير النبوي في حالة وجوده، قال شيخ الإسلام: «وممّا ينبغي أنْ يعلم أنّ تفسير القرآن والحديث إذا عرف تفسيره من جهة النبي ﷺ لم يحتج في ذلك إلى أقوال أهل اللغة... ولا غيرهم»[2].

---

(١) انظر: شيخ الإسلام أحمد بن تيمية رجل الإصلاح والدعوة، إبراهيم محمد العلي، ص(٤٣٧).

(٢) مقدّمة في أصول التفسير، الفتاوى، ط ١ ابن القاسم، (١٣/ ٣٦٣-٣٦٩).

٣ـ أنّ المراسيل هي الغالب على المنقول في التفسير، وهي صحيحة قطعًا إذا تعدّدت طرقها وخلتْ عن المواطأة قصدًا واتفاقًا بغير قصد.

يقول شيخ الإسلام: «ومعلوم أنّ المنقول في التفسير أكثره كالمنقول في المغازي والملاحم، ولهذا قال الإمام أحمد: ثلاثة أمور ليس لها إسناد: التفسير والملاحم والمغازي، ويرى أنه ليس لها أيّ أصل أي بالإسناد؛ لأنّ الغالب عليها المراسيل، والمراسيل إذا تعدّدت طرقها وخلت عن المواطأة قصدًا أو الاتفاق بغير قصد؛ كانت صحيحة قطعًا»، وبيّن طرق معرفة المراسيل والأمارات التي تعرف بها(١).

٤ـ لا يجوز العدول عن تفسير الصحابة والتابعين إلى ما يخالفه.

يقول شيخ الإسلام: «وفي الجملة، مَن عدل عن مذاهب الصحابة والتابعين وتفسيرهم إلى ما يخالف ذلك؛ كان مخطئًا، بل مبتدعًا، وإن كان مجتهدًا مغفورًا له خطؤه».

٥ـ لا يجوز إحداث قولٍ جديد في مسألة تنازع فيها السلف.

ومن باب التأكيد نكرّر أنه من عدل عن مذاهب الصحابة والتابعين وتفسيرهم إلى ما يخالف ذلك كان مخطئًا في ذلك، بل مبتدعًا، وإن كان مجتهدًا يغفر له خطؤه، فالمقصودُ بيان طرق العلم وأدلّتهم وطرق الصواب، ونحن نعلم أنّ القرآن قرأه الصحابة والتابعون وتابعوهم، وأنهم كانوا أعلمَ بتفسيره ومعانيه، كما أنّهم أعلمُ بالحقّ الذي بعث الله به رسوله ﷺ فمَن خالف قولَهم وفسّر القرآن بخلاف تفسيرهم؛ فقد أخطأ في الدليل والمدلول جميعًا».

٦ـ أنّ الأخبار الإسرائيلية تذكر للاستشهاد لا للاعتقاد.

٧ـ أنّ اللغة مصدر من مصادر التفسير، ورتبتها متأخّرة عمّا سبق من مصادر، فوضّح أنّها هي المرجع إذا اختلف التابعون «فإن اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجة على مَن بعدهم، ويرجع في ذلك إلى لغة القرآن، أو السنة، أو عموم لغة العرب، أو أقوال الصحابة في ذلك»(٢).

---

(١) الفتاوى، (١٣/ ٤٤٦، ٣٤٩).
(٢) الفتاوى، (١٣/ ٣٧٠).

٨ـ التفسير بمجرّد الرأي حرام، يقول- رحمه الله: «أمّا تفسير القرآن بمجرد الرأي؛ فَحَرام»[١].

ويدلّ كلامُه على أنّ المراد بالرأي الرأي المحض الذي لا يستند إلى علم، وهو الذي يحصل به الخطأ في التفسير، وذلك مِن جهتين: إحداهما: أن يعتقد معاني، ثمّ يريد حمل ألفاظ القرآن الكريم عليها، والثانية أن يفسر القرآن بمجرد ما يسوغ أن يريده مَن كان مِن الناطقين بلغة العرب بكلامه مِن غير نظر إلى المتكلم بالقرآن المنزّل عليه والمخاطب به[٢].

٩ـ دوام التفكّر في معاني القرآن والتدبر في ألفاظه، والحذر من الحجب المانعة من فهم القرآن.

يدعو شيخ الإسلام المسلمين أنْ يتدبّروا القرآن، ولا يشغلوا أنفسهم بحروفه شغلًا يُبعدهم عن تدبّره مثل: التجويد ووجوه الإعراب، وأنْ يجاهدوا أنفسهم عن كلّ ما يشغلهم عنْ هذا التدبّر من الألغاز أو الأحاجي أو الانشغال بمذهب بعينه.

فهكذا عنده مَن يفْهم القرآن هو الذي يظلّ دائمَ التفكير والتدبّر لمعانيه وألفاظه واستغنائه بمعاني القرآن وحُكمه عن غيره من كلام الناس، وإذا سمع شيئًا من كلام الناس وعلومهم عرَضَه على القرآن، فإنْ شهدَ له بالتزكية قَبِله وإلّا ردّه[٣].

١٠ـ ليس في القرآن مجاز[٤].

١١ـ لا شيء في القرآن لا يعرف معناه، والمتشابه نسبي. تحدّث شيخ الإسلام عن هذه القاعدة أثناء حديثه عن المُحكم والمتشابه مبينًا أنّ الله – عز وجل – قد بيّن جميع القرآن لنبيه ﷺ، وأنّ هناك كثيرًا من الدلائل من الكتاب والسنة تبين ذلك، وأنّ الفهم والتدبر لكتاب الله مُمكن ومتاح، وليس فيه ما لا يُفهم، وأنّ الراسخين في العلم من الصحابة والسلف كانوا

---

(١) الفتاوى، (١٣/ ٣٧٠).

(٢) اختيارات ابن تيمية في التفسير ومنهجه في الترجيح، د/ محمد بن زيدان الهندي، ص(٤٥)، وانظر: الفتاوى، (١٣/ ٣٥٦).

(٣) انظر: الفتاوى، (١٦/ ٥٠).

(٤) الفتاوى، (٦/ ٣٥١، ٣٧٤).

على علم بفهْم المتشابه كـ: مجاهد ومحمد بن جعفر والربيع بن أنس، ونقلوا ذلك عن ابن عباس أنه قال: أنا مِن الراسخين الذين يعلمون تأويله(١).

١٢ـ ومن المواد التي تعدّ مِن أصول التفسير، وكان شيخ الإسلام عالمًا فذًّا في ذلك هو علم الترجيح خاصّة في تفسير القرآن، ولقد كتبت عنه رسالة علمية في ذلك بعنوان: «اختيارات ابن تيمية في التفسير ومنهجه في الترجيح» للدكتور محمد بن زيلعي هندي، وليس في هذا البحث متّسعٌ لعرض ذلك، وستجد في هذا البحث صيغًا وأساليبَ الترجيح وأوْجهَه عند شيخ الإسلام.

١٣ـ قدّم شيخ الإسلام ابن تيمية قواعدَ وأسسًا للتفسير ولفهم القرآن، كتب فيها كثيرٌ من العلماء، ومِن هذه الكتب كتاب «القواعد الحِسان من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية» لمحمد بن العزيز المسند.

ومِن هذه القواعد:

ـ ألفاظ الكتاب والسنة إذا عُرف تفسيرها من جهة النبي ﷺ لم يحتجْ إلى الاستدلال بأقوال أهل اللغة أو غيرهم.

ـ مِن عادة السّلف في تفسيرهم أن يذكروا بعضَ صفات المفسر من الأسماء أو بعض أنواعه، ولا ينافي ذلك ثبوت بقية الصفات للمسمى، بل قد يكونان متلازميْن ولا دخول لبقية الأنواع فيه.

ـ ما دلّ عليه السّياق هو ظاهر الخطاب، فلا يكون من موارد النزاع.

ـ الصريح يقضي على الظاهر ويبيّن معناه.

ـ يجوز أن تفسّر إحدى الآيتين بظاهر الأخرى، ويصرف الكلام عن ظاهره وإن سمي تأويلًا وصرفًا عن الظاهر؛ وذلك لدلالة القرآن عليه.

---

(١) انظر: الفتاوى، (١٦/ ٣٩٠، ٣٩٧)، (١٣/ ٢٧٢-٢٧٣)، استفدت من كتاب اختيارات ابن تيمية في التفسير ومنهجه في الترجيح في استخراج هذه العناصر.

ـ استعمال القرآن لفظًا في معنى لا يقتضي أنّ ذلك اللفظ لا يحتمل غير ذلك المعنى.

ـ زيادة اللّفظ في القرآن لزيادة المعنى، وقوة اللّفظ لقوة المعنى.

ـ الكلام إذا اجتمع فيه شرطٌ وقسم، وقد تقدّم القسم؛ سدّ جوابُ القسم مسَدّ جواب الشرط.

ـ الأصل إقرار الكلام على نظمه وترتيبه، لا تغيير ترتيبه.

ـ حذف المضاف إليه يقارنه قرائن، فلا بدّ أنْ يكون مع الكلام قرينة تبيّن ذلك.

ـ القراءة الشاذّة تجري مجرى الخبر الواحد.

ـ العطف يقتضي مغايرةً بين المعطوف والمعطوف عليه مع اشتراكهما في الحكم الذي ذكر لهما.

ـ العطف تارة يكون لتغاير الذّوات، وتارة لتغاير الصفات.

ـ المعطوف إذا تقدّم اسماً كان عطفه على الغريب أولى، كما أنّ عوْد الضمير إلى القريب أولى، إلّا إذا كان هناك دليل يقتضي العطف على البعيد.

ـ الضمير يعودُ إلى الغريب إذا لم يكن هناك دليل على خلاف ذلك.

ـ الضمير يجبُ عوْدُه إلى جميع ما تقدّم ذكره، فإن تضرّر عوده إلى الجميع؛ أعيدَ إلى أقرب المذْكورين، أو إلى دليل تعْيينه.

ـ أنّ المفسرة التي تأتي بفعل من معنى القول لا من لفظه.

***

المبحثُ السّادس

شيخُ الإسلام ابن تيمية وعلومُ القرآن

لقد تحدّث شيخُ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- في كثيرٍ من قضايا علوم القرآن، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

١ـ المحكم والمتشابه.

٢ـ الوجوه والنظائر.

٣ـ الناسخ والمنسوخ.

٤ـ الفرق بين التأويل والتفسير.

٥ـ أقسام القرآن.

٦ـ قضية الاختلاف في التفسير.

٧ـ حكم التفسير بالأحاديث الإسرائيلية.

٨ـ القراءات في القرآن.

٩ـ تحزيب القرآن.

١٠ـ التضمين في القرآن.

١١ـ أسباب النزول.

١٢ـ حديث الآحاد.

١٣ـ قضية إعجاز القرآن.

١٤ـ قاعدة في فضائل القرآن.

١٥ـ قضية الحقيقة والمجاز.

١٦ـ الأمثال في القرآن.

ولعلّ مقدّمات شيخ الإسلام في فهم القرآن التي كتبت كمقدمة تفسيره في كتاب التفسير الدقيق وكتاب التفسير الكبير أكبرُ دليل على مهارة شيخ الإسلام بهذا العلم، ولا مكان لذكر كلّ ما قدّمه في هذا المبحث، ولكن نذكر نبذة مختصرة عن هذه المفاهيم؛ حتى يكون القارئ قادرًا على فهْم هذه الأبواب، واستيعاب ما قدّمه الشيخ- رحمه الله.

أولًا: معرفتُه بأسباب النزول:

تحدّث شيخ الإسلام عن أسباب النزول مبيّنًا أولًا معنى أسباب النزول، فيقول- رحمه الله:

«وقد يجيء مِن هذا الباب قولهم: هذه الآية نزلت في كذا، لاسيّما إن كان المذكور شخصًا، كأسباب النزول المذكورة في التفسير كقولهم: إنّ آية الظهار نزلت في أوس بن الصامت»[١].

تحدّث- أيضًا- عن حكم أسباب النزول، فيقول: فالذين قالوا ذلك لم يقصدوا أنّ حكم الآية مختصّ بأولئك الأعيان دون غيرهم، فإنّ هذا لا يقوله مسلم ولا عاقل على الإطلاق، والناس وإنْ تنازعوا في اللّفظ العام الوارد على سببٍ هل يختصّ بسببه أم لا؟ فلم يقل أحدٌ من علماء المسلمين: إنّ عمومات الكتاب والسنة تختصّ بالشخص المعين، وإنّما غاية ما يقال: إنّها تختصّ بنوعِ ذلك الشخص، فيعمّ ما يشبهه، ولا يكون العموم فيها بحسب اللّفظ، والآية التي لها سببٌ معيّن إن كانت أمرًا فهي متناولة لذلك الشخص، ولغيره ممّن كان بمنزلته، وإن كانت خبرًا بمدح أو ذمّ فهي متناولة لذلك الشخص وغيره ممّن كان بمنزلته أيضًا[٢].

وتحدّث- أيضًا- عنْ أهمية معرفة أسباب النزول، يقول- رحمه الله:

«معرفة سببِ النزول يعينُ على فهم الآية، فإنّ العلم بالسبب يورث العلم بالمسبّب، ولهذا كان أصحّ قول الفقهاء: إنه إذا لم يعرفْ ما نواه الحالف رجع إلى سبب يمينه، وما هيّجها، وآثارها[٣].

(١) انظر: الفتاوى، (١٣/ ٣٣٨).
(٢) انظر: الفتاوى، (١٣/ ٣٣٩).
(٣) انظر: الفتاوى، (١٣/ ٣٣٩).

حكمُ التّفسير بالأحاديث الإسرائيلية:

ذكر شيخُ الإسلام ابن تيمية عن أقاويل أهل الكتاب حديثَ النبي ﷺ: «**بلّغوا عني ولو آية، وحدّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومَن كذب علي متعمدًا فليتبوّأ مقعده من النار**» رواه البخاري عن عبد الله بن عمرو،[١] فبيّن أنّ هذه الأحاديث التي بها أخبار أهل الكتاب هي للاستشهاد لا الاعتقاد، وذكر أنّ هذه الأحاديث على ثلاثةِ أقسام:

أحدهما: ما علمنا صحّته ممّا بأيدينا ممّا يشهد له بالصدق، فذلك صحيح.

وثانيهما: ما علمنا كذبه بما عندنا ممّا يخالفه.

والثالث: ما هو مسكوتٌ عنه، لا مِن هذا القبيل ولا مِن هذا القبيل، فلا نؤمن به ولا نكذّبه، وتجوز حكايته لما تقدّم، وغالب ذلك ممّا لا فائدة فيه تعود إلى أمر ديني[٢].

أدبُ الخلاف عند ابن تيمية:

يقول- رحمه الله- مبيّنًا كيفية التعامل مع الخلاف: «أنْ تستوعب الأقوال في ذلك المَقام، وأنْ تنبّه على الصحيح منها وتبطل الباطل، وتذكر فائدة الخلاف وثمرته؛ لئلّا يطول النزاع والخلاف فيما لا فائدة تحته، فتشتغل به عن الأهمّ فالأهم.

فأمّا مَن حكى خلافًا في مسألةٍ ولم يستوعب أقوالَ الناس فيها فهو ناقص؛ إذْ قد يكون الصواب في الذي تركه.

أو يحكي الخلاف ويطلقه ولا ينبّه على الصحيح من الأقوال، فهو ناقص أيضًا.

فإنْ صحّح غير الصحيح عامدًا فقد تعمّد الكذب، أو جاهلًا فقد أخطأ، وكذلك مَن نصّب الخلافَ فيما لا فائدة تحته، أو حكى أقوالًا متعدّدة لفظًا ويرجع حاصلها إلى قولٍ أو قولين معنى، فقد ضيع الزمان، وتكثّر بما ليس بصحيح، فهو كلابسِ ثوبيْ زور، والله الموفق للصّواب[٣].

(١) صحيح البخاري (٤/ ١٧٠).
(٢) انظر: الفتاوى، (١٣/ ٣٦٦) وما بعدها.
(٣) الفتاوى، (١٣/ ٣٦٨).

نزولُ القرآن على سبعة أحرف:

تحدّث شيخ الإسلام عن هذه القضية موضّحًا المراد بهذه السبعة، وهل هذه القراءات المنسوبة إلى نافع وعاصم وغيرهما هي الأحرف السبعة أو واحد منها، والسبب الذي أوجب الاختلاف بين القراء فيما احتمله خطّ المصحف، وهل تجوز القراءة برواية الأعمش وابن مُحيْصِن وغيرهما من القراءات الشاذّة أم لا؟ وإذا جازت القراءة بها فهل تجوز الصّلاة بها أم لا؟[1].

وتحدّث عن جميع القراءات وكوْنها سنّة أو بدعة، وهل جُمعت على عهد رسول الله ﷺ، وهل لجامعها ثواب على مَن قرأ برواية أم لا؟[2].

ما أصحّ التفاسير في نظره؟

يقول شيخُ الإسلام ابن تيمية: «وأمّا التفاسير التي في أيدي الناس، فأصحّها تفسير ابن جرير الطبري؛ فإنه يذكر مقالات السّلف بالأسانيد الثابتة، وليس فيه بدعة، ولا ينقل عن المتّهمين، كمقاتل بن بكير والكلبي[3]، والتفاسير غير المأثورة بالأسانيد كثيرة كـ: تفسير عبد الرازق، وعبد بن حميد، ووكيع[4]، وابن أبي قتيبة[5]، وأحمد بن حنبل[6]، وإسحاق بن راهويه[7].

(١) الفتاوى، (١٣/ ٣٨٩) وما بعدها.
(٢) الفتاوى، (١٣/ ٤٠٤).
(٣) هو العلامة الإخباري أبو النضر محمد بن السائب بن بشر الكلبي المفسر، شيعي متروك الحديث، توفي عام ٢٤٦ هـ بالكوفة. انظر: سير أعلام النبلاء: ٦/ ٢٤٨.
(٤) هو الإمام الحافظ وكيع بن الجراح بن مليح بن عدي بن غراس الرؤاسي الكوفي، محدث العراق، توفي سنة ١٩٦هـ. سير أعلام النبلاء : ٩/ ١٤١.
(٥) هو أحمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة بن مسلم الدينوري البغدادي، مولود عام ٢١٣ هـ، ولي قضاء مصر، ومِن أهمّ كتبه عيون الأخبار، وتوفي عام ٣٢٢هـ انظر: الديباج المذهب: ١/ ٢١.
(٦) هو إمام أهل السنة أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني الزهري، فقيه محدّث، ولد عام ١٦٤هـ، وتوفي عام ٢٤١هـ ببغداد، راجع سير أعلام النبلاء: ١١/ ١٩٥، طبقات الشافعية: ٢/ ٢٩.
(٧) هو إسحق بن راهوية الحنظلي التميمي، أحدُ أئمة المسلمين وعلماء الدين، فقيهٌ، حافظ، اشتهر بالورع والزّهد والصدق، لقّب بشيخ المشرق، ولد عام ١٦١هـ بنيسابور، وتوفي عام ٢٣٨ هـ، راجع سير أعلام النبلاء: ١٣/ ٥٤٤، طبقات الحنابلة: ٢/ ٥٤.

تحدّث شيخُ الإسلام عن أسلمِ التفاسير من البدعة والأحاديث الضعيفة، وذكر أنّ «البغوي»(١) هو أوّلُها؛ لأنّه مختصر من تفسير «الثعلبي»، وقد حذف فيه الأحاديث الموضوعة والبدعَ التي فيه، وحذف منه أشياء أخرى.

وأمّا الواحدي(٢) فإنه تلميذ الثعلبي(٣)، وهو أخبر منه بالعربية، لكنّ الثعلبي فيه سلامةٌ من البدع، وإنْ ذكرها تقليدًا لغيره، وتفسيره وتفسير الواحدي البسيط والوسيط والوجيز فيها فوائدُ كثيرة، وفيها كثيرٌ من المنقولات الباطلة وغيرها.

وأمّا الزمخشري فتفسيره محشوّ بالبدعة، وعلى طريقة المعتزلة من إنكار الصفات والرؤية والقول بخلق القرآن، وأنكر أنّ الله مريد للكائنات وخالق لأفعال العباد، وغير ذلك من أصول المعتزلة.

وتفسير القرطبي(٤) خيرٌ منه بكثير وأقربُ إلى طريقة أهل الكتاب والسنة وأبعدُ عن البدع، وإنْ كان كلّ من هذه الكتب لا بدّ أنْ يشتمل على ما ينقد، لكنْ يجب العدل بينها وإعطاء كلّ ذي حقّ حقّه.

---

(١) هو أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد الفراء البغوي، ويلقب بركن الدين ومحيي السنة، له معالم التنزيل المعروف بتفسير البغوي ومصابح السنة، توفي عام ٥١٦هـ، راجع سير أعلام النبلاء: ١٩/ ٤٣٩.

(٢) هو أبو الحسن علي بن أحمد بن علي الواحدي النيسابوري الشافعي، هو عالم بالتفسير وأسباب النزول والعربية والتاريخ، له تفاسير الوسيط والبسيط والوجيز، وهو مؤرخ ومفسّر ولغوي وأديب، توفي عام ٤٦٨هـ. راجع العبر في أخبار من غبر: ٣/ ١٤٦، ١٤٧.

(٣) هو أبو إسحق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري، المفسّر المشهور، له تفسير الكشف والبيان عن تفسير القرآن، وتوفي عام ٤٢٧هـ. وفيات الأعيان: ١/ ٧٩. والوافي بالوفيات: ٧/ ٣٠٧.

(٤) هو محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي القرطبي، ولد بالأندلس، صاحب الجامع لأحكام القرآن والتذكرة في أحوال الموتى وشئون الآخرة، كان إمامًا عالمًا، ولد عام ٥٩٨هـ، وتوفي عام ٦٧١هـ، راجع شذرات الذهب: ٨/ ٣٣٤، والديباج المذهب ١/ ٦٩.

وتفسيرُ ابن عطية(١) خيرٌ مِن تفسير الزمخشري، وأصحّ نقلًا وبحثًا، وأبعدُ عن البدع، وإنِ اشتمل على بعضها، بل هو خيرٌ منه بكثير، بل لعلّه أرجح هذه التفاسير، لكنّ تفسير ابن جرير(٢) أصحّ من هذه كلّها.

وثمّ تفاسير أخرى كثيرة جدًّا كـ: تفسير ابن الجوزي والماوردي(٣).

المحكم والمتشابه:

وضّح شيخُ الإسلام ابن تيمية معنى المحكم ومعنى المتشابه، وذلك أثناء حديثه عن قوله تعالى: ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ [آل عمران: ٧]، وخلاصة ما قال في ذلك: إنّ المحكم من الآيات هو: الذي ليس فيه تشابه على أحد.

وأمّا المتشابهات ففيها قولان:

أحدهما: أنها آياتٌ بعينها تتشابه على كلّ الناس، والثاني- ووضحَ أنّه الصحيح- أنّ التشابه أمرٌ نسبي، فقد يتشابه عند هذا ما لا يتشابه عند غيره.

ووضّح كيفية التعامل مع المتشابه بأنّ هذا المتشابه إذا عرف معناه أصبح محكمًا.

وذكر- أيضًا- أنّ المحكم هو الذي لا يحتمل إلّا أمرًا واحدًا مثل: الأمر والنهي، والمتشابه كـ: الوعد والوعيد. ووضّح معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أنه مثل معرفة الساعة فإنّنا نعلم حقيقتها ولكن لا نعلم وقتها، وأنّ معنى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ

(١) هو الإمام الحافظ الناقد المجود أبو بكر غالب بن عبد الرحمن بن غالب بن تمام بن عطية المحاربي الأندلسي الغرناطي المالكي، ولد عام ٤٨٠ هـ، ومِن أهمّ مؤلفاته تفسير المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، توفي سنة ٥١٨ هـ، راجع سير أعلام النبلاء: ١٩/ ٥٨٦، الوافي بالوفيات: ٦/ ٤٨.

(٢) هو الإمام محمد بن محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الطبري، ولد عام ٢٢٤، وتوفي عام ٣٢٠هـ، من أهمّ مؤلفاته جامع البيان عن تأويل آي القرآن، وله تاريخ الأمم والملوك، راجع تهذيب الأسماء واللغات للنووي: ١/ ٩٨.

(٣) انظر: الفتاوى، (١٣/ ٣٨٥) وما بعدها بتصرف.

نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ...﴾ [الأعراف: ٥٢، ٥٣] يقول: إنّ الله فصّل الكتاب وبيّنه بحيث لا يشتبه، وأمّا المقصود بـ﴿تَأْوِيلُهُۥ﴾: مجيء ما أخبر القرآن بوقوعه من القيامة وأشراطها كـ: الدّابة، ويأجوج ومأجوج، وطلوع الشمس من مغربها وغيرها(١).

الوجوه والنّظائر:

عرّف شيخُ الإسلام ابن تيمية الوجوهَ والنظائر، فقال: الأسماء المشتركة في اللفظ هي من «المتشابه»، وبعض «المتواطئة»- أيضًا- مِن المتشابه، ويسمّيها أهل التفسير: «الوجوه والنظائر»، وصنّفوا كتب «الوجوه والنظائر»؛ فالوجوه في الأسماء المشتركة، والنّظائر في الأسماء المتواطئة، وقد ظنّ بعضُ أصحابنا المصنّفين في ذلك أنّ الوجوه والنظائر جميعًا في الأسماء المشتركة، فهي نظائر باعتبار اللفظ، ووجوه باعتبار المعنى، وليس الأمر على ما قاله، بل كلامهم صريح فيما قلناه لَمَن تأمّله(٢).

الناسخ والمنسوخ:

يقول شيخُ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- وذلك أثناء حديثه عن تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾، يقول: في قوله تعالى: ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [الحج: ٥٢]، والنسخ هنا: رفع ما ألقاه الشيطان، لا ما شرعه الله.

يقول: إن الله قد جعل المحكم مقابل المتشابه تارة، ومقابل المنسوخ تارة أخرى، والمنسوخ يدخل في اصطلاح السلف- العام: كلّ ظاهر ترك ظاهره لمعارض راجح كتخصيص العام وتقييد المطلق؛ فإن هذا متشابه لأنه يحتمل معنيين، فيدخل فيه المجمل فإنه متشابه، وإحكامه رفع ما يتوهّم فيه من المعنى الذي ليس بمراد، وكذلك ما رفع حكمه، فإن في ذلك جميعه نسخًا لما يلقيه الشيطان في معاني القرآن، ولهذا كانوا يقولون: هل عرفت الناسخ من المنسوخ؟ فإن

(١) انظر: الفتاوى، (١٣/ ١٣٤) وما بعدها، ص(٢٧٨) بتصرف.
(٢) انظر: الفتاوى، (١٣/ ٢٧٦) وما بعدها.

عرف الناسخ عرف المحكم، وعلى هذا فيصح أن يقال: المحكم والمنسوخ كما يقال المحكم والمتشابه[1].

الحقيقة والمجاز:

تحدّث شيخُ الاسلام- رحمه الله- عن الحقيقة والمجاز، وأجاب عن أسئلةِ بعض الناس في ذلك، وتناقش مع بعضهم في هذه المسائل، وذكر في ذلك أنّ الله – عز وجل – إذا وصف نفسه بصفةٍ أو وصفه بها رسولُه أو وصفه بها المؤمنون الذين اتّفق المسلمون على هدايتهم ودرايتهم فصرفها عن ظاهرها اللائق بجلال الله- سبحانه- وحقيقتها المفهومة منها إلى باطن يخالف الظاهر ومجاز ينافي الحقيقة؛ لا بدّ من أربعة أشياء:

أحدهما: أنّ ذلك اللفظ مستعمَل بالمعنى المجازي؛ لأن الكتاب والسنة وكلام السلف جاء باللسان العربي، ولا يجوز أنْ يراد بشيءٍ منه خلاف لسان العرب، أو خلاف الألسنة كلّها، فلا بدّ أن يكون ذلك المعنى المجازي ما يراد به اللفظ، وإلّا فيمكن كلّ مُبطل أنْ يفسّر أي لفظ بأي معنى سَنَح، وإنْ لم يكن له أصلٌ في اللغة.

والثاني: أنْ يكون معه دليل يوجب صرفَ اللفظ عن حقيقته إلى مجاز، وإلّا فإذا كان يستعمل في معنى بطريق الحقيقة وفي معنى بطرق المجاز لم يجزْ حمله على المجازي بغير دليلٍ يوجب الصرف بإجماع العقلاء، ثمّ إنِ ادّعى وجوب صرفه عن الحقيقة فلا بدّ له من دليلٍ قاطع عقلي أو سمعي يوجب الصرف، وإنِ ادّعى ظهور صرفه عن الحقيقة فلا بدّ من دليلٍ مرجّح للحمل على المجاز.

الثالث: أنه لا بدّ أن يسلم ذلك الدليل- الصارف- عن معارض، وإلّا فإذا قام دليلٌ قرآني أو إيماني يبيّن أنّ الحقيقة مرادة امْتنع تركها، ثمّ إن كان هذا الدليل نصًّا قاطعًا لم يلتفتْ إلى نقيضه، وإن كان ظاهرًا فلا بدّ من الترجيح.

الرابع: أنّ الرسول ﷺ إذا تكلّم بكلام وأراد به خلافَ ظاهره وضدّ حقيقته؛ فلا بدّ أن يبيّن للأمّة أنه لم يردْ حقيقته، وأنه أراد مجازَه سواء عيّنه أو لم يعيّنه، لاسيّما في الخطاب العلمي الذي

(١) انظر: الفتاوى، (١٣/ ٢٧٢، ٢٧٣).

أريد منهم فيه الاعتقاد والعلم دونَ عمل الجوارح؛ فإنه - تعالى - جعل القرآن نورًا وهدًى وبيانًا للناس وشفاءً لما في الصدور، وأرسل الرسل ليبيّنوا للناس ما أنزل إليهم، وليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، ولئلّا يكون على الله حجة بعد الرسل.

ويتابع شيخُ الإسلام الكلامَ في هذا الموضوع مُبينًا أنّ النبي ﷺ يستحيل عليه هو والصحابة أنْ يذكروا شيئًا يراد به خلافه دون قرينة توضّح ذلك، أو يكون قاصدًا بكلامه كلامًا لا يفهمه سوى خاصّة الناس أو أفراد منهم؛ فلقد جاء للناس كافّة على اختلاف صفاتهم وعقولهم.

وتناول- أيضًا- شيخُ الإسلام في هذا الموضوع تأويلَ الصفات وحملَ الكلام على غير معناه الحقيقي، والمعنى الحقيقي للصّفة أوضح وأبْيَن، مثل صفة اليدِ لله - عز وجل -، وقد أوّلها بعضهم بالقوّة والقدرة، يذكر شيخ الإسلام كثيرًا من الأدلة التي تناقش هذه الأقوال، ويوضّح أنّ الله - عز وجل - له يدٌ ولكنه منزّه عن أنْ يشبه أحدًا مِن خلقه، وهو ما جاء بالسنة ويدلّ عليه العقل، وذكر كثيرًا من هذه الأدلة التي تؤكّد هذا القول.

وجاءت هذه الرسالة في الحقيقة والمجاز- أيضًا- في الجزء العشرين من كتاب الفتاوى، وتحدّث عن الذين قالوا بهذا التقسيم، وهُم مِن المعتزلة وغيرهم، ونفى أقوالَ بعض الناس مِن أنّ الأصوليين هُم مَن قالوا بذلك، وذكر بأنّ مَن اعتقد أنّ المجتهدين المشهورين وغيرهم مِن أئمّة السلف قسّموا الكلام إلى حقيقة ومجاز؛ كان جاهلًا بهم، وأنه- أيضًا- مَن قال: إنّ ذلك في كلام العرب توقيفًا، أو مَن ظنّ أنّه من كلام الأئمة المتأخّرين؛ كان هذا مِن جهْله، ومَن قال بهذا التقسيم ليس فيهم إمام فنّ مِن فنون الإسلام لا التفسير ولا الفقه ولا الحديث ولا اللّغة ولا النحو، بل أئمّة النحو لم يقسموا تقسيم هؤلاء.

إعجاز القرآن:

تحدّث شيخُ الإسلام ابن تيمية عن إعجاز القرآن، وأنه المعجزة التي أنزلها الله على محمد ﷺ كما أنزل المعجزات على الأنبياء- عليهم السلام- من قبْل، فيقول- رحمه الله- في ذلك: القرآنُ كلام الله، وفيه الدعوة والحجّة، فله به اختصاصٌ على غيره، كما ثبت عنه في الصّحيح أنه قال:

«ما مِن نبي من الأنبياء إلّا وقد أوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة»(١).

وجوهُ إعجاز القرآن:

تعدّدت وجوه إعجاز القرآن كما ذكر شيخُ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- جُملةً وتفصيلًا.

أمّا الجُملة: فإنه قد علمت الخاصّة والعامّة من عامّة الأمم، علمًا متواترًا أنه هو الذي أتى بهذا القرآن، وتواترت بذلك كلّ الأخبار أعظم مِن تواترها بخبر كلّ أحدٍ من الأنبياء والملوك والفلاسفة وغيرهم.

وأمّا التّفصيل: فإن القرآن نفسَه فيه تحدّي الأمم بالمعارضة أن يأتوا بمثله، قال تعالى: ﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الطور: ٣٤] فتحدّاهم بعشر سور، وتحدّاهم بسورة واحدة ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾ [هود: ١٤]، وكان هذا التحدي في مكة، ثمّ تحدّاهم- أيضًا- في المدينة بعد الهجرة، فقال تعالى في سورة البقرة، وهي سورة مدنية: ﴿ **وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾** ﴾ [البقرة: ٢٣]، ثمّ قال: ﴿ **فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾** ﴾ [البقرة: ٢٤].

وهذا التحدّي- أيضًا- يضمّ العامّ والخاصّ، قال تعالى في سورة الإسراء: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ [الإسراء: ٨٨].

يقول شيخُ الإسلام- رحمه الله: فعلم بأمره أن يخبرَ بالخبر جميعَ الخلق معجزًا لهم، قاطعًا بأنّهم إذا اجتمعوا كلّهم لا يأتون بمثل هذا القرآن ولو تظاهروا وتعاونوا على ذلك، وهذا التحدي

---

(١) التفسير الدقيق، مقدمات في فهم القرآن الكريم، ص(١٥٢).

والدّعاء هو لجميع الخلق، وهذا قد سمعه كلّ مَن سمع القرآن، وعرفه الخاصّ والعام، وعلم مع ذلك أنّهم لم يعارضوه ولا أتوا بسورة مثله[1].

يقول شيخُ الإسلام- رحمه الله: وكوْن القرآن أنه معجزة ليس هو من جهة فصاحتِه وبلاغته فقط، أو نظمِه وأسلوبه فقط، ولا من جهة إخباره بالغيب فقط، ولا من جهة صرف الدواعي عن معارضته فقط، ولا من جهة سلب قدرتهم على معارضته فقط؛ بل هو آية بيّنة معجزة من وجوه متعدّدة، من جهة اللفظ ومن جهة النظم ومن جهة بلاغته في دلالة اللّفظ على المعنى، ومن جهة معانيه التي أمر بها، ومعانيه التي أخبر بها عن الله- تعالى- وأسمائه وصفاته وملائكته وغير ذلك، ومن جهة معانيه التي أخبر بها عن الغيب الماضي وعن الغيب المستقبل، ومن جهة ما أخبر به عن المعاد، ومن جهة ما بين فيه من الدلائل اليقينية والأقيسة العقلية التي هي الأمثال المضروبة، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾﴾ [الإسراء: ٨٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾ [الكهف: ٥٤][2].

أمّا الدّليل التفصيلي فيقال: نفسُ نظم القرآن وأسلوبه عجيبٌ بديع، ليس مِن جنس أساليب الكلام المعروفة، ولم يأت أحدٌ بنظير هذا الأسلوب؛ فإنه ليس من جنس الشعر ولا الرّجز ولا الرسائل ولا الخطابة، ولا نظمه نظم شيء من كلام الناس؛ عربِهم وعجمِهم.

ونفسُ فصاحة القرآن وبلاغته هذا عجيبٌ خارقٌ للعادة، ليس له نظير في كلام جميع الخلق، وبسط هذا وتفصيله طويل، يعْرفه من له نظر وتدبّر.

ونفسُ ما أخبر به القرآن في بابِ توحيد الله وأسمائه وصفاته أمرٌ عجيب خارقٌ للعادة، لم يوجد مثل ذلك في كلام بشرٍ؛ لا نبي ولا غير نبي.

(١) التفسير الدقيق، ص(١٥٣، ١٥٤) بتصرف.
(٢) دقائق التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن تيمية، مقدمات في فهم القرآن، ص(١٥٥).

وكذلك ما أخبر به عن الملائكةِ والعرش والكرسي والجنّ وخلق آدم وغير ذلك، ونفس ما أمرَ به القرآن من الدّين والشرائع كذلك، ونفس ما أخبر به من الأمثال وبيّنَه مِن الدّلائل هو- أيضًا- كذلك.

ومن تدبّر ما صنفه جميعُ العقلاء في العلوم الإلهية والخلقية والسياسيّة وجد بينه وبين ما جاء في الكتب الإلهية: التوراة والإنجيل والزبور وصحف الأنبياء، وجد بين ذلك وبين القرآن من التفاوت أعظم ممّا بين لفظه ونظمه، وبين سائر ألفاظ العرب ونظمهم.

فالإعجازُ في معناه أعظمُ وأكثر مِن الإعجاز في لفظه، وجميعُ عقلاء بني آدم عاجزون عن الإتيان بمثل معانيه، أعظم مِن عجز العرب عنِ الإتيان بمثل لفْظه[1].

وما كتبته في هذا المبحث هو القليلُ جدًّا بالنسبة لما قدّمه شيخ الإسلام- رحمه الله، ولا مجالَ في هذا المبحث أنْ أذكر كلّ التفاصيل، ولكنْ أردت فقط أن أشير إلى هذه العلاقة.

ولقد كُتب كثيرٌ من الرسائل والكتب حول هذه المعاني لَمن أراد أن يضع يدَه حول كلّ هذه التفاصيل، ومنها: المقدّمات في فهم القرآن التي كُتبت كمقدّمة لما قدّمه في التفسير في كتابي التفسير الكبير والتفسير الدّقيق، وأيضًا كتاب إعجاز القرآن الكريم عند شيخ الإسلام لمحمد بن عبد العزيز العواجي، مقدّمة التفسير بها كلّ ما كتبه شيخ الإسلام من مقدّمات فهم القرآن.

***

(١) انظر: كتاب إعجاز القرآن عند شيخ الإسلام، محمد بن عبد العزيز العواجي، ص(١١٥، ٢٩٢).

المبحثُ السّابع

ألوانُ التفسير عند شيخ الإسلام

تنوّع أسلوب شيخ الإسلام في تناوله للتفسير ما بين التفسير التحليلي للسورة وتناوله لآياتها ومعانيها ومفرداتها بالتحليل والتوضيح، وما بين تناوله للسورة تفسيرًا موضوعيًّا بأخذ السورة كيانًا متكاملًا يبنى آخرُها على أوّلها؛ فيذكر ما تتناوله السورة من موضوعات، وما تهدف إليه من مفاهيم، وسنذكر نماذج توضيحية على ذلك، أو تفسيرًا إجماليًّا.

أوّلًا: التفسير التحليلي:

تناول شيخُ الإسلام- رحمه الله- سورة الفاتحة والإخلاص والمعوذتين والّنور؛ تفسيرًا تحليليًّا.

تناول الشيخُ- رحمه الله- سورة الفاتحة فبيّن فضلها، وقام بتفسير آياتها مفسّرًا كلّ آية بمفردها، مُعطيًا لكلّ آية منها حقّها في التفسير، مبيّنًا معاني كلماتها، وموضّحًا علاقة الآيات ببعضها، مبيّنًا لدلالة الآية بأكملها.

ومنهجُ شيخ الإسلام في أثناء تناولِه للتفسير التحليلي:

هو أنْ يركز دائمًا على ما أشْكِل فهمُه من المعاني، مُتتبعًا ذلك عن طريق ما يماثلها من كتابِ الله، ثمّ سنة الرسول ﷺ، ثمّ أقوال الصحابة، ثمّ التابعين، والتحليلات اللّغوية للكلمات، مُختارًا أرجح الأقوال الدّالة على المعنى، ومفسّرًا لكلّ المعاني التي أشْكِلت في تفسيرها على المفسرين.

ثانيًا: التفسير الموضوعي:

تناول الشيخُ التفسيرَ لسور القرآن موضوعيًّا عن طريق المستويات الآتية:

١ـ تناوله له على مستوى السورة.

٢ـ تناوله له على مستوى الكلمة أو الموضوع.

٣ـ تناوله له على مستوى القرآن.

أولًا: تناولُه له على مستوى السورة:

يظهر ذلك واضحًا عند تناوله لقضيّتين أساسيّتين من خلال تفسير سورتي آل عمران والنساء، ولقد عني الشيخُ- رحمه الله- بهاتين القضيّتين عناية خاصّة، واحتلت كلّ منهما مكانةً هامّة في تراثه.

١ـ القضية الأولى هي: موقف سورة آل عمران من أهل الكتاب وخاصّة النصارى.

٢ـ القضية الثانية هي: موقف ابن تيمية من النّفس وطبيعتها، وأحوالها، وأمراضها وعلاجها.

في القضية الأولى، تناول شيخُ الإسلام موقفَ النّصارى من الإسلام ورسوله مِن خلال تفسيره لآيات سورة آل عمران، ولقد عني ابنُ تيمية في هذه القضية بجمع آراء فِرَقِ النصارى القديم منها والحديث، وناقش دعواهم في طبيعة المسيح، وهل هي طبيعة لاهوتية، أو ناسوتية، أو هي مزيج من اللاهوت والناسوت، وتدلّ مناقشة ابن تيمية لآراء النصارى على خبرةٍ ودراية بأقوالهم وأصول آرائهم، فتناول أقوالَهم بالتحليل والمقارنة والنّقد، ويضع المقدّمات ليخرج منها بنتائج ما كانت تخطر على ذهن أحدٍ ما لم ينبئ بها ابنُ تيمية.

كما ناقش دعواهم في أنّ المسيحيّة هي آخر الأديان السماوية نزولًا، وافتراؤهم على الحقّ بقولهم: إنّ محمدًا بُعث إلى العرب خاصّة، وتحريفهم الكلِم بقولهم: المسيح ابن الله، أو إنّ الله ثالث ثلاثة.

٣ـ أمّا القضية الثالثة التي شغلت بقيّة هذا الجزء، فهي تلك الدراسة النفسيّة المتعمّقة التي قدّمها شيخُ الإسلام في تفسيره للآية الكريمة: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩]، وتتّسم هذه الدراسة بعمق النظرة في أحوال النفس وأمراضها وعلاجها، فكان يجمع في الموقف الواحد بين الآية والحديث والأثر الوارد في النفس، كما يوضّح النتائج السيئة التي تترتب على ابتعاد النفس عن المنهج القرآني في السلوك والتربية[1].

ثانيًا: تناوله لبعض الموضوعات القرآنية تفسيرًا موضوعيًّا مثل: المحبة، التضمين، المثل، الفرقان، السنن، الباقيات الصالحات، الحسنة والسيئة.

---

(١) انظر: التفسير الدقيق، ص(٢٧٣، ٢٧٤).

وتناوله لهذه الموضوعات تفسيرًا موضوعيًّا قد سبق الحديث عنها، وفي هذا الموضع نذكر مثالاً يوضّح ذلك المعنى ويؤكّده من خلال تناوله لموضوع (الحسنة والسيئة).

قال تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَ﴾ [النساء: ٧٩].

بيّن الشيخُ معنى الحسنة والسيئة من خلال تفسيره لهذه الآية تفسيرًا موضوعيًّا موضّحًا تلك المعاني من خلال ذكْره للآيات القرآنية واستنباط المعاني منها، ومؤكّدًا لذلك بأقوال المفسّرين، ووضّح أنّ الحسنة تعني النّعمة والنصر والعمل الحسن، والسيئة تعني المصيبة والهزيمة والفعل السيء، وبيّن المقابلة بين النعمة والابتلاء، والطاعة والمعصية، وبيّن أنّ الحسنة تعقبها حسنة، وأنّ السيئة تعقبها سيئة.

أمّا تناوله للتفسير الموضوعي على مستوى الكلمة، فيظهر من خلال تناوله لكلمة ﴿شَهِدَ﴾ في الآية الكريمة: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٨ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ ...﴾ [آل عمران: ١٨-١٩].

فتتبّع معنى كلمة ﴿شَهِدَ﴾ مِن خلال أقوال المفسرين، وجمع الآيات التي تحوي هذه الكلمة، وبيان دلالتها من خلال ما ذكر من الآيات، ثمّ ذكر بعض الأحاديث التي تضمّنت هذه اللفظة فبيّنت معناها، ثمّ ذكر مراتب الشهادة، ثمّ تحدّث عن كيفية هذه الشهادة، وأنها تارة بالقول وتارة بالفعل، وأنها مرّة عن طريق السمع ومرّة عن طريق البصر، فالسمع عن طريق الأنبياء، والبصر عن طريق رؤية الكون، وما خلق الله من الأنفس والأشياء، وقد تكون الشهادة علماً في قلوب العلماء(١).

التفسير الإجمالي:

ظهر التفسيرُ الإجمالي لسور القرآن الكريم واضحًا عند الشيخ، وذلك من خلال تناوله لسورة البقرة؛ حيث أجمل الشيخ ما تضمّنته السورة من أحداثٍ ومعانٍ في بداية تفسيره للسورة، بعد ذلك قامَ بتفسير ما أشْكِل من الآيات ففسّرها تفسيرًا تحليليًّا، وأيضًا في سورة مريم، يقول شيخُ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله: وقد ذكرتُ في مواضع ما اشتملت عليه «سورة البقرة» من تقرير

(١) التفسير الدقيق، ص(٢٨٥-٢٩٠).

أصول العلم وقواعد الدين: إنّ الله- تعالى- افتتحها بذكر كتابه الهادي للمتقين، فوصف حالَ أهل الهدى ثمّ الكافرين ثمّ المنافقين، فهذه «جُمل خَبرية»، ثمّ ذكر «الجُمل الطَلَبيّة» فدعا الناس إلى عبادته وحده، ثمّ ذكر دلائل ذلك من فرْش الأرض وبناء السماء وإنزال الماء وإخراج الثمار رزقًا للعباد، ثمّ مرّر «الرسالة»، وذكَر «الوعد» و»الوعيد»، ثمّ ذكر «مبدأ النبوة والهدى»، وما بثّه في العالم من الخلْق والأمر، ثمّ ذكر تعليم آدم الأسماء وإسجاد الملائكة له لما شرّفه من العلم، فإنّ هذا تقرير لجنس ما بُعث به محمد ﷺ من الهدى ودين الحق، فقصّ جنسَ دعوة الأنبياء، ثمّ انتقل إلى خطاب بني إسرائيل وقصة موسى معهم، وضمّن ذلك تقرير نبوته إذْ هو قرين محمد، فذكر آدم الذي هو أوّل، وموسى الذي هو نظيره، وهُما اللّذان احتجّا، وموسى قتل نفسًا فغفرَ له، وآدم أكلَ من الشجرة فتاب عليه، وكان في قصّة موسى ردٌّ على الصابئة ونحوهم ممّن يقرّ بجنس النبوات ولا يوجب اتّباع ما جاءوا به، وقد يتأوّلون أخبار الأنبياء، وفيها ردّ على أهل الكتاب بما تضمّنه ذلك من الأمر بالإيمان بما جاء به محمد ﷺوتقرير نبوته، وذكر حال مَن عدل عن النبوة إلى السّحر، وذكر النسخ الذي ينكره بعضهم، وذكر النصارى وأنّ الأمّتين لن يرضوا حتى يتّبع ملّتهم، كلّ هذا في تقرير أصول الدين من الوحدانية والرسالة، ثمّ أخذ- سبحانه- في بيان شرائع الإسلام على ملّة إبراهيم، فذكر إبراهيم الذي هو إمام، وذكر البيت الذي بتعظيمه يتميّز أهل الإسلام عمّا سواهم، وذكر استقباله وقرّر ذلك، فإنه شعار الملّة بين أهلها وغيرهم، ولهذا يقال: (أهل القبلة)، كما يقال: «**مَن صلّى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا؛ فهو المسلم**».

وذكر من المناسك ما يختصّ بالمكان؛ وذلك أنّ الحج له مكان وزمان، والعمرة لها مكان فقط، والعكوف والركوع والسجود شرعَ فيه ولا يتقيّد به لا بمكان ولا بزمان، لكنّ الصلاة تتقيّد باستقباله، فذكر- سبحانه- هذه الأنواعَ الخمسة من العكوف والصلاة والطواف والعمرة والحج، والطواف يختصّ بمكان فقط، ثمّ أتبع ذلك ما يتعلّق بالبيت مِن الطواف بالجبَلين، وأنه لا جناح فيه جوابًا لما كان عليه الأنصار في الجاهلية من كراهة الطواف بهما لأجل إهْلالهم لَمناة، وجوابًا لقوم توقّفوا عن الطواف بهما.

وجاء ذكرُ الطواف بعد العبادات المتعلّقة بالبيت، بل وبالقلوب والأبدان والأموال بعدما أمروا به مِن الاستعانة بالصّبر والصّلاة اللّذين لا يقوم الدين إلّا بهما، وكلّ ذلك مفتاح الجهاد والمؤسّس على الصبر؛ لأن ذلك مِن تمام أمر البيت؛ لأنّ أهل الملك لا يخالفون فيه، فلا يقوم أمرُ البيت إلّا بالجهاد عنه، وذكر الصبر على المشروع والمنْذور، وبين ما أنعمَ به على هذه الأمّة من البشرى للصابرين، فإنها أعطيت ما لم تعطَ الأمم قبلها، فكان ذلك مِن خصائصها وشعائرها كالعبادات المتعلّقة بالبيت، ولهذا يُقرن بين الحجّ والجهاد لدخول كلّ منهما في سبيل الله، فأمّا الجهاد فهو أعظم سبيل الله بالنصّ والإجماع، ولذلك الحجّ في الأصحّ كما قال: «الحجّ من سبيل الله».

فبيّن أنّ هذا معروف عند أهل الكتاب بذمّه لكاتم العلم، ثمّ ذكر أنه لا يقبل دينًا غير ذلك، ففي أوّلها: ﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: ٢٢]، وفي أثنائها: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: ١٦٥]، والأوّل نهي عام، والثاني نهيٌ خاص، وذكرها بعد البيت لينتهي عن قصد الأنداد المُضاهية له ولبيته من الأصنام والقبور ونحْو ذلك، ووحّد نفسه قبل ذلك وأنه ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ١٦٣﴾ [البقرة: ١٦٣]، ثمّ ذكر ما يتعلّق بتوحيده مِن الآيات، ثمّ ذكر الحلال والحرام، وأطلق الأمر في المطاعم؛ لأنّ رسول الله ﷺ بُعث بالحنيفية وشعارها وهو البيت، وذكر سماحتَها في الأحوال المباحة، وفي الدّماء ما شرعته من القصاص ومن أخذ الدّية، ثمّ ذكر العبادات المتعلّقة بالزمان، فذكر الوصيةَ المتعلّقة بالموت، ثمّ الصيام المتعلّق برمضان، وما يتّصل به من الاعتكاف؛ ذكَرَه في عبادات المكان وعبادات الزمان فإنه يختصّ بالمسجد وبالزمان استحبابًا أو وجوبًا بوقت الصيام، ووسطه أولًا بين الطواف والصّلاة؛ لأنّ الطواف يختصّ بالمسجد الحرام، والصّلاة تشرع في جميع الأرض، والعكوف بينهما، ثمّ أتبع ذلك بالنهي عن أكلِ الأموال بالباطل، وأخبر أنّ المُحرّم نوعان:

١ـ نوع لِعَينِه كالميتة.

٢ـ نوع لكسبه كالربا والمغصوب.

فأتْبع المعنى الثابت بالمحرم الثابت تحريمه لعينه، وذكرَ في أثناء عبادات الزمان المنتقل، الحرام المنتقل، ولهذا أتبعه بقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ...﴾ الآية [البقرة: ١٩٠]، وهي أعلامٌ للعبادات الزمنيّة، وذكر أنه جعلها مواقيتَ للناس في أمر دينهم ودنياهم؛ لأنّ البيت يحجّه الملائكة والجن، فكان هذا- أيضًا- في أنّ الحج مؤقتٌ بالزمان كأنه مؤقت بالبيْت المكاني، ولهذا ذكر بعد هذا من أحكام الحجّ ما يختصّ بالزمان، مع أنّ المكان مِن تمام الحج والعمرة.

وذكر المُحْصر، وذكر تقديم الإحْلال المتعلّق بالمال وهو الهدي على الإحلال المتعلّق بالنفس وهو الحلق، وأن المتحلّل يخرج من إحرامه فيحلّ بالأسهل فالأسهل، وهنا كان آخر ما يحلّ عين الوطء؛ فإنه أعظمُ المحظورات، ولا يفسد النّسك بمحظور سواه.

وذكر التمتّع بالعمرة إلى الحج؛ لتعلّقه بالزمان مع المكان، فإنه لا يكون متمتعًا حتى يحرمَ بالعمرة في أشهُر الحج، وحتى لا يكون أهلُه حاضري المسجد الحرام- وهو الأفقي- فإنه الذي يظهر التمتّع في حقّه لترفّهه بسقوط أحدِ السفرين عنه، أمّا الذي هو حاضرٌ فسيان عنده تمتّع أو اعْتمر قبل أشهر الحج، ثمّ ذكرَ وقت الحج وأنه أشهرٌ معلومات، وذكرَ الإحرام والوقوف بعرفة ومزدلفة؛ فإنّ هذا مختصّ بزمان ومكان؛ ولهذا قال: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ﴾ [البقرة: ١٩٧]، ولم يقل: والعمرة؛ لأنها تفرض في كلّ وقت، ولا ريب أنّ السنّةَ فرضُ الحج في أشهره، ومِن فرض قبله خالف السنة فإمّا أن يلزمه ما التزمه كالنّذر- إذْ ليس فيه نقضٌ للمشروع، وليس كمَن صلى قبل الوقت، وإمّا أن يلزم الإحرام ويسقط الحج ويكون معتمرًا، وهذان قولان مشهوران.

ثمّ أمرَ عند قضاء المناسك بذكره، وقضاؤها- والله أعلم- قضاءُ التفث والإحلال؛ ولهذا قال بعد ذلك: ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٠٣]، وهذا- أيضًا- مِن العبادات الزمانية المكانية.

وذكر أنّ البرّ ليس أنْ يشقي الرجلُ نفسَه، ويفعل ما لا فائدة فيه مِن كوْنه يبرز للسماء فلا يستظلّ بسقف بيته حتى إذا أراد دخولَ بيته لا يأتيه إلّا مِن ظهره، فأخبر أنّ الهلال الذي جعل

ميقاتًا للحجّ شرع مثل هذا، وإنّما تضمّن شرع التقوى، ثمّ ذكر بعد ذلك ما يتعلّق بأحكام النكاح والوالدات، وما يتعلّق بالأموال والصدقات والربا والدّيون وغير ذلك، ثمّ ختمها بالدّعاء العظيم المتضمّن وضع الآصار والأغلال والعفو والمغفرة والرحمة وطلب النّصر على القوم الكافرين الذين هُم أعداء ما شرعه مِن الدين في كتابه المبين(١).

التفسيرُ الإجمالي لسورة مريم:

يقول شيخُ الإسلام- رحمه الله: سورة مريم مضمونُها تحقيقُ عبادة الله وحده، وأنّ خواصّ الخلق هُم عباده، فكلّ كرامة ودرجة رفيعة في هذه الإضافة، وتضمّنت الردّ على الغالين الذين زادوا في النّسبة إلى الله حتى نسبوا إليه عيسى بطريق الولادة، والردّ على المفرّطين في تحقيق العبادة وما فيها مِن الكرامة وجحدوا نعمَ الله التي أنعم بها على عباده المُصطفين.

افتتحها بقوله: ﴿ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ [مريم: ٢] ونداؤه ربّه نداءً خفيًّا، وموهبته له يحيى، ثمّ قصّة مريم وابنها وقوله: ﴿إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾ [مريم: ٣٠].. إلخ؛ بيّن فيها الردّ على الغلاة في المسيح، وعلى الجفاة النافين عنه ما أنعم الله به عليه، ثمّ أمر نبيّه بذكر إبراهيم وما دعا إليه من عبادة الله وحدَه، ونهيه إيّاه عن عبادة الشيطان وموهبته له إسحاق ويعقوب، وأنّه جعل له لسانَ صدق عليًّا، وهو الثناءُ الحسن، وأخبر عن يحيى وعيسى وإبراهيم ببرّ الوالدين مع التوحيد، وذكر موسى وموهبته له أخاه هارون نبيًّا كما وهب يحيى لزكريا وعيسى لمريم وإسحاق لإبراهيم.

فهذه السورةُ سورة المواهب، وهي ما وهبَه الله لأنبيائه من الذريّة الطيبة والعمل الصالح والعلم النافع، ثمّ ذكر ذرية آدم لأجل إدريس ﴿وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٍ﴾ [مريم: ٥٨] وهو إبراهيم، ومِن ذرية إبراهيم وإسرائيل إلى آخر القصّة.

ثمّ ذكر حال منكري المعاد، وحال مَن جعل له الأولاد وقرنَ بينهما، ثمّ ذكر إقسامَه حشدَهم والشياطين وإحضارَهم حول جهنم..

---

(١) راجع: التفسير الدقيق، من ص(١٩٥-١٩٩) بتصرف.

ثمّ ذكر حالَ الذين قالوا: اتّخذ الرحمن ولدًا، فنفى الولادةَ عن نفسه، وردّ على مَن أثبتها، وأثبتَ المودةَ ردًّا على مَن أنكرها؛ فقال: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾ [مريم: ٩٦][1].

خلاصةٌ واستنتاج:

وبعدَ هذه الرحلة، يمكننا أن نقول:

بلغت منزلةُ ابن تيمية في التفسير منزلاً رائعًا وبهَرَ علماء عصره بفهمه لكتاب الله، وقدرته على تفسيره تفسيرًا يجعل القرآن منهج حياة للناس جميعًا ينظمها ويجدّدها، ويصلح ما فسد منها، ويطوّرها إلى الأفضل والأحسن.

لقد كان- رحمه الله- على وعي كبيرٍ بمقاصد القرآن الكريم، فحمل لواءَ التبليغ للناس مقتديًا برسول الأنام- عليه الصلاة والسلام- والسلف الصالح - رضي الله عنهم -.

اهتمّ شيخُ الإسلام بالتفسير خاصّة، ولِمَ لا.. وقد أجاد كلّ أدواته التي توصّله إلى الفهم الجيد والاستنباط السليم مِن كتاب الله؛ فغزارةُ علومه التي تحدّثنا عنها قبلًا تشهد له بذلك.

اهتمّ شيخُ الإسلام بالأقوال الصحيحة المنقولة عبْر السلف بأسانيدها الصحيحة غالبًا دونَ غيرها، فبرعَ في التصانيف التي كتبها في التفسير حتى يقال: إنّها كانت أكثرَ من ثلاثين مجلدًا، وأنّه بشهادة الكثير من العلماء كان إمامًا في التفسير.

لقد كانت ثقافتُه التفسيرية يضربُ بها الأمثال؛ فقد كان يقرأ في الآية الواحدة مائة وعشرين تفسيرًا.

لقد كتب عنه الكثيرُ من العلماء، وكان نموذجًا ومثالًا للدارسين من الأقدمين والمحدثين.

كان لابن تيمية- رحمه الله- طرقًا متعدّدة في التفسير:

١ـ التفسير التحليلي مثل: «التفسير الكبير والدقيق».

٢ـ التفسير الموضوعي مثل: «رسالة في السنن».

---

(١) انظر: التفسير الدقيق، ص(١٨٣) وما بعدها بتصرف يسير.

٣ـ كتابات في علوم القرآن مثل: «فضائل القرآن».

٤ـ المتشابه مثل: «تفسير آيات أشكلت».

٥ـ أصول التفسير مثل: «مقدّمته في أصول التفسير».

لقد كان لشيخ الإسلام طريقتُه الخاصّة لكلّ ما يعرض له من قضايا في كتاب الله، وهي الرجوع للكتاب (القرآن الكريم)، فهو يفسّر بعضه بعضًا، ثمّ السنة النبوية وأقوال الصحابة والتابعين الذين لهم لسانُ صدق، ويرى أنّ ذلك يحلّ النزاعات والتفرق في الأمّة، ولا يمكن للأمّة أن تجتمع على ضلالة، مستعملًا المقارنات والترجيح لبعض الأقوال على بعض، ومستعملًا للعقل أحيانًا المعتمد على ما فهمه من لغة العرب وأحاديث النبي ρ، كما أنه اهتمّ بالأسانيد اهتمامًا بالغًا، محاولاً إسناد كلّ قول إلى صاحبه في أمانةٍ علمية تامّة.

كما أنه اهتمّ بمُشكل القرآن فلم تكنْ غايته كتابةَ التفسير لكتاب الله مرتبًا حسب سور القرآن تفسيرًا تحليليًّا لآياته، ولكنه اعتبرَ القرآن الكريم كتابًا لهداية البشر، فأخذ يتبع فيه القضايا والموضوعات، رابطًا بين سوره وآياته.

تعدّدت مصادرُ شيخ الإسلام في تفسير القرآن، وتأتي كالآتي بالترتيب: القرآن، ثمّ السنّة النبوية، أقوال الصحابة، وما أجمع عليه التابعون، ثمّ ما يرجّحه هو معتمدًا على بلاغته وفهمه للغة العرب، أو على كتب التفسير.

كما كان لابن تيمية أثرٌ بالغ على مَن جاء بعده مِن المفسّرين، وذلك مِن طريقة تفسيره وأصالة نهجه وتراثه وكتبه.

لقد وضع شيخُ الإسلام أصولًا للتفسير في كتابه: «مقدّمة في أصول التفسير» توضّح أنّ التفسير عنده على مراتب: فالقرآن أولًا، ثمّ السنة، ثمّ أقوال الصحابة والتابعين.

أين رقم واحد هنا؟! وما العنوان الرئيس لهذا التصنيف؟!

٢- الاكتفاء بالحديث النبوي في حال وجوده.

٣ـ أنّ المراسيل صحيحة إذا تعدّدت طرقها.

٤ـ أنه لا يجوز العدول عن أقوال الصحابة والتابعين إلى ما يخالفها.

٥ـ لا يجوز إحداث قول جديد في مسألة تنازع فيها السلف.

٦ـ أنّ الإسرائيليات للاستشهاد لا للاعتقاد.

٧ـ أنّ اللغة مصدر من مصادر التفسير، ورتبتها متأخّرة عمّا سبق من مصادر.

٨ـ أنه ليس في القرآن مجاز، وأنه لا شيء في القرآن لا يعرف معناه، والمتشابه نسبي، وأنّ الصحابة والتابعين كان لهم علمٌ بالمتشابه، وأنّ الصحابة وضعوا قواعد لفهمه وتفسيره.

اهتمّ شيخ الإسلام بعلوم القرآن، ووضع مبدأً للتعامل مع الإسرائيليات أنها للاستشهاد لا للاعتقاد، فتناول الإسرائيليات وأسباب النزول والناسخ والمنسوخ والمحكم والمتشابه.

المتشابه عند ابن تيمية ما لا نصل إلى معرفة معناه، وهذا أمرٌ نسبي، فإذا عرف المعنى أصبح محكمًا، وهي مثل الأمور الغيبيات التي لم تحدّث بعْد، وستفسر أحداثها يومَ القيامة.

لقد تعدّدت وجوه إعجاز القرآن الكريم جملة وتفصيلًا، وتنوّعت أساليب شيخ الإسلام في التفسير ما بين التفسير التحليلي والتفسير الموضوعي والتفسير الإجمالي، وكان رائعًا وافيًا منوعًا في أنواعه كلّها، وكان التحليلي مثل سورة الفاتحة والإخلاص والمعوذتين، والإجمالي كتفسيره لسورة البقرة وسورة مريم، والموضوعي كان على مستوى السورة، وذلك من خلال قضية آل الكتاب، النفس الإنسانية، وذلك من خلال سورتي: آل عمران والنساء، وعلى مستوى الموضوع مثل: المحبة والتضحية والمثل والفرقان والسنن والباقيات الصالحات.

الفصلُ الثّالث

جهودُ شيخ الإسلام في علم السنن الربّانية

(الجانبُ التّأصيلي)

المبحثُ الأوّل

روافدُ علمِ السنّة عند شيخ الإسلام- رحمه الله

لعلم السّنن مؤهّلات ومواهب يجب أن تتوفّر للأفراد الذين يستطيعون إيجادها واستنباطها مِن آيات الله الكونيّة المقروءة والمنظورة.

ولقد أعطى الله – عز وجل – البشرَ مؤهّلات فطرية لكي يكتشفوا بها قوانينه الربانيّة، ويفيدوا منها، ويسخّروها حتى يعمروا هذا الكون، ويكون الإنسان خليفتَه في أرضه، فسبحانه وتعالى أعطى الإنسان السمعَ والبصر والعقل والفؤاد، وجعل هذه الحواس مسئولةً مسئوليّة كبيرة عن اكتشاف هذه الآيات الكونية التي تحكم الكون، وكذلك السّنن الاجتماعية التي تحكم الأفرادَ والجماعات وأفعالهم وسلوكهم في الحياة، وما يكونون عليه مِن أحوال، وما يترتّب على ذلك من نتائج كـ: الرّفاهية، أو الضيق في العيش، والسّعادة والشقاء، والعزّ والذل، والرقي والتخلف، والقوة والضعف، ونحْو ذلك من الأمور الاجتماعية.

وما يصيبهم في الآخرة مِن عذاب ونعيم لها- أيضًا- مؤهّلات تساعد الإنسان على إيجادها وفهمها فهمًا عميقًا، ومنها أنّه لا بدّ للإنسان أن يكون دارسًا للتاريخ ولأحوال الأممِ السّابقة، وملمًّا بالقصص القرآنية، ودارسًا للشريعة الإسلامية، وملمًا بالسنة النبوية الشريفة.

والواعي المتأمّل لسيرة النبي ﷺ يلمح معرفتَه الجيدة للسنن الإلهية وتطبيقه لها في كلّ مكالات الحياة، فقد كان ﷺ حريصًا على الأخذِ بالأسباب في كلّ شأنٍ سواء أكان خاصًّا أو عامًّا، وأكثر ما يدلّ على ذلك تخطيطه الجيّد لأمْر الهجرة، وتنظيمه لأمْر الحرب وأخذه بأسباب النصر، ولقد كان ﷺ يختار الرجالَ في الشئون المختلفة طبقًا لمؤهّلاتهم التي تساعدهم على اجتياز الأعمال، ثمّ يتابعهم ويساندهم ويحاسبهم ويكافؤهم؛ فكان كلّ أمرِه تخطيطًا وتنظيمًا، وله المعرفة البالغة بما يصلحُ المجتمعات وينظمها ويوحّدها وكان خبرُه في تنظيم المجتمع المدني خيرَ دليلٍ على ذلك، ونجده ﷺ في مجال التربية يربّي أصحابه على تحمّل المسئولية والإيجابية

تجاه المجتمع ويمثّل لهم ذلك بمجتمع السفينة في قوله: «**مثلُ القائم على حدود الله والواقع فيها، كمثل قومٍ استهموا على سفينة، فأصاب بعضُهم أعلاها وأصاب بعضُهم أسفلها، وكان الذين في أسفلها إنْ أرادوا الماء مرّوا على مَن فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقًا ولم نؤذِ مَن فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا وهلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم نجوْا ونجوا جميعً**»(١). تصويرٌ دقيق لسنن الله تعالى في الأجسام والمجتمعات، فإذا كانت السفينة يحكمها قانونُ الطفو فإنّ المجتمع يحكمه قانونُ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وكقوله: «**مثلُ المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائرُ الجسد بالحمّى والسهر**»(٢).

وكقوله: «**المؤمنُ للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضُه بعضًا**» (٣).

ومِن أروع ما يدلّ على حرص الرسول على تعلّم أصحابه وأمّته إدراك السنن الإلهية قولُه لزياد بن لبيد: بعد أنْ ذكر شيئًا وقال: وذلك عند ذهاب العلم، قلنا: يا رسولَ الله، وكيف يذهب العلمُ ونحن نقرأ القرآن ونقرؤه أبناءنا، وأبناؤنا يقرءونه أبناءهم إلى يوم القيامة؟ فقال: «**ثكلتك أمّك يا ابن لبيد، إنْ كنت لأراك مِن أفْقه رجلٍ بالمدينة، أو ليس هذه اليهود والنصارى يقرءون التوراة والإنجيل ولا ينتفعون ممّا فيهما بشيءٍ**» (٤).

وهذا الحديثُ الشريف يوضّح إرشاد الرسول لأصحابه إلى أمرِ السّنن التي تعمّ الجميع وتمضي بلا استثناء، وفي هذا إجابةٌ عن السؤال الحائر على شفاه المسلمين: كيف يكونون مسلمين وتظلّ أحوالهم بهذا التخلّف والتأخّر والجمود؟ وقد صاغ شوقي ذلك في قوله:

(١) صحيح البخاري، كتاب الشركة، باب (هل يقرع في القسمة والاستهام فيه). والترمذي، كتاب الفتن. وأحمد (أول مسند الكوفيّين).
(٢) مسلم ٤/ ١٩٩٩.
(٣) صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب (تشبيك الأصابع في المسجد وغيره). ومسلم، كتاب البر والصلاة والآداب.
(٤) ذكره ابن كثير، جـ٢ ص ٧٦.

وقل يا رسولَ الله يا خيرَ مُرسل — أبثّك ما تدري مِن الحسرات
شعوبُك في شرق البلاد وغربها — كأصحاب كهفٍ في عميق سُبات
بأيْمانهم نـــوران ذكـــرٌ وسنّة — فما بالُهم في حالك الظلمات؟!!

فليس المراد من قولهﷺ: «**وذلك عند ذهاب العلم**» ارتفاعَ المعارف والثقافة من الكتب والرؤوس؛ بل ارتفاع الارتباط بينها وبين السّنن الكونية وإحسان التعامل بهذا العلم مع تلك السّنن.

والصحابةُ الكرام بدوْرهم كانوا على علمٍ ووعي بهذه السّنن، ومِن أبرز الذين ظهرت في حياتهم وأقوالهم هذه السّنن عمرُ بن الخطابِ - رضي الله عنه - الذي قال عنه ابنُ مسعود عندما مات: «**مات تسعةُ أعشار العلم، فقيل له: أتقولُ ذلك وفينا جلّة الصحابة؟! فقال: لم أردْ علم الفتيا والأحكام، إنّما أريد العلم بالله تعالى**»[(١) ٢].

لذلك نجد أنّ شيخَ الإسلام ابن تيمية كان يتمتّع بكثيرٍ من هذه المؤهّلات التي جعلتْه عميقًا في معرفة السّنن الإلهية، ومحاولته توظيفها، ودعوة الناس للعمل بها، ومنها:

أولًا: مكوّنات شخصية ابن تيمية- رحمه الله:

وهب الله - عز وجل - لكلّ إنسان شخصيته التي شاركت في إعدادها العديدُ من العوامل، ومِن هذه العوامل: الوالدين والبيئة، وقد تكونُ هذه العوامل معلمًا واعيًا، أو كتابًا هادفًا يكون عاملًا رئيسًا في تكوين شخصية الإنسان، وقد امتلك شيخُ الإسلام ابن تيمية شخصية قويّة مميّزة جعلته عالمًا مميزًا في مجاله العلمي والدعوي، ولقد كان لهذه الشخصيّة مكوناتٌ، منها: مواهبه الفطرية التي وهبها الله له، ومنها: ما تلقّاه عن معلّميه، أو كتبٍ قرأها، أو حياته وما انصرف إليه، وعصره الذي عاش فيه سواء كان ما أفاده فيه بطريق الإيمان بأن تغذّى من عناصره

(١) تفسير المنار، جـ ٤/ ١١٥، وانظر الإحياء ١/ ٢٣.
(٢) راجع: مفهوم السنن الربانية، د/ رمضان خميس الغريب، ط: مكتبة الشروق، ط: ثانية، ص(٣١).

ووجهته ودفعته، أو كانت استفادتُه مِن مقاومة ما فيه، فأرهقت قواه وشدّت عوده، فضرب على أوتاره ضربًا عنيفًا، فإنّ العالم ذا الشخصيّة القوية يستفيد مِن عصره سلبًا أو إيجابًا[1].

ويمكن تلخيص أهمّ هذه الصفات التي أهّلته لمعرفة علم السنة فيما يأتي:

١- التأمّل والعمق:

اتصف ابنُ تيمية- رحمه الله- بأنه كان متأمّلًا ومفكّرًا ومدقّقًا في الأمور، «لقد كان - رحمه الله - يدرس المسائل متعمّقًا فيها، بل ربّما قضى الليالي متفكّرًا في مسألةٍ واحدة حتى يحلّ مغلقها، وينتهي إلى الأمر الجازم فيها، وكان يتأمّل الآيات والأحاديث وقضايا العقل، ويوازن، ويعايش بفكرٍ مستقيم حتى ينبلج له الحقّ واضحًا، لذلك كان من أدقّ العلماء وأقدرهم على استنباط المعاني من الأحاديث وآيات القرآن الكريم»[2].

ولقد جاء في الكواكب الدرية أيضًا: «وأمّا ما وهبه الله- تعالى- ومنحَه من استنباط المعاني مِن الألفاظ النبويّة والأخبار المرويّة، وإبراز الدّلائل منها على المسائل، وتبْيين مفهوم اللّفظ ومنطوقه، وإيضاح المخصّص للعام، والمقيّد للمطلق، والنّاسخ للمنسوخ، وتبيين ضوابطها ولوازمها وملزوماتها، وما يترتّب عليها، وما يحتاج فيها إليها ممّا لا يوصف، حتى كان إذا ذكرَ آية أو حديثًا وتبيّن معانيه وما أريد به؛ يعجب العالم الفطنُ من حُسن استنباطه، ويدهشه ما سمعه، أو وقفَ عليه منه، فلم يكن ابنُ تيمية حافظًا وداعيًا فقط، بل كان متعمّقًا لا يكتفي فيما يدرس بالنظرة الأولى، بل يردّد البصر ويسبر غوْرَ المسائل حتى يصل فيها إلى نتائج محقّقة، وما يصل إليه يُدهش العقول ويحيّر الخصوم».

٢- حضور البديهة:

وصف الكثيرُ مِن العلماء المعاصرين شيخَهم ابن تيمية بهذه الصفة، وأكّدوا ذلك، فهو دائمًا يجيب على الأسئلة والمسائل بصورةٍ سريعة، ويسترسل في استحضار المعاني بطريقةٍ يعجبُ منها

(١) ابن تيمية حياته وعصره، لمحمد أبي زهرة، ص(٨٢) بتصرف.
(٢) ابن تيمية حياته وعصره ، لمحمد أبي زهرة، ص(٨٤).

السّامع، يقول أحدُ تلامذته أبو حفص البزّار: «كان ابن تيمية إذا شرعَ في الدّرس يفتح الله عليه أسرار العلوم وغوامض ولطائف ودقائق، وفنونًا، ونُقولَ العلماء، واستشهادًا بأشعار العرب، وهو مَع ذلك يجري كما يجري التيار، ويفيض كما يفيض البحر»(١).

٣- الاستقلال الفكري:

ظهر الاستقلالُ الفكري لابن تيمية واضحًا من خلال منهجِه في التفسير؛ فهو لا يتبع مَن سبقَه في الآراء، ولكنّه يتتبّع الدّلائل حيث كانت في القرآن ثمّ السنة النبوية ثمّ أقوال الصحابة، ويأخذ أقوالَ المفسّرين فيتفحّصها، ويرجّح أحد الأقوال عن الأخرى بمهارةٍ عجيبة، فهو مستقلّ الفكر لا يحكمه سوى القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة.

يقول أبو حفص البزار في ذلك: «كان إذا وضح له الحقّ يعضّ عليه بالنواجذ، والله ما رأيت أحدًا أشدّ تعظيمًا للرسول- عليه الصلاة والسلام- ولا أحرص على اتّباعه ونصْرِ ما جاء به منْه، حتى كان إذا أوردَ شيئًا من حديثه في مسألة، ويرى أنه لم ينسخه شيء غيره من حديثٍ يعمل به ويقضي ويفتي بمقتضاه، ولا يلتفت إلى قول غيره من المخلوقين كائنًا مَن كان، وإذا نظر المصنّف إليه بعيْن العدل يراه واقفًا مع الكتاب والسنة لا يميله عنهما قول أحدٍ كائنًا مَن كان، ولا يرقب في الأخذ بمعلومها أحدًا، ولا يخاف في ذلك أميرًا ولا سلطانًا ولا سيفًا، ولا يرجع عنهما لقوْل أحد، وهو متمسّك بالعروة الوثقى»(٢).

وهذه الصّفة لا بدّ منها لدارس السّنن الإلهية؛ لأنها تجعله قادرًا على فهْمها وتطبيقها، فهي حاكمةٌ عليه حيث هو لا يحيد عنها لأمرٍ آخر، فهو شديد الالتزام لما يفهمه ويقتنع به.

٤- الإخلاصُ في طلب الحقّ، والطهارةُ من أدران الهوى:

العلمُ بالسّنن الإلهية نورٌ يقذفه الله في قلوب أحبّائه ومخلصيه، فيجعلهم أكثرَ فهمًا وإدراكًا للحياة والأحياء، ويهبُهم حسًّا خاصًّا فيجعلهم يدركون به ما يخفى على الكثيرين، فيعتبرون

(١) الأعلام العلية، أبو حفص البزار، ص(٢٨).
(٢) الأعلام العلية، أبو حفص البزار، ص(٧٨).

ويقيسون الأحداث بعضها على بعض في وقتٍ يذهل فيه عقول الآخرين، خاصّة في أوقات المِحن والصعائب، فسبحانه يثّبت مَن يشاء فيهبه الفهمَ والمعرفة والفرقان الذي يستطيع أن يفرّق به بين الحقّ والباطل والخير والشر، فيرى الحقائق ماثلةً أمامه غيرَ خافية عليه، بينما تغيب عنْ غيره؛ ذلك لأنه ارتبط في كلّ حياته بالله هدفًا وعملًا وعبادة.

ومظاهرُ الإخلاص عند هذا الشيخ- رحمه الله- تجلّت في حياته كلها؛ لقد عاش مجاهدًا بكلّ أنواع الجهاد: بالقلم، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وبدروسه العلمية، ثمّ جهاده بالسيف، وتحمّله لبلاء السجن والظلم، وعدم مبالاته بما يجري له ما دام على طريق الحقّ؛ حيث يقول: «إنْ سجنوني فسجني خلوة، وإنْ نفوني فنفيي سياحة، وإنْ قتلوني فقتلي شهادة».

ولقد أفاضَ العلماء في ذكر هذه الصّفة كما بيّنا ذلك من قبل.

٥- قوّة الفراسة:

تحدّث الكثيرون عن فراسة شيخ الإسلام، منهم: أبو حفص البزار وغيرُه من العلماء، ووضّحوا كيف أنّ الله – عز وجل – وهبَه هذه الصفة، والتي- أيضًا- نراها مِن خلال مؤلفاته وفتاواه المتنوّعة، فهو سريعُ البديهة، ثاقبُ الفهْم، تلوح له الأمور مِن بعيد، يرى الشّخص فيفهم ما يدور في وجْهه حتى لو بدا له لأوّل وهلة، يصف ذلك الشيخ محمد أبو زهرة بتعبيراتٍ رصينة فيقول: «امتاز- رحمة الله عليه- بقوّة عقله، ونفاذ بصيرته، وحدّة مداركه، مع قوّة الإحساس؛ فقد كان ينفذ نظره إلى قرارات النفوس فيدركها، وإلى بواطن الأمور فيكشفها، فكان الألمعي يظنّ الظنّ كأنه رأى وسمع، وبدتْ فرائسه واضحةً في كلّ أمرٍ تولّاه، رأى التتار وحالهم ففَهِم بذكاءِ نفسه أنهم تضعْضَعوا، ولم يكونوا عند غزوهم الشام كما بدءوا، بل أترفت نفوسُهم فذهب بأسُهم، ولكن ماضيهم يرعبُ مَن يغزونهم فيهزمون بالرّعب لا بفرط القوّة.

رأى العبقري ذلك فكان يحلف أغلظَ الأيمان بأنّ جند مصر والشام لا محالة مُنتصرون، فإذا قال له الأمير: قل: إنْ شاء الله! قال: أقولها تحقّقًا لا معلّقًا، وهذا يدلّ على قوّة فراسته ونفاذ بصيرته.

ورأى رجلًا في زيّ طالب العلم يسير في طرق دمشق محتارًا؛ لأنه لم يكن معه ما ينفعه، فناداه ابن تيمية ووضع في يدِه دراهم، وقال: (أنفقْ منها، وأخلِ خاطرك)، وما تحدّث الشابّ بحاجته، ولكنها فراسة المؤمن وكرمُه»[١].

وفي هذا مِن الوعي بالسّنن وتوظيفها ما فيه؛ فهو يعرف بقوّة فراسته مدى تساقط التّتار وضعفهم، وأنّ لكل شيء إذا ما تمّ نقصانًا، وهذا مِن مكوّنات العلم بالسنن لديه.

٦ــ قدرته على التقعيد:

ويظهر ذلك جليًّا في ما كتبه من القواعد الفقهية، وقد سبق الحديثُ عن ذلك في الباب السابق.

ثانيًا: تكاملُ العلوم الدينيّة والعقلية لديه:

جمع شيخُ الإسلام- رحمه الله- بين المعرفة العميقة بالعلوم الدينية والعقلية بأنواعها مِن علومٍ كونيّة وفلسفية ومنطق وجغرافيا وتاريخ وفيزياء ورياضة وعلوم الأحياء وغيرها.

وهو يرى أنّ هذه «العلوم جميعها هي مظهرُ الكلمات الإلهية التي أشار إليها القرآن الكريم في مواضع متعدّدة، وهذه الكلمات تنقسمُ إلى كلمات دينية مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ﴾ [البقرة: ١٢٤]، وكلمات كونيّة مثل: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ﴾ [الأعراف: ١٣٧].

وهي المقصود بدعائه ﷺ: «**أعوذ بكلمات الله التامّات التي لا يجاوزهنّ برّ ولا فاجر**»، ولا يملك مخلوقٌ أنْ يخالف الكلمات الكونيّة التي تعني قوانين الكون والحياة والموت والخلق ومجريات الأحداث، وإنما تقع المخالفة في الكلمات الدينية؛ لأن الله امْتحن إرادةَ الإنسان بها، فالترابطُ هنا وثيقٌ بين الكلمات الدينية وبين العبادة الدينية من ناحية، ثمّ بين الكلمات الكونية والعبادة الكونية من ناحية أخرى»[٢].

(١) ابن تيمية حياته وعصره، محمد أبو زهرة، ص(٩١) بتصرف يسير.
(٢) الفكر التربوي، ماجد عرسان، ص(١١٨).

وهكذا نجد أنّ العلم الديني يتكامل مع العلم الدنيوي؛ لأنهما يحقّقان معًا شرع الله «وقد ظهر هذا التكامل واضحًا جليًّا من خلال كتابات ابن تيمية؛ حيث وضح- أيضًا- ذلك مِن خلال حديثه عن العلوم، فيذكر أنّ العلوم نوعان: نوعٌ يتعلّق بتربية الإنسان وتعليمه وتهذيبه عقائديًّا ونفسيًّا واجتماعيًّا، وهذه يسمّيها ابن تيمية: «علومًا سمعية»؛ لأنها جاءت بالسّماع عن طريق الوحي والرسل، وهي تستلزم الصدقَ لعدالة الأنبياء والرسل وصدقهم ومعجزات ما جاءوا به.

ونوعٌ يتعلّق بجسده وعقله كـ: الطبّ والهندسة والرياضيات والفلك، وهذه يسمّيها عقلية؛ لأنّ الشرع التقى بالدّلالة عليها والإشارة إليها، ثمّ ترك للعقل أن يخوض بها ويبحث ويفصّل.

وكلا النوعين علوم شرعية؛ لأنّ ثمراتها واحدة، وهي الكشف عن آيات الله في الوحي والخلق»[1].

ثالثًا: ثقافتُه الواسعة في جميع المجالات:

كان شيخُ الإسلام ابن تيمية يمتلك العقلَ المَوْسوعي، فلم يكن متخصّصًا في علم من العلوم- كما سبق-، ولكنّه حوى وجمع بين كلّ العلوم كما لو كان متخصّصًا في ذلك، وهذه المعرفة أهّلته لمعرفة السّنن واستنباطها؛ فهي القوانين التي تحكم الأمم والجماعات، ولا بدّ للإنسان كي يعرف قوانين أي أمّة أن يفهم منهجها وفكرها ولغتها وتاريخها الذي عاشته، ومدى فهمها للحياة ومعرفتها بالكون الذي تعيش فيه، ولذا كان شيخ الإسلام أهلًا لمعرفة السنن الإلهية.

وقد سبق الكلام عند منزلته العلميّة، ولكن نشير فقط في هذا المبحث إلى هذه الثقافة عن طريق بعض ما كتبه في ذلك، ومِن هذه العلوم ما يأتي:

- معرفته بقواعد اللغة العربية وإيحاءاتها.
- معرفته بالفقه.

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية، (١٩)، ص(٣٢، ٣٣).

- معرفته بعلم البلاغة.

- معرفته بالفلسفة وعلم الكلام.

- معرفته بالأنساب.

- معرفته بالديانات الأخرى.

وسنقدّم بعض الأمثلة الشاهدة على معرفته بهذه العلوم من خلال ما كتبه في كتاب الفتاوى:

١- معرفتُه باللغة العربية:

أتقن الشيخُ- رحمه الله- قواعد اللغة العربية، ومِن ذلك يقول في أثناء شرحه لدرجات الإيمان: «فإنّ الدرجات الثلاث التي هي: الإسلام والإيمان والإحسان داخلة في الدين كما قال في الحديث الصحيح: «هذا جبريل جاءكم يعلمكم دينكم»(١) بعد أن أجابه عن هذه الثلاث، فبيّن أنّها كانت كلها من ديننا، والدين مصدر، والمصدر يُضاف إلى الفاعل والمفعول، يقال: دان فلان فلانًا: إذا عبده وأطاعه كما يقال: دانه إذا أذلّه؛ فالعبد يدين الله، أي: يعبده ويطيعه، فإذا أضيف الدين إلى العبد فلأنه العابد المطيع، وإذا أضيف إلى الله فلأنه المعبود المطاع، كما قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣]»(٢).

وأيضًا نجد معرفته باللغة العربية واضحة في أثناء شرحه لسورة الغاشية، حيث يقول في قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ۝١ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ۝٥﴾ [الغاشية: ١-٥]، فذكر أنّ فيها قولين:

أحدهما: أنّ المعنى: وجوه في الدنيا خاشعة عاملة ناصبة تصلى يوم القيامة نارًا حامية، يعني بها عباد الكفار كـ: الرهبان وعباد البدور، وربما تؤولت في أهل البدع كالخوارج.

والقول الثاني: أنّ المعنى: أنها يوم القيامة تخشع، أي: تذل وتعمل وتنصب.

(١) السنن الكبرى للنسائي، (٢/ ١٩٣).
(٢) الفتاوى، (١٠/ ١٥٨).

قلت: هـذا الحقّ لوجوه، أحـدهما: أنه على التقديـر يتعلّق الظرف بما يليه، أي: وجوه يوم الغاشية خاشعة عاملة ناصبة، وعلى الأوّل لا يتعلق إلّا بقوله: ﴿تَصۡلَىٰ﴾، ويكون قوله: ﴿خَٰشِعَةٌ﴾ صفة للـ﴿وُجُوهٌ﴾ قد فصل بين الصفة والموصوف بأجنبي متعلّق بصفة أخرى متأخّرة، والتقدير: وجوه خاشعة عاملة ناصبة يومئذ تصلى نارًا حامية، والتقديم والتأخير على خلاف الأصل، فالأصل إقرارُ الكلام على نظمه وترتيبه لا تغيير ترتيبه، وإنّما يجوز فيه التقديم والتأخير مع القرينة، أمّا مع اللّبس فلا يجوز؛ لأنه يلتبس على المخاطب، ومعلومٌ أنه ليس هنا قرينة تدلّ على التقديم والتأخير، بل القرينة تدلّ على خلاف ذلك، فإرادة التقديم والتأخير بمثل هذا الخطاب خلاف البيان، وأمر المخاطب بفهمه تكليف لا يطاق»[(١)].

والأمثلةُ على معرفة شيخ الإسلام للغة العربية وإيحاءاتها وقواعدها كثيرة، سنجد الأمثلة مُتناثرة في ثنايا كلامه لكلّ مَن يتناول تراث هذا الرجل، ولقد تحدّث العلماء عن مكانته العلمية ذاكرين مكانتَه في اللّغة العربية، وكيف أنه كان بينه وبين سيبويه مناقشاتٌ كثيرة في علم النحو.

٢- معرفتُه بالفقه وتميّزه فيه:

لعلّ من أهمّ المعينات على فهْم السنن وتطبيقها معرفةَ الفقه معرفة جيدة، خاصّةً ما يعرف بفقه المآلات وفقه الموازنات وفقه المقاصد وفقه الأولويات وفقه الواقع، والدارسُ لسيرة شيخ الإسلام وتراثه دراسةً متأنّية جيدة يجد كثيرًا من الإلماحات إلى هذه العلوم، وسنذكرُ هنا إطلالة بسيطة على هذه العلوم عند شيخ الإسلام ابن تيمية.

فقهُ المآلات:

١- المعنى اللغوي: (ومعنى المآل عند أهل اللغة هو المرجعُ والمصير والعاقبة والمنتهى، ونحوه من المرادفات، وفي مصطلح «مآلات الأفعال» يستعمل لفظ المآل بمعنى نتائج الأعمال وآثارها وما تنتهي إليه من عواقب في الواقع)[(٢)].

---

(١) الفتاوى، (١٦/ ٢١٧، ٢١٨).

(٢) نظر فقه المآل مفهومه وقواعده، الدكتور سيد الدين العثماني- دار الكتاب المغربي، دار الكلمة جـ١- ص ١١ ط٢٠١٥-١٤٣٦.

٢- المعنى الاصطلاحي: (هو الفقه الذي ينظر إلى مآل الحكم الشرعي عند تنزيله في الواقع ويأخذه بعينِ الاعتبار، فإن كان الحكم سيؤدي إلى مقصده أمضاه، وإن كان لا يؤدي إلى مقصده عدّله أو غيّره بحسب طبيعة المآل، وذلك يستلزم أيضًا معرفةَ فقه التوقّع والاسشراف للمستقبل)(١).

ويتضّح مضمون فقه المآل من خلال ما وردَ عن شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- في تعامله مع التّتار ووحشيتهم؛ حيث يقول: (مررتُ أنا وبعض أصحابي في زمن التّتار بقوم منهم يشربون الخمر فأنكَرَ عليهم مَن كان معي، فأنكرت عليه وقلتُ له: إنّما حرم الله الخمرَ لأنها تصدّ عن ذكر الله وعن الصلاة، وهؤلاء يصدّهم الخمر عنْ قتل النفوس وسبْي الذرية وأخذ الأموال فدعْهم)(٢).

فالغاية مِن إنكار المنكر هو إزالته أو تحصيل المعروف، أمّا إذا كان مآل إنكار المنكر هو أن ينتج عنه ما هو أنكرُ منه؛ فإنّ إنكاره لا يسير على سنن الشريعة(٣).

وفي موضعٍ آخر يتحدّث شيخ الإسلام فيه عنْ واقعية فقه المآلات، وأنه فقهٌ تزداد الحاجةُ إليه على قدْرٍ ازدياد الفتنة (وقد نصّ تقي الدين ابن تيمية بأنّ باب التعارض بين المصالح والمفاسد «بابٌ واسع جدًّا» لاسيّما في الأزمنة والأمكنة التي نقصت فيها آثارُ النبوة وخلافة النبوة، فإن هذه المسائل تكثر فيها، وكلّما ازداد النقص ازدادت هذه المسائل، ووجود ذلك مِن أسباب الفتنة بين الأمّة، فإنه إذا اختلطت الحسنات بالسيئات وقعَ الاشتباه والتلازم؛ فأقوامٌ قد ينظرون إلى الحسنات فيرجّحون هذا الجانب وإن تضمّن سيئات عظيمة، وأقوامٌ قد ينظرون إلى السيئات فيرجّحون الجانب الآخر وإنْ ترك حسنات عظيمة، والمتوسّطون الذين ينظرون الأمرين قدْ لا يتبيّن لهم أو لأكثرهم مقدارُ المنفعة والمضرّة أو يتبيّن لهم فلا يجدون مَن يعينهم العمل بالحسنات وترك السيئات؛ لكوْن الأهواء قارنت الآراء)(٤).

(١) السابق صـ١٥ بتصرف
(٢) انظر إعلام الموقعين، جـ٣ صـ٥.
(٣) فقه المآلات، صـ٤٨
(٤) الفتاوى، جـ٢٠ صـ٥٧-٥٨. وفقه المآل، ص ٧١.

وفي موضعٍ آخر يبين شيخ الإسلام- رحمه الله- أهمية الوعي بفقه المآلات فيقول: (الواجبات والمستحبّات لاَ بدّ أن تكون المصلحة فيها راجحةً على المفسدة؛ إذْ بهذا بعثت الرّسل ونزلت الكتب، واللهُ لا يحب الفساد؛ بل كلّ ما أمر الله به فهو صلاح.

وقد أثنى اللهُ على الصلاح والمصْلحين والذين آمنوا وعملوا الصالحات، وذمّ المفسدين في غير موضعٍ، فحيث كانت مَفسدة الأمر والنهي أعظمَ من مصلحته لم تكنْ ممّا أمر الله به، وإن كان قد تركٍ واجبًا وفعل محرّمًا؛ إذ المؤمنُ عليه أن يتّقي الله في عباده، وليس عليه هداهم)[١].

فقه الموازنات:

لعلّ خيرَ دليل على معرفته بهذا العلم ما كتب عنه (رحمه الله) مِن دراسات في بيان معرفته بعلم الترجيح، وقد أشرنا إلى ذلك سابقًا عند الحديث عن الدراسات السابقة.

ومِن هذه الإلماحات التي كتبها ابنُ تيمية فتحدّث فيها عن فقه الموازنات؛ قوله: (ليس العاقل مَن يعلم الخير والشرّ فقط، بل يجب أن يعلم خيرَ الخيرين وشرَّ الشرّين، ويعلم أنّ الشريعة مَبناها على تحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها، وإلّا فمَن لم يوازن ما في الفعل والتّرك من المصلحة الشرعية والمفسدة الشرعية؛ فقد يدعُ واجباتٍ ويفعلُ محرمات)[٢].

وأيضًا مِن هذه الإلماحات الجميلة ما ذكَره في أثناء حديثٍ عن الاحتفال بالمولد النبوي مع تبديعه إيّاه- على صاحبه الصلاة والسلام- حيث يقول رحمَهُ الله: (تعظيمُ المولد واتخاذه موسمًا قد يفعله بعضُ الناس، ويكون له فيه أجرٌ عظيم لحُسن قصده وتعظيمِه لرسول الله ﷺ كما قدّمته لك أنه يَحسن مِن بعض الناس ما يُستقبح من المؤمن المسدّد، ولهذا قيل للامام أحمد عن بعض الأمراء إنّه أنفق على مصحفٍ ألفَ دينار ونحو ذلك، فقال دعْه؛ فهذا أفضل ما أنفق فيه الذهب، أو كما قال، مع أنّ مذهبه أنّ زخرفة المصاحف مكروهة، وقد تأوّل بعض الأصحاب أنه أنفقها في تجديد الورق والخطّ.

(١) مجموع الفتاوى، جـ٢٨ صـ١٢٦
(٢) اقتضاء الطريق المستقيم، جـ١ صـ٢٩٨

وليس مقصودُ أحمد هذا، وإنّما قصده أنّ هذا العمل فيه مصلحة، وفيه أيضًا مفسدة كره لأجلها، فهؤلاء إنْ لم يفعلوا هذا؛ اعتاضوا الفسادَ الذي لا صلاح فيه مثل أن ينفقها في كتابٍ من كتب الفجور ككتب الأسماء أو الأشعار أو حكمة فارس والروم، فتفطّن لحقيقة الدين، وانظرْ ما اشتملت عليه)[1].

أمّا معرفته بعلم الواقع، فلا يخفى على أحدٍ جهادُ ابن تيمية في مواجهة المُبطلين من الخوارج والباطنة وأهل البدع من الفلاسفة والمتصوفة، ومعاركُه التي خاضها مع التّتار والصليبين، وكلّ الفتن التي تعرض إليها وتناولها العلماء في سيرته العطرة، وكيف أنّه واجهها بصبر وإيمان، وتحمّل فكان لهم القائدَ والمربي والداعية الأمين الناصح للأمّة في كلّ مصائبها وفي كلّ أفراحها، ورسائله التي كتبها ابن تيمية للأمراء ينصحهم فيها أو يهنّئهم على انتصارهم على الصليبيين والتتار لخيرُ دليل على فهْمه الرائع لواقع المسلمين، وكيف أنه أفاد مِن ذلك في دعوته الناس إلى الخير، وما كتبه في الفتاوى غالبًا ليس إلّا شرحًا لواقع الناس من عللٍ وأدوية.

فقهُ الأولويات:

يظهر جيدًا- مِن خلال دراستنا لابن تيمية- أنّه كان يوظّف هذا العلم توظيفًا جيدًا فإنه عرف جيدًا كيف يوظّف أدواته المختلفة في الدعوة إلى الله- عزّ وجلّ- طبقًا لحاجة المجتمع واحتياجاته، فكان وقتًا معلّمًا، ووقتًا قاضيًا، ووقتًا واعظًا، ووقتًا مجاهدًا بالسيف ومجاهدًا بالقلم، أو مجاهدًا بالمناظرات واللقاءات. كلّ شيء كما تُمليه الضرورة ويحتاجُه الناس، وخيرُ دليل على ذلك مصنفاتُه التي كتبها في داخل السجن؛ حيث ليس له مِن وسيلة ليستخدمها في نفع الناس في تلك الظروف العصيبة إلّا عن طريق صرير الأقلام يسجّل بها خلجاتِ نفسه وما يجول بخاطره وعقله من علمٍ وفهْم حول كتاب الله وفتاوى يحتاجها الناس في حياتهم ومعادهم، رحم الله شيخَ الإسلام.

فقهُ المقاصد:

ولعلّ مِن أفضل الأمثلة على معرفة شيخ الإسلام بعلم المقاصد ما تناوله- رحمه الله- في أثناء حديثه عن الشرّ الجزئي، والحكمة من خلق الله للشرّ، وأنّه يجب على الإنسان التفكّر فيما

(١) مجموع الفتاوى، جـ١٤ صـ٢٦٦.

خلقه الله والبحثُ عن الحكمة مِن وراء ذلك، فيقول رحمه الله: (وأمّا الشرّ الجزئي الإضافي: فهو خيرٌ باعتبار حكمته. ولهذا لا يضاف الشرّ إليه مفردًا قط، بل إمّا أن يدخل في عموم المخلوقات كقوله {وخلق كلّ شيء}، وإمّا أن يضاف إلى السبب كقوله {مِن شرّ ما خلق}، وإمّا أن يحذف فاعله كقول الجنّ {وأنّا لا ندري أشرّ أريد بمَن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدًا})(١).

ولقد فهم شيخُ الإسلام- رحمه الله- المقصدَ من وراء العبادات التي أمرنا الله بها، فليس الهدفُ من العبادات المختلفة التعبَ والمشقة، ولكنْ هناك معنًى واضحٌ وهدفٌ عظيمٌ مِن وراء كلّ عبادة من العبادات، وعلى سبيل المثال تكلّم الشيخ- رحمه الله- عن المقصود مِن الصّيام بأنه التقوى، وعن المقصود من الزكاة بأنه التّطهّر(٢).

٣- معرفتُه بعلم البلاغة:

إنه لا بدّ لَمن يعرف علمَ السنن الإلهية معرفةً جيدة أن يكون ملمًّا بعلم البلاغة؛ حتى يستطيع تأمّل الآيات القرآنية، وفهمَ معاني الآيات والإيحاءات البلاغية التي تشير إليها الآيات، ومثالٌ على معرفة الشيخ- رحمه الله- بعلم البلاغة ما وردَ في أثناء شرحه للآية الكريمة: ﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِۖ قُلۡ قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞۚ﴾ [البقرة: ٢١٧] لّما ذكر الله – عز وجل – في هذه الآية لفظ: (قِتَالٞ) لم يستبدلْه بضمير وقال: (هو كبير).

يقول: «في إعادته بلفظ الظّاهر بلاغةٌ بديعة، وهو تعليق الحكمِ الخبري باسْم القتال فيه عمومًا، ولو أتى بمُضْمر فقال: هو كبير لَتوهّم اختصاص الحكم بذلك القتال المسئول عنه، وليس الأمر كذلك، وإنّما هو عامّ في كلّ قتال وقعَ في شهرٍ حرام»(٣).

وتظهر معرفةُ الشيخ بعلم البلاغة في كثيرٍ من تفسيره للقرآن الكريم؛ حيث يظهر خصوصيات الكلام وعمومُه واختيارات الألفاظ القرآنية في مواضع بعينها دونَ غيرها.

---

(١) مجموع الفتاوى، جـ١٤ صـ٢٦٦.
(٢) الفتاوى، (١٦/ ٢٠٠).
(٣) الفتاوى، جـ(١٤) عند تفسير قوله تعالى: ﴿يسألونك عن الشهر الحرام﴾.

٤ - علمُ الفلسفة، وعلمُ الكلام:

لقد تحدّثنا سابقًا عن ثقافة الشيخ، وكيف أنه اعتكفَ على آراء الفلاسفة كلّها يعرفها وينقدها ويمحّصها، ويظهر الغثّ فيها مِن السمين، ويدحض شبهاتهم التي تمسّ العقيدة وتضلّل فكرَ الآخرين من الناس، ويظهر لهم أنّ ما وصلوا إليه من الحقّ كانوا في غنى عنه لو اعتكفوا على كتابِ الله وسنة رسوله، وكتب في الردّ عليهم كتبًا ورسائل كثيرة، منها: درءُ تعارض العقل والنقل.

ولقد سجلت سيرتُه مناظراتٍ كثيرةً بينه وبينهم؛ ليوضّح لهم الحقّ، ويبعدهم عن الباطل.

ولعلّ بعضَ كلامه في كتب الفتاوى دليلٌ على معرفته الجيدة بهذا العلم، وفي ذلك يقول متحدّثًا عن الإدراك والعلم والذّكر: «ولمّا كان النظر مبدأ والذكر منتهًى؛ لأن النظر يتقدّم الإدراك، والعلم والذكر يتأخّران عن الإدراك والعلم؛ ولهذا كان المتكلّمة في النظر المقتضي للعلم، وكان المتصوّفة في الذكر المقرّر للعلم؛ قدّم آلةَ النظر على آلة الذكر، وختمَ بهداية الملك الجامع الذي هو الناظر الذاكر»(١).

ويقول في موضعٍ آخر متحدّثًا عن حقيقة الأشياء: «وكلّ شيء له حقيقةٌ في نفسه ثابتة في الخارج عنِ الذّهن، ثمّ يتصوّره الذّهن والقلب، ثمّ يعبر عنه اللّسان، ثمّ يخطّه القلم، فلَهُ وجود عيني، وذهني، ولفظي، ورسمي، وجود في الأعيان والأذهان واللّسان والبنان»(٢).

ثمّ يتحدّث عن الماهية والمقصود بها، ويبيّن أنّ الفلاسفة حاولوا إثبات وجود الله، وأنّ الإنسان مخلوق، وأنّ له خالقًا عن طريق التعريف بالماهية، وذكر أنّ هذه هي الطريقة المشهورة التي يسلكها الجهميّة والمعتزلة(٣).

وخيرُ دليل على معرفته بالفلسفة وعلم الكلام ما كتبه فيهما مثلَ مختصراته كشرح الأصبهانية، ومطولاته تخليص التلبيس من تأسيس التقديس، والموافقة بين العقل والنقل، ومنهاج الاستقامة والاعتدال(٤).

(١) الفتاوى، (١٦/ ٢٢٢).
(٢) الفتاوى، (١٦/ ٢١٩).
(٣) انظر: الفتاوى، ص(٢١٩) بتصرف.
(٤) الأعلام العلية: ٣٣.

٥- علمُه بالأنساب:

«لقد امتاز الصحابةُ - رضي الله عنهم - بمعرفتهم للأنساب، وكان مِن أشهر هؤلاء: سيدنا أبو بكر الصديق، وأمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وعُرف عنهما معرفتُهما العميقة لسنّة الله - عز وجل - ، وتوظيفهم إيّاها توظيفًا رائعًا»[١].

لذلك نجد أنّ من روافد السّنن عند شيخ الإسلام- رحمه الله- معرفته بأنساب العرب؛ حيث يقول في أثناء تفسيره للآية الكريمة: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] يقول: «ولهذا كان الخلفاء أفضلَ من الطلقاء من قريش، وهُم ليسوا من ربيعة ولا مُضر، بل مِن قحطان، وأكثرُ الناس على أنّهم من ولد هود، ليسوا مِن ولد إبراهيم، وقيل: إنّهم مِن ولد إسماعيل؛ لحديث أسلم لمّا قال: (ارموا فإنّ أباكم كان راميًا)، وأسلم مِن خزاعة، وخزاعة من ولد إبراهيم»[٢].

إنّ المعرفة بالأنساب تتيح الفرصةَ الجيّدة لمعرفة معادن الناس وخصائصهم، وهناك مِن الصفات المْوروثة التي تناقلتها الأجيال مِن خلال الآباء لا تظهر ولا تعرف إلّا عن طريق هذه المعرفة الجيدة بالناس، فيتيح الفرصة الجيدة للتعامل الجيد مع الناس، وحسن توظيفهم على النّحو الأمثل، كما أنّ المعرفة بالإنسان تساعد على معرفة الأحداث.

٦- علمُه بالدّيانات الأخرى:

تظهر معرفةُ شيخ الإسلام جليّة واضحةً بالديانات الأخرى في أثناء حديثه عن اليهود والنّصارى، ودحضِه الشبهات التي ظهرت منهم، ومثالٌ على ذلك ما كتبه في ثنايا كتاب الفتاوى مِن آراء عن أهل الكتاب من اليهود والنصارى.

يقول في أثناء حديثه عن اليهود: «وإذا قال اليهود: نحن نقصد عبادة الله، كانوا كاذبين، سواء عرفوا أنّهم كاذبون أو لم يعرفوا، كما يقول النّصارى: إنا نعبدُ الله وحده وما نحن بمشركين، وهُم كاذبون؛ لأنّهم لو أرادوا عبادته لعبدوه بما أمر، وهو الشرع، لا بالمنسوخ المبَدّل.

---

(١) مفهوم السنن الربانية من الفهم إلى التسخير، د. رمضان خميس، ص(٣٢، ٣٣) بتصرف.
(٢) الفتاوى، (١٦/ ١٩١).

وأيضًا، فالربّ الذي يزعمون أنّهم يقصدون عبادته وهو عندهم ربّ لم ينزل الإنجيل ولا القرآن ولا أرسل المسيح ولا محمدًا، بل هو عند بعضهم فقير، وعند بعضهم بخيل، وعند بعضهم عاجز، وعند بعضهم لا يقدر أن يغيّر ما شرعه، وعند جميعهم أنه أيّد الكاذبين المفترين عليه، الذين يزعمون أنّهم رسله وليسوا رسله، بل هم كاذبون سحرة قد أيّدهم ونصرهم، ونصرَ أتباعهم على أوليائه المؤمنين؛ لأنّهم عند أنفسهم أولياؤه دون الناس، فالربّ الذي يعبدونه هو دائمًا ينصرُ أعداءه»(١).

ويتّضح من هذا الكلام أنّ شيخ الإسلام- رحمه الله- على معرفةٍ جيّدة بصفات اليهود والنصارى وديانتهم وشبهاتهم الخاطئة، لذلك كان لتلك المعرفة أثرٌ في تعامله معهم أثناءَ الحروب الصليبية، ولم ينخدعْ بهم عندما كرّروا الهجماتِ على الدول الإسلامية، فهو يعرف جيدًا «أنّ الأعراف والأخلاق عند الشعوب مِن الصعب تغييرها»(٢).

ولم ينخدعْ بمظاهرهم المختلفة التي يُبدونها للتخفّي وراء أغراضهم الخبيثة؛ لأنه يعرفهم جيدًا، فهُم قساةٌ بخلاء لا ينخدعون لدين، ولا يحترمون الشعوب.

٧- معرفتُه بالعلوم الكونيّة:

تظهر معرفةُ شيخ الإسلام بالعلوم الكونيّة مِن خلال شرحِه لآي القرآن؛ حيث وضّح معنى الينابيع، وأنّها جمع ينبوع، وهو منبعُ الماء كالعين والبئر، فيقول: «فدلّ القرآن على أنّ ماء السماء تنبع منه الأرض، والاعتبار يدلّ على ذلك، فإذا كثر ماءُ السماء كثرتِ الينابيع، وإذا قلّ قلّت.

وماءُ السماء ينزل من السحاب، والله ينشئه مِن الهواء الذي في الجوّ وما يتصاعد من الأبخرة، وليس في القرآن أنّ جميع ما ينبع يكون مِن ماءِ السماء؛ فإنّ الماء قد ينبع مِن بطون الجبال، ويكون فيها أبخرةٌ ينبع منها الماء، والأبخرة وغيرها من الأهوية قد تستحيل كما إذا أخذنا إناءً فوضع

(١) الفتاوى، (١٦/ ٥٦٣).
(٢) السنن النفسية لتطور الأمم، غوستاف لوبون، ص(٢٤).

فيه ثلجٌ فإنه يبقى ما أحاط به ماء، وهو هواء استحال ماء، وليس ذلك مِن ماء السماء، فعلم أنه مُمكن أن يكون في الأرض ماء ليس من السماء، فلا يجزم بأنّ جميع المياه من ماء السماء، وإن كان غالبها من ماء السماء، والله أعلم»[١].

علم الشيخُ بطبيعة الأشياء يظهر- أيضًا- من خلال كلامه الذي تحدّث فيه عن الحركات صفتها وطبيعتها وأنواعها، وكيف أنّها قد تكون قسرية أو إرادية أو طبيعية، وصنف كلّ نوع، وعرّفه تعريفًا جيدًا، وبيّن كيف يكون منشؤه[٢].

٨- معرفتُه بأحوال النفوس:

لقد كان لشيخ الإسلام- رحمه الله- معرفةٌ جيدة بأحوال النفوس وطبيعتها، وكيفية التعامل معها، وخصائصها الربّانية التي منحها الله إيّاها، وخصائصها المكتسبَة من البيئات المختلفة والعادات والتقاليد الموروثة، فنجده يوضّح سببَ امتناع الناس عن الاستماعِ إلى الحقّ في ضوء قوله تعالى: ﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ [هود: ٢٠]، فيقول: «وسببُ عدم النظر والاستماع: إمّا عدم المقتضى فيكون عدمًا محْضًا، وإمّا وجودُ مانع من الكِبر أو الحسد في النفس ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾﴾ [لقمان: ١٨]، وهو تصوّر باطل، وسببُه عدم غنى النفس بالحقّ؛ فتعتاض عنه بالخيال الباطل»[٣].

وتظهر معرفتُه بأحوال النفوس من خلال رسمِه الطريقةَ المثلى لإصلاح النفوس حيث بيّن أنّ مِن الناس مَن إذا نصحته بأنْ يترك ما لديه من الفضل إلى ما هو أفضل منه فلا يستطيع أن يفعل الأفضل، ولا ما هو أفضل منه، فيجب علينا مراعاة النّاس في ذلك.

ويرى- أيضًا- أنّ مِن الناس ما يضرّه إذا سلك سبيلًا مِن سبل السلام الإسلامية أنْ يرى غيرَه أفضل منها؛ لأنّه يتشوّق إلى الأفضل فلا يقدر عليه، والمفضول يعرض عنه، لذلك فإنّه

---

(١) الفتاوى، (١٦/ ١٦) بتصرف يسير.
(٢) انظر: الفتاوى، (١٦/ ١٣١).
(٣) الفتاوى، (١٣/ ٢٣).

ليس من مصلحته أن يعرف أفضل مِن طريقته إذا كان يترك طريقته ولا يسلك تلك، فليس- أيضًا- مِن الحقّ أنْ يعتقد أنّ طريقته أفضل من غيرها، بل مصلحته أنْ يسلك تلك الطريقة المُفضية به إلى رحمة الله تعالى.

ويبيّن في ذلك أنّ النصيحة أو هذا العمل الدعوي مبنيّ على أربعة أصول في معالجة النفس:

أحدهما: معرفة مراتب الحقّ والباطل والحسنات والسيئات، والخير والشرّ، فيعرف خير الخيرين وشرّ الشرّين.

والثاني: معرفة ما يجب من ذلك وما لا يجب، وما يستحبّ من ذلك وما لا يستحب.

والثالث: معرفة شروط الوجوب والاستحباب مِن الإمكان والعجز، وأنّ الوجوب والاستحباب قد يكون مشروطًا بإمكان العلم والقدرة.

الرابع: معرفة أصناف المخاطبين وأعيانهم، ليأمرَ كلّ شخص بما يصلحه، أو بما هو الأصلح له مِن طاعة الله ورسوله، وينهى بما ينفع نهيُه عنه، ولا يأمر بخير يوقعه فيما هو شرّ مِن المنهي عنه مع الاستغناء عنه(١).

٩- علمُه بأهل البدع والمذاهب المنحرفة عن الشرع:

لا يخفى على أحدٍ عرفَ سيرةَ شيخ الإسلام- رحمه الله- مدى ما لاقاه في محاربة البدعة والمذاهب المُنحرفة عن الدين، ولم يكن ذلك إلّا عن معرفةٍ جيدة بما تحتويه هذه المذاهب المُنحرفة من فساد. ومِن أجل ذلك كتب الكتبَ التي توضّح هذه المفاسد، وردّ عليها، وبيّن خطرها على العقيدة الإسلامية والأمة الإسلامية.

ومِن كلامه الذي ذكره في كتاب الفتاوى ما يوضّح- أيضًا- تلك الخبرة؛ حيث يقول: «وكذلك أهلُ الفجور المُترفين قد يظنّ أحدهم أنّه لا يمكنه فعل الواجبات إلّا بما يفعله من

(١) الفتاوى، (١٤/ ٤٣٣).

الذنوب، ولا يمكنه ترك المحرمات إلّا بذلك، وهذا يقع لبشرٍ كثير من الناس، منهم مَن يقول: إنه لا يمكنه أداء الصلوات واجتناب الكلام المحرّم من الغيبة وغيرها إلّا بأكل الحشيشة.

ويقول الآخر: إنّ أكلها يُعين على استنباط العلوم وتصفية الذّهن، حتى يسمّيها بعضهم: معدن الفكر والذكر ومُحرّكة العزم الساكن، وكلّ هذا مِن خدع النفس ومكر الشيطان بهؤلاء وغيرهم، وإنّها لعمًى للذّهن، ويصير آكلها أبكمَ مجنونًا لا يعي ما يقول.

وكذلك مِن هؤلاء مَن يقول: إنّ محبته لله وحركته ورغبتَه في العبادة ووجْدَه وشوقَه وغير ذلك لا يتمّ إلّا بسماع القصائد، ومعاشرة الشاهد من الصبيان وغيرهم، وسماع الأصوات والنغمات، ويزعمون أنّ لسماع هذه الأصوات ورؤية الصور المحركات تتحرّك عندهم مِن دواعي الزهد والعبادة ما لا تتحرّك بدون ذلك، وأنهم بدون ذلك قد يتركون الصلوات ويفعلون له المحرمات الكبار، كـ: قطع الطريق وقتل النفوس، ويظنّون أنهم بهذا ترتاضُ نفوسهم وتلتذّ بذلك لذّة تصدّها عن ارتكاب المحارم والكبائر، وتحملها على الصلاة والصوم والحج»[١].

ومِن خلال كلامه السابق يتّضح لنا مدى معرفته بتلك المذاهب وطرقها، مثل: الصوفية الفلسفية، والمعتزلة، والجهمية، والخوارج، وما تنطوي عليه تلك الطرقُ من أفكار ومعتقدات فاسدة.

أمّا معرفته بالمواد الشرعيّة باعتبارها رافدًا من روافد السّنن من: الفقه والتفسير وعلوم القرآن؛ فلا يخفى على أحدٍ ما كتبه هذا الإمام خاصّة، وما أشاد به أصحابُه وأقرانه من تفوّقه في هذه العلوم، ولعلّ خيرَ شاهدٍ على ذلك كتب الفتاوى حيث نجدُها محتوية على: الفقه، والتفسير، والتصوف، والعقيدة، وأصول الفقه، وهذا واضح جدًّا في تراثه كلّه.

١٠- معرفتُه بالقصص القرآني:

ولا يخفى أنّ القصص القرآني من أهمّ مواطن ومَظانّ وجود السنن الربانيّة، حتى لا تكاد تجدُ قصةً من القصص القرآني إلّا وفيها سنة، أو عدد من سنن الله تعالى.

---

(١) الفتاوى، (١٤/ ٤٦٨، ٤٦٩).

رابعًا: التجاوبُ بين ابن تيمية وعصره:

ممّا لا شكّ فيه مدى تأثير البيئة على الإنسان في تشكيل مواهبه المختلفة، فإذا تهيّأت الظروف الصّالحة للإنسان استثمر تلك المواهب وظهرت نتائجها جليّة ظاهرة، وإن لم تجدِ الشخصية الراشدة الموهوبة هذا الاهتمامَ فقد تتأخّر في ظهور مواهبها، أو توجيه هذه المواهب إلى الشرّ، أو تتعثّر في إظهار ثمارها على النّحو الجيد المنتظر مِن هذه الموهبة، وخيرُ دليل على ذلك شخصية شيخ الإسلام- رحمه الله؛ فقد كان لعصره تأثيرٌ واضحٌ على اتجاهاته وأفكاره؛ حيث إنه- كما سبق- نشأ في ظلّ ظهور التتار وهجمتهم على الإسلام والمسلمين، وقد عاصر التهجيرَ لأهله حاملين كتبهم معهم، ومدى معاناتهم في ذلك، فنشأ على كراهية الحروب، وكراهية الأعداء، ومعرفة معادن الناس من خلال مواقفهم المختلفة في التعامل مع هذه المحنة.

ولا شكّ أنّ لهذا أهميةً كبيرة في فهْم الحياة، وكيفية التعامل مع هذه المِحْنة إذا ما تكرّرت مرّة أخرى، وفهم أسباب النصر وأسباب الهزيمة، وإحاطته بتلك السنن الإلهية.

فقد كان تأثيرُ البيئة (العلمية والسياسية) واضحًا في حياة ابن تيمية وما لها من تأثير على فكْره كلّه.

يقول في ذلك الشيخ محمد أبو زهرة واصفًا بيئةَ هذا الإمام الربّاني شيخ الإسلام- رحمه الله: «إنّ البذرة الصالحة لا تنمو إلّا بسقي ورعي وجوٍّ تتغذّى منه وتعيش فيه، فكلّ حي في الوجود يتأثر بالجوّ الذي يستنشق منه، والبيئة التي تظلّه، فإنّ البيئات تفعل في نفس الإنسان ما لا يفعله المربّون، ولذلك كان للعصر الذي يعيش فيه العالم الأثر الذي يوجّهه، وقد يكون الأثرُ من جنس حال العصر، فإن كان العصر فاسدًا فسدَ الرجل، وإن كان العصر صالحًا صَلح، وقد يكون التأثير عكسيًّا، فكثرة الفساد تحمل على التفكير الجدي في الإصلاح، وكثرة الشرّ تحمل على استحضار العزائم للخير، وقد تكون دافعةً للمُصلح لأن يفكّر في أسباب الشرّ فيقتلعها، وفي نواة الخير الكامنة فيغذّيها، وكذلك كانت المجاوبة بين ابن تيمية وعصره، تغذّت روحُه غذاءً صالحًا ممّا درس في صدر حياته، وما عكف عليه في كهولته وشيخوخته من رجوع إلى

ينابيع الشرع الأولى، والكنز المختفي من الهدي النبوي، وما كان عليه سلف المؤمنين، فكانت المعركة الشديدة تعتلج في نفس هذا الرجل العظيم، يرى فيما درس من الإسلام نورًا ساطعًا لامعًا، ويرى في عصره ظلمة شديدة وفسادًا في كلّ نواحيه، يرى في ماضي الإسلام عزًّا واتحادًا ووئامًا، ويرى في عصره ذلًّا وانقسامًا، يرى في ماضيه حكمًا صالحًا وأمرَ المسلمين شورى بينهم، ويرى في حاضره استبدادًا وطغيانًا، وقد أكل القوي الضعيف، واستمرأ الحاكم لحمَ المحكوم وماله، فتقدّم الرجل ليصلح وليداوي، وقد وجد الدواء بأيسر كُلفة، ومِن أسهل طريق، وجده في كتاب الله وسنة رسوله وأعمال الصحابة وكبار التابعين، فتقدّم بالدواء ونادى به، وما كانت آراؤه العلمية كلها إلّا دواء عصره، ولو فتشت عن البواعث التي بعثته للمجاهرة بكلّ ما رأى لوجدت أنّ الذي بعث على المجاهرة عيبٌ في الزمان، وفساد عند أهل العصر في العمل، أو في الفكر، أو فيهما معًا»[1].

***

(١) ابن تيمية حياته وعصره، الشيخ محمد أبو زهرة، ص(١٠٥).

المبحثُ الثّاني

التدبّرُ السّنني لدى شيخ الإسلام ابن تيمية

تعدّدت مشاركات شيخ الإسلام- رحمه الله- في مجال التفسير الموضوعي، وتحدّثنا عن ذلك سابقًا في البابِ الثاني من جهوده في التفسير وعلوم القرآن، وأشرْنا إلى أنّ موضوع السّنن الإلهية كان مِن الموضوعات التي دخلت تحتَ نظام التفسير الموضوعي، وكان لشيخ الإسلام جهدٌ رائع في هذا المجال سيتّضح لنا في هذا الباب- إنْ شاء الله تعالى.

إنّ موضوع السنن الإلهية موضوعٌ ارتبط بكتاب الله – عز وجل –، فهو يدور مع الآيات القرآنية فهمًا واستنباطًا إذا تدبّرنا كتاب الله – عز وجل – كما يليق، وعلى الوجه الصائب، وحتمًا سيثمر ذلك في معرفة تلك السنن، خاصّة إذا توافرت لدى الباحث روافد السنن التي تتيح له استنباطها ومعرفتها وتطبيقها على الحياة والأحياء، حيث إنها تربط بين آيات الله- تعالى- التي نتلوها وآيات الله التي نشاهدها بعين أنفسنا في الكون والأنفس والأحياء والحياة، فهي تنظّم العلاقة القائمة بين الكون والإنسان، وكيف أنه لو استقام للإنسان ذلك لحقّق الرسالة التي خُلق مِن أجلها، وهي العبودية لله – عز وجل –، والقيام بحقّ الخلافة في هذا الكون وتعْميره، وكان خير شاهد على جميع الكائنات يوم القيامة، ولقد جاء الأنبياء جميعهم ليعلمونا هديه – سبحانه وتعالى –، ويربطوننا بهذه السنن الإلهية.

ولقد فهِمَ الصحابة – رضي الله عنهم – هذه السننَ وطبقوها في حياتهم ووظفوها، وكانوا من السابقين، وعلى قدر هذا الفهم للسنن وعلى قدر الاجتهاد في تطبيق ذلك تتحقّق السعادة في الدنيا والآخرة.

وهذا- أيضًا- ما دعا إليه شيخ الإسلام- رحمه الله- وبيّنه في معظم كتاباته، ووضّح لنا أنّ السعادة والشقاء مرتبطان ارتباطًا كليًّا بمدى هذا الفهم لكتاب الله – عز وجل –، وتطبيق سننه- سبحانه- في هذا الكون.

معنى التدبّر السّنني في القرآن الكريم:

أقصدُ بتدبّر السنن الإلهية: الوقوف عند القرآن والتفكر فيه لاستنباط ما فيه مِن سنن الله- تعالى- المطّردة لتسخيرها والانتفاع بها، والسير على منهاجها، وعدم تنكّبها.

يقول الرسول ﷺ: «**يخرج في آخر الزمان قومٌ أحداث الأسنان سُفهاء الأحلام يقرءون القرآن لا يجاوزُ تراقيهم، يقولون مِن قول خير البرية، يمرقون مِن الدّين كما يمرق السّهم من الرميّة**»[(١)].

والاكتفاء بالتلاوة والحفظ دون التدبّر مخالفٌ لمنهاج السلف الصالح في التعامل مع القرآن الكريم، عن ابن عمر- رضي الله عنهما- قال: «كان الفاضلُ مِن أصحاب رسول الله ﷺ في صدْر هذه الأمّة لا يحفظ من القرآن إلّا السورة ونحْوها، ورزقوا العمل بالقرآن، وإنّ آخرَ هذه الأمّة يرزقون حفظ القرآن ولا يرزقون العمل به».

وفي هذا المعنى قال ابن مسعود: إنا صعُبَ علينا حفظ ألفاظ القرآن، وسهُلَ علينا العملُ به، وإنّ مَن بعدنا يسهُلُ عليهم حفظ القرآن، ويصعُبُ عليهم العمل به.

فتدبّر القرآن وقراءته قراءةً تدبّرية هي القراءة المُنتجة للفهم والاعتبار والعمل، وهي المِنهاج الذي سار عليه رسول الله ﷺ في تعليمه القرآن للصحابة - رضي الله عنهم -.

ذكر أبو عمرو الداني بإسناده عن عثمان بن مسعود وأبي y أنّ رسول الله ﷺ كان يقرئهم العشرَ فلا يجاوزونها إلى عشرٍ أخرى حتى يتعلّموا ما فيها من العمل، فيعلمنا القرآن والعمل جميعًا.

وقال محمد بن كعب القرظي: لأنْ أقرأ: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ و﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾ ليلة أردّدهما وأتفكّر فيهما أحبّ إليّ مِن أن أبيت أهذّ[(٢)] القرآن[(٣)].

(١) صحيح البخاري، (٣/ ١٣٢١)، باب: «علامات النبوة في الإسلام»، ومسلم، باب: «ذكر الخوارج وصفاتهم»، (٣/ ١٠١)، وسنن الترمذي، كتاب الفتن، باب: «في صفة المارقة»، ح(٢١٨٨)، والنسائي، (٢/ ٤٦).

(٢) الهذّ: سرعة القطع والقراءة.

(٣) مصنّف ابن أبي شيبة، باب: قراءة القرآن، ح(٨٨٢٤).

ولهذا حضّ سلفنا الصالح على تدبّر القرآن الكريم، والوقوف عند آياته للانتفاع بها، والامتثال لها بما يعود على المرْء بالخير والصلاح في الدّنيا، والفوز والنجاة في الآخرة[1]، واقتداءً بما جاء عن النبي ﷺ وأصحابه الكرام وسلف الأمّة الصالحين- رضوان الله عليهم.

جاء شيخُ الإسلام ابن تيمية سنة (٦٦١هـ - ٧٢٨هـ) ليحيي هذه السنة المباركة، ويؤكّد عليها وعلى التزامها، فيقول- رحمه الله: «فأمرنا أنْ نعتبر بأحوال المتقدّمين علينا مِن هذه الأمَّة، وممّن قبلها مِن الأمم، وذكر في غير موضع أنَّ سنَّته في ذلك مطَّردة وعادته مستمرّة، فينبغي للعقلاء أنْ يعتبروا بسنَّة الله وأيَّامه في عباده، ودأب الأمَم وعاداتهم».

ومَن يتصفّح كتب ابن تيمية يجد أثرَ التدبّر السنني في صفحاتها واضحة.

ويقول: «ذلك أنّ الله- تعالى- قال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص: ٢٩]، وقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ [النساء: ٨٢]، وقال: ﴿أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، وتدبّر الكلام دونَ فهْم معانيه لا يمكن، وكذلك قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢]، وعقل الكلام متضمّن لفهمه.

ومِن المعلوم أنّ كلّ كلام فالمقصود منه فهْمُ معانيه دونَ مجرّد ألفاظه، فالقرآن أولى بذلك.

وأيضًا، فالعادةُ تمنعُ أنْ يقرأ قومٌ كتابًا في فنٍّ مِن العلم كـ: الطبّ والحساب ولا يستشرحوه، فكيف بكلام الله الذي هو عصمتُهم، وبه نجاتهم وسعادتهم، وقيام دينهم ودنياهم؟!

ولهذا كان النزاعُ بين الصحابة في تفسير القرآن قليلًا جدًّا، وهو وإنْ كان في التابعين أكثرَ منه في الصحابة، فهو قليلٌ بالنسبة إلى مَن بعدهم، وكلّما كان العصر أشرفَ كان الاجتماع والائتلاف والعلم والبيان فيه أكثر».

وقال أيضًا: «القرآن مَن تدبّره تدبرًا تامًّا تبيّن له اشتمالُه على بيان الأحكام، وأنّ فيه مِن العلم ما لا يدركه أكثرُ الناس، وأنه يبيّن المشكلات، ويفصل النزاع بكامل دلالاته وبيانه إذا أعطي حقّه ولم تحرّف كلمة عن موضعها»[2].

(١) انظر: تدبر السنن الإلهية عند السلف الصالح، ص(١٣، ١٤)، د/ رشيد كهوس، ط أولى، المنصورة، دار الكلمة، ٢٠١٥م.
(٢) مجموع الفتاوى، (٢٠/ ٨٢٥).

وما يؤكّد ذلك- أي: تدبّر السنن وأهميتها عند شيخ الإسلام- أنّ هذا الأمر ورثه تلاميذُه عنه، فتجد أنّ تلميذه الإمام ابن قيم الجوزية- رحمه الله- يقول: «ليس شيء أنفعُ للعبد في معاشه ومعاده وأقرب إلى نجاته مِن تدبّر القرآن وإطالة التأمّل فيه، وجمع الفكر على معاني آياته؛ فإنها تطلع العبدَ على معالم الخير والشرّ بحذافيرهما، وعلى طرقاتهما وأسبابهما وغاياتهما وثمراتهما ومآل أهلهما، وتضع في يدِه مفاتيح كنوز السعادة والعلوم النافعة، وتثبتُ قواعد الإيمان في قلبه، وتشيّد بنيانه، وتوطّد أركانه، وتريَه صورةَ الدنيا والآخرة والجنة والنار في قلبه، وتحضره بين الأمم، وتريه أيامَ الله فيهم، وتبصّره مواقع العِبَر، وتشهده عدلَ الله وفضله، وتعرّفه ذاته وأسماءه وصفاته وأفعاله، وما يحبّه وما يبغضه، وصراطه الموصل إليه، وما لسالكيه بعد الوصول والقدوم عليه، وقواطع الطريق وآفاتها، وتعرّفه النفس وصفاتها، ومفسدات الأعمال ومُصحّحاتها، وتعرّفه طريق أهل الجنة وأهل النار وأعمالهم وأحوالهم وسيماهم، ومراتب أهل السعادة وأهل الشقاوة، وأقسام الخلق واجتماعهم فيما يجتمعون فيه، وافتراقهم فيما يفترقون فيه، وبالجملة تعرّفه الربّ المدعوّ إليه، وطريق الوصول إليه، وما له من الكرامة إذا قدم عليه».

وتعرّفه- في مقابل ذلك- ثلاثة أخرى: ما يدعو إليه الشيطان، والطريق الموصل إليه، وما للمستجيب لدعوته من الإهانة والعذاب بعد الوصول إليه.

فهذه الفقرة تعبّر عن التدبّر السنني عند الإمام ابن القيم، حيث يعتبر تدبّر سنن القرآن يعودُ على العبد بالمنافع الآجلة والعاجلة، ويضمنُ له صلاح دينه ودنياه، والنجاة في آخرته.

ثمّ تحدّث عن فوائد التدبّر السّنني التي ينبني عليها مجموعةٌ من سنن الله في الخير والشرّ، والدنيا والآخرة، والسعادة والإيمان، وسنن قيام الأمم وانهيارها، وسنن النفس وما يجولُ في خلجاتها، ثمّ السّنن الموصّلة إلى الله تعالى، فالسنن التي تصدّ عن سبيله، ثمّ مقاصد أفعال الله- جلّ وعلا[1].

فهرس بأهمّ السنن الإلهية التي تناولها الشيخ تناولًا موضوعيًّا من خلال آي القرآن الكريم:

---

(١) راجع: تدبر السنن عند السلف، ص(٤١).

١- سنّة الله في أهل الإيمان والجهاد.

٢- سنّة الله في المتوكلين.

٣- سنّة الله في أنّ الرفعة لأهل العلم.

٤- سنّة الله في تضييق الرزق على أهل الذنوب.

٥- سنّة الله في الابتلاء بالحسنات والسيئات.

٦- سنّة الله في أهل الفواحش.

٧- سنّة الله في نصر الأمم.

٨- سنّة الله في هزيمة الأمم.

٩- سنّة الله في هلاك الأمم.

١٠- سنّة الله في التّمكين.

١١- سنّة الله في التّسخير.

١٢- سنّة الله في التّوازن.

١٣- سنّة الله في هداية الناس بعد خلقهم.

١٤ـ سنّة الله في سَلْب النّعم.

١٥ـ سنّة الله في الجمع بين المتشابهين والتفرقة بين المختلفين.

١٦ـ سنّة الله في الظالمين.

١٧ـ سنّة الله في الاختلاف.

١٨ـ سنّة الله في الخير والشّر.

١٩ـ سنّة الله في الأنفس.

٢٠- سنّة الله في فقر المخلوقات إلّا إليه.

٢١- سنّة الله في المحبة والكراهية.

٢٢- سنّة الله في الفرقان.

٢٣- سنّة الله في السعادة والشقاء.

٢٤- سنّة الله في المخلصين مِن عباده.

٢٥- سنّة الله في الثواب والعقاب.

٢٦- سنّة الله في مَن يعتقد الحقّ الثابت.

٢٧- سنّة الله في بقاء الأمم.

٢٨- سنّة الله في أهل المنكر.

٢٩- سنّة الله في الصّالحين.

٣٠- سنّة الله في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٣١- سنّة الله في الأسباب والمسبّبات.

***

المبحثُ الثّالث

تعريفُه لعلم السنن الربانيّة ومعرفتُه بها

تظهر معرفةُ الشيخ بعلم السنن قويّة ظاهرة في معظم كتاباته، ولقد جعلها مقياسًا يقيس عليه العلماء، يقول عن بعض علماء المعتزلة: «وأبو الحسين هو إمامُ المتأخّرين من المعتزلة، وله مِن العقل والفضل ما ليس لأكثر نظائره، لكنه قليلُ المعرفة بالسنن ومعاني القرآن وطريقة السلف»(١).

وقد تأتي هذه المعرفة للسّنن بصريح الكلام مثل سنّته- سبحانه- في نصْرِ الأمم وهلاكها، وقد يأتي فهمُها ضمنيًّا من خلال كلامه وشروحه مثل سنة الله - عز وجل - في الأنفس وما جُبلت عليه.

تعريفُ السّنة لدى شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله:

يرى شيخُ الإسلام- رحمه الله- أنّ السنة: هي العادة التي تتضمّن أن يفعل في الثاني مثلَ ما فعل بالأوّل، ولهذا أمر الله- تعالى- بالاعتبار(٢).

فيقول: «وهو I كما يفرق بين الأمور المختلفة فإنه يجمع ويسوّي بين الأمور المتماثلة، فيحكم في الشيء خلقًا وأمرًا بحكم مثله، لا يفرق بين متماثلين ولا يسوي بين شيئين غير متماثلين، بل إنْ كانا مختلفين مُتضادين لم يسوّ بينهما»(٣).

وقد ذكر شيخُ الإسلام تعريفَ المِثل: بأنه النّظير الذي يقاس عليه ويُعتبَر به، ويراد به مجموع القياس(٤).

---

(١) الفتاوى، (١١/ ٢٣٦).

(٢) الفتاوى، (٣/ ٢٠).

(٣) الفتاوى، (١٣/ ١٩).

(٤) الفتاوى، (١٣/ ١٦، ١٧).

ولفظُ المِثل في القرآن الكريم وجهٌ مِن أوْجه السنّة الإلهية التي يُعرف بها.

ويتكلّم شيخُ الإسلام- رحمه الله- في موضعٍ آخر عنْ هذا المفهوم للسنّة الإلهية، فيذكر أنّ: «طرق العلم: الحسّ، والخبر، والنظر، وكلّ إنسان يستدلّ مِن هذه الثلاثة في بعض الأمور، لكنْ يكون بعض الأنواع أغلب على بعض الناس في الدّين وغير الدين كالطبّ؛ فإنه تجربات وقياسات، وأهلُه منهم مَن تغلبُ عليه التّجربة، ومنهم مَن يغلب عليه القياس، والقياس أصلُه التجربة، والتجربة لا بدّ فيها من قياس، لكن مثل قياس العاديات لا تعرف فيه العلّة والمناسبة، وصاحب القياس مَن يستخرج العلّة المناسبة، ويعلّق الحكم بها والعقل خاصّة القياس والاعتبار والقضايا الكلية، فلا بدّ له من الحسّيات التي هي الأصل ليعتبر بها، والحسّ إن لم يكنْ مع صاحبه عقل وإلّا فقد يغلط»(١).

لذلك يتّضح لنا أنّ للسنّة مرادفات عند ابن تيمية، وهي المثل والاعتبار والقياس، ولذلك قام بشرح ذلك؛ فقال: «والاعتبار أنْ يقرن الشيء بمثله، فيعلم أنّ حكمه مثل حكمه، كما قال ابن عباس: هلّا اعتبرتم الأصابع بالأسنان؟ فإذا قال: ﴿فَٱعْتَبِرُواْ يَـٰٓأُوْلِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾ [الحشر: ٢]، وقال: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [يوسف: ١١١] أفاد أنّ مَن عمل مثل أعمالهم جُوزي مثلَ جزائهم؛ ليحذر أنْ يعمل مثل أعمال الكفّار، وليرغب في أن يعمل مثل أعمال المؤمنين أتباع الأنبياء، قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ [آل عمران: ١٣٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَـٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٦، ٧٧]، وقال تعالى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الأحزاب: ٦٠-٦٢].

---

(١) الفتاوى، (١٣/ ٧٦).

وقد تأتي السّنن الإلهية- أيضًا- عند شيخ الإسلام بمعنى: كلمات الله- تعالى- التي يأمرُ بها هذا الكون، فسبحانه: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٨٢﴾ [يس: ٨٢]، وهي نوعان: كلمات كونيّة وكلمات دينيّة، والكون كلّه داخل هذه الكلمات[(١)].

وتأتي السّنن الإلهية- أيضًا- عنده بمعنى: الحقيقة الكونيّة حيث يقول: «وكثير ممّن يتكلّم في هذه الحقيقة ويشهدها يشهدُ هذه الحقيقة، وهي الحقيقة الكونية التي يشترك في شهودها ومعرفتها المؤمن والكافر والبرّ والفاجر، وإبليس معترفٌ بهذه الحقيقة وأهل النار، قال إبليس: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ٣٦﴾ [الحجر: ٣٦]، وقال: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٣٩﴾ [الحجر: ٣٩]، وقال: ﴿أَرَءَيۡتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمۡتَ عَلَيَّ﴾ [الإسراء: ٦٢]، وأمثال هذا الخطاب الذي يقرّ فيه بأنّ الله ربّه وخالقه وخالقُ غيره، وكذلك أهل النار و﴿قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا وَكُنَّا قَوۡمٗا ضَآلِّينَ ١٠٦﴾ [المؤمنون: ١٠٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ قَالَ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ [الأنعام: ٣٠]»[(٢)].

***

(١) انظر: الفتاوى، (١١/ ٣٢٢).

(٢) انظر: الفتاوى، (١٠/ ١٥٦، ١٥٧).

المبحثُ الرّابع

خصائصُ السّنن الإلهية عند شيخ الإسلام

للسننِ خصائصُ لا بدّ لنا من معرفتها حتى نستطيع أنْ نوظّفها، ونَفيد منها في واقعنا وحياتنا، ولقد حرص الكثيرُ من العلماء على توضيح تلك الخصائص؛ فهي حاكمةٌ على جميع الأفراد كما في السّنن الكونيّة تمامًا حيث يقول - تعالى- : ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، وهي منضبطة وذات نظام ثابت حيث نجد ذلك في قوله تعالى: ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠)﴾ [يس: ٣٨-٤٠].

فكما أنّ السنن الكونية أو الظواهر الكونية حاكمةٌ على الجميع، فتغلي المياه عند درجة مائة، وتتجمّد عند درجة الصفر، وتعطي هذه النتيجة لكلّ مَن يتعامل معها بغضّ النظر عن دينه ومذهبه، فكذلك السّنن الإلهية في الأفراد والأمم والمجتمعات.

فإذا وقفنا عند قانونٍ من قوانين الله- تعالى- كقانون النّصر نعلم أنّ له ضوابط ومعالم تنسحب على الجميع دونَ مجاملة ولا مُحاباة، فهي لا تفرق بين مجتمع ومجتمع، ولا تفرّق بين ديانة وديانة، ولا تفرّق بين جيل وجيل؛ لذا دعا القرآن الكريم إلى التفكّر في آثار السابقين، فالذي يفهم السّنن الإلهية وعمومها يملكُ القدرة على التّعامل مع هذه السّنن، ويحسن الاستعداد لنتائجها، وقد قال قومٌ جهلوا ذلك ندمًا في الآخرة: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (١٠)﴾ [الملك: ١٠].

كما أنّ هذه السنن الإلهية تتّسم بالاطّراد، فهي لا تتبدّل ولا تتخلّف.

ونستطيع أن نقول: إنّ صفات هذه السّنن هي أنها:

١- ثابتة لا تتغيّر ولا تتبدل.

٢- حاكمة لا تحابي ولا تجامل.

٣- مطّردة لا تتوقّف ولا تتأجّل.

٤- عامّة لا تنتقي ولا تنتخب[١].

وبيّن شيخُ الإسلام ذلك في أثناء حديثه عن أنّ الله - تعالى - كما يفرّق بين الأمور المختلفة فإنه يجمع ويسوّي بين الأمور المُتماثلة، ثمّ بعد توضيحه لذلك المعنى يعقب على هذا الكلام بقوله: «وقد بيّن - سبحانه وتعالى - أنّ السنة لا تتبدّل ولا تتحوّل في غيْر موضع»[٢].

ثمّ يقوم بتوضيح ذلك بأنّ المقصود أنّ الله أخبر أنّ سنته لن تتبدّل ولنْ تتحوّل، وسنته عادتُه التي يسوّي فيها بين الشيء ونظيره الماضي، وهذا يقتضي أنه- سبحانه- يحكمُ في الأمور المُتماثلة بأحكام مُتماثلة، ولهذا قال: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ﴾ [القمر: ٤٣]، أي: أشباههم ونظائرهم، وقال: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧﴾ [التكوير: ٧] قرن النظيرَ بنظيره، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم﴾ [البقرة: ٢١٤]، وقال: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا﴾ [الممتحنة: ٤]، وقال: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، فجعل التابعين لهم بإحسان مُشاركين لهم فيما ذكر من الرّضوان والجنة، وقد قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ﴾ [الأنفال: ٧٥]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٠﴾ [الحشر: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣﴾ [الجمعة: ٣] فمَن اتّبع السابقين الأوّلين كان منهم وهُم خيرُ الناس بعد الأنبياء، فإنّ أمّة محمد خيرُ أمّة أخرجت للناس، وأولئك خيرُ أمّة محمد كما ثبت

---

(١) انظر: مفهوم السنن الربانية من الفهم إلى التسخير دراسة في ضوء القرآن الكريم، د/ رمضان خميس الغريب، ص(٤٧) وما بعدها بتصرف كبير.

(٢) الفتاوى، (١٣/ ١٩، ٢٠).

في الصحاح مِن غير وجْه أنّ النبي ﷺ قال: «**خير القرون القرن الذي بعثت فيهم، ثمّ الذين يلونهم، ثمّ الذين يلونهم**»(١).

ونستنتج ممّا سبق فهمَ شيخ الإسلام لخصائص السّنن، وأنها عامّة تطبق على كلّ الأفراد، ويشملهم نفسُ حكم الأوّلين ما داموا يفعلون فعلهم، سواء كان ذلك في الخير أو في الشرّ، وأنّ هذه السنن نافذةٌ حاكمة لا يستطيع أحدٌ ردّها أو أن يتجاوزها؛ فهي لا تُحابي.

ونجدُ في كلامه- أيضًا- ما نفهمُ منه هذا المعنى حيث يقول: «كلمات الله- تعالى- نوعان: كلمات كونيّة وكلمات دينية، فكلماته الكونية هي التي استعاذ بها النبي ﷺ في قوله: «**أعوذ بكلمات الله التّامات التي لا يجاوزهن برّ ولا فاجر**»، وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٨٢﴾، وقال تعالى: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗا﴾ [الأنعام: ١١٥]، والكون كلّه داخل تحت هذه الكلمات، وسائر الخوارق الكشفية التأثيرية»(٢).

أي أنّ هذه الكلمات التي هي السّنن الإلهية قوانين حاكمة على كلّ شيء حتى الخوارق والمعجزات، فهي- أيضًا- واقعةٌ تحت سيطرتها فهي عامّة شاملة، ويقول في ذلك: «إنّ الأولى قدريّة كونيّة، والثانية شرعيّة دينية، وكشف الأولى العلم بالحوادث الكونية، وكشف الثانية العلم بالمأمورات الشرعية»(٣).

ويحمدُ الله- عزّ وجلّ- في مقدّمة كتاب الألوهية: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ١﴾ [الأنعام: ١] العالم بما كان وما هو كائن وسيكون، الذي ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ١١٧﴾ [البقرة: ١١٧] الذي ﴿يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٦٨﴾ [القصص: ٦٨]، ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ

(١) الفتاوى، (١٣/ ٢٣، ٢٤)، والحديث في شرح مشكل الآثار، (٦/ ٢٦٠)، والمعجم الكبير للطبراني، (١٨/ ٢١٢).
(٢) الفتاوى، (١١/ ٣٢٢).
(٣) الفتاوى، (١١/ ٣٢٢).

﴿٧٠﴾ [القصص: ٧٠] الذي دلّ على وحدانيته في إلهيّته أجناس الآيات، وأبَان علمه لخليقته ما فيها مِن إحكام المخلوقات، وأظهر قدرته على بريّته ما أبدعه مِن أصناف المحدثات، وأرشد إلى فعله بسنته تنوّع الأحوال المختلفات...

عند تأمّل هذا الدّعاء نعلم كيف كان وعيُ الإمام- رحمه الله- بالسنّة الإلهية وخصائصها الحاكمة الشاملة لكلّ الأفراد والكائنات.

***

المبحثُ الخامس

حجيّةُ السّنن الربانيّة عند شيخ الإسلام ابن تيمية

إنّ السّنن الربانيّة قطعيّةُ الثبوت؛ لأنها جزءٌ من آيات القرآن الكريم الذي ثبت كلّه ثبوتًا قطعيًّا، وهي- أيضًا- قطعيّة الدّلالة؛ وذلك لكثرة تكرارها والتأكيد عليها وعلى مدلولاتها، والأمر في خواتيمها بالاعتبار والاتّعاظ سواء كان ذلك في الآيات التي ورد فيها لفظُ السّنة كـ: التداول الحضاري، والأجل، والتسخير، والإهلاك، وشكر النعم وكفرها، والتغيير، والترف والمترفين، إلى غير ذلك من السّنن المُثبتة في القرآن الكريم.

يقول ابن تيمية كلامًا يفهم منه حجيّة السّنن وثبوت حكمها: «وحقيقة الاستدلال بسنّته وعادته هي اعتبارُ الشيء بنظيره، وهو التسوية بين المتماثلين، والتفريق بين المختلفين، وهو الاعتبارُ المأمور به في القرآن كقوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾﴾ [آل عمران: ١٣]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾﴾ [الحشر: ٢]، وإنّما تكون العبرة به بالقياس والتمثيل كما قال ابن عباس في دية الأصابع: هنّ سواء، واعتبروها بديّة الأسنان.

فإذا عرفت قصص الأنبياء ومَن اتّبعهم ومَن كذّبهم، وأنّ متبعيهم كان لهم النجاة والعافية والنصر والسعادة، ولمكذبيهم الهلاك والبوار؛ جعل الأمر في المستقبل مثلما كان في الماضي، فعلم أنّ مَن صدّقهم كان سعيدًا، ومَن كذّبهم كان شقيًّا، وهذه سنة الله وعادته، ولهذا يقول- سبحانه- في تحقيق عادته وسنّته، وأنّه لا ينقضها ولا يبدّلها: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾﴾ [القمر: ٤٣]، ففي الدليل العقلي والسّمعي يقول: فإذا لم يكونوا خيرًا منهم فكيف ينجون من العذاب مع مماثلتهم لهم»[(١)]،[(٢)].

---

(١) النبوات، (١/ ١٦٥)، ط١، الطبعة السلفية.

(٢) انظر: مفهوم السنن الربانية من الفهم إلى التسخير، د/ رمضان خميس، ص(٥٣-٥٤) بتصرف واختصار كبيرَيْن.

المبحثُ السّادس

بينَ السّنن الإلهية الجارية والمعجزة لدى شيخ الإسلام ابن تيمية

للسّنن الإلهية خصائص ومميزات قد رأيناها سابقًا، فهي لا تحابي ولا تجامل ولا تستثني، حاكمةٌ على جميع الأفراد، مطّردة تشمل جميع الأجيال والأمم والأنفس، ثابتة لا تُنسخ ولا تتغيّر، وهذا ما ذكره شيخ الإسلام من خصائص السّنن الإلهية.

أمّا المعجزة عند شيخ الإسلام- رحمه الله- فهي، أيضًا، سنة مِن سنن الله - عز وجل - لا تأتي إلّا بحُكمه وإرادته وقدرته، قد اختصّ الله بها أنبياءه ورسله حتى يستطيعوا إثبات رسالتهم لمَن أرسلوا إليهم، فهي سنّة إلهية لتأييدهم، كما فُعل مع إبراهيم - عليه السلام - من أنّه جعل النار بردًا وسلامًا فلا تحرقه النار ولا يموت مِن دخانها، ويونس - عليه السلام - يعيش في بطْنِ الحوت، وغيرهما مِن الأنبياء، وهذه السنّة الخارقة- أي: المعجزة- لها قانونُها الثابت المَنوط بها[1].

يقول شيخُ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله: «وحقيقة الأمر أنّ ما يدلّ على النبوة هو آيةٌ على النبوة، وبرهانٌ عليها، فلا بدّ أن يكون مختصًّا بها، لا يكون مشتركًا بين الأنبياء وغيرهم، والربّ- تعالى- لا ينقض عادته التي هي سنّته في التسوية بين المُتماثلين والتفريق بين المختلفين، فهو- سبحانه- إذا ميّز بعض المخلوقات بصفات يمتاز بها عن غيره ويختصّ بها؛ قرنَ بذلك مِن الأمور ما يمتاز به عنْ غيره ويختصّ به.

ولا ريب أنّ النبوّة يمتاز بها الأنبياء ويختصّون بها، والله- تعالى- يصطفي مِن الملائكة رسلًا ومِن الناس، وهو أعلمُ حيث يجعل رسالته، فمَن خصّه بذلك كان له مِن الخصائص التي لا تكون إلّا لغيره ما يناسب ذلك، فيستدلّ بتلك الخصائص على أنه مِن أهل الاختصاص

---

(١) السابق، ص(٥٦) بتصرف.

بالنّبوة، وتلك سنّته وعادته في أمثاله يميّزهم بخصائص يمتازون بها عن غيرهم، ويعلم أنّ أصحابها من ذلك الصّنف المخصوص الذين هُم الأنبياء مثلًا.

فلم تكنْ له- سبحانه- عادة بأنْ يجعل مثلَ آيات الأنبياء لغيرهم حتى يقال: إنّه خرقَ عادتَه ونقضَها، بل سنته وعادته المطّردة أنّ تلك الآيات لا تكون إلّا مع النبوّة والإخبار بها مع التكذيب بها أو الشكّ فيها»[1].

***

(١) النبوات، (١/ ١٦٣).

المبحثُ السّابع

العلاقةُ بين المَسْطور والمَنْظور عند شيخ الإسلام

إنّ العلاقة بين المَسْطور الذي هو كتاب الله وسنّة رسوله وكلّ ما سُطّر وكُتب من علم نافع مفيد، والمَنْظور الذي هو الكون والأحياء والحياة بما فيها من سعادة وشقاء وخير وشرّ؛ علاقةٌ وثيقة غير منفصلة لا تختلف عُراها.

فهذا العلم النافع المُستمد مِن الخالق والمُنسجم مع حقائق الخلق وتكوين الإنسان الفطري والقوانين التي تنظّم الكون والحياة هو الذي تقوم عليه الحياة الراشدة الفاضلة، وهو الذي يمنحها البقاءَ والاستمرار، وبدون ذلك تضيع حياةُ الإنسان بالضلال الذي هو ضدّ العلم، والبغي الذي هو اتباع الهوى.

ومِن هنا، كان طلب العلم عبادة، ومعرفتُه خشية، والبحثُ عنه جهادًا، وتعليمه لَمن لا يعلمه صدقة، ومذاكرتُه تسبيحًا، وبه يمجّد الله ويوحّد، وبه يرفع الله أقوامًا ويجعلهم للناس قادة وللعمران أمّة.

ولهذا ما تصدّق رجل بصدقةٍ أفضل مِن موعظة يعظُ بها جماعة فيتفرّقون وقد نفعَهم الله بها، ونعمة الهداية كلمةٌ من الخير يسمعها الرجل، ثمّ يهديها إلى أخٍ له، وهذه صدقة للأنبياء وورثتِهم، ولهذا كان الله وملائكته وحيتان البحر وطيرُ الهواء يصلّون على معلّم الناس الخير، كما أنّ كاتم العلم يلعنه الله ويلعنه اللاعنون، ولهذا مَن اشتغل بطلب العلم النافع بعدَ أداء الفرائض أو جلس مجلسًا يتفقّه فيه؛ كان هذا مِن أفضل الذكر(١).

ولقد تعدّدت كثيرٌ من المقالات التي تتحدّث عن هذه العلاقة عند شيخ الإسلام ابن تيمية، وهذا الأمر واضحٌ وجليّ في مقالاته، وهي علاقة عظيمة تدعونا ألّا ننفصل عن هذا الكون

(١) انظر: الفكر التربوي عند ابن تيمية، د. ماجد عرسان الكيلاني، مكتبة دار تراث، المدينة المنورة، ص(٩١) بتصرف. وانظر: ابن تيمية كتاب الفتاوى علم السلوك، (١٠/ ٣٩، ٤٠).

الذي يحيط بنا، فسرُّ سعادتنا يكمنُ باكتشافه وتسخيره والاستفادة من بُنيانه فيما ينفع الإسلام والمسلمين، ويؤدّي إلى عمارة هذا الكون، فعمارة الكون هي الغاية التي مِن أجلها خلق اللهُ الإنسان.

وبهذا التأمّل المُتقن في الكون سنكتشف خصائصَ وصفاتٍ على الإنسان أن يتحلّى بها أثناءَ سيره لتحقيق غايته على الأرض، مثل: التوازن، والنظام، والدقة، والتحديد، والهدوء، ومراعاة المشاعر؛ لذلك كثرت اللّمحات الجميلة حول هذا الموضوع في فكر شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله، ومنها ما يقوله شيخُ الإسلام في تفسير قوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]، فهذا وصف المؤمن كان ميتًا في ظلمة الجهل فأحياه الله بروحِ الرّسالة ونور الإيمان، وجعل له نورًا يمشي به في الناس، وأمّا الكافر فميّت القلب في الظلمات.

وسمّى الله- تعالى- رسالته روحًا، والرّوح إذا عُدمت فقد فُقدت الحياة. قال الله- تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]. فذكر هنا الأصلين وهُما: الروح والنور، فالروح الحياة والنور النور.

ويعطي شيخُ الإسلام مثالًا آخر على ذلك فيقول: وكذلك يضرب اللهُ الأمثال للوحي الذي أنزله حياةً للقلوب ونورًا لها بالماء الذي ينزله من السماء حياة للأرض، وبالنار التي يحصل بها النور، وهذا كما في قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۖ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ ١٧﴾ [الرعد: ١٧]، فشبّه العلم بالماء المنزّل من السماء؛ لأنّ به حياة القلوب، كما أنّ بالماء حياة الأبدان، وشبّه القلوب بالأودية؛ لأنّها محلّ العلم كما أنّ الأودية محلّ الماء، فقلب يسعُ علمًا كثيرًا، ووادٍ يسع ماءً كثيرًا، وقلبٌ يسع علمًا قليلًا، ووادٍ يسع ماءً قليلًا، وأخبر- تعالى- أنه يعلو على السّيل من

الزّبد بسبب مخالطة الماء، وأنه يذهب جُفاء، أي: يرمى به ويخفى، والذي ينفع الناس يمكثُ في الأرض ويستقرّ، وكذلك القلوب تخالطها الشهوات والشبهات فإذا ترابى فيها الحقّ ثارت فيها تلك الشهوات والشبهات ثمّ تذهب جفاء، ويستقرّ فيها الإيمان والقرآن الذي ينفع صاحبَه والناس.

وقال: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَۚ﴾ [الرعد: ١٧]، فهذا المثل الآخر وهو الناري فالأول للحياة والثاني للضياء.

ونظيرُ هذين المثالين: المثالان المذكوران في سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ إلى قوله: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ إلى آخر الآية [البقرة: ١٧-١٩].

وأمّا الكافر ففي ظلمات الكفر والشّرك غيرُ حي، وإن كانت حياته حياةً بهيميّة فهو عادم الحياة الروحانية العلوية التي سببها سببُ الإيمان، وبها يحصل للعبد السعادة والفلاح في الدنيا والآخرة(١).

فمَن وقف عند هذه الحقيقة وعند شهودها ولم يقمْ بما أمرَ به مِن الحقيقة الدينية التي هي عبادته المتعلّقة بإلهيته وطاعة أمره وأمر رسوله؛ كان مِن جنس إبليس وأهل النار؛ وإنْ ظنّ مع ذلك أنه مِن خواصّ أولياء الله وأهل المعرفة والتحقيق الذين يسقط عنهم الأمرُ والنهي الشرعيّان؛ كان من أشرّ أهل الكفر والإلحاد(٢).

وهكذا مِن خلال تناول ابن تيمية لقضية المَسْطور والمَنْظور يظهر أنّ القرآن الكريم عُني عنايةً واضحة بالاثنين على سواء، فمعظم آيات القرآن تتحدّث عن قدرة الله في الآفاق والأنفس وتدبيرِ الله لهما مقرونةً بتكاليف شرعية وواجباتٍ عملية ما هي إلّا تحقيقٌ لتلك العلاقة بين المنظور والمسطور، وبين ما هو ديني وما هو كوني. لقد جاءت الشريعة لتنظّم حياتنا البشرية وعلاقتها بهذا الكون تسخيرًا وفهمًا؛ حتى يتحقّق للبشرية مرادُها التي أوجدها الله مِن أجله.

---

(١) الفتاوى، (١٩/ ٩٤، ٩٥).
(٢) مجموع الفتاوى، (١٠/ ١٥٦، ١٥٧).

بينَ الأمْر التكوينيّ والأمر التشريعي:

بينَ ما هو ديني شرعي وما هو كوني في كتاب الله تدخلُ تلك العناوين، فهناك الكلمات الدينية والكلمات الكونيّة، وهناك الإرادة الدينية والإرادة الكونية، وهناك الإذن الديني والإذن الكوني، وهناك الكتاب الديني والكتاب الكوني، وهناك الحكم الديني والحكم الكوني، والقضاء الديني والقضاء الكوني، والتحريم الديني والتحريم الكوني.

وقد قام شيخُ الإسلام- رحمه الله- بشرح هذه العناوين مِن خلال استخراج الآيات الدّالة عليها مِن كتاب الله، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «إنّ الله -تعالى - قد بيّن في كتابه كلّ واحدةٍ من: الكلمات، والأمر، والإرادة، والإذن، والكتاب، والحكم، والقضاء، والتحريم، ونحو ذلك ممّا هو ديني موافقٌ لمحبّة الله ورضاه وأمره الشرعي، وما هو كوني موافقٌ لمشيئته الكونية، مثال على ذلك أنه قال في الأمر الديني: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ [النحل: ٩٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ [النساء: ٥٨]، وقال في الكوني: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢]، وكذلك قوله: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ﴿١٦﴾﴾ [الإسراء: ١٦] على إحدى الأقوال في هذه الآية.

وقال في الإرادة الدينية: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ وَيَهۡدِيَكُمۡ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَيَتُوبَ عَلَيۡكُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٢٦﴾﴾ [النساء: ٢٦]، ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ﴾ [المائدة: ٦].

وقال في الإرادة الكونية: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وقال: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، وقال نوح - عليه السلام -: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ﴾ [هود: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢].

وقال تعالى في الإذن الديني: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾﴾ [الحشر: ٥].

وقال تعالى في الكوني: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢].

وقال تعالى في القضاء الديني: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]، أي: أمر.

وقال في الكوني: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ١٢].

وقال تعالى في الحكم الديني: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾﴾ [المائدة: ١]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ﴾ [الممتحنة: ١٠].

وقال تعالى في الكوني عن ابن يعقوب: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [يوسف: ٨٠]، وقال تعالى: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [الأنبياء: ١١٢].

وقال تعالى في التحريم الديني: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ﴾ [المائدة: ٣]، ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾ [النساء: ٢٣].

وقال في التحريم الكوني: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ [المائدة: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾ [الذاريات: ١٩].

وقال تعالى في الدينية: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٢٤].

وقال تعالى في الكونية: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ﴾ [الأعراف: ١٣٧].

ومنه قولُه ﷺ المستفيض عنه من وجوه في الصحاح والسنن والمسانيد أنه كان يقول في استعاذته: «أعوذ بكلمات الله التامّات التي لا يجاوزهن برّ ولا فاجر»[1]، ومِن المعلوم أنّ هذا

(١) سنن النسائي، باب: ذكر ما يكب العفريت ويطفئ شعلته، (٦/ ٢٣٧)، ح(١٠٧٩٢).

هو الكوني الذي لا يخرج منه شيء عن مشيئته وتكوينه، وأمّا الكلمات الدينية فقد خالفها الفجّار بمعصيته[1].

وقال- أيضًا- في موضع آخر: «إنّ كثيرًا من الناس يتكلّم بلسان (الحقيقة)، ولا يفرّق بين الحقيقة الكونية القدرية المتعلقة بخلقه ومشيئته، وبين الحقيقة الدينية المتعلقة برضاه ومحبّته»[2].

ويقول أيضًا: «الإرادة الكونية هي مشيئته لما خلقه، وجميع المخلوقات داخلة في مشيئته وإرادته الكونية، والإرادة الدينية هي المتضمّنة محبّته ورضاه المتناولة لما أمر به وجعله شرعًا ودينًا، وهذه مختصّة بالإيمان والعمل الصالح»[3].

وأدخل- أيضًا- في مواضع أخرى مِن كلامه تحت ما هو ديني وما هو كوني لفظ: البعث والإرسال والجعل.

فجعلَ البعث الكوني في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ﴾ [الإسراء: ٥].

وقال في البعث الديني: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: ٢]، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ﴾ [النحل: ٣٦].

وأمّا لفظ الإرسال فقال في الإرسال الكوني: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الفرقان: ٤٨].

وقال في الديني: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾﴾ [الأحزاب: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ [نوح: ١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ

(١) الفتاوى، (١٠/ ٢٤-٢٦).
(٢) الفتاوى، (١١/ ٢٦٦).
(٣) الفتاوى، (١١/ ٢٦٦).

أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [المزمل: ١٥]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥].

وأمّا لفظ الجعل فقال في الكوني: ﴿وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [القصص: ٤١].

وقال في الديني: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ [المائدة: ١٠٣][1].

وهكذا نستنتج ممّا سبق تعدّدَ طريقة القرآن في عرضه لقضية السّنن من خلال فهم شيخ الإسلام للسّنن؛ حيث يتحدّث شيخ الإسلام عن قضية السنن، ووضّح أنّها ذُكرت بدلالات مُختلفة، فمرّة ذكرت بلفظ السنة، ومرّة ذكرت بلفظ الاعتبار، ومرّة بمعنى الطريقة الإلهية المعهودة في الكون، ومرّة بمعنى الحقيقة، ومرّة بمعنى مصطلح الكلمة والكلمات، ومرّة بلفظ العادة والدأب، وفي مرّات أخرى تردُ تحت الإرادة الإلهية الكونية التي تنبعُ فيها الأحكام والمقاصد التكوينيّة مثل: الأمر الكوني، والبعث الكوني، والإرسال الكوني، والحكم الكوني، والجعل الكوني، والتحريم الكوني، والقضاء الكوني، والإذن الكوني، والتحريم الكوني؛ ومرّات أخرى وردت من خلال القصص القرآني ثمّ الإشارة إلى النظر لهؤلاء السابقين والاستفادة ممّا حدث لهم، وأنه سوف يلحقنا مثل ما لحقهم.

وهكذا نجده يشيرُ في معظم أحاديثه وتفسيراته لآياتِ السنن إلى هذه الأساليب المتنوعة للقرآن الكريم لهذه السنن، ويدلّ على مدى أهمية السنن بالنسبة لحياتنا البشرية.

وكثيرًا ما يقرن اللهُ – عز وجل – السننَ الكونية بالأوامر الإلهية؛ لينبّهنا على أنّ هذا النظام الكوني يجبُ أن يقترن– أيضًا– بالأنظمة البشرية حتى يحدثَ التوازن المطلوب[2].

***

(١) الفتاوى، (١١/ ٢٦٩، ٢٧٠).
(٢) راجع: فقه السنن الإلهية ودورها في البناء الحضاري، عادل بن بويزيد عيساوي، ص(٢٠).

المبحثُ الثّامن

السّننُ الربّانية والإرادةُ الإلهية

فرَّق الشيخُ بيْن السنن الربّانية والإرادة الإلهية، ووضّح أنه لا تعارض بينهما؛ فإنّ طاعة الله – عز وجل – وتنفيذَ أوامره الدينية هي التي تجعل الإنسان من أهلِ طاعته – سبحانه –، ومخالفة أوامره الدينية وعصيانه لها هي التي تجعله من الفجّار والكافرين، ولا تتعارض تلك الطاعة للأوامر الدينية مع قضاء الله وقدره، فقضاؤه نافذٌ لا محالة، وكل أفعال الإنسان واقعةٌ تحت إرادته العامّة التي هي القضاء والقدر.

وقد لامَ شيخُ الإسلام- رحمه الله- مَن لا يستطيع التفريق بين الآمرِ بالمأمور النبوي الإلهي الفرقاني الشرعي الذي دلّ عليه الكتاب والسنة، وبين ما يكون في الوجود مِن الأحوال التي تجري على أيدي الكفار والفجّار، فيشهدون وجه الجمع من جهةِ كوْن الجميع بقضاء الله وقدره وربوبيّته وإرادته العامة، وأنه داخل في ملكه.

يقول شيخُ الإسلام في ذلك: «هذا أصلٌ عظيم من أعظم ما يجب الاعتناءُ به على أهل طريق الله السالكين سبيلَ إرادة الذّين يريدون وجهَه؛ فإنه قد دخل بسبب إهمال ذلك على طوائف منهم مِن الكفر والفسوق والعصيان ما لا يعلمه إلّا الله، حتى يصيروا معاونين على البغي والعدوان للمُسلطين في الأرض من أهلِ الظّلم والعلوّ الذين يتوجّهون بقلوبهم في معاونة مَن يهوونه مِن أهل العلو في الأرض والفساد، ظانّين أنهم إذا كانت لهم أحوالٌ أثّروا بها في ذلك كانوا بذلك مِن أولياء الله، فإنّ القلوب لها من التأثير أعظم ممّا للأبدان، لكن إنْ كانت صالحة كان تأثيرها صالحًا، وإن كانت فاسدة كان تأثيرها فاسدًا، فالأحوالُ يكون تأثيرها محبوبًا لله تارة، ومكروهًا لله أخرى.

وقد تكلّم الفقهاء على وجوب القود على مَن يقتل بغيره في الباطن حيث يجبُ القود في ذلك، ويستشهدون ببواطنهم وقلوبهم الأمر الكوني، ويعدّون مجرّد خرق العادة لأحدهم بكشفٍ لهم أو بتأثير يوافق إرادته؛ هو كرامة من الله له، ولا يعلمون أنّه في الحقيقة إهانة، وأنّ الكرامة لزوم الاستقامة، وأنّ الله لم يكرم عبده بكرامة أعظمَ من موافقته فيما يحبّه ويرضاه، وهو طاعته وطاعة رسوله وموالاة أوليائه، ومعاداة أعدائه، وهؤلاء هُم أولياء الله»[1].

(١) الفتاوى، كتاب علم السلوك، (١٠/ ٢٩، ٣٠).

المبحثُ التّاسع

كيفيةُ الاستدلال على السنّة الإلهية

يعتبر الدليل النقلي من كتابٍ وسنةٍ من أعظم الأدلة على ثبوت هذه السنة وفاعليتها؛ لكونهما يمثلان المرجعية العليا للفكر والعقل الإسلامي، والدليل النقلي يعني كلّ ما أشار إليه القرآن الكريم من أدلة وبراهين وقصص وأمثال وحكم وأحكام مما يدل على معنى السنن، سواء فهم ذلك صراحة كأن يرد بألفاظ السنن المعهودة في القرآن، أو يرد بما يشير إلى سننيتها بكل أنواع الدلالة، كدلالة السياق وغيرها.

وهذه النصوص والأدلة كما أنها حاكمة على من نزلت عليهم أيام نزولها هي كذلك إلى قيام الساعة، ولذلك تبقى مصدريّتها ومرجعيّتها وقيوميّتها في عالم الدّلالة من أقوى الطّرق الدّالة على السنن ما بقيت السموات والأرض.

يقول شيخُ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله: «فإنّ نصوص الكتاب والسنة اللّذين هما دعوة محمد ﷺ يتناولان عمومَ الخلق بالعموم اللّفظي والمعنوي، أو بالعموم المعْنوي، وعهود الله في كتابه وسنة رسوله تنالُ آخر هذه الأمّة كما نالت أوّلها، وإنما قصّ الله علينا قصص مَن قبلنا مِن الأمم لتكون عبرةً لنا، فنشبّه حالنا بحالهم، ونقيس أواخر الأمم بأوائلها، فيكون للمؤمن مِن المتأخّرين شبهٌ بما كان للمؤمن مِن المتقدّمين، ويكون للكافر والمنافق مِن المتأخّرين شبهٌ بما كان للكافر والمنافق من المتقدّمين، كما قال- تعالى- لمّا قصّ قصة يوسف مفصّلة وأجْمَلَ قصصَ الأنبياء، ثمّ قال: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ ﴾ [يوسف: ١١١]»[١].

وهكذا نجد أنّ الدليل النّقلي من أقوى الأدلة إثباتًا لنسبة الجملة المفيدة خاصة ما يتعلّق بالسنّة الاجتماعية والنفسية والتاريخية، ولا يعني ذلك الاقتصارَ على ما أثبته القرآن فقط، بل القرآن ذاتُه يحيل إلى غيره مِن الأدلّة المعتبرة من إعمال العقل والتدبّر والسير في الأرض لاكتشافها[٢].

ولقد أشار ابنُ تيمية سابقًا في منهجيّته في التعامل مع القرآن أنه يجب علينا تدبّرُ الآيات وفهمُها، وإعمال العقل في فهْم ما ورد في كتاب الله – عز وجل –.

(١) الفتاوى، (٢٨/ ٤٢٥).

(٢) انظر: فقه السنن الإلهية، عادل بو يزيد العيساوي، ص(١٤٦) بتصرف كبير.

المبحثُ العاشر

أنواعُ السّنن الإلهية من خلال آثار شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله

لقد تنوّعت السّنن الإلهية التي تحكم هذا الكون بما فيه من أنفس ومجتمعات وأحداث إلى: سنن إلهية كليّة، وأخرى جزئية، ونجد وصفًا دقيقًا لهذه السّنن بكلا نوعيها في كتاب الرؤية الإسلامية والمسألة الحضارية للدكتور عبد الله محمد الأمين؛ حيث يقول: «إنّ حركة الوجود تخضع لسُنن ونواميس إلهيّة، ولقد طرح القرآن الكريم إشكاليّةَ السّنن التي تحكم حركةَ الوجود حفظًا له مِن الفوضى والفساد، ولما كان عمران الأرض مَقصدًا مِن مقاصد الرِّسالات السَّماوية كانت سننُ المُداولة والمدافعة والاستبدال والاستدراج وغيرها مِن السّنن الحضارية هي الحاكمةَ على الواقع، ومِن ثمّ فإنّ السَّيرورة الحضارية للأفراد والأمم محكومةٌ بهذه السنن والقوانين المضطردة، وهي سننٌ محايدة: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ۝٢٠﴾ [الإسراء: ٢٠].

وهذه السّننُ المحايدة تعتبر سننًا جزئية تعطي كلّ مَن يوظِّفها على قدر سعْيه في تسخيرها والتعامل معها.

غيْر أنّ هناك سننًا كُليَّة هي السنن التي جعلها الله مفتاحًا لقيام الحضارات بمفهومها الشامل كسُنَّة الإيمان: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

وما ينبغي ملاحظته أنّه لا غنى للسنن الجزئية عن السنن الكليَّة، ولا غنى للسنن الكلية عن السنن الجزئيّة، فحضارة تؤمن بالله ولكنها لا تكتشف سنن الآفاق والأنفس- وهي سننٌ جزئية- هي حضارة عاطلة؛ وحضارة تستنطق السنن الجزئية يومًا بعد يوم- كالحضارة الغربية- دون أن تهتدي للإيمان الصحيح- وهو سنّة كليّة- هي حضارة تائهة، ضارّة لنفسها نافعة لغيرها عند اكتشافها لسنن الرّقي المادي، وهذا يعني أنّ لهذه الدنيا مقاييسها التي تجري على المؤمن والكافر»[1].

---

(١) الرؤية الإسلامية والمسألة الحضارية دراسة مقارنة، عبد الله محمد الأمين، ص(٦٦).

ونظرًا لما قدّمه الشيخ- رحمه الله- في علم السّنن نجد أنّه عُني عنايةً كبيرة بالسنن الجزئية، كما عُني بالسّنن الكلية، ومِن هذه السّنن الكلية: سنّة الإيمان والكفر، سنّة الهداية والضلال، الشّقاء والسعادة، الأسباب والمسبّبات.

وتحدّث- أيضًا- عنِ الأمر الإلهي الكوني بوصفه سنّة كليّة، وما يتفرّع عنه من سُنن وأحكام إلهيّة، مثل: الإذن الكوني، والجعل الكوني، والإرسال، والبعث، والكتابة، والقضاء والتحريم والآيات التكوينية الكونية والعهود، وهذه السنن ارتبطت بكلّ الجوانب الاجتماعية والنفسية والمادية الطبيعية.

وأمّا السّنن الجزئية فمثل: سنة النّصر والهزيمة، وسنّة التمكين، وسنّة البقاء والفناء، وسنّة الثواب والعقاب، وسنّة التوازن وتسخير الكون، وسنّة الله في الحسنات والسيئات، وغيرها.

وتعدّدت مشاركات ومعالجات وإدراكاتُ ابن تيمية للسّنن الربانية، فشملت السنن النفسية بما تحويه من مفردات، والسّنن الاجتماعية بما تحويه من مفردات، والسّنن التشريعية وما تحويه، والسّنن الطبيعية الكونية أو مظاهر السّنية في الكون، والسّنن التاريخية.

خلاصةٌ واستنتاج:

وبعدَ هذه التّطوافة يمكننا أن نقول:

تحدّثنا في هذا الفصل عن عدّة نقاط تخصّ علاقة شيخ الإسلام بالسّنن الإلهية تنظيرًا وتطبيقًا، وكانت بداياتُ هذه الدّراسة معرفتنا بالمؤهّلات التي جعلت شيخنا مؤهّلًا لمعرفة واستنباط السّنن الإلهية، وتوصّلنا في هذه الدراسة إلى أنّ أهمّ هذه المؤهّلات:

١ـ مكوّنات شخصية ابن تيمية وصفاته النفسية، ومنها:

التأمّل والعمق.

حضور البديهة.

الاستقلال الفكري.

إخلاصه في طلب الحقّ.

فراستُه.

قدرته على التقعيد.

معرفته بالقصص القرآني.

٢- تكامل العلوم العقلية والدينية.

٣- ثقافته الواسعة.

٤- التجاوب بين ابن تيمية وعصره.

وكان لنا في هذا الفصل- أيضًا- لقاءٌ مع شيخ الإسلام ابن تيمية والتدبّر السّنني عنده واستنباطها من كتاب الله.

كما عرفنا تعريفَه للسّنن وخصائصها وحجيّة السّنن الربانية عند شيخ الإسلام، وأنّها قطعيّةُ الثبوت؛ لأنها جزءٌ من القرآن الكريم.

أيضًا، كان لنا في هذا الفصل معرفةٌ للعلاقة بين السّنن الإلهية والمعجزة الإلهية، والعلاقة بين المَسطور والمنْظور، وأنّ الكون مصدرٌ من مصادر المعرفة السّنية يكون مُتكاملًا تمامًا مع الكتاب والسّنة؛ لذلك جاءت الأمثلة في القرآن مرتبطةً بما في الكون مِن مخلوقات، فمثلًا نجدُ الظلام والنور وعلاقتهم بالإيمان والكفر، ضيق الصدر للكافرين كمَن يصعّد في السماء، وشبه حياة الكافرين وأعمالهم بزبدِ البحر ليس له أهميّة كما شبه العلم بالماء.

وأيضًا وضّح وبيّن شيخُ الإسلام العلاقةَ بين المسطور والمنظور، والعلاقة بين الأمر التشريعي والأمر التكويني، وبيّن أنّ الأول يتعلّق برضاه ومحبّته، والثاني يتعلّق بخلقه وقدره ومحبّته.

وأيضًا فرّق الشيخُ بين السّنن الربانيّة والإرادة الإلهيّة، وبيّن أنه لا تعارض بينهما، وأنّه لا تعارض بيْن أن يكون الإنسانُ مِن أهل طاعة الله - عز وجل - فيكون من أهْل الإيمان، أو

يعْصيه فيكون مِن أهل الكفر، مع قضاء الله وقدره؛ فقضاؤه نافذٌ لا محالة، وكلّ أفعال الإنسان واقعةٌ تحتَ إرادته العامّة التي هي القضاء والقدر.

يعتبر الدليلُ النقلي من الكتاب والسنّة مِن أعظم الأدلّة على ثبوت السنة وفاعليّتها؛ لكوْنهما يمثّلان المرجعيّة العليا للفكر والعقل، والدليل النقلي يعني كلّ ما أشارَ إليه القرآن الكريم مِن أدلّة وبراهين وقصص وأحكامٍ وأمثال، ممّا يدلّ على معنى السّنن.

تنوّعت السّنن الإلهية عند شيخ الإسلام ابن تيمية بيْن سنن كليّة وأخرى جزئية، وأيضًا ما بيْن السّنن الاجتماعية والسّنن الكونية، والسّنن الإيمانية والسّنن النفسية.

***

الفصلُ الرّابع

الجانبُ التّطبيقي من السّنن الربّانية لدى ابن تيمية

المبحثُ الأوّل

سنّةُ الله في الأسباب والمسبّبات مِن خلال فهْم الشيخ لها

تعريفُ السّبب:

السبب في اللغة: كلّ شيء يتوصّل به إلى غيره، أو هو: كلّ شيء يتوصّل به إلى شيء غيره وقد تسبّب إليه، والجمعُ أسباب، وكلّ شيء يتوصّل به الشيء فهو سبب، وجعلت فلانًا سببًا إلى فلان في حاجتي وودجًا، أي: وصلة وذريعة، وقوله تعالى: ﴿**وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ** ١٦٦﴾ [البقرة: ١٦٦] قال ابن عباس: المودّة، وقال مجاهد: تواصلهم في الدّنيا، وقال أبو زيد: الأسباب: المنازل، والله – عز وجل – مسبّب الأسباب، ومنه التّسبيب، وأسباب السموات: مراقيها، وقيل: أسباب السماوات: نواحيها[1].

وفي قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ٨٤ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ٨٥﴾ [الكهف: ٨٤، ٨٥] نجد أنّ معنى الآية: ويسّرنا له أسباب التمكّن كـ: العلم والقدرة، فتبع سببّ التّمكن، واتّخذه موصّلًا إلى مقصده.

سنّة الله في الأسباب والمسبّبات:

خلق الله – سبحانه وتعالى – هذا الكونَ وجعله مُرتبطًا بالأسباب والمسبّبات، وهذا القانونُ الإلهي نجده واضحًا ظاهرًا حاكمًا لهذا الكون؛ حيث نجد أنّ كلّ المكوّنات في هذا الكون تسير على الأسباب والمسبّبات وربط النتائج بالمقدمات.

فنجد مثلًا أنّ النبات لا يكتمل نموّه إلّا إذا تعرّض للضوء، والسحاب لا يصبح مطرًا إلّا بالأسباب التي قدّرها الله له، والإنسان لا ينمو ويعيش ويقدر على متطلبات الحياة إلّا بالتماسه لأسبابِ الرزق والسعادة، ولا ينجو وينجح في الآخرة إلّا بالتماسه لأسباب النجاة، وكذلك لا ترتفع الأمم ولا تتقدّم إلّا بالتماسها أسباب التقدّم والرقي.

---

(١) لسان العرب لابن منظور، دار صادر، بيروت، (٧/ ١٠٠).

فكلّ شيء في هذا الكون مرتبطٌ بالأسباب؛ فالنصر له أسبابه، والهزيمة لها أسبابها، وبقاء الأمم وتطورها له أسبابه، كما أنّ هلاك الأمم- أيضًا- له أسبابه.

لذلك اهتمّ شيخ الإسلام ابن تيمية بهذه السّنة الكليّة، وقام بتوضيحها، وتوضيح الشّبهات التي ارتبطت بها، مُبينًا أنّها لا تتنافى مع التوكّل على الله - عز وجل -، ولا تتعارض مع قدر الله - عز وجل -.

كما بيّن لنا ما هي الأسباب التي يجب على الإنسان أن يسلكَها حتى يكون سعيدًا في الدنيا والآخرة، وسنقوم بتوضيح هذه الأمور.

يقول شيخُ الإسلام- رحمه الله: «... فليس في الدنيا والآخرة شيء إلّا بسبب، والله خالق الأسباب والمسبّبات»[(١)].

كما بيّن أنّ قانون الأسباب والمسبّبات من سننِ الله - عز وجل - الحاكمة التي لا تتحوّل ولا تتبدّل، وأن ترك الأسباب ينافي سنّة الله في خلقه وأوامره، فيقول معترضًا على مَن يُنكر الأسباب: "وهذا وأمثاله من قلّة العلم بسنة الله في خلقه وأمره؛ فإنّ الله خلق المخلوقات بأسباب، وشرع للعباد أسبابًا ينالون بها مغفرتَه ورحمته وثوابه في الدنيا والآخرة، فمَن ظنّ أنه بمجرد توكّله مع تركه ما أمره الله به مِن الأسباب يحصلُ مطلوبُه، وأنّ المطالب لا تتوقّف على الأسباب التي جعلها الله أسبابًا لها؛ فهو غالط؛ فالله- سبحانه- وإنْ كان قد ضمنَ للعبد رزقه وهو لا بدّ أن يرزقه ما عمّر فهذا لا يمنع أنْ يكون ذلك الرزق المضمون له أسبابٌ تحصل مِن فعل العبد وغير فعلِه، فأيضًا قد يرزقه حلالًا وحرامًا، فإذا فعل ما أمره به رزقه حلالًا، وإذا ترك ما أمره الله به فقد يرزقه حرامًا»[(٢)].

ويقول- أيضًا- في موضع آخر مؤكّدًا نفسَ المعنى: «بل جميع ما يخلقه الله ويقدّره إنّما يخلقه ويقدّره بأسباب، لكن مِن الأسباب ما يخرج عن قدرة العبد، ومنها ما يكون مقدورًا له، ومِن الأسباب ما يفعله العبد، ومنها ما لا يفعله»[(٣)].

(١) الفتاوى، (٨/ ٧٠).
(٢) الفتاوى، (٨/ ٥٢٩).
(٣) الفتاوى، (٨/ ٥٣٤).

بل بيّن- رحمه الله- أنّه كما أنّ قوام الحياة مرتبطٌ بالأسباب؛ فإنّ الموت مرتبط بالأسباب، فيقوله- رحمه الله: «أمّا قول القائل: إنّ الغذاء والقوام هو مِن فعل الله فلا يمكن طلبُه كالحياة فليس كذلك هو، بل ما فعل الله بأسباب يمكن طلبه ودفعه بالأسباب التي قدّرها الله، فإذا أردنا أن يموت عدوّ الله سعيْنا في قتله، وإذا أردنا دفعَ ذلك عن المؤمنين دفعْناه بما شرع الله الدّفع به، قال تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾ [الأنبياء: ٨٠]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ [النحل: ٨١]، وقال تعالى: ﴿وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ [النساء: ١٠٢].

وهذا مثل دفعِ الحرّ والبرد عنّا هو من فعل الله باللباس والاكْتساء، ومثل دفعِ الجوع والعطش هو مِن فعل الله بالطّعام والشراب، وهذا كما أنّ إزهاق الرّوح هو مِن فعل الله، ويمكن طلبُه بالقتل، وحصول العلم والهوى في القلب هو مِن فعل الله، ويمكن طلبه بأسبابه المأمور بها وبالدعاء»[(١)].

لا يمكنُ الالتفاتُ إلى الأسباب وحدها

بيَّن شيخُ الإسلام- رحمه الله- أنّه لا يمكن الاعتماد على الأسباب وحدها؛ لأنّ ذلك شركٌ في التوحيد، وكذلك محْو الأسباب نقصٌ في العقل وقدحٌ في الشرع، فيقول في ذلك: «ولهذا قال بعضهم: الالتفاتُ إلى الأسباب شركٌ في التوحيد، ومحْو الأسباب أن تكون أسبابًا: نقص في العقل، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع، ومجرد الأسباب لا يوجب حصول المسبّب»[(٢)].

ثمّ يفسّر شيخُ الإسلام هذا الكلامَ ويشرح الالتفات إلى الأسباب، فيبيّن أنّ الالتفات إلى الأسباب شركٌ في التوحيد وظلم وجهل، وهذه حال مَن دعا غير الله وتوكّل عليه، ويقول: «وأمّا قولهم: محْو الأسباب أنْ تكون أسبابًا: نقص في العقل فهو كذلك، وهو طعنٌ في الشرع

(١) الفتاوى، (٨/ ٥٣٤).
(٢) الفتاوى، (٨/ ١١٩).

أيضًا؛ فإنّ كثيرًا من أهل الكلام أنْكروا الأسباب بالكليّة وجعلوا وجودها كعدمِها، كما أنّ أولئك الطبيعيّين جعلوها عللًا مُقتضية، وكما أنّ المعتزلة فرّقوا بين أفعال الحيوان وغيرها، والأقوال الثلاثة باطلة؛ فإنّ الله يقول: ﴿يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [الأعراف: ٥٧]، ويقول تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ [النحل: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ﴾ [البقرة: ٢٦]، وأمثال ذلك، فمَن قال يفعل عندها لا بها، ويعرف الفرق بين الجبهة والعين في اختصاص أحدهما بقوة ليست في الآخر.

وأمّا قولهم: الإعراض عن الأسباب بالكلية قدحٌ في الشرع، بل هو- أيضًا- قدح في العقل؛ فإن أفعال العباد من أقوى الأسباب لما نيطَ بها، فمَن جعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمُفسدين في الأرض أو يجعل المتّقين كالفجّار؛ فهو مِن أعظم الناس جهلًا وأشدّهم كفرًا، بل ما أمر الله من العبادات والدعوات والعلوم والأعمال من أعظم الأسباب فيما نيط بها من العبادات، وكذلك ما نهى عنه من الكفر والفسوق والعصيان هي مِن أعظم الأسباب لما علق بها من الشقاوات...».

ويقول أيضًا: «وكذلك مَن ترك الأسباب المشروعة المأمور بها أمرَ إيجاب أو أمرَ استحباب مِن جلب المنافع أو دفع المضار؛ قادحٌ في الشرع خارجٌ عن العقل»[1].

الأسبابُ تكون بسببها لا عندها

ردّ شيخ الإسلام على مَن قالوا: إنّ الأسباب تكون بسببها لا عندها مثل أنْ يقولوا: إنّ الإحراق يحصل عند وجود النار، وليس بالنار، والشبع يحصل لا بالأكل ولكن عند وجوده، والإرواء ونحو ذلك.

يقول شيخُ الإسلام في ذلك: «قال بعضُ الفضلاء: تكلّم قومٌ من الناس في إبطال الأسباب والقوى والطبائع فأضحكوا العقلاءَ على عقولهم، ثمّ إنّ هؤلاء يقولون: لا ينبغي للإنسان

(١) الفتاوى، (٨/ ١٧٧، ١٧٨).

أن يقول: إنه شبع بالخبز وروي بالماء، بل يقول: شبعت عنده ورويت عنده؛ فإنّ الله يخلق الشبع والريّ ونحو ذلك من الحوادث عند هذه المقترنات بها عادة لا بها، وهذا خلافُ الكتاب والسنة؛ فإن الله- تعالى- يقول: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [الأعراف: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ﴾ [التوبة: ١٤]، وقال: ﴿قُلۡ هَلۡ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحۡدَى ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِۖ وَنَحۡنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمۡ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٖ مِّنۡ عِندِهِۦٓ أَوۡ بِأَيۡدِينَا﴾ [التوبة: ٥٢]، وقال: ﴿وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ ۝٩﴾ [ق: ٩]، وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىۡءٖ﴾ [الأنعام: ٩٩]، وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗۖ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝١٠ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [النحل: ١٠-١١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗا﴾ [البقرة: ٢٦]، وقال: ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ۝١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [المائدة: ١٥-١٦]، ومثل هذا في القرآن كثير.

وهكذا إذا تأمّلنا هذه الآيات الكريمة التي استشهد بها شيخُ الإسلام في ضرورة الأخذ بالأسباب؛ نجد أنّ الله- تعالى- قال: ﴿فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ﴾ فاستعمل القرآنُ الباءَ في ﴿فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ﴾ للدّلالة على السببيّة، كما جعل الماءَ سببًا لإنبات الجنات جعل العذاب سببًا للإصابة.

وأيضًا مِن سنّته- سبحانه- أنْ جعل الأمثلة سببًا لهداية البشر أو ضلالهم، وجعل الآيات البيّنات المُحكمات سبيلًا لتلك الهداية، فسبحانه مِن حكمته أنْ جعل كلّ الأمور مرتبطةً بأسبابها، وجعل الأخذَ بالأسباب مِن تمام الإيمان بالله – عز وجل –، وسوف يحاسب الإنسان على ترك الأسباب وعدم الأخذ بها.

وكما اهتمّ القرآن بالأخذ بالأسباب وأهمّيتها في تحقيق الأهداف الدنيوية والأخروية كذلك جاءت السنّة النبوية مؤكّدة على ذلك؛ فحثّ النبي ﷺ في كثيرٍ من الأحاديث على الأخذ بالأسباب، يقول شيخ الإسلام- رحمه الله: «وكذلك في الحديث عن النبي ﷺ كقوله: (لا يموتنّ أحدكم إلّا آذنتموني به; فإنّ صلاتي عليه بركة ورحمة)، وقال ﷺ: (إنّ هذه القبور مملوءة على أهلها ظلمة، وإنّ الله جعل بصلاتي عليهم نورًا)، ومثل هذا كثير.

ونظيرُ هؤلاء الذين أبطلوا الأسبابَ المقدّرة في خلق الله مَن أبطل الأسباب المشروعة في أمر الله؛ كالذين يظنّون أنّ ما يحصل بالدّعاء والأعمال الصالحة وغير ذلك مِن الخيرات إن كان مقدّرًا حصل بدون ذلك، وإن لم يكن مقدرًا لم يحصل بذلك، وهؤلاء كالذين قالوا للنبي ﷺ: أفلا ندعُ العمل ونتّكل على الكتاب؟ فقال: (لا، اعملوا؛ فكلٌّ ميسّر لما خلق له)[(١)].

وفي السّنن أنه قيل: يا رسولَ الله، أرأيت أدوية نتداوى بها، ورقى نسترقي بها، وتقاة نتّقيها، هل تردّ مِن قدر الله شيئًا؟ فقال: (هي مِن قدر الله)[(٢)].

ولهذا قال مَن قال مِن العلماء: الالتفات إلى الأسباب شركٌ في التوحيد، ومحْو الأسباب أن تكون أسبابًا تغْيير في وجه العقل؛ والإعراضُ عن الأسباب بالكليّة قدحٌ في الشرع، والله- سبحانه- خلق الأسباب والمسبّبات، وجعل هذا سببًا لهذا، فإذا قال القائل: إنْ كان هذا مقدّرًا حصل بدون السبب وإلّا لم يحصل؛ جوابه أنه مقدّر بالسبب، وليس مقدرًا بدون السبب»[(٣)].

للأسباب شروطٌ وموانع

يتحدّث شيخُ الإسلام عن الأسباب ويرى: أنّه يجب أنْ يعلم الإنسان أنّ كلّ شيء في هذا الكون مشروطٌ بأسباب لكي يتحقّق، كما أنّ هذا الشيء له موانع تقتضي عدمَ تحقّقه أو الوصول إليه، ولكي يصلَ الإنسان إلى ما يريد لا بدّ أنْ يحقّق الأسباب المشروطة لهذا الشيء، ويقضي على

(١) سنن الترمذي، باب: الشقاء والسعادة، (٤/ ٤٤٥)، ح(٢١٣٦)، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، وقال الألباني: صحيح.

(٢) سنن الترمذي، ت شاكر، باب: ما جاء في الرقى، (٤/ ٤٠٠).

(٣) مجموع الفتاوى، (٨/ ١٣٩).

كلّ الموانع التي تحول بينه وبين الوصول إلى هدفه، فمثلًا لكي يزرع الفلاح حقلَه ويحصل على النبات المطلوب؛ لا بدّ أن يأخذ بالشروط المطلوبة من حرثِ الأرض واختيار البذور وزرعها، ثمّ رعايتها وريّها بانتظام، وأيضًا عليه بأن يزيلَ الموانع مثل: منع الآفات من الوصول للنبات، ومقاومة الأمراض التي تصيب الزرع، وغيرها.

يقول شيخُ الإسلام ابن تيمية: «فكلّ سببٍ هو موقوف على وجود الشروط وانتفاء الموانع»(١).

ثمّ قال: «فلا بدّ من تمام الشروط، وزوال الموانع، وكلّ ذلك بقضاء الله وقدره، وليس شيء من الأسباب مستقلًّا بمطلوب، بل لا بدّ من انضمام أسباب أخَر إليه، ولا بدّ- أيضًا- مِن صرف الموانع والمعارضات عنه حتى يحصل المقصود، فكلّ سببٍ فله شريك وله ضدّ، فإنْ لم يعاونه شريكه ولم يصرف عنه ضدّه لم يحصل سببه؛ فالمطر وحده لا ينبت النبات إلّا بما ينضمّ إليه من الهواء والتراب وغير ذلك، ثمّ الزرع لا يتمّ حتى تصرف عنه الآفات المُفسدة له، والطعام والشراب لا يغذي إلّا بما جعل في البدن من الأعضاء والقوى»(٢).

ويقول ابن تيمية- رحمه الله: «وليس شيء من الأسباب مُفتعلًا بمطلوبه، بل لا بدّ من انضمام أسباب أخرى إليه».

هذه الأسبابُ الأخرى هي التي يسمّيها البعض بالشروط، وقد سمّاها ابن تيمية نفسُه شروطًا في موضعٍ آخر من كلامه حيث يقول: «مجرّد الأسباب لا يوجب حصولَ المسبّب؛ فإنّ المطر إذا نزل وبذر الحَبّ لم يكن ذلك كافيًا في حصول النبات، بل لا بدّ مِن ريح مربية بإذن الله، ولا بدّ من صرف الانتفاء عنه، فلا بدّ من تمام الشروط، وزوال الموانع، وكلّ ذلك بقضاء الله وقدره، وكذلك أمر الآخرة ليس بمجرد العمل ينال الإنسان السعادةَ بل هي سبب، ولهذا قال النبي ﷺ: «**إنه لن يدخل أحدكم الجنة بعمله**»، **قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال:** «**ولا أنا إلّا**

---

(١) مجموع الفتاوى، (٨/ ١٣٣).
(٢) مجموع الفتاوى، (٨/ ١٦٧).

أنْ يتغمّدني الله برحمة منه وفضل»[1]، وقد قال: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢] فهذه باءُ السّببية، أي: بسبب أعمالكم، والذي نفاه النبي ﷺ باء المقابلة عوضًا وثمنًا كافيًا في دخول الجنة، بل لا بدّ من عفْو الله وفضله ورحمته، فبعفْوه يمحو السيئات، وبرحمته يأتي بالخيرات، وبفضْله يضاعف البركات»[2] [3].

كيف نعتبرُ بالأسباب؟

للأسباب اعتباراتٌ كي تصل بالإنسان إلى طريق السعادة في الدّنيا والآخرة، وتحقّق أهدافَه في الحياة كما يجب، لذلك وضع- رحمه الله- للأسباب ثلاثةَ أمور يجب مراعاتُها عند الأخذ بالأسباب، هي:

أحدهم: أنّ السبب المُعين لا يستقلّ بالمطلوب، بل لا بدّ من أسباب أخرى، ومع هذا فلَها موانع، فإنْ لم يكمل الله الأسبابَ ويدفع الموانع؛ لم يحصل المقصود، وهو- سبحانه- ما شاء كان وإنْ لم يشأ الناس، وما شاء الناس لا يكون إلّا أن يشاء الله.

الثاني: أنّه لا يجوز أنْ يعتقد أنّ الشيء سبب إلّا بعلم، فمَن أثبت شيئًا سببًا بلا علم، أو يخالف الشرع؛ كان مبطلًا، مثل أنْ يظنّ أنّ النذر سببٌ في دفع البلاء وحصول النّعماء.

الثالث: أنّ الأعمال الدينية لا يجوز أنْ يتّخذ منها شيئًا سببًا إلّا أن تكون مشروعة؛ فإنّ العبادات مبناها على التوقيف؛ فلا يجوز للإنسان أن يشرك بالله فيدعو غيره، وإن ظنّ أنّ ذلك سببٌ في حصول بعض أغراضه، وكذلك لا يُعبَد الله بالبدع المخالفة للشريعة، وإنْ ظنّ ذلك، فإنّ الشياطين قد تعين الإنسان على بعض مقاصده إذا أشرك، وقد يحصل بالكفر والفسوق والعصيان بعضُ أغراض الإنسان فلا يحلّ له ذلك؛ إذ المفسدة الحاصلةُ بذلك أعظمُ

(١) صحيح البخاري، باب: القصد والمداومة على العمل، (٧/ ١٢١)، وصحيح مسلم، باب: لن يدخل أحدكم الجنة بعمله بل برحمة الله، (٤/ ٢١٦٩).

(٢) مجموع الفتاوى، (٨/ ١٦٧).

(٣) انظر: كتاب السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية، الدكتور عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، ط: ٣.، ص(٢٨، ٢٩).

مِن المصلحة الحاصلة به؛ إذِ الرسول r بعث بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها، فما أمر اللهُ به فمصلحته راجحة، وما نهى عنه فمفسدتُه راجحة(١).

بيْنَ الأسباب والقدر

ذمّ شيخُ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- الذين تركوا الأخذَ بالأسباب اعتمادًا على معرفتهم بالقدر، ووضّح أنّ هذا خطأ عظيم، يقول في ذلك: «ومِن هؤلاء طائفة هُم أعلاهم قدرًا، وهُم مستمسكون بالدّين في أداء الفرائض المشهورة، واجتناب المحرّمات المشهورة، لكنْ يغلطون في ترك ما أمروا به مِن الأسباب التي هي عبادة، ظانّين أنّ العارف إذا شهد القدر أعرض عن ذلك، مثل مَن يجعل التوكّل منهم أو الدّعاء ونحو ذلك مِن مقامات العامّة دون الخاصة، بناءً على أنّ مَن شهد القدر علم أنّ ما قدّر سيكون، فلا حاجة إلى ذلك، وهذا غلطٌ عظيم؛ فإن الله قدّر الأشياء بأسبابها كما قدّر السعادة والشقاوة بأسبابها، كما قال النبي ﷺ: «إنّ اللّه خلق للجنة أهلًا، خلقها لهم وهُم في أصلاب آبائهم، وبعمل أهل الجنة يعملون»(٢)، وكما قال النبي ﷺ لمّا أخبرهم بأنّ اللّه كتب المقادير، فقالوا: يا رسول الله، أفلا ندع العمل ونتّكل على الكتاب؟ فقال: (لا، اعملوا فكلّ ميسّر لما خُلق له، أمّا مَن كان مِن أهل السعادة، فسيُيَسر لعمل أهل السعادة، وأمّا مَن كان مِن أهل الشقاوة، فسيُيَسر لعمل أهل الشقاوة»(٣).

بيْنَ الأسباب والتوكّل

إنّ التوكّل هو اعتمادُ القلب على الله – عز وجل – في النّفع والضّر، وفي الرزق، وفي قضاء جميع الحوائج، ولكنْ لا يتمّ هذا التوكّل الذي هو مِن أفضل العبادات عند الله – عز وجل – إلّا بعدما يأخذ الإنسانُ بكافّة الأسباب المتاحة لديه.

وقد فصّل شيخُ الإسلام ابن تيمية هذا المعنى وردّ على الشبهات، ومِن كلامه- رحمه الله: «ومِن هنا غلطوا في ترك الأسباب المأمور بها، وظنّوا أنّ هذا مِن تمام التوكّل، والتّوكل مَقرون

(١) الفتاوى، (١/ ١٣٧، ١٣٨).
(٢) مسند إسحاق بن راهويه، (٢/ ٤٤٨).
(٣) الفتاوى، (١٠/ ١٧١)، وصحيح مسلم، (٤/ ٢٠٥٠)، وصحيح البخاري، (٦/ ١٧١).

بالعبادة في قوله: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾ [هود: ١٢٣]، والعبادة فعلُ المأمور، فمَن ترك العبادة المأمور بها وتوكّل لم يكنْ أحسن حالًا ممّن عبدَه ولم يتوكّل عليه، بل كلاهما عاصٍ لله تاركٌ لبعض ما أمِر به»[١].

وفي موضعٍ آخر يقول: «وأمّا مَن ظنّ أنّ التوكّل يغني عن الأسباب المأمور بها فهو ضالّ، وهذا كمَن ظنَّ أنه يتوكّل على ما قدر عليه من السعادة والشقاوة دونَ أن يفعل ما أَمَره الله».

ويوضّح- أيضًا- كيف يكون التوكّل، فيقول: «فعلى العبد أن يكون قلبُه معتمدًا على الله لا على سببٍ من الأسباب، والله ييسّر له مِن الأسباب ما يُصلحه في الدنيا والآخرة، فإنْ كانت الأسباب مقْدورةً له وهو مأمور بها فعلَها مع التوكّل على الله، كما يؤدّي الفرائض، وكما يجاهد العدو، ويحمل السلاح ويلبس جنّة الحرب، ولا يكتفي في دفْع العدوّ على مجرّد توكّله دونَ أن يفعل ما أمِر به من الجهاد، ومن ترك الأسباب المأمور بها؛ فهو عاجزٌ مفرّط مذموم.

وفي صحيح مسلم، عنْ أبي هريرة t عن النبي ﷺ قال: (المؤمن القوي خيرٌ وأحبّ إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلّ خير، احرصْ على ما ينفعك، واستعنْ بالله ولا تعجز؛ وإنْ أصابك شيء فلا تقل: لو أنّي فعلت لكان كذا وكذا، ولكنْ قل: قدّر الله وما شاء فعل؛ فإنّ لو تفتح عمل الشيطان)[٢].

وفي سنن أبي داود: أنّ رجليْن تحاكما إلى النبي ﷺ فقضى على أحدهما، فقال المقضي عليه: حسبنا الله ونعم الوكيل. فقال ﷺ: «إنّ الله يلوم على العجز، ولكن عليك بالكيس، فإنْ غلبك أمرٌ فقل: حسبنا الله ونعم الوكيل»[٣].

وقد تكلّم الناس في حمل الزّاد في الحجّ وغيره من الأسفار، فالذي مضت عليه سنة رسول الله ﷺ وسنة خلفائه الراشدين وأصحابه والتابعين لهم بإحسان وأكابر المشايخ هو حمل الزاد؛ لما في ذلك مِن طاعة الله ورسوله وانتفاع الحامل ونفعه للناس»[٤].

---

(١) الفتاوى، (٨/ ١٧٧).
(٢) صحيح مسلم، (٤/ ٢٠٥٢).
(٣) شعب الإيمان، (٢/ ٤٢٩).
(٤) الفتاوى، (٨/ ٥٢٩).

ثمّ يتابع ابن تيمية- رحمه الله- كلامَه، ويذكر أنّ الدعاء والتوكّل من أفضل العبادات فيقول: «فقد ظنّ بعض الناس أنّ ذلك (الدّعاء والتوكّل) لا تأثير له في حصول مَطلوب، ولا دفع مَرهوب، ولكنّه عبادة مَحْضة، ولكن ما حصل به حصل بدونه، وظنّ آخرون أنّ ذلك مجرّد علامة، والصواب الذي عليه السلف والأئمة والجمهور أنّ ذلك من أعظم الأسباب التي تُنال بها سعادة الدنيا والآخرة»[1].

ويقول شيخُ الإسلام- أيضًا- موضّحًا بعضَ شبهات الناس حول الأسباب والتوكّل: «وما قدّره الله بالدعاء والتوكّل والكسب وغير ذلك من الأسباب إذا قال القائل: فلو لم يكنِ السّبب ماذا يكون بمنزلة من يقول: هذا المقتول لو لم يقتل هل كان يعيش، وقد ظنّ بعض القدريّة أنه كان يعيش، وظنّ بعض المنتسبين إلى السنة أنه كان يموت.

والصّواب أنّ هذا تقدير لأمر علم الله أنّه يكون؛ فالله قدّر موته بهذا السبب، فلا يموت إلّا به، كما قدّر الله سعادة هذا في الدنيا والآخرة بعبادته ودعائه وتوكّله وعمله الصالح وكسْبه، فلا يحصل إلّا به، وإذا قدّر عدم هذا السبب لم يعلم ما يكون المقدّر، وبتقدير عدمه فقد يكون المقدّر حينئذ أنه يموت، وقد يكون المقدَّر أنه يحيى، والجزم بأحدهما خطأ»[2].

***

(١) الفتاوى، (٨/ ٥٣٠، ٥٣١).
(٢) الفتاوى، (٨/ ٥٣١).

المبحثُ الثّاني

سنةُ اللّه في الاختلاف

الاختلاف في اللغة:

يعني عدمَ الاتفاق على الشيء، بأن يأخذ كلّ واحدٍ طريقًا غير طريق الآخرين في أمريْن من الأمور.

ويعني- أيضًا- عدمَ التساوي: فكلّ ما لم يتساو فقد تخالف.

والاختلاف والخلاف هو المضادّة، وقد خالفه مخالفة وخلافًا فهو يدلّ على ما يدلّ عليه لفظُ الاختلاف، وإن كان معناه أعمّ؛ إذ هو مِن الضّد، ولا يلزم من كلّ مختلفين أن يكونا ضدّين، وإن كان كلّ ضدين مختلفين[1].

لقد أمرنا الله – عز وجل – بالاجتماع والائتلاف، ونهانا عن التفرق والاختلاف، قال تعالى: ﴿ **وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ** ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وقال رسول الله ﷺ: «**ولا تختلفوا؛ فَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ اخْتَلَفُوا فَهَلَكُوا**»[2].

وفي حديث أخرجه الترمذي قال ﷺ: «**عَلَيْكُمْ بِالجَماعَةِ، وَإِيَّاكُمْ وَالفُرْقَةَ؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ الوَاحِدِ، وَهُوَ مِنَ الاثْنَيْنِ أَبْعَدُ**»[3].

ويقول شيخ الإسلام- رحمه الله تعالى: «وأمرنا الله- تعالى- بالاجتماع والائتلاف، ونهانا عن التفرّق والاختلاف»[4].

---

(١) لسان العرب، (١/ ٤٣٠).

(٢) صحيح البخاري، باب: ما يذكر في الأشخاص والخصومة بين المسلم واليهود، (٣/ ١٢٠).

(٣) سنن الترمذي، كتاب الفتن، باب: ما جاء في لزوم الجماعة، (٤/ ٤٦٥)، وانظر: السنة الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد، عبد الكريم زيدان، ص(١٣٧) بتصرف.

(٤) مجموع الفتاوى، (١٩/ ١٨٦).

وهذا يعني أنّ الاختلاف سنة بشرية لا يمكن إغفالها، أو يستحيل أن يوجد مجتمع بشري دون أن يكون بين أفراده اختلافات، يذكر شيخ الإسلام ذلك ويوضّحه في أثناء حديثه عنْ دعاء النبي ﷺ لأمّته حيث يقول- صلوات الله وسلامه عليه- في الحديث الصحيح: «سألت ربي لأمتي ثلاثًا فأعطاني اثنتيْن ومنعني واحدة، سألته أن لا يهلك أمتي بسِنَة عامّة فأعطانيها، وسألته أن لا يسلّط عليهم عدوًا من غيرهم فيجتاحهم فأعطانيها، وسألته أنْ لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها، وقال: يا محمّد، إني إذا قضيت قضاءً لا يُرَد»[١]. فيقول شيخ الإسلام: «وكذلك في الصحيحيْن: لّما نزل قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥] قال النبي ﷺ: (أعوذ بوجهك). ﴿أو من تحت أرجلكم﴾ قال: (أعوذ بوجهك). ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ قال: (هاتان أهون)[٢].

وهذا لأنّه لا بدّ أن تقع الذنوب من هذه الأمّة، ولا بدّ أن يختلفوا؛ فإن هذا من لوازم الطبع البشري، لا يمكن أن يكون بنو آدم إلّا كذلك، ولهذا لم يكن ما وقع فيها من الاختلاف والقتال والذنوب دليلاً على نقصها، بل هي أفضل الأمم، وهذا الواقع بينهم من لوازم البشرية، وهو في غيرها أكثر وأعظم، وخير غيرها أقلّ، والخير فيها أكثر، والشرّ فيها أقلّ، فكلّ خير في غيرها فهو فيها أعظم، وكلّ شرّ فيها فهو في غيرها أعظم»[٣].

معنى الاختلاف عند شيخ الإسلام ابن تيمية:

جاء لفظُ الاختلاف في القرآن الكريم في آياتٍ كثيرة، وكان في معظم المواد يدلّ على التّضاد لا المقابلة، يقول شيخُ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله: «ولفظ (الاختلاف) في القرآن يُراد به التّضاد والتعارض، لا يُراد به مجرّد عدم التماثل- كما هو اصطلاح كثيرٍ من النّظّار- ومنه قوله: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، وقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ [الذاريات: ٨-٩]، وقوله: ﴿وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢٥٣]»[٤].

---

(١) روى جزءًا منه مسلم في صحيحه، باب: هلاك هذه الأمّة بعضهم ببعض، (٤/ ٢٢١٥).
(٢) صحيح البخاري، باب: قوله: ﴿قل هو القادر﴾، (٦/ ٥٦).
(٣) مجموع الفتاوى، (١٤/ ١٥٠-١٥١).
(٤) مجموع الفتاوى، (١٣/ ١٩).

ولقد تعدّدت أوْجه الاختلاف بين الناس على مرّ العصور والأزمان، خاصّة فيما يتعلّق بالقضايا الخلافية الدينية، ومِن أوْجه الاختلاف التي ذكرها ابن تيمية «اختلاف الناس فيما يشرع من الدّعاء وما لا يشرع، وكاختلافهم هل تشرع الصّلاة عند الذبح، وليس هو مِن مسائل السبّ عند أحدٍ مِن المسلمين»(١).

هلاكُ الأمّة بالاختلاف:

إنّ الإسلام أمر بالاجتماع، ونهى عن الاختلاف وعدم الاتفاق؛ وذلك لأنّ الله - عز وجل - يعرف طبيعةَ الناس البشرية؛ المسلمين منهم وغير المسلمين، لذلك كان الاختلاف مذمومًا وهو مِن أسباب هلاك الأمم، والائتلاف ممدوحًا وهو من أسباب بقائها وقوتها؛ فالاتحاد قوّة، والتفرقة ضعف، لذلك وضّح شيخ الإسلام هذا الأمرَ وبيّنه عندما ذكر حديث الإمام مسلم عن عبد الله بن مسعود قال: سمعت رجلًا قرأ آية سمعت النبي يقرأ خلافَها، فأخذت بيده فانطلقت به إلى النبي ﷺ، فذكرت ذلك فعرفت في وجهه الكراهية، وقال: «**كلاكما مُحسن، ولا تختلفوا؛ فإنّ مَن كان قبلكم اختلفوا فهلكوا**»، فذكر أنّ هذا الحديث أخرجه الإمام مسلم، ثمّ قال: نهى النبي ﷺ عن الاختلاف الذي فيه جحد كلّ واحدٍ من المختلفين ما معَ الآخر من الحقّ؛ لأنّ كلا القارئين كان مُحسنًا فيما قرأه، وعلّل ذلك: بأنّ مَن كان قبلنا اختلفوا فهلكوا؛ فالخلاف إذًا علّة هلاك الأمّة(٢).

تطبيقاتٌ على السنّة السابقة:

جاءت تطبيقاتُ شيخ الإسلام- رحمه الله- لهذه السنّة كثيرة لا نستطيع إحصاءها هنا، وهي تطبيقاتٌ واعية عالج فيها كثيرًا من أوجه الخلاف في الأمّة المسلمة، ومن هذه التطبيقات الخلافُ بين أهل السنّة وأهل البدعة، موضّحًا أنّ أهل السنة هُم أهل طاعة الله- تعالى، وجزاؤهم الجنة، وأهل البدعة هُم أناس خضعوا لأهوائهم وحادوا عن منهج الله- تعالى- وسنّة النبي ﷺ، وهنا

(١) مجموع الفتاوى، (١/ ١٠٦).
(٢) اقتضاء الطريق المستقيم، ص(٣٥)، والحديث أخرجه الإمام البخاري، (٤/ ١٧٥).

طرفٌ من كلام شيخ الإسلام يوضّح فيه جزءًا من هذه التطبيقات؛ فيقول: «إنّ الله - عز وجل - أمرنا بالاتحاد وعدم التفرق؛ حيث قال - سبحانه وتعالى -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٢-١٠٣] إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ [آل عمران: ١٠٥] إلى قوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، فأمرنا بملازمة الإسلام إلى الممات، كما أمر الأنبياء جميعَهم بالإسلام، وأن نعتصم بحبله جميعًا ولا نتفرق، ونهانا أن نكون كالذين تفرّقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات، وذكر أنه تبيضّ وجوه وتسودّ وجوه، قال ابن عباس: تبيضّ وجوه أهل السنّة والجماعة، وتسودّ وجوه أهل البدعة والفرقة، وذكر أنّه يقال لهم: ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٠٦]، وهذا عائد إلى قوله: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ فأمر بملازمة الإسلام، وبيّن أن المسودّةَ وجوهُهم أهل التفرق والاختلاف»[(١)].

ووضّح شيخ الإسلام أنّ الابتعاد عن الأصول الثابتة من كتاب وسنة هو أصل كلّ الخلافات بين المسلمين، وأنّ التمسك بهذه الأصول هو الحلّ الأمثل لإنشاء أمّة الإسلام المتّحدة التي هي خير أمّة أخرجت للناس، فيرى أنه «إذا كان الله- تعالى- قد أَمَرنا بطاعة الله وطاعة رسوله وأولي الأمر منّا، وأمرنا عند التنازع في شيء أن نردّه إلى الله وإلى الرسول، وأمرنا بالاجتماع والائتلاف، ونهانا عن التفرّق والاختلاف، وأمرنا أن نستغفر لِمَن سبقنا بالإيمان، وسمّانا المسلمين، وأمرنا أن ندوم عليه إلى الممات، فهذه النصوص وما كان في معناها توجبُ علينا الاجتماع في الدين كاجتماع الأنبياء قبلنا في الدين، وولاة الأمور فينا هُم خلفاء الرسول، قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: (**إن بني إسرائيل كانت تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبي قام نبي، وإنه لا نبي بعدي، وسيكون خلفاء ويكثرون. قالوا: فما تأمرنا يا رسول الله؟ قال: أوفوا بيعة الأول فالأول، وأدوا لهم الذي لهم؛ فإن الله سائلهم عمّا استرعاهم**)[(٢)]. وقال أيضًا: (**العلماء**

(١) مجموع الفتاوى، (١٩/ ١١٤، ١١٥).
(٢) مسند أحمد، ط الرسالة، مسند أبي هريرة، (١٣/ ٣٤٠).

ورثة الأنبياء»[1]. وروي عنه أنّه قال: (**وددت أني قد رأيت خلفائي. قالوا: ومَن خلفاؤك؟ قال: الذين يحيون سنتي يعلّمونها الناس**)[2]. فهؤلاء هُم ولاة الأمر بعدَه، وهُم الأمراء والعلماء، وبذلك فسّرها السلف ومَن تبعهم مِن الأئمة كالإمام أحمد وغيره.

فالأصولُ الثابتة بالكتاب والسنّة والإجماع هي بمنزلة الدّين المشترك بين الأنبياء، ليس لأحدٍ خروج عنها، ومَن دخل فيها كان مِن أهل الإسلام المحض، وهُم أهل السنة والجماعة.

وما تنوّعوا فيه مِن الأعمال والأقوال المشروعة فهو بمنزلة ما تنوّعت فيه الأنبياء، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وقال تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ﴾ [البقرة: ٢٠٨]»[3].

كما تحدّث الشيخ عن هذه السنّة الإلهية في أثناء تفسيره لبعض آيات القرآن الكريم، فيقول في قوله تعالى: ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ ١ رَسُولٞ مِّنَ ٱللَّهِ يَتۡلُواْ صُحُفٗا مُّطَهَّرَةٗ ٢﴾ [البينة: ١، ٢]: جملة فيه بيان إرسال الرسول إلى الجميع.

وقوله: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ ٤﴾ [البينة: ٤] فيه إقامة الحجّة على أهل الشرائع، وذمّ تفرّقهم واختلافهم، وأن ذلك بعد أن جاءتهم البينة.

وهاتان الجُمْلتان نظيرهما قوله: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣]، ثمّ قال: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢١٣].

---

(١) سنن أبي داود، ت: الأرنؤوط، باب: الحث على العلم، (٥/ ٤٨٥).
(٢) جامع بيان العلم وفضله، باب: فساد التقليد ونفيه، (٢/ ٩٩٧).
(٣) الفتاوى، (١٩/ ١١٦) وما بعدها.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ [الشورى: ١٣]، ثمّ قال: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ﴿١٤﴾﴾ [الشورى: ١٤].

وقوله: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ﴿١١٠﴾﴾ [هود: ١١٠، فصلت: ٤٥] في سورة هود وسورة عسق[(١)].

ثمّ ذكر ما أمر به الجميع بقوله: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾ [البينة: ٥]، ثمّ ذكر عاقبة الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين، وعاقبة الذين آمنوا وعملوا الصالحات»[(٢)].

معنى ذلك- كما ذكره الشيخ- أنه لا بدّ من إرسال الرسل إلى الناس بالبينات، ولكنّ الناس هُم الذين يختلفون في أنبيائهم، وهذا التفرّق والاختلاف لا يزول إلّا بالاجتماع على الدّين الحقّ، وإقامة شريعة الله في الأرض، وإلّا سيكون هذا التفرق سببًا لهلاكهم في الدين، وعقوبتهم في الآخرة.

ويذكر شيخُ الإسلام ابن تيمية في موضعٍ آخر أنّ الاختلاف والفرقة كان بسبب ترك الحقّ وأخذهم الباطل؛ فيقول: «وقد ظهر بذلك أنّ المفترقين المختلفين من الأمّة إنّما ذلك بتركهم بعض الحقّ الذي بعث الله به نبيه، وأخذهم باطلًا يخالفه، واشتراكهم في باطلٍ يخالف ما جاء به الرسول، وهو مِن جنس مخالفة الكفار للمؤمنين كما قال تعالى: ﴿تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۘ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾ [البقرة: ٢٥٣].

---

(١) كذا.

(٢) الفتاوى، (١٦/ ٥٠٩، ٥١٠).

فإذا اشتركوا في باطل خالفوا به المؤمنين المتّبعين للرسل نسوا حظًّا ممّا ذكّروا به فألقى بينهم العداوة والبغضاء، واختلفوا فيما بينهم في حقّ آخر جاء به الرسول، فآمن هؤلاء ببعضه وكفروا ببعضه، والآخرون يؤمنون بما كفر به هؤلاء، ويكفرون بما يؤمن به هؤلاء»(١).

ويذكر شيخُ الإسلام في تفسيره لكلمة ﴿بَغْيَا بَيْنَهُمْ﴾ أنّ سبب الاختلاف كان «بغيًا على الدنيا، وطلبَ ملكها وزخرفها وزينتها، أيّهم يكون له الملك والمهابة في النّاس فبغى بعضُهم على بعض وضرب بعضهم رقاب بعض»(٢).

يرسل الله الرسلَ عند الاختلاف

للاختلاف خطرٌ كبير على الأمّة المسلمة التي هدفها الأساس قيادة الناس إلى الحقّ والخير، ومن سنة الله- تعالى- أنه يرسل الرسل عندما يجد الأمّة مختلفة في أمورها، لا تجد الحقّ والعدل قائمين بها.

يقول شيخ الإسلام- رحمه الله: «وأنّ الله إنّما أرسل الرسل وأنزل الكتب عند الاختلاف ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ [البقرة: ٢١٣] قال: أنزل الكتاب عند الاختلاف، ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ﴾ [البقرة: ٢١٣]، يعني: بني إسرائيل أوتوا الكتاب والعلم ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ [البقرة: ٢١٣]»(٣).

كيف نخرج مِن الاختلاف، وما نتائج ذلك البعد عن الاختلاف؟

مِن أهمّ الحلول التي يمكن السعي في تحصيلها هو إقامةُ النفوس على منهاج الله من العبادة الحقّة والشرائع الربانية والأخلاق القويمة.

قال تعالى: ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢١٣] بعد ذكر هذه الآية وضّح شيخ الإسلام أنهم خرجوا من الاختلاف فـ«أقاموا على الإخلاص لله وحده وعبادته لا شريك له، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وأقاموا على الأمر الأول الذي كان

(١) الفتاوى، (١٦/ ٢٤٥).
(٢) الفتاوى، (١٦/ ٥١٤)، وتفسير الطبري، (٤/ ٢٨٢).
(٣) الفتاوى، (١٦/ ٥١٤).

قبل الاختلاف، واعتزلوا الاختلاف، فكانوا شهداء على الناس يوم القيامة، كانوا شهداء على قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم شعيب وآل فرعون أنّ رسلهم قد بلغتهم، وأنهم كذبوا رسلهم»(١).

الاختلافُ نوعان:

اهتمّ القرآن الكريم بقضية الاختلاف لما فيها من فساد كبير في الأرض؛ فالأمم المختلفة لا يمكن لها أن تقيم حضارة أو تبني مجدًا؛ لذا بيّن لنا أوجه الاختلاف حتى نفهمها ولا نكون من المتفرقين.

يقول شيخُ الإسلام: «إنّ الاختلاف في كتاب الله نوعان: الأول: اختلاف مذموم يذمّ فيه المختلفين كلّهم، كقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ﴾ [البقرة: ١٧٦]، وقوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ﴾ [هود: ١١٨].

والثاني: يمدحُ المؤمنين ويذمّ الكافرين كقوله: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخۡتَلَفُواْ فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ وَمِنۡهُم مَّن كَفَرَۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ٢٥٣﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وقوله: ﴿هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ﴾ [الحج: ١٩] إلى قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الحج: ٢٣]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ [الحج: ١٧].

ويقول شيخ الإسلام: «وإذا كان كذلك فالذي ذمّه من تفرق أهل الكتاب واختلافهم ذمّ فيه الجميع، ونهى عن التشبّه بهم فقال: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ﴾ [آل عمران: ١٠٥]، وقال: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡ﴾ [البقرة: ٢١٣](٢).

---

(١) الفتاوى، (١٦/ ٥١٤).

(٢) الفتاوى، (١٦/ ٥١٤، ٥١٥) بتصرف.

كيف نتعاملُ مع الاختلاف»

تحدّث شيخُ الإسلام عن أسباب الاختلاف والتفرق واضعًا الحلول الجيدة المستنبطة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ لكي يظلّ الناس مؤتلفين غير مُختلفين، وتحدّث عن هذه الحلول في عدّة مواضع منها ما ذكره بأنّ «سبب الاجتماع والألفة جمع الدّين والعمل به كلّه، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، كما أمر به باطنًا، وظاهرًا.

وسببُ الفرقة: ترك حظّ ممّا أمر العباد به، والبغي بينهم.

ونتيجة الجماعة: رحمة الله، ورضوانه، وصلواته، وسعادة الدنيا والآخرة، وبياض الوجوه.

ونتيجة الفرقة: عذاب الله، ولعنته، وسواد الوجوه، وبراءة الرسول ﷺ منهم.

وهذا أحدُ الأدلة على أنّ الإجماع حجّة قاطعة؛ فإنهم إذا اجتمعوا كانوا مطيعين لله بذلك مرحومين، فلا تكون طاعة الله ورحمته: بفعل لم يأمر الله به من اعتقاد، أو قول، أو عمل، فلو كان القول، أو العمل الذي اجتمعوا عليه لم يأمر الله به لم يكن ذلك طاعة لله، ولا سببًا لرحمته»[١].

ويضع شيخُ الإسلام سببًا لحلّ المشاكل والمنازعات في موضع آخر، فيقول: «أمر– سبحانه– بطاعته وطاعة رسوله وأولي الأمر منّا، وأمر إنْ تنازعنا في شيء أنْ نردّه إلى الله والرسول، فدلّ هذا على أنّ كلّ ما تنازع المؤمنون فيه من شيء فعليهم أن يردّوه إلى الله والرسول، والمعلّق بالشرط يعدم عند عدم الشرط، فدلّ ذلك على أنهم إذا لم يتنازعوا لم يكنْ هذا الأمر ثابتًا، وكذلك إنّما يكون لأنّهم إذا لم يتنازعوا كانوا على هدى وطاعة لله ورسوله، فلا يحتاجوا حينئذ أنْ يأمروا بما هم فاعلون من طاعة الله والرسول»[٢].

ويقول– أيضًا– شيخُ الإسلام في موضعٍ آخر موضّحًا أنّ هناك أصولًا ثابتة يجب أن يتّفق عليها الناس، هي القاسم المشترك، وما عداها ففيه الاختلاف باجتهاد وحجة، ولكلٍّ أجرُه: «فالأصول الثابتة بالكتاب والسنة والإجماع هي بمنزلة الدين المشترك بين الأنبياء، ليس لأحدٍ خروج عنها، ومَن دخل فيها كان مِن أهل الإسلام المحض وهُم أهل السنة والجماعة.

---

(١) الفتاوى، (١/ ١٧).

(٢) الفتاوى، (١٩/ ٩١).

وما تنوّعوا فيه مِن الأعمال والأقوال المشروعة فهو بمنزلة ما تنوّعت فيه الأنبياء، قال الله- تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وقال تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [المائدة: ١٥-١٦]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ﴾ [البقرة: ٢٠٨].

والتنوّع قد يكون في الوجوب تارة، وفي الاستحباب أخرى»[١].

ولقد أفاض شيخُ الإسلام في هذا الجانب، ولا يمكن حصر ما وضعه من حلول، وما رصده من مواضع الخلاف في هذا الجانب، ولكن هذه بعض فيما أفاض فيه، ومن ذلك- أيضًا- توضيحُه لمذهب السنة والجماعة: «ومذهب أهل السنة والجماعة أنه لا إثم على مَن اجتهد وإنْ أخطأ، فهذا النوع يشبه النوع الأول من وجْه دون وجْه، أمّا وجْهُ المخالفة فلأنّ الأنبياء- عليهم السلام- معصومون عن الإقرار على الخطأ بخلاف الواحد من العلماء والأمراء؛ فإنه ليس معصومًا من ذلك، ولهذا يسوغ بل يجب أنْ نبيّن الحقّ الذي يجب اتباعه، وإن كان فيه بيان خطأ من أخطأ من العلماء والأمراء»[٢].

***

(١) الفتاوى، (١٩/ ١١٧، ١١٨).
(٢) الفتاوى، (١٩/ ١٢٣).

المبحثُ الثّالث

سنّةُ الله في المتساوين والمختلفين

لقد جعل الله - عز وجل - المتساوين في الصّفات والأعمال ممّن يطيعون الله ورسوله لهم جزاؤهم، والمختلفون في الصفات والأحكام ممّن لا يتبعون منهج الله ولا يتبعون سنة رسول الله لهم أحكامهم وعقوباتهم الجامعة.

يقول شيخُ الإسلام ابن تيمية موضّحًا هذه السنّة الربانية: «وهو - سبحانه - كما يفرق بين الأمور المختلفة فإنه يجمع ويسوّي بين الأمور المتماثلة، فيحكم في الشيء خَلقًا وأمرًا بحكم مثله لا يفرق بين متماثلين ولا يسوي بين شيئين غير متماثلين، بل إن كانا مختلفين متضادين لم يسوّ بينهما، ولفظ (الاختلاف) في القرآن يراد به التضاد والتعارض، لا يراد به مجرّد عدم التماثل - كما هو اصطلاح كثيرٍ من النّظّار - ومنه قوله: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾، وقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾﴾، وقوله: ﴿وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾.

وقد بيّن - عز وجل - أنّ السنة لا تتبدّل ولا تتحوّل في غير موضع، و(السنّة): هي العادة التي تتضمّن أن يفعل في الثاني مثل ما فعلَ بنظيره الأول؛ ولهذا أمر - عز وجل - بالاعتبار وقال: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [يوسف: ١١١].. والاعتبار أن يقرَنَ الشيء بمثله فيعلم أنّ حكمه مثل حكمه، كما قال ابن عباس: هلّا اعتبرتم الأصابع بالأسنان؟ فإذا قال: ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ وقال: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ أفاد أنّ مَن عمل مثل أعمالهم جوزيَ مثل جزائهم؛ ليحذر أنْ يعمل مثل أعمال الكفار؛ وليرغب في أن يعمل مثل أعمال المؤمنين أتباع الأنبياء، قال تعالى: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ [آل عمران: ١٣٧]، فالله - تعالى - أخبر أنّ سنّته لن تتبدّل ولن تتحوّل.

وسنّته- تعالى- عادته التي يسوي فيها بين الشيء وبين نظيره الماضي، أي: الذي وقع قبله، وهذا يقتضي أنه- سبحانه- يحكم في الأمور المتماثلة بأحكام متماثلة، ولهذا قال تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ﴾ [القمر: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢]، أي: أشباههم ونظراءهم. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾، أي: قرن النظير بنظيره، وقال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة: ١٠٠]، فجعل- تعالى- التابعين لهم بإحسانٍ مُشاركين لهم فيما ذكر من الرضوان والجنة»[١].

إذًا ما السببُ الذي جعل الناس لا يستطيعون التفرقة بين الأجناس؟

«إنّ السبب الذي أوقع الناس في هذا الخطأ حينما سوّى بعضهم بين الأجناس المختلفة التي فرّق الله بينها غاية التفريق هو شهودُهم للحقيقة الكونية دون الحقيقة الدينية، حتى آل بهم الأمرُ إلى أنْ يسووا الله بالأصنام، كما قال الله- تعالى- عنهم: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الشعراء: ٩٧، ٩٨]، بل قد آل الأمرُ بهؤلاء إلى أنْ سوّوا الله بكلّ موجود، وجعلوا ما يستحقه من العبادة والطاعة حقًّا لكلّ موجود، إذ جعلوه هو وجود المخلوقات، وهذا من أعظم الكفر والإلحاد برب العباد.

والحقيقة الكونية: هي التي يشترك فيها وفي شهودها ومعرفتها المؤمن والكافر والبر والفاجر، وإبليس مُعترف بهذه الحقيقة وأهل النار؛ فهو- سبحانه- خالقهم ورازقهم، وهو مدبّر الأمر كله.

والحقيقة الدينية: هي عبادته المتعلّقة بإلهيّته وطاعة أمره وأمر رسوله.

فمَن وقف عند هذه الحقيقة الكونية كان مِن جنس إبليس وأهل النار، ونظائر ذلك ما يفرّق به بين أهل الحقّ وأهل الباطل، وأهل الطاعة وأهل المعصية، وأهل البر وأهل الفجور، وأهل الهدى وأهل الضلال، وأهل الغي وأهل الرشاد، وأهل الصدق وأهل الكذب»[٢].

(١) مجموع الفتاوى، (١٣/ ١٩) وما بعدها، وانظر: كتاب السنة الإلهية بين الأمم والأفراد والجماعات، ص(١٦٤).
(٢) مجموع الفتاوى، (١٠/ ١٥٩) وما بعدها.

متى يفرّق الله بين متماثلين؟

هناك ظواهرُ قد يجدها الناس مُخالفة لسنة الله -عز وجل - في ظاهر الأمر، مثل: أن يفرّق الله - عز وجل - بيْن متماثلين، فيقول شيخُ الإسلام في ذلك موضّحًا هذه الصورة: «وبالجملة، فالشارع حكيمٌ لا يفرّق بين متماثلين إلّا لاختصاص أحدهما بما يوجب الاختصاص، ولا يسوّي بين مُختلفين غير مُتساوييْن، بل قد أنكر- سبحانه- على مَن نسبه إلى ذلك، وقبّح مَن يحكم بذلك، فقال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١]، وقال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [القلم: ٣٥-٣٦]، وقال تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾﴾، وقال تعالى: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾﴾ [الحشر: ٢]»[1].

ويتّضح من الآيات السابقة أنّ سنّة الله تعالى في خلقه أنْ يسوّي بين المتماثلين ويفرّق بين المختلفين، ولكنّه قد يفرق بين المتماثلين لاختصاص أحدهما بصفاتٍ لم تكن في الآخر؛ فنجد أنّ الله- تعالى- قد فرّق تفرقة تامّة بين المؤمنين والكافرين، وفرّق بين المتماثلين من المؤمنين عندما اختصّ بعض المؤمنين بعمل الصالحات واختصّ بعضهم بالفساد في الأرض واكتساب المعاصي؛ فهم مجرمون بما اقترفوه من الآثام والذنوب، لذلك فقد خرجوا عن طبيعتهم الإيمانية التي بدؤوا بها، وبعدوا عن المؤمنين أصحابهم وأمثالهم.

المساواةُ في الثّواب والعقاب للمتساويين لهم في الأعمال:

قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة: ١٠٠].

---

(١) مجموع الفتاوى، (١٧/ ١٢٧).

يقول شيخُ الإسلام في هذه الآية: «فجعل التابعين لهم بإحسان مشاركين لهم فيما ذكر من الرضوان والجنة».

ويذكر سببَ ذلك فيقول حيث قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ١٠﴾ [الحشر: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنۡهُمۡ لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٣﴾ [الجمعة: ٣]: «فمن اتبع السابقين الأولين كان منهم، وهم خير الناس بعد الأنبياء؛ فإن أمّة محمد خير أمّة أخرجت للناس، وأولئك خير أمّة محمد، كما ثبت في الصحاح مِن غير وجْه أنّ النبي ﷺ قال: «**خير القرون القرن الذي بعثت فيهم ثمّ الذين يلونهم ثمّ الذين يلونهم**)»[1].

تحدّث شيخُ الإسلام تطبيقًا على سنّة التماثل والاختلاف عن الكلام الجامع موضحًا ماهيته فيقول: «فلمّا كانت الحقائق المقصودة والموجودة ترجع إلى أصل واحد وهو الله- سبحانه، كان الكلام الحقّ فيها خبرًا وأمرًا متشابهًا ليس بمنزلة المختلف المتناقض، كما يوجد في كلام أكثرِ البشر، والمصنّفون الكبار منهم يقولون شيئًا ثمّ ينقضونه وهو جميعُه مثاني؛ لأنه استوفيت فيه الأقسام المختلفة؛ فإن الله يقول: ﴿وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ﴾ [الذاريات: ٤٩]، فذكر الزوجين مثاني، والإخبار عن الحقائق بما هي عليه بحيث يحكم على الشيء بحكم نظيره، وهو حكم على المعنى الواحد المشترك خبرًا أو طلبًا خطاب متشابه، فهو متشابه مثاني.

وهذا في المعاني مثل الوجوه والنظائر في الألفاظ؛ فإن كلّ شيئين من الأعيان والأعراض وغير ذلك إمّا أن يكون أحدهما مثل الآخر، أو لا يكون مثله، فهي الأمثال وجمعها هو التأليف، وإذا جاءت بلفظ واحد كانت نظائر، وإن لم يكن مثله فهو خلافه، سواء كان ضدًّا أو لم يكن، وقد يقال: إمّا أن يجمعهما جنس أو لا، فإن لم يجمعهما جنس فأحدهما بعيدٌ عن الآخر، ولا مناسبة بينهما، وإن جمعهما جنس فهي الأقسام، وجمعها هو التصنيف، ودلالة اللفظ الواحد على المعاني المختلفة تسمّى الوجوه.

(١) الفتاوى، (١٣/ ٢٣) وما بعدها، وانظر: كتاب عبد الكريم زيدان، ص(١٨٢) بتصرف كبير.

والكلام الجامع هو الذي يستوفي الأقسام المختلفة والنظائر المتماثلة جمعًا بين المتماثلين وفرقًا بين المختلفين، بحيث يبقى محيطًا، وإلّا فذكْر أحدِ القسمين أو المثلين لا يفيد التّمام، ولا يكون الكلم محيطًا ولا الكلم جوامع وهو فعل غالب الناس في كلامهم.

والحقائق في نفسها: منها المختلف ومنها المؤتلف، والمختلفان بينهما اتفاق من وجه وافتراق من وجْه، فإذا أحاط الكلام بالأقسام المختلفة والأمثال المؤتلفة كان جامعًا، وباعتبار هذه المعاني كانت ضروب القياس العقلي المنطقي ثلاثة: الحمليات، والشرطيات المتصلة، والشرطيات المنفصلة.

فالأول للحقائق المتماثلة الداخلة في القضية الجامعة.

والثاني للمختلفات التي ليست متضادة، بل تتلازم تارة، ولا تتلازم أخرى.

والثالث للحقائق المتضادة المتنافية، إمّا وجودًا أو عدمًا وهي النقيضان، وإمّا وجودًا فقط وهو أعمّ من النقيضين، وإمّا عدمًا فقط وهو أخصّ من النقيضين.

فالحمليّات للمثلين، والأمثال والشرطيّات المنفصلة للمتضادين والمتضادات، ويسمى التقسيم والسبر والترديد والبياني، والمتّصلة للخلافين غير المتضادين، ويسمّى التلازم»[1].

***

(١) مجموع الفتاوى، (١٦/ ٥٢٣) وما بعدها.

المبحثُ الرّابع

سنّةُ الله في الفرقان بين الحقّ والباطل

سنّة الفرقان هي سنّة من سننِ الله الإلهية التي يفرّق الله بها بين الحقّ والباطل، والهدى والضلال، والخير والشر، والرشاد والغي، والصدق والكذب، والعلم والجهل، والمعروف والمنكر، والسعداء والأشقياء.

معنى الفرقان في اللغة:

الفَرْقُ خلافُ الجمع، فَرَقه يَفْرُقُه فَرْقًا، وفَرَّقه وقيل فَرَقَ للصلاح فَرْقًا وفَرَّق للإِفساد تَفْريقًا، وانْفَرَقَ الشيء وتَفَرَّق وافْتَرَقَ، والفرقُ طائفة من الناس والفريق طائفة من الناس والمَفرَق والمِفرق: وسط الرأس الذي يفرق فيه الشعر، ومفرق الطريق ومفرقه: متشعبه الذي يتشعّب فيه طريق آخر، والفرقان القرآن: وكلّ ما فرق به بين الحقّ والباطل، والفرقان الحجّة، والفرقان: النصر(١).

قال ابن القيم- رحمه الله: الفرقان: النور الذي يفرق به العبد بين الحقّ والباطل، وكلّما كان قلبه أقرب إلى الله كان فرقانه أتمّ(٢).

تقريرُ سنّة الفرقان في القرآن الكريم:

إنّ سنّة الله في التفريق بين الحقّ والباطل واضحةً بيّنة بالنظر والاعتبار والعلم والفهم، فمِن سنّته- سبحانه- أن ينجّي أهل الحقّ وينصرهم، ويعذّب أهل الباطل ويهزمهم، كما أنّه سبحانه جعل هناك فرقًا واضحًا بين أولياء الله وأعداء الله، فأحسن إلى أوليائه وعاقب أعداءه، يقول شيخُ الإسلام- رحمه الله: (وهنا قال: ﴿وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ جاء بلفظ الإنزال؛ فلهذا شاع بينهم أنّ القرآن والبرهان يحصل بالعلم والبيان كما حصل بالقرآن ويحصل بالنظر والتّمييز بين أهل الحقّ

(١) لسان العرب، صـ١٦٨ وما بعدها جـ١١

(٢) إعلام الموقّعين: ٤/ ١٩٩.

والباطل بأن ينجّي هؤلاء وينصرهم ويعذّب هؤلاء، فيكون قد فرق بين الطائفتين كما يفرّق المفرق بين أولياء الله وأعدائه بالإحسان إلى هؤلاء وعقوبة هؤلاء»[1].

قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ [الفرقان: ١]، وقال تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ [آل عمران: ١-٤].

قال جماهير المفسرين: هو القرآن، روى ابن أبي حاتم بإسناده عن الربيع بن أنس قال: هو الفرقان فرق بين الحقّ والباطل.

قال: وروي عن عطاء ومجاهد ومقسم وقتادة ومقاتل بن حيان نحْو ذلك.

وروي بإسناده عن شيبان عن قتادة في قوله: ﴿وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ قال: هو القرآن الذي أنزله اللهُ على محمّد، ففرق به بين الحقّ والباطل، وبيّن فيه دينه، وشرع فيه شرائعه، وأحلّ حلاله، وحرّم حرامه، وحدّ حدوده، وأمر بطاعته، ونهى عن معصيته.

وعن عباد بن منصور: سألت الحسن عن قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ قال: هو كتاب بحقّ.

و(الفرقان): مصدر فرق فرقانًا، مثل: الرّجحان والكفران والخسران، وكذلك (القرآن) هو في الأصل مصدر قرأ قرآنًا، ومنه قوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ [القيامة: ١٧-١٩].

ويسمّى الكلام المقروء نفسه (قرآنًا)، وهو كثيرٌ كما في قوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾ [النحل: ٩٨].

ويقول شيخُ الإسلام- أيضًا: «لفظ (الفرقان) إذا أريد به المصدر كان المراد أنّه أنزل الفصل والفرق بين الحقّ والباطل، وهذا منزّل في الكتاب، فإن في الكتاب الفصل، وإنزال الفرق هو إنزال الفارق.

(١) مجموع الفتاوى: جـ١٣ صـ١٠

وإنْ أريد بالفرقان ما يفرق فهو الفارق- أيضًا، فهما في المعنى سواء.

وإنْ أريد بالفرقان نفس المصدر فيكون إنزاله كإنزال الإيمان، وإنزال العدل، فإنه جعل في القلوب التفريق بين الحقّ والباطل بالقرآن، كما جعل فيها الإيمان والعدل، وهو - تعالى - أنزل الكتاب، والميزان قد فسّر بالعدل، وفسّر بأنه ما يوزن به ليعرف العدل، وهو كالفرقان يفسّر بالفرق، ويفسّر بما يحصل به الفرق، وهُما متلازمان؛ فإذا أريد الفرق نفسُه فهو نتيجة الكتاب وثمرته ومقتضاه، وإذا أريد الفارق فالكتاب نفسُه هو الفارق، ويكون له اسمان كلّ اسم يدلّ على صفة ليست هي الصفة الأخرى، سمي كتابًا باعتبار أنّه مجموع مكتوب تحفظ حروفه ويقرأ ويكتب، وسمي فرقانًا باعتبار أنه يفرق بين الحقّ والباطل- كما تقدم.

كما سمّي هدى باعتبار أنه يهدي إلى الحقّ، وشفاء باعتبار أنه يشفي القلوب من مرض الشبهات والشهوات، ونحو ذلك من أسمائه»[١].

أعظم فرقانًا

جعل الله - عز وجل - الفرقانَ منحةً إلهية وصفةً ربانية لأحبائه المتّبعين لهديه، وهي صفة يستطيعون بها التّفرقة بين الحقّ والباطل بحساسية مفرطة وفراسة رائعة، فهُم متوسّمون يرون الحقّ دائمًا كضوء الشمس، يقول شيخُ الإسلام: «فمَن كان أعظم اتباعًا لكتابه الذي أنزله ونبيّه الذي أرسله كان أعظم فرقانًا، ومَن كان أبعد عن اتباع الكتاب والرسول كان أبعدَ عن الفرقان، واشتبه عليه الحقّ بالباطل، كالذين اشتبه عليهم عبادة الرحمن بعبادة الشيطان، والنبي الصادق بالمتنبئ الكاذب، وآيات النبيّين بشبهات الكذابين، حتى اشتبه عليهم الخالق بالمخلوق»[٢].

يتّضح ممّا سبق أنّ الفرقان يتنوّع بتنوّع الهيئات والأفراد، وأنّ الناس مُختلفين في درجات الفرقان كما أنّهم مختلفين في درجات الإيمان، ويؤكّد شيخُ الإسلام على هذا المعنى فيقول: (فهذا هو الفرقان بين أهل الإيمان والسنة وأهل النفاق والبدعة، وإن كان هؤلاء لهم مِن الإيمان

(١) مجموع الفتاوى، (١٣/ ٧، ٨، ٩) وما بعدها باختصار وتصرّف.

(٢) الفتاوى، (١٣/ ٦).

نصيبٌ وافر مِن اتباع السنة لكن فيهم من النفاق والبدعة بحسب ما تقدّموا فيه بين يدي الله ورسوله وخالفوا الله ورسوله، ثمّ إن لم يعلموا أنّ ذلك يخالف الرسول ولو علموا لما قالوه لم يكونوا منافقين، بل ناقصي الإيمان مبتدعين، وخطؤهم مغفور لهم، لا يعاقَبون عليه وإن نقصوا به)[١].

ويقول- أيضًا- ذاكرًا أهل البدع المتّبعين لأهوائهم المخالفين لمنهج النبي- ﷺ- وسنته والمنحرفين عن طريق السلف الصالح من الصوفية وغيرهم الذين يروْن أنفسهم من أصحاب الرؤى والمكاشفات أو الكرامات؛ يقول: (فهؤلاء يحتاجون إلى الفرقان الإيماني القرآني النبوي الشرعي أعظم مِن حاجة غيرهم، وهؤلاء لهم حسيّات يروْنها ويسمعونها، والحسيّات يضطرّ إليها الإنسان بغير اختياره كما قد يرى الإنسان أشياءً ويسمع أشياءً بغير اختياره، كما أنّ النّظّار لهم قياس ومعقول، وأهل السمع لهم أخبار منقولات، وهذه الأنواع الثلاثة هي طرق العلم: الحسّ، والخبر، والنظر، وكلّ إنسان يستدلّ مِن هذه الثلاثة في بعض الأمور؛ لكن يكون بعضُ الأنواع أغلب على بعض الناس في الدين وغير الدين)[٢].

مواردُ كلمةِ الفرقان في القرآن الكريم:

ذكر شيخُ الإسلام- رحمه الله- كثيرًا مِن الصّور التي ورد ذكرُها في القرآن الكريم لكلمة الفرقان، ودلالاتها:

١- فجاءت الكلمة بمعنى التفريق: وذلك كقوله في القرآن ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾الأنفال: ٤١، قال الوالبي عن ابن عباس: «يوم الفرقان يوم بدر، فرق الله بين الحقّ والباطل».

٢- جاء لفظ «الفرقان» بمعنى مخرجًا، كما في قوله تعالى: ﴿إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾الأنفال:٢٩، أي مخرجًا، كما في قوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾، ولقد قال

(١) الفتاوى جـ١٣ صـ٦٣
(٢) الفتاوى جـ١٣ صـ٧٥

بذلك ابن أبي حاتم، ورويَ عن مجاهد ومقسم وعبيد الله بن عبد الله والضحاك وقتادة ومقاتل بن حيان؛ أنّ مجاهدًا قال «مخرجًا في الدنيا والآخرة»، وروي عن الضحّاك عن ابن عباس قال نصرًا، قال : وفي آخر قول ابن عباس والسدي نجاة.

٣- وجاء لفظ «الفرقان» بمعنى الفصل بين الحقّ والباطل، عن عروة بن الزبير ﴿يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ أي: فصلًا بين الحقّ والباطل يظهر الله به حقّكم، ويطفئ به باطلَ مَن خالفكم.

٤- جاء لفظ «الفرقان» بمعنى الهدى والبيان، يقول شيخ الإسلام: (وقد ذكر عن ابن زيد أنّه قال: هدى في قلوبهم يعرفون به الحقّ من الباطل، ونوعا الفرقان فرقان الهدى والبيان والنصر والنّجاة هما نوعا «الظهور» في قوله تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ يظهره بالبيان والحجة والبرهان ويظهر باليد والعز والسنان).

٥- كما جاء لفظ «الفرقان» بمعنى السلطان في قوله: ﴿وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا﴾ فهذا النوع وهو الحجّة والعلم كما في قوله: ﴿ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴾ وقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ كَبُرَ﴾ وقوله: ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾، ويتابع شيخُ الإسلام فيذكر أنّه كما ذكر السلطان بالقدرة واليد، وفسّر بالحجّة والبيان فكذلك الفرقان، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ ففرق بين المعروف والمنكر، أمر بهذا ونهى عن هذا، وبيّن الطيب والخبيث، أحلّ هذا وحرم هذا).

٦- وجاء بمعنى التفريق وعدم التسوية في الجزاء والثواب والعقاب بين أهل الحقّ وأهل الباطل، فجعل أهل الحقّ أهل الحسنات وأهل الباطل هُم الكفار الضّالين المفسدين

أهل السيئات، يقول شيخُ الإسلام رحمه الله: (ومن «الفرقان» أنّه فرق بين أهل الحقّ المهتدين المؤمنين المُصلحين أهل الحسنات وبين أهل الباطل الكفار الضالين المفسدين أهل السيئات؛ قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ وقال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ وقال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ ﴿وَلَا ٱلظُّلُمَـٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ﴾ ﴿وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ﴾ ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ وقال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ وقال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾ فهو سبحانه بيّن الفرق بيْن أشخاص أهل الطاعة لله والرسول والمعصية لله والرسول، كما بيّن الفرق بين ما أمر به وبين ما نهى عنه.

وأعظم مِن ذلك أنّه بيّن الفرق بين الخالق والمخلوق، وأنّ المخلوق لا يجوز أنْ يسوي بيْن الخالق والمخلوق في شيء فيجعل المخلوق ندًّا للخالق، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا﴾ وقال تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ﴾ وضرب الأمثال في القرآن على مَن لم يفرق؛ بل عدلَ بربّه وسوّى بينه وبين خلقه؛ كما قالوا- وهُم في النار يصطرخون فيها-: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ وقال تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿وَٱللَّهُ

يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ﴾ ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـًٔا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ٢٠ أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ﴾.. فهو سبحانه الخالق العليم الحقّ الحيّ الذي لا يموت، ومَن سواه لا يخلق شيئًا كما قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ﴾ ﴿ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ﴾.. وهذا مثل ضربه الله؛ فإن الذباب مِن أصغر الموجودات، وكلّ مَن يدعى من دون الله لا يخلقون ذبابًا ولو اجتمعوا له وإنْ يسلبهم الذباب شيئًا لا يستنقذوه منه. فإذا تبيّن أنهم لا يخلقون ذبابًا ولا يقدرون على انتزاع ما يسلبهم؛ فهُم عن خلقِ غيره وعن مغالبته أعجزُ وأعْجَز)

ويظهر لفظ الفرقان ضمنًا في ما ذكره الله- عزّ وجل- في أحوال الأمم الماضية، وقارن وفرّق بين أهل الكفر وجزاؤهم، وأهل الإيمان وجزاؤهم؛ فقال في حقّ الكافرين ﴿ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴾ وقال في حقّ المؤمنين: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ ﴾ فجعل أهلَ الإيمان من النّاجين والسعداء في الدنيا والآخرة، وأهلَ الكفر من الأشقياء في الدنيا والآخرة[1].

***

(١) انظر مجموع الفتاوى جـ١٣ صـ١١ وما بعدها

المبحثُ الخامس

سنّةُ الله في الهدى والضّلال والرّشد والغيّ

لعلّ أفضل مقدّمة لهذه السُّنّة هي ما كتبه شيخُ الإسلام بنفسه متحدثًا عن هذه السنّة فيقول: إنّ الله- سبحانه- يـريد أن يبيّن لنا ويهدينا سنن الذين من قبلنا، الذين قال فيهم: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وهُم الذين أمرنا أنْ نسأله الهداية لسبيلهم في قوله: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧]، فهو يحبّ لنا ويأمرنا أنْ نتّبع صراط هؤلاء، وهو سبيل مَن أناب إليه، فذكر هنا ثلاثةَ أمور: البيان، والهداية، والتوبة.

وقيل: المراد بالسّنن هنا سننُ أهل الحقّ والباطل، أي: يريد أن يبيّن لنا سنن هؤلاء وهؤلاء، فيهدي عباده المؤمنين إلى الحقّ ويضلّ آخرين؛ فإنّ الهدى والضلال إنما يكون بعد البيان، كما قال: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [إبراهيم: ٤]، وقال: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ﴾ [التوبة: ١١٥].

المعنى المعجمي لكلمتي الهدى والضلال:

الهدى: مِن أسماء الله – عز وجل – الهادي، قال ابن الأثير: هو الذي بصّر عباده وعرّفهم طريق معرفته حتى أقرّوا بربوبيته، وهدى كلّ مخلوق إلى ما لا بدّ له منه في بقائه ودوام وجوده.

وقال ابنُ سيده: الهدى ضدّ الضلال، وهو الرشاد، والمهدي: هو الذي قد هداه الله إلى الحقّ. وهديته الطريق: أي عرّفته، والهدى- أيضًا: الطاعة والورع(١).

---

(١) لسان العرب لابن منظور، دار صادر، (١٥/ ٤١، ٤٢).

معنى الضلال: ضلّل: الضلال والضلالة: ضدّ الهدى والرشاد، وأضلّه: جعله ضالًّا، وقوله تعالى: ﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ﴾ [النحل: ٣٧].

يقال: أضللت فلانًا: إذا وجّهته للضلال عن الطريق، وأضللت الشيء: إذا غيبته.

ومن معاني الضلال: الضياع، ومنه قوله تعالى: ﴿ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: ١٠٤]، وأضلّه: أي أضاعه وأهلكه، وفي التنزيل: ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ [القمر: ٤٧]، أي: في هلاك، والضلال: النسيان، والضلال: الغيبوبة: يقال ضلّ الماء في اللبن: إذا غاب. وضلّ الكافر: إذا غاب عن الحجّة، وضلّ فلان عن القصد: إذا جار ووقع في الباطل(١).

المقصود بالهدى:

إنّ هدى الله هو الهدى، وهو الإسلام، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ [البقرة: ١٢٠]، أي: ليس هناك هداية وراء هذا الهدى.

ويقول ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ [البقرة: ١٢٠]، أي: قل يا محمد: إن هدى الله الذي بعثني به هو الهدى، يعني: هو الدين المستقيم الصحيح الكامل الشامل(٢).

تقريرُ سنّة الله (تعالى) في الهدى والضلال:

جعل الله تعالى سنَّته ماضيةً على جميع خلقه، فبيّن سبحانه أنّه يجب لنا أن نتبع صراطه المستقيم الواضح البيّن الذي لا اعوجاج فيه، وأنْ نقتفي سنن الذين من قبلنا في ملازمتهم الحقّ وعدولهم عن الباطل.

الهدى والضّلال لا يأتيان إلّا بعد التّبيين:

لقد بيّن شيخ الإسلام أنّ الهدى والضلال لا يكون إلّا بعد البيان؛ حيث ذكر قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن

(١) لسان العرب، جـ٩، ١٠، ص(٥٦، ٥٧، ٥٨) باختصار وتصرف.
(٢) ابن كثير، (١/ ١٦٣).

﴿يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [إبراهيم: ٤]، وقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَۚ﴾، ووضّح أنّ الهدى والضلال يأتي بعد أن يبيّن الله للناس طرق الحقّ والخير.

ومِن كلامه في توضيح هذه الآية: «فتكون ﴿سُنَنٌ﴾ متعلقًا بـ ﴿يُبَيِّنَ﴾، يعني: سنن أهل الباطل لا بـ (يهدي)، وأهل الحقّ متعلّق بقوله: ويهديكم.

وقال الزجّاج: السنن: الطرق، فالمعنى: يدلّكم على طاعته كما دلّ الأنبياء وتابعيهم.

وهذا أوْلى؛ لأنه قد يقدّم فعلين، فلا يجعل الأول هو العامل وحده؛ بل العامل إمّا الثاني وحده، وإمّا الاثنان كقوله: ﴿ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا﴾ [الكهف: ٩٦].

أو إذا أريد هذا التقدير: يبيّن لكم سنن الذين من قبلكم ويهديكم سننًا، فدلّ على أنه يهدينا سننهم.

والمراد بذلك سنن أهل الحقّ، بخلاف قوله: ﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ﴾ فإنه قال بعدها: ﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ فإنه أراد تعريف عقوبة الظالمين بالعيان، وهنا فأنزل علينا من القرآن ما يهدينا به سنن الذين من قبلنا، وهُم الذين أنعم الله عليهم»[1].

ارتباطُ سنّة الله في الهدى بالتّبيين والتوبة:

وذلك لأنّ الإنسان- أولًا- يحتاج إلى معرفة الخير والشر، وما أمر به وما نهي عنه، ثمّ يحتاج بعد ذلك إلى أن يهدى فيقصد الحقّ ويعمل به دون الباطل.

وهو سننُ الأنبياء والصالحين، ثمّ لا بدّ له بعد ذلك من الذنوب، فيريد أن يتطهّر منها بالتوبة، فهو محتاجٌ إلى العلم والعمل به، وإلى التوبة مع ذلك، فلا بدّ له من التقصير أو الغفلة في سلوك تلك السّنن التي هداه الله إليها، فيتوب منها بما وقع من تفريط في كلّ سنة من تلك السنن.

(١) الفتاوى، (١٠/ ٥٧٩).

وهذه «السنن» تدخل فيها الواجبات والمستحبّات، فلا بدّ للسالك فيها من تقصير وغفلة فيستغفر الله ويتوب إليه، فإنّ العبد لو اجتهد مهْما اجتهد لا يستطيع أن يقوم لله بالحقّ الذي أوجبه عليه، فما يسعه إلّا الاستغفار والتوبة عقيب كلّ طاعة(١).

ورودُ كلمةِ الهدى في القرآن الكريم:

١ـ الهدى بمعنى الدّعاء إلى الخير:

الهداية عند شيخ الإسلام تعني الأمرَ والنهي، وهو الدعاء إلى الخير كما قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧]، أي: داع يدعوهم إلى الخير، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الشورى: ٥٢]، أي: تدعوهم إليه دعاء تعليم.

ويوضّح هنا شيخ الإسلام ذلك فيقول: قد يقال: «الهداية» هنا البيان والتعريف، أي: يعرفكم سنن الذين من قبلكم من أهل السعادة والشقاوة؛ لتتبعوا هذه وتجتنبوا هذه، كما قال تعالى: ﴿وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ﴾ [البلد: ١٠]، قال علي وابن مسعود: سبيل الخير والشرّ. وعن ابن عباس: سبيل الهدى والضلال. وقال مجاهد: سبيل السعادة والشقاوة، أي: فطرناه على ذلك وعرّفناه إيّاه، والجميع واحد.

والنجدان: الطريقان الواضحان، والنجدُ: المرتفع من الأرض.

فالمعنى: ألم نعرّفه طريق الخير والشر ونبيّنه له كتبيين الطريقين العاليين.

لكنّ الهدى والتبيين والتعريف في هذه الآية يشترك فيه بنو آدم ويعرفونه بعقولهم.

وأمّا طريق مَن تقدّم مِن الأنبياء فلا بدّ من إخبار الله- تعالى- عنها كما قال: ﴿تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَا﴾ [هود: ٤٩].

لكنْ يجاب عن هذا بأنه لو أريد هذا المعنى لقال: يريد الله ليبين لكم سنن الذين من قبلكم، ولم يحتَجْ أن يذكرَ الهدى إذا كان المعنى واحدًا، فلمّا ذكر أنه يريد التبيين والهدى علم أنّ هذا غير

(١) الفتاوى، (١٠/ ٥٨٠).

هذا؛ فـ«التبيين» التعريف والتعليم، و«الهدى» هو الأمر والنهي، وهو الدعاء إلى الخير، كما قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ﴾، أي: داع يدعوهم إلى الخير، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾، أي: تدعوهم إليه دعاء تعليم(١).

٢ـ الهدى بمعنى الإلزام:

بيّن الشيخ ووضّح أنّ المقصود بسنة الله في الهدى هو سنته فيمَن يتبع تعاليم الإسلام وهدى الأنبياء ولا يحيد عن ذلك أن يثيبه، ومَن عصى أن يعاقبه، وأنّ الذين أطاعوه في ذلك إنّما أطاعوه بهداه لهم (هدى الإلهام).

وأنّ الذين عصوه عصوه بإرادتهم، ولكن تمادوا في ذلك، فعاقبهم الله - عز وجل - بهذا التّمادي فأضلّهم بأنْ حرمهم سبل الهداية، فالله وحده هو الذي جعل المصلي مصليًا والمسلم مسلمًا، وقد حذّر الله - عز وجل - الناس مِن أن يتبعوا سبل الغواية، وأمرهم أن يسلكوا سبلَ الهدى والرشاد، فقال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣].

ويقول شيخُ الإسلام في ذلك بأسلوبه الرائع مبيّنًا لطائف معنى الفعل هدى: «وهداه هنا يتعدّى بنفسه؛ لأنّ التقدير: ويلزمكم سنن الذين من قبلكم فلا تعدلوا عنها، وليس المراد هنا بالهدى الإلهام، كما في قوله: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾؛ لكونه لو أراد ذلك لوقع؛ ولم يكن فينا ضالّ؛ بل هذه إرادة شرعية أمرية بمعنى المحبة والرضا، ولهذا قال الزجّاج: يريد أن يدلّكم على ما يكون سببًا لتوبتكم، فعلّق الإرادة بفعل نفسه.

فإنّ الزجّاج ظنّ الإرادة في القرآن ليست إلّا كذلك، وليس كما ظن؛ بل الإرادة المتعلّقة بفعله يكون مرادها كذلك، فإنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

وأمّا الإرادة الموجودة في أمره وشرعه فهو كقوله: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ﴾ الآية [المائدة: ٦]، وقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ﴾ [الأحزاب: ٣٣]، ونحو ذلك.

(١) الفتاوى، (١٠/ ٥٨٠، ٥٨١).

فهذه إرادته لما أمر به، بمعنى أنه يحبه ويرضاه ويثيب فاعله؛ لا بمعنى أنه أراد أن يخلقه فيكون كما قال: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ الآية [الأنعام: ١٢٥]، وكما قال نوح: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فهذه إرادةٌ لما يخلقه ويكونه، كما يقول المسلمون: ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وهذه الإرادة متعلّقة بكلّ حادث.

والإرادة الشرعية الأمرية لا تتعلق إلّا بالطاعات، كما يقول الناس لمن يفعل القبيح: يفعل شيئًا ما يريده الله مع قولهم: ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

فإنّ هذه الإرادة (نوعان) كما قد بسط في موضع آخر.

وقد يُراد بالهدى الإلهام، ويكون الخطاب للمؤمنين المطيعين الذين هداهم الله إلى طاعته؛ فإن الله- تعالى- أراد أنْ يتوب عليهم ويهديهم فاهتدوا، ولولا إرادته لهم ذلك لم يهتدوا، كما قالوا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَـٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٤٣]»[(١)].

٣ـ الهدى بمعنى البيان:

قال شيخ الإسلام: (هنا البيان والتعريف أي: يعرفكم سنن الذين من قبلكم من أهل السعادة والشقاوة لتتبعوا هذه وتجتنبوا هذه كما قال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَـٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ قال علي وابن مسعود: سبيل الخير، والشر. وعن ابن عباس: سبيل الهدى والضلال. وقال مجاهد: سبيل السعادة والشقاوة: أي فطرناه على ذلك وعرّفناه إيّاه، والجميع واحد. والنّجدان الطريقان الواضحان، والنجدُ المرتفعُ من الأرض، فالمعنى ألم نعرّفه طريق الخير والشر ونبيّنه له كتبيين الطريقين العاليين؛ لكن الهدى والتبيين والتعريف في هذه الآية يشترك فيه بنو آدم ويعرفونه بعقولهم)[(٢)].

---

(١) الفتاوى، (١٠/ ٥٨١، ٥٨٢).

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/ ٥٨٠)

الضلال خلاف الهدى:

نجد ذلك في كتاب الله حيث يقول - سبحانه وتعالى -: ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٧]، وكما في قوم نوح: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡ﴾ [هود: ٣٤]، ويوضّح شيخ الإسلام أن المقصود بالآية: «تحذيرهم من متابعة الذين يتبعون الشهوات. والمعنى: إني أريد لكم الخير الذي ينفعكم، وهؤلاء يريدون لكم الشرّ الذي يضركم كالشيطان الذي يريد أن يغويكم، وأتباعه هُم أهل الشهوات فلا تتخذوه وذريته أولياء من دوني، بل اسلكوا طرق الهدى والرشاد، وإياكم وطرق الغي والفساد، كما قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ﴾ الآيات»[١].

الأشياءُ التي تناقض الهدى أو «أسباب الضلال»:

١- اتباع الشهوات والأهواء:

كما قال تعالى: ﴿أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠]، وقال: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ﴾ [المائدة: ٧٧]، وقال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم﴾ [محمد: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الجاثية: ١٨]، وهذا في القرآن كثير.

واتّباع الهوى: هو اتباع أمر النفس، أي: فعل ما تهواه.

يقول النبي ﷺ: «ثلاثٌ مهلكات: شحّ مُطاع، وهوى مُتبع، وإعجابُ المرء بنفسه. وثلاثٌ مُنجيات: خشية الله في السرّ والعلانية، والقصد في الفقر والغنى، وكلمة الحقّ في الغضب والرضا»[٢].

---

(١) الفتاوى، (١٠/ ٥٨٣، ٥٨٤).

(٢) الفتاوى، (١٠/ ٥٨٤) وما بعدها باختصار وتصرف، والحديث أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، باب: الخوف من الله، (٢/ ٢٠٤).

٢- الغفلة عن الله والدار الآخرة:

والمقصود أنّ القلب قد يغمره فيستولي عليه ما يريده العبد ويحبّه وما يخافه ويحذره كائنًا مَن كان؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ**﴾ [المؤمنون: ٦٣]، فهي فيما يغمرها عما أنذرت به فيغمرها ذلك عن ذكر الله والدار الآخرة وما فيها من النعيم والعذاب الأليم.

قال الله تعالى: ﴿**فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ**﴾ [المؤمنون: ٥٤]، أي: فيما يغمر قلوبهم من حبّ المال والبنين المانع لهم من المسارعة في الخيرات والأعمال الصالحة.

وقال تعالى: ﴿**قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ**﴾ الآيات [الذاريات: ١٠-١١]، أي: ساهون عن أمر الآخرة، فهم في غمرة عنها، أي: فيما يغمر قلوبهم من حبّ الدنيا ومتاعها، ساهون عن أمر الآخرة وما خلقوا له.

وهذا يشبه قوله: ﴿**وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا**﴾ [الكهف: ٢٨]، فالغمرة تكون من اتباع الهوى، والسهو من جنس الغفلة؛ ولهذا قال من قال: «السهو» الغفلة عن الشيء، وذهاب القلب عنه، وهذا جماع الشرّ «الغفلة» و«الشهوة»، «فالغفلة» عن الله والدار الآخرة تسدّ بابَ الخير الذي هو الذكر واليقظة. و«الشهوة» تفتح بابَ الشرّ والسهو والخوف فيبقى القلب مغمورًا فيما يهواه ويخشاه غافلًا عن الله، رائدًا غير الله، ساهيًا عن ذكره، قد اشتغل بغير الله، قد انفرط أمره، قد ران حبّ الدنيا على قلبه.

كما روي في صحيح البخاري وغيره عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «**تعس عبدُ الدينار، تعس عبدُ الدرهم، تعس عبدُ القطيفة، تعس عبدُ الخميصة، تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش، إن أعطي رضي، وإن منع سخط**»(١).

٣- حبّ الرئاسة وحبّ المال ومحبّة غير الله - عز وجل -:

ولقد عدّ شيخُ الإسلام هؤلاء الثلاث من الأشياء الشاغلة المهلكة للإنسان التي تحول بينه وبين الوصول إلى طاعة الله - عز وجل - وهدايته، فيقول- رحمه الله: «وطالب الرئاسة- ولو

(١) الفتاوى، (١٠/ ٥٩٦، ٥٩٧)، والحديث خرجه ابن ماجه في السنن، باب: في المكثرين، (٢/ ١٣٨٥).

بالباطل- ترضيه الكلمة التي فيها تعظيمه وإن كانت باطلًا، وتغضبه الكلمة التي فيها ذمّه وإن كانت حقًّا.

والمؤمن ترضيه كلمة الحقّ له وعليه، وتغضبه كلمة الباطل له وعليه؛ لأن الله- تعالى- يحبّ الحقّ والصدق والعدل، ويبغض الكذب والظلم.

فإذا قيل: الحقّ والصدق والعدل الذي يحبّه الله أحبّه وإن كان فيه مخالفة هواه؛ لأن هواه قد صار تبعًا لما جاء به الرسول.

وإذا قيل: الظلم والكذب فالله يبغضه والمؤمن يبغضه ولو وافق هواه.

وكذلك طالب «المال»- ولو بالباطل- كما قال تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ [التوبة: ٥٨].

وكذلك الذين يحبون العبد كأصدقائه والذين يبغضونه كأعدائه فالذين يحبونه يجذبونه إليهم، فإذا لم تكن المحبة منهم له لله كان ذلك مما يقطعه عن الله، والذين يبغضونه يؤذونه ويعادونه فيشغلونه بأذاهم عن الله، ولو أحسن إليه أصدقاؤه الذين يحبونه لغير الله أوجب إحسانهم إليه محبته لهم، وانجذاب قلبه إليهم، ولو كان على غير الاستقامة وأوجب مكافأته لهم فيقطعونه عن الله وعبادته.

فلا تزول الفتنة عن القلب إلّا إذا كان دين العبد كله لله - عز وجل -، فيكون حبه لله، ولما يحبه الله، وبغضه لله ولما يبغضه الله، وكذلك موالاته ومعاداته، وإلّا فمحبة المخلوق تجذبه، وحب الخلق له سبب يجذبهم به إليه.

ثمّ قد يكون هذا أقوى، وقد يكون هذا أقوى، فإذا كان هو غالبًا لهواه لم يجذبه مغلوب مع هواه ولا محبوباته إليها؛ لكونه غالبًا لهواه ناهيًا لنفسه عن الهوى؛ لما في قلبه من خشية الله ومحبته التي تمنعه عن انجذابه إلى المحبوبات.

وأمّا حبّ الناس له فإنه يوجب أن يجذبوه هم بقوتهم إليهم، فإن لم يكن فيه قوة يدفعهم بها عن نفسه من محبة الله وخشيته وإلّا جذبوه وأخذوه إليهم، كحب امرأة العزيز ليوسف؛ فإن

قوة «يوسف» ومحبته لله وإخلاصه وخشيته كانت أقوى من جمال امرأة العزيز وحسنها وحبّه لها.

هذا إذا أحبّ أحدهم صورته، مع أن هنا الداعي قوي منه ومنهم، فهنا المعصوم من عصمه الله، وإلّا فالغالب على الناس في المحبة من الطرفين أنه يقع بعض الشر بينهم، ولهذا قال رسول الله ﷺ: **(لا يخلونّ رجل بامرأة إلّا كان ثالثهما الشيطان)**[(١)].

وقد يحبونه لعلمه أو دينه أو إحسانه أو غير ذلك؛ فالفتنة في هذا أعظم؛ إلّا إذا كانت فيه قوة إيمانية وخشية وتوحيد تام؛ فإن فتنة العلم والجاه والصور فتنة لكل مفتون.

وهم مع ذلك يطلبون منه مقاصدهم إن لم يفعلها وإلّا نقص الحب، أو حصل نوع بغض، وربما زاد أو أدى إلى الانسلاخ من حبّه، فصار مبغوضًا بعد أن كان محبوبًا؛ فأصدقاء الإنسان يحبون استخدامه واستعماله في أغراضهم حتى يكون كالعبد لهم، وأعداؤه يسعون في أذاه وإضراره، وأولئك يطلبون منه انتفاعهم، وإن كان مضرًّا له مفسدًا لدينه لا يفكرون في ذلك، وقليل منهم الشكور.

فالطائفتان في الحقيقة لا يقصدون نفعه ولا دفع ضرره، وإنما يقصدون أغراضهم به، فإن لم يكن الإنسان عابدًا لله متوكلًا عليه مواليًا له ومواليًا فيه ومعاديًا، وإلّا أكلته الطائفتان، وأدى ذلك إلى هلاكه في الدنيا والآخرة»[(٢)].

وهناك الكثير من التفاصيل في ذلك في كتب شيخ الإسلام- رحمه الله.

المستحقون لهدايته- سبحانه:

١-المتّبعون لأوامره:

«ألبس الله- سبحانه- الذّلة والصّغار لَمن خالف أمره، كما في مسند الإمام أحمد من حديث عبد الله بن عمر؛ عن النبي ﷺ أنه قال: **(بعثت بين يدي الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك**

---

(١) سنن الترمذي، ت: شاكر، باب: في كراهية الدخول على المغيبات، (٣/ ٤٦٦).
(٢) الفتاوى، (١٠/ ٥٩٩) وما بعدها.

له، وجعل رزقي تحت ظلّ رمحي، وجعلت الذّلة والصَّغار على مَن خالف أمري، ومن تشبه بقوم فهو منهم)[١].

وكما أن من خالفه وشاقه وعاداه هو الشقي الهالك، فكذلك من أعرض عنه وعما جاء به واطمأن إلى غيره ورضي به بدلًا منه هو هالك- أيضًا.

فالشقاء والضلال في الإعراض عنه، وفي تكذيبه، والهدى والفلاح في الإقبال على ما جاء به وتقديمه على كلّ ما سواه.

فالأقسام ثلاثة: المؤمن به، وهو: المتّبع له، المحبّ له، المقدّم له على غيره.

والمعادي له والمنابذ له والمعرض عما جاء به، فالأول هو السعيد، والآخران هما الهالكان»[٢].

٢- المتّبعون لرسله:

يقول شيخ الإسلام- رحمه الله- في رسالة رائعة تحدّث فيها عن الرسالة وأهميتها في إصلاح العبد ومعاشه ومعاده: «لولا الرسالة لم يهتد العقل إلى تفاصيل النافع والضار في المعاش والمعاد، فمن أعظم نعم الله على عباده وأشرف منة عليهم: أن أرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه، وبين لهم الصراط المستقيم، ولولا ذلك لكانوا بمنزلة الأنعام والبهائم، بل أشرّ حالًا منها.

فمَن قبِلَ رسالةَ الله واستقام عليها فهو مِن خير البرية، ومَن ردّها وخرج عنها فهو مِن شرّ البرية، وأسوأ حالًا من الكلب والخنزير والحيوان البهيم.

وفي الصحيح من حديث أبي موسى – رضي الله عنه –، عن النبي ﷺ قال: **(مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضًا فكانت منها طائفة قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا منها وانتفعوا وزرعوا، وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ. فذلك مثل من**

(١) مسند أحمد، (٩/ ١٢٦).
(٢) الفتاوى، (١٩/ ١٠٤، ١٠٥).

فقه في دين الله- تعالى- ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به) متفق على صحته»(١).

وهكذا نرى أهمية الرسالة في هداية الإنسان إلى السعادة وإلى الطريق الحق، وكما يقول شيخ الإسلام: «وحاجة العبد إلى الرسالة أعظم بكثير من حاجة المريض إلى الطب؛ فإن آخر ما يقدر بعدم الطبيب موت الأبدان، وأمّا إذا لم يحصل للعبد نور الرسالة وحياتها مات قلبه موتًا لا ترجى الحياة معه أبدًا، أو شقي شقاوة لا سعادة معها أبدًا»(٢).

٣- أصلُ الهدى العلم النافع، وأصلّ الرشاد العمل بالحقّ:

يقول شيخُ الإسلام- رحمه الله: (فالعلم النافع هو أصل الهدى والعمل بالحق هو الرشاد، وضدّ الأول الضلال، وضدّ الثاني الغي فالضلال العمل بغير علم، والغيّ اتباعُ الهوى. قال تعالى: ﴿**وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ**﴾ ﴿**مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ**﴾ فلا ينال الهدى إلّا بالعلم ولا ينال الرشاد إلّا بالصبر؛ ولهذا قال علي: ألَا إنّ الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد- فإذا انقطع الرأس بان الجسد- ثمّ رفع صوته فقال ألَا لا إيمان لمَن لا صبر له)(٣).

***

---

(١) الفتاوى، (١٩/ ١٠٠)، راجع: صحيح البخاري، (١/ ٢٧)، باب: فضل من علم وعلم.
(٢) الفتاوى، (١٩/ ٩٦، ٩٧).
(٣) مجموع الفتاوى: (١٠/ ٤٠).

المبحث السّادس

سنّة اللّه في الابتلاء أو الفتنة

المعنى اللغوي والاصطلاحي:

جاء في لسان العرب: جماع معنى الفتنة: الابتلاء والامتحان، والاختبار، وأَصلها مأْخوذ من قولك: فتَنْتُ الفضة والذهب: إِذا أَذبتهما بالنار؛ لتميز الرديء من الجيِّد.

وفي الصحاح: إِذا أَدخلته النار لتنظر ما جَوْدَتُه، والفتنة الإحراق، الإثم، اختلاف آراء الناس، الإزالة، وفيه قوله تعالى: ﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾ [الإسراء: ٧٣]، أي: يميلونك ويزيلونك عن الذي أوحينا إليك.

والفتنة: الكفر كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٩١]، والفتنة ما يقع بين الناس من القتال كما في قوله تعالى: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ [النساء: ١٠١]، وقوله ﷺ: **(أرى الفتنة خلال بيوتكم)** بأن يكون القتل والحروب والاختلاف الذي بين فرق المسلمين، ويكون بما به من زينة الدنيا وشهواتها فيفتنون بذلك عن الآخرة والعمل لها.

ابن الأَعرابي: الفِتْنة: الاختبار، والفِتْنة: المِحنة، والفِتْنة: المال، والفِتْنة: الأَوْلادُ، والفِتْنة: الكُفْرُ، والفِتْنةُ: اختلافُ الناس بالآراء، والفِتْنةُ: الإِحراق بالنار؛ وقيل: الفِتْنة في التأْويل الظُّلْم.

يقال: فلان مَفْتُونٌ بطلب الدنيا قد غَلا في طلبها»[١].

معنى الابتلاء: بلوت الرجل بلوًا وبلاء وابتليته: اختبرته، وبلاه يبلوه بلوًا: إذا جربه واختبره. والاسم البلوى والبلوة والبلية والبلاء، وبلي بالشيء بلاء وابتلي، والبلاء يكون في الخير والشر. يقال: ابتليته بلاء حسنًا وبلاء سيئًا، والله- تعالى- يبلي العبد بلاء حسنًا ويبليه بلاء سيئًا، نسأل الله- تعالى- العفو والعافية، والجمع: البلايا[٢].

(١) لسان العرب لابن منظور، ص(١٢٥) جـ(١١، ١٢).
(٢) لسان العرب، جـ١، ٢، ص(١٥١).

والابتلاء والفتنة والتمحيص والامتحان كلمات قرآنية، وأصل الابتلاء: الاختبار، جاء من معناها اللغوي: بلوت الرجل وابتليته: اختبرته، وابتلاه الله: امتحنه، والاسم البلوى والبلاء، والبلاء: الاختبار يكون في الخير والشر.

الابتلاءُ سنّةٌ إلهية:

الابتلاء سُنَّة جارية في النَّاس عامَّةً وفي المؤمنين خاصَّةً، «فقد شاءت إرادة الله – عز وجل – أن تكون حياة الإنسان فوق هذه الأرض سلسلة متواصلة لا تكاد تنتهي من الابتلاءات والمحن، وفي هذا يقول – سبحانه – : ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [الملك: ١-٢]، وهذا الابتلاء قد يكون بالخير أو بالشر: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

وقد يكون الابتلاء للمؤمنين في سبيل تمييز المجاهدين منهم والصابرين ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١].

فالابتلاء يمكن أن يكون في أي شأن من شئون الحياة، فالله – سبحانه وتعالى – خلق البشر، واستخلفهم في الأرض، ولم يتركهم يهيمون على غير هدى، بل أرسل إليهم الرسل مبشرين ومنذرين، فبينوا لهم سنن الهداية والرشاد، وبشروهم بالفوز في الدنيا والآخرة، إن هم أخذوا بها واتبعوها، كما حذروهم من مخالفة هذه السنن، وأنذروهم من عذاب الله إن هم ضلوا عنها، وتنكّبوا جادّة الصواب..

فلم يعد إذًا للناس من حجة بعد الرسل، بل أصبحوا بعد الرسالات في غمرة الابتلاء والاختبار، وغدوا مطالبين بتحرّي الصواب في شئونهم كلّها، وإلّا سقطوا في الامتحان، خسروا الدنيا والآخرة»(١).

(١) أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق، د/ أحمد كنعان، ص(١٣٣)، دار النفائس، ط أولى، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

ولهذا الابتلاء والاختبار حكم عظيمة وفوائد جسيمة، ومنها:

١- تصفيةُ الصفوف والإعداد الحقيقي لتحمل الأمانة ورفع المنزلة والدرجة عند الله وتكفير السيئات ومعرفة عز الربوبية وقهرها، وذل العبودية وكسرها، والإنابة إلى الله، ورحمة أهل البلاء ومساعدتهم، ومعرفة قدر نعمة العافية والشكر عليها وثواب الآخرة.

٢- الابتلاء مرتبط بالتمكين في الأرض ارتباطًا وثيقًا؛ إذ بعد كلّ محنة منحة، وبعد كلّ بلية عطيّة، وبعد كلّ ترح فرح، وإن مع العسر يسرًا، وقد جرت سنة الله- تعالى- ألّا يمكّن لأمّة إلّا بعد أن تمرّ بمراحل الاختبار المختلفة، وإلّا بعد أن ينصهر معدنها في بوتقة الأحداث المختلفة؛ ليميز الله الخبيث من الطيب، وليمحص الله الإيمان، ويختبر المؤمنين، وليعلم الصابرين، ثمّ يكون لهم التمكين في الأرض، ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤].

٣- الابـتلاء بالسراء تارة وبالضراء تارة يختبرهم بالمسار ليشكروا، ويبتليهم بالمضار ليصبروا ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٥][(١)].

سنّةُ الله في الابتلاء عند شيخ الإسلام ابن تيمية:

إنّ مِن سنن الله في الإنسان أن يبتليهم بالخير والشر؛ حتى تتميز معادنهم وتتّضح، وحتى تظهر درجاتهم المختلفة فمنهم الصابر ومنهم الجزع ومنهم السابق بالخيرات بإذن الله، ولقد تعدّدت مظاهر هذا الابتلاء ونتائجه؛ فهناك الكثير من الابتلاءات بالضراء كـ: الحوادث الكونية والكوارث الأرضية من زلازل وبراكين وجفاف وفساد في الماء وهلاك الزرع والنسل، وانتشار الأمراض بأنواعها المختلفة من أمراض بدنية وقلبية، وابتلاءات بالهزيمة، والاعتداء من الأعداء، وتسلط الحكام على المحكومين، أو عدم فهم المحكومين لحكامهم، وتحملهم لمسؤولية التكاليف، أو التفرق والتمزق والعداوة والبغضاء، وغيرها من المِحَن والمصائب أو الموت!

---

(١) راجع: محمد خير الشعال، (١/ ٢/ ٢٠٠٨) سلسلة قوانين القرآن.

وقد يبتلى بأنواع من السراء تكون اختبارًا له؛ حتى يرى الله – عز وجل – كيف سيكون تصرف الناس في هذه الحالة هل سيشكرون ويؤدون حقوق النعمة أم سيكفرون؟

ولقد تحدّث شيخُ الإسلام عن هذه السنة بإسهاب واضح، وبين كثيرًا من أوجه التعامل مع هذه الابتلاءات، وكيفية النجاح في هذه الاختبارات، مبينًا أن سبب المصائب من نفس الإنسان التي ارتكبت المعاصي وبعدت عن منهج الله – عز وجل– الذي فيه الخير للإنسان في الدنيا والآخرة: فيقول: «إن ما جاء به الرسول ﷺ ليس سببًا لشيء من المصائب، ولا تكون طاعة الله ورسوله قط سببًا لمصيبة، بل طاعة الله والرسول لا تقتضي إلّا جزاء أصحابها بخيري الدنيا والآخرة.

ولكن قد تصيب المؤمنين بالله ورسوله مصائب بسبب ذنوبهم، لا بما أطاعوا فيه الله والرسول، كما لحقهم يوم أحد بسبب ذنوبهم، لا بسبب طاعتهم الله ورسوله ﷺ.

وكذلك ما ابتلوا به في السراء والضراء والزلزال، ليس هو بسبب نفس إيمانهم وطاعتهم، لكن امتحنوا به؛ ليتخلصوا مما فيهم من الشر، وفتنوا به كما يفتن الذهب بالنار؛ ليتميّز طيّبُه من خبيثه.

والنفوس فيها شرّ، والامتحان يمحص المؤمن من ذلك الشر الذي في نفسه، قال تعالى: **﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾** [آل عمران: ١٤٠، ١٤١]، وقال تعالى: **﴿وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾** [آل عمران: ١٥٤]، ولهذا قال صالح – عليه السلام – لقومه: **﴿طَـٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾** [النمل: ٤٧].

ولهذا كانت المصائب تكفّر سيئات المؤمنين، وبالصبر عليها ترتفع درجاتهم، وما أصابهم في الجهاد من مصائب بأيدي العدو فإنه يعظم أجرهم بالصبر عليها، وفي الصحيح عن النبي ﷺ قال: (**ما من غازية يغزون في سبيل الله، فيسلمون ويغنمون إلّا تعجّلوا ثلثي أجرهم. وإن أصيبوا وأخفقوا: تمّ لهم أجرهم**).

وأمّا ما يلحقهم من الجوع والعطش والتعب فذاك يكتب لهم به عمل صالح، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة: ١٢٠]»(١).

ويقول شيخُ الإسلام في موضع آخر مؤكدًا على هذا المعنى: «وقد أخبر الله- تعالى- في كتابه أنه يبتلي عباده بالحسنات والسيئات؛ فالحسنات هي النعم والسيئات هي المصائب؛ ليكون العبد صبّارًا شكورًا، وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: **(والذي نفسي بيده لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلّا كان خيرًا له، وليس ذلك لأحد إلّا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له)**»(٢).

مِن أنواع الابتلاء:

تعدّدت صور الابتلاء التي ذكرها شيخُ الإسلام من خلال تتبعه للقرآن الكريم وفهمه لمضامينه، ومن هذه الابتلاءات:

١- الابتلاء بإنزال العقوبات:

«والقرآن يبيّن في غير موضع أن الله لم يهلك أحدًا ولم يعذبه إلّا بذنب، فقال هنا: ﴿مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩]، وقال لهم في شأن أحد: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]، وقال تعالى في سورة الشورى- أيضًا: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ﴾ [الشورى: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾

(١) مجموع الفتاوى، (١٤/ ٢٥٤، ٢٥٥).
(٢) الفتاوى، (١٦/ ٥٤).

ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ [الشعراء: ٢٠٨، ٢٠٩]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴾ [القصص: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم: ٤١]، وقHال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [السجدة: ٢١]، وقال تعالى: ﴿ **أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ** ﴾ [الشورى: ٣٤]، وقال تعالى في سورة القلم عن أهل الجنة الذين ضرب بهم المثل لما أهلكها بذلك العذاب: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿**مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** ﴾ [آل عمران: ١١٧]، وقال تعالى عن أهل سبأ: ﴿ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ ﴾ إلى قوله: ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴾ [سبأ: ١٦، ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء: ١٥].

وفي الحديث الصحيح الإلهي: (**يا عبادي، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثمّ أوفيكم إيّاها. فمَن وجد خيرًا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلّا نفسه**)(١).

وفي سيد الاستغفار: (أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي).

وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الطور: ٤٧]»(٢).

٢- سلبُ النعم:

لقد جعلَ الله - عز وجل - لنا النعم الكثيرة التي لا تعدّ ولا تحصى؛ حتى نتمتع بها في هذه الدنيا، وأمرنا بالشكر عليها، وطاعة الله - عز وجل - في كلّ شيء؛ حتى تستمر هذه البركة؛

(١) صحيح مسلم، (٤/ ١٩٩٤).
(٢) الفتاوى، (١٤/ ٤٢٤، ٤٢٥).

فإذا تركنا الطاعة والشكر المستلزم لحفظ هذه النعم سلبها الله - عز وجل - منا حتى يبتلينا فنتوب ونعود إليه؛ وذلك لأن الشكر من الواجب المستحق من العبد تجاه الخالق.

وقد أشار شيخُ الإسلام إلى هذا الابتلاء في أكثر من موضع من ذلك، ذكره أن الله يسلب النعم ويخفض المنزلة بفعل المنهيات فيقول: «ونتيجة فعل المنهي انخفاض المنزلة وسلب كثير من النعم التي كان فيها، وإن كان لا يعاقب بالضرر، ويبيّن أن الوجوب والاستحقاق يعلم بالبديهة، فتارك الواجب وفاعل القبيح وإن لم يعذب بالآلام كالنار فيسلب من النعم وأسبابه ما يكون جزاءه، وهذا جزاء من لم يشكر النعمة، بل كفرها أن يسلبها، فالشكر قيد النعم، وهو موجب للمزيد، والكفر بعد قيام الحجة موجب للعذاب، وقبل ذلك ينقص النعمة ولا يزيد»(١).

وفي موضع آخر تحدّث شيخ الإسلام عن الابتلاء والسلب في أثناء شرحه لحديث النبي ﷺ الذي سأل فيه ربَّه ألّا يسلط عليهم عدوًا من غيرهم فيقول في ذلك: «وبيان هذا أن الشرع وإن كان قد استقر بموت النبي ﷺ وقد أخبر أن الله تجاوز لأمته عن الخطأ والنسيان، وقد أخبر أن الرسول يضع عن أمته إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، وسأل ربه لأمته أن لا يسلط عليهم عدوًّا من غيرهم فيجتاحهم فأعطاه ذلك؛ لكن ثبوت هذا الحكم في حقّ آحاد الأمّة قد لا يحصل إلا بطاعة الله ورسوله، فإذا عصى الله ذلك الشخص العاصي عوقب عن ذلك بسلب هذه النعمة، وإن كانت الشريعة لم تنسخ.

يبيّن هذا أن في هذا الدعاء سؤال الله بالعفو والمغفرة والرحمة والنصر على الكفار، ومعلوم أنّ هذا ليس حاصلًا لكلّ واحد من أفراد الأمة، بل منهم مَن يدخل النار، ومنهم مَن ينصر عليه الكفار، ومنهم مَن يُسلب الرزق؛ لكونهم فرطوا في طاعة الله ورسوله، فيسلبون ذلك بقدر ما فرطوا أو قصروا»(٢).

---

(١) الفتاوى، (١٦/ ٢٥٤).

(٢) مجموع الفتاوى، (١٤/ ١٤٩).

٣- الابتلاءُ بالذنوب:

قد يقع الإنسان في كثير من الذنوب التي قد تحار نفسه كيف وقعت في هذه الذنوب؟ وعندما يبحث في أعماق نفسه يجد أن الذي أوقعه في ذلك ربما تفريطه في بعض الحقوق أو النوايا الصالحة، أو عدم فعله ما خلق من أجله من إخلاص العبودية لله- تعالى، يقول شيخ الإسلام موضّحًا هذا المعنى: «إن ما يبتلى به العبد من الذنوب الوجودية- وإن كانت خلقًا لله- فهو عقوبة له على عدم فعله ما خلقه الله له، وفطره عليه، فإن الله إنما خلقه لعبادته وحده لا شريك له، ودلّه على الفطرة، كما قال النبي ﷺ: **(كلُّ مولود يولَد على الفطرة)**[١].

وقال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٣٠].

فهو لمّا لم يفعل ما خلق له وما فطر عليه وما أمر به من معرفة الله وحده، وعبادته وحده؛ عوقب على ذلك بأن زين له الشيطان ما يفعله من الشرك والمعاصي. قال تعالى للشيطان: ﴿ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴾ إلى قوله: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ [الإسراء: ٦٣-٦٥]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾ [النحل: ٩٩، ١٠٠]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠١، ٢٠٢].

فقد تبيّن أنّ إخلاص الدين لله يمنع من تسلط الشيطان، ومن ولاية الشيطان التي توجب العذاب، كما قال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [يوسف: ٢٤]، فإذا أخلص العبد لربه الدين كان هذا مانعًا له من فعل ضدّ ذلك، ومن إيقاع الشيطان له في ضد ذلك.

---

(١) صحيح البخاري، باب: إذا أسلم الصبي فمات، (٢/ ٩٥).

وإذا لم يخلص لربه الدين ولم يفعل ما خلق له وفطر عليه عوقب على ذلك، وكان من عقابه: تسلّط الشيطان عليه حتى يزين له فعل السيئات، وكان إلهامه لفجوره عقوبة له على كوْنه لم يتّق الله»[١].

٤- الابتلاءُ بالمصائب من أجل تكفير الذنوب:

لقد منّ الله على المؤمنين بفضله ورحمته بأنْ فتح لهم الأبواب التي يخرجون منها مِن الذنوب التي أوقعهم الشيطان أو النفس الأمارة بالسوء فيها، فجعل الأمل في رضا الله - عز وجل- موجودًا وباستمرار، حيث جعل لهم ما يكفر ذنوبهم، ويرفع درجاتهم في الجنة، ومِن هذه الأشياء الابتلاء بالمصائب.

وتناول شيخُ الإسلام هذا المعنى في كتاباته كثيرًا، ومن هذا ما يتناوله في شرح حديث النبي ﷺ:

«**لا يقضي الله للمؤمن قضاءً إلّا كان خيرًا له**»[٢].

وقد قضى عليه بالسيئات الموجبة للعقاب، فكيف يكون ذلك خيرًا؟

والإجابة على هذا التساؤل لها وجهان:

«أحدهما: أنّ أعمال العباد لم تدخل في الحديث، إنما دخل فيه ما يصيب الإنسان من النعم والمصائب، كما في قوله: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَ﴾ [النساء: ٧٩]، ولهذا قال: (إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له)، فجعل القضاء ما يصيبه من سرّاء وضرّاء.

هذا ظاهرُ لفظ الحديث، فلا إشكال عليه.

الوجه الثاني: أنه إذا قدر أن الأعمال دخلت في هذا، فقد قال النبي ﷺ: (**مَن سرّته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن**)[٣]، فإذا قضى له بأن يحسن فهذا ممّا يسره، فيشكر الله عليه، وإذا قضى

(١) مجموع الفتاوى، (١٤/ ٣٣١، ٣٣٢، ٣٣٣).

(٢) مسند الشهاب، القضاعي، (١/ ٣٤٨).

(٣) مصنف ابن أبي شيبة، باب: ما ذكر فيما يطوى عليه المؤمن من الخلال، (٦/ ١٦١).

عليه بسيئة فهي إنما تكون سيئة يستحق العقوبة عليها إذا لم يتب منها، فإن تاب أبدلت بحسنة، فيشكر الله عليها، وإن لم يتب ابتلي بمصائب تكفرها فصبر عليها، فيكون ذلك خيرًا له.

والرسول ﷺ قال: (**لا يقضي الله للمؤمن**)، والمؤمن هو الذي لا يصرّ على ذنب، بل يتوب منه، فيكون حسنة كما قد جاء في عدّة آيات.

إنّ العبد ليعمل الذنب فيدخل به الجنة بعمله، لا يزال يتوب منه حتى يدخل بتوبته منه الجنة، والذنب يوجب ذلّ العبد وخضوعه ودعاء الله واستغفاره إياه وشهوده بفقره وحاجته إليه، وأنه لا يغفر الذنوب إلّا هو، فيحصل للمؤمن- بسبب الذنب- من الحسنات ما لم يكن يحصل بدون ذلك، فيكون هذا القضاء خيرًا له.

فهو في ذنوبه بين أمرين: إمّا أن يتوب فيتوب الله عليه فيكون من التوابين الذين يحبّهم الله. وإمّا أن يكفر عنه بمصائب؛ تصيبه ضراء فيصبر عليها، فيكفر عنه السيئات بتلك المصائب وبالصبر عليها ترتفع درجاته، وقد جاء في بعض الأحاديث: (يقول الله- تعالى: أهل ذكري أهل مجالستي، وأهل شكري أهل زيادتي، وأهل طاعتي أهل كرامتي، وأهل معصيتي لا أؤيسهم من رحمتي، إن تابوا فأنا حبيبهم)، أي: مُحبهم؛ فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين، (وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم، أبتليهم بالمصائب لأكفر عنهم المعائب)»[1].

٥- الابتلاء بالحسنات والسيئات:

قد أخبر الله- تعالى- في كتابه أنه يبتلي عباده بالحسنات والسيئات؛ فالحسنات هي النعم، والسيئات هي المصائب؛ ليكون العبد صبّارًا شكورًا، وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: (والذي نفسي بيده لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلّا كان خيرًا له، وليس ذلك لأحد إلّا للمؤمن، إن أصابته سرّاء شكر، فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له)[2].

ولقد وضح شيخ الإسلام ابن تيمية ذلك في موضع غير هذا فقال: «وقد أخبر الله- تعالى- أن الحسنات يذهبن السيئات، والاستغفار سبب للرزق والنعمة، وأن المعاصي سبب للمصائب

(١) مجموع الفتاوى، (١٤/ ٣١٨، ٣١٩).
(٢) الفتاوى، (١٦/ ٥٤)، والحديث سبق تخريجه.

والشدة، فقال تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ﴾ [هود: ١-٣]، وقال تعالى: ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا﴾ إلى قوله: ﴿وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا﴾ [نوح: ١٠-١٢]، وقال تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا ١٦ لِّنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِ﴾ [الجن: ١٦-١٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ أَقَامُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِم مِّن رَّبِّهِمۡ لَأَكَلُواْ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۚ﴾ [المائدة: ٦٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ﴾ [هود: ٩]، وقال تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَ﴾، وقال تعالى: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَتَضَرَّعُونَ ٤٢ فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢-٤٣]»(١).

٦- الابتلاء بالهزيمة:

لقد جعل الله الابتلاء سنته التي يعالج بها أحوال الناس ونفوسهم إذا خرجت عن الإطار الذي رسمه الله لهم في كتابه العظيم وسنة رسوله ﷺ، ولقد تنوعت هذه الابتلاءات طبقًا لأحوال الناس ونفوسهم، وطبقًا لما يعالج الأفراد أو يعالج الجماعات، ومن هذه الابتلاءات التي تعالج الجماعات هو الابتلاء بالهزيمة؛ حتى تراجع الجماعة المسلمة طريقتها وأطرها وما جلبته لنفسها من الخير والشر، فتستعيد طريقها الذي فقدته، وتسترد عافيتها، فتحصل على النصر الدائم، وتخرج من الهزيمة المؤقتة بإذن الله.

لذلك عالج شيخ الإسلام هذه المسألة، ومن هذه المعالجات معالجته لما ابتلي به المسلمون من غزو التتار، ووضع مقارنة رائعة بين ما حدث للمسلمين في هذا الزمان، وما حدث لهم في غزوة الخندق وغزوة أحد، ووضح أن هذا الأمر هو سنة الله في الأولين، كما هي سنته في

(١) مجموع الفتاوى، (١٦/ ٥٣، ٥٤).

المتأخرين، وسنن الله لا تتخلف؛ فهي مطردة وعادته- سبحانه- مستمرة، وعهود الله في كتابه وسنة رسوله تنال آخر هذه الأمّة كما نالت أولها، أي: هذه القصص المذكورة في الكتاب ليست بمنزلة ما يفترى من القصص المكذوبة، كنحو ما يذكر في الحروب من السير المكذوبة.

وقال- تعالى- لمّا ذكر قصة فرعون: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ ٢٥ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰٓ﴾ [النازعات: ٢٥، ٢٦].

وقال في سيرة نبينا محمد ﷺ مع أعدائه ببدر وغيرها: ﴿قَدۡ كَانَ لَكُمۡ ءَايَةٞ فِي فِئَتَيۡنِ ٱلۡتَقَتَاۖ فِئَةٞ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخۡرَىٰ كَافِرَةٞ يَرَوۡنَهُم مِّثۡلَيۡهِمۡ رَأۡيَ ٱلۡعَيۡنِۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصۡرِهِۦ مَن يَشَآءُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ [آل عمران: ١٣]، وقال- تعالى- في محاصرته لبني النضير: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَۚ يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ [الحشر: ٢]، فأمرنا أن نعتبر بأحوال المتقدمين علينا من هذه الأمة، وممّن قبلها من الأمم(١).

لذلك فسنة الله في الابتلاء بالهزيمة هي سنة إلهية باقية على الدوام، ومن أسباب الابتلاء بالهزيمة ما ذكره شيخُ الإسلام في حديثه عن هزيمة المسلمين أمام التتار في بادئ الأمر حيث قال: «وكانت هزيمة المسلمين في العام الماضي بذنوب ظاهرة وخطايا واضحة من: فساد النيات، والفخر، والخيلاء، والظلم، والفواحش، والإعراض عن حكم الكتاب والسنة، وعن المحافظة على فرائض الله، والبغي على كثير من المسلمين الذين بأرض الجزيرة والروم، وكان عدوهم في أول الأمر راضيًا منهم بالموادعة والمسالمة، شارعًا في الدخول في الإسلام، وكان مبتدئًا في الإيمان والأمان، وكانوا- هُم- قد أعرضوا عن كثير من أحكام الإيمان، فكان من حكمة الله ورحمته بالمؤمنين أن ابتلاهم بما ابتلاهم به؛ ليمحص الله الذين آمنوا وينيبوا إلى ربهم، وليظهر من عدوهم ما ظهر منه من البغي والمكر والنكث والخروج عن شرائع الإسلام، فيقوم

(١) مجموع الفتاوى، (٢٨/ ٤٢٥، ٤٢٦).

بهم ما يستوجبون به النصر، وبعدوهم ما يستوجب به الانتقام؛ فقد كان في نفوس كثير من مقاتلة المسلمين ورعيتهم من الشر الكبير ما لو يقترن به ظفر بعدوهم- الذي هو على الحال المذكورة- لأوجب لهم ذلك من فساد الدين والدنيا ما لا يوصف.

كما أن نصر الله للمسلمين يوم بدر كان رحمةً ونعمة، وهزيمتهم يوم أحد كان نعمة ورحمة على المؤمنين؛ فإن النبي ﷺ قال: (**لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلّا كان خيرًا، وليس ذلك لأحد إلّا للمؤمن، إن أصابته سراء فشكر الله كان خيرًا له، وإن أصابته ضراء فصبر كان خيرًا له**)»[1].

ثمّ يقدم شيخ الإسلام وصفًا لحال المؤمنين عندما يبتليهم الله – عز وجل – بهذه المحنة من هزيمة وخوف، فيقول تعقيبًا على قول الله- تعالى: ﴿ **لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا** ﴾ [الأحزاب: ٢١]، فأخبر- سبحانه- أن الذين يبتلون بالعدو كما ابتلي رسول الله ﷺ فلهم فيه أسوة حسنة، حيث أصابهم مثل ما أصابه، فليتأسوا به في التوكل والصبر، ولا يظنون أنّ هذه نقم لصاحبها وإهانة له، فإنه لو كان كذلك ما ابتلي بها رسول الله ﷺ خير الخلائق، بل بها ينال الدرجات العالية، وبها يكفر الله الخطايا لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرًا، وإلّا فقد يبتلى بذلك من ليس كذلك فيكون في حقه عذابًا، كالكفار والمنافقين.

ثمّ قال تعالى: ﴿**وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا**﴾ [الأحزاب: ٢٢] قال العلماء: كان الله قد أنزل في سورة البقرة: ﴿ **أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ** ﴾ [البقرة: ٢١٤] فبيّن الله- سبحانه- منكرًا على مَن حسب خلاف ذلك أنّهم لا يدخلون الجنة إلّا بعد أن يبتلوا مثل هذه الأمم قبلهم بـ «البأساء» وهي الحاجة والفاقة، و«الضراء» وهي الوجع والمرض، و«الزلزال» وهي زلزلة العدو[2].

(١) مجموع الفتاوى، (٢٨/ ٤٣١، ٤٣٢).
(٢) الفتاوى، (٢٨/ ٤٥٩، ٤٦٠).

من الابتلاءات التي تصيب الإنسان أمراض القلوب، ولو تأمّلنا أمراض القلوب لوجدنا أنها تصيب الإنسان بسبب مخالفته لكتاب الله والسنة النبوية المطهرة، وغفلته عن ذكره- سبحانه- على النحو الذي ينبغي له.

ولقد تحدّث شيخُ الإسلام عن هذه المحنة، وفصل القول فيها حتى أخذت من كتاباته فصولًا في أماكن مختلفة في كتبه؛ لأنّ صلاح القلوب، وهي أسباب قبول العبادات، وبلوغ الدرجات العالية عند الله- سبحانه، فيقول الشيخ في مرض القلب: «وكذلك (مرض القلب) هو نوعُ فساد يحصل له يفسد به تصوره وإرادته، فتصوره بالشبهات التي تعرض له حتى لا يرى الحق، أو يراه على خلاف ما هو عليه، وإرادته بحيث يبغض الحقّ النافع ويحب الباطل الضار؛ فلهذا يفسر المرض تارة بالشك والريب، كما فسر مجاهد وقتادة قوله: ﴿ **فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ** ﴾ [البقرة: ١٠]، أي: شك، وتارة يفسر بشهوة الزنا كما فسر به قوله: ﴿ **فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ** ﴾ [الأحزاب: ٣٢]»[1].

وكذلك يقول- رحمه الله: «ألم يحصل في القلب كالغيظ من عدو استولى عليك، فإن ذلك يؤلم القلب، والقرآن شفاء لما في الصدور، ومن في قلبه أمراض الشبهات والشهوات ففيه مِن البينات ما يزيل الحقّ من الباطل، فيزيل أمراض الشبهة المفسدة للعلم، والتصور والإدراك بحيث يرى الأشياء على ما هي عليه.

وفيه من الحكمة والموعظة الحسنة بالترغيب والترهيب والقصص التي فيها عبرة ما يوجب صلاح القلب، فيرغب القلب فيما ينفعه، ويرغب عمّا يضره، فيبقى القلب محبًّا للرشاد، مبغضًا للغي، بعد أن كان مريدًا للغي مبغضًا للرشاد.

فالقرآن مُزيل للأمراض الموجبة للإرادات الفاسدة حتى يصلح القلب، فتصلح إرادته، ويعود إلى فطرته التي فطر عليها، كما يعود البدن إلى الحال الطبيعي، ويغتذي القلب من

---

(١) الفتاوى، (١٠/ ٩٣).

الإيمان والقرآن بما يزكيه ويؤيده، كما يغتذي البدن بما ينمّيه ويقوّمه، فإن زكاة القلب مثل نَماء البدن»[1].

ولقد فصّل شيخُ الإسلام ابن تيمية في هذا الموضوع موضحًا أنواع أمراض القلوب، وطرق معالجتها، مبيّنًا الفرق بينها وبين موت القلوب.

٧- الابتلاء بالخير والشر:

الله I يبتلي البشر جميعًا بالخير ليرى ماذا يفعلون في هذه النعم، وكيف سيؤدون حقوقها، وكذلك يبتليهم بالشر ليعلم كيف سيتصرفون في أحوالهم، هل سيصبرون أم سيجزعون أم سيحاولون أن يغيروا من أنفسهم ويجاهدوها؟

وفي كلّ حالات الإنسان المختلفة يكون له من الجزاء بالثواب أو العقاب على حسب حالته.

والخيرُ والشرّ سنّة إلهية موجودة منذ أن خلق الله البشر، فليس في الكون خير مطلق أو شرّ مطلق، ولعل ذلك لحكمة إلهية جليلة، وهي أن لا نركن إلى الدنيا وننسى الآخرة، ونعشق دار الفناء فلا نستعد جيدًا لدار البقاء، يقول شيخ الإسلام في هذا المعنى: «وكل ما خلقه- ممّا فيه شرّ جزئي إضافي- ففيه من الخير العام والحكمة والرحمة أضعاف ذلك، مثل: إرسال موسى إلى فرعون، فإنه حصل به التكذيب والهلاك لفرعون وقومه، وذلك شر بالإضافة إليهم، لكن حصل به- من النفع العام للخلق إلى يوم القيامة، والاعتبار بقصة فرعون- ما هو خير عام، فانتفع بذلك أضعاف أضعاف مَن استضر به».

كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴾ [الزخرف: ٥٥-٥٦]، وقال- تعالى- بعد ذكر قصته: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾ [النازعات: ٢٦].

وكذلك محمد ﷺ شقي برسالته طائفةٌ من مشركي العرب وكفار أهل الكتاب، وهم الذين كذبوه، وأهلكهم الله- تعالى- بسببه، ولكن سعد بها أضعاف أضعاف هؤلاء، ولذلك مَن

(١) مجموع الفتاوى، (١٠/ ٩٦).

شقي به مِن أهل الكتاب كانوا مبدلين محرفين قبل أن يبعث الله محمدًا r، فأهلك الله بالجهاد طائفة، واهتدى به من أهل الكتاب أضعاف أضعاف أولئك، والذين أذلّهم الله من أهل الكتاب بالقهر والصغار، أو من المشركين الذين أحدث فيهم الصّغار، فهؤلاء كان قهرهم رحمة لهم؛ لئلا يعظم كفرهم، ويكثر شرهم، ثمّ بعدهم حصل من الهدى والرحمة لغيرهم ما لا يحصيهم إلّا الله، وهم دائمًا يهتدي منهم ناس من بعد ناس ببركة ظهور دينه بالحجة واليد.

فالمصلحة بإرساله وإعزازه، وإظهار دينه، فيها من الرحمة التي حصلت بذلك ما لا نسبة لها إلى ما حصل بذلك لبعض الناس من شر جزئي إضافي، لما في ذلك من الخير والحكمة- أيضًا؛ إذ ليس فيما خلقه الله- سبحانه- شرّ محض أصلًا، بل هو شرّ بالإضافة»[(١)].

وفي موضع آخر تحدّث شيخ الإسلام عن الشر الجزئي الإضافي، وذلك بعد ذكره لدعاء النبي ﷺ في دعاء الاستفتاح: (والخير بيديك، والشر ليس إليك)[(٢)]: فإنه لا يخلق شرًّا محضًا، بل كلّ ما يخلقه ففيه حكمة، هو باعتبارها خير، ولكن قد يكون فيه شرّ لبعض الناس، وهو شر جزئي إضافي.

فأمّا شرّ كلي، أو شرّ مطلق؛ فالربّ منزّه عنه، وهذا هو الشر الذي ليس إليه.

وهذا الموضع ضلّ فيه فريقان من الناس الخائضين في القدر بالباطل:

فرقة كذبت بهذا، وقالت: إنه لا يخلق أفعال العباد، ولا يشاء كلّ ما يكون؛ لأن الذنوب قبيحة، وهو لا يفعل القبيح، وإرادتها قبيحة، وهو لا يريد القبيح.

وفرقة: لمّا رأت أنه خالق هذا كله ولم تؤمن أنه خلق هذا لحكمة بل قالت: إذا كان يخلق هذا فيجوز أن يخلق كلّ شر، ولا يخلق شيئًا لحكمة، وما ثمّ فعل تنزه عنه، بل كلّ ما كان ممكنًا جاز أن يفعله، وجوّزوا: أن يأمر بكلّ كفر ومعصية، وينهى عن كلّ إيمان وطاعة، وصدق وعدل، وأن يعذّب الأنبياء، وينعم الفراعنة والمشركين وغير ذلك، ولم يفرقوا بين مفعول ومفعول.

---

(١) الفتاوى، (١٤/ ٢٧٦، ٢٧٧).

(٢) مسند الشافعي، (١/ ٢٥٧).

وهذا منكر من القول وزور، كالأول، قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١]، وقال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥-٣٦]، وقال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾، ونحو ذلك ممّا يوجب أنه يفرق بين الحسنات والسيئات، وبين المحسن والمسيء، وأن من جوّز عليه التسوية بينهما فقد أتى بقول منكر، وزور ينكر عليه.

وليس إذا خلق ما يتأذى به بعض الحيوان لا يكون فيه حكمة، بل فيه من الحكمة والرحمة ما يخفى على بعضهم ممّا لا يقدر قدره إلّا الله، وليس إذا وقع في المخلوقات ما هو شر جزئي بالإضافة يكون شرًّا كليًّا عامًّا، بل الأمور العامة الكلية لا تكون إلّا خيرًا ومصلحة للعباد، كالمطر العام، وكإرسال رسول عام.

وهذا ممّا يقتضي أنه لا يجوز أن يؤيد الله كذابًا عليه بالمعجزات التي أيد بها أنبياءه الصادقين؛ فإن هذا شرّ عام للناس، يضلهم ويفسد عليهم دينهم ودنياهم وآخرتهم.

وليس هذا كالملك الظالم، والعدو؛ فإن الملك الظالم لا بدّ أن يدفع الله به من الشر أكثر من ظلمه، وقد قيل: ستون سنة بإمام ظالم خير من ليلة واحدة بلا إمام، وإذا قدر كثرة ظلمه فذاك ضرر في الدين، كالمصائب تكون كفارة لذنوبهم ويثابون عليها، ويرجعون فيها إلى الله، ويستغفرونه ويتوبون إليه.

وكذلك ما يسلط عليهم من العدو.

وأمّا مَن يكذب على الله، ويقول- أي: يدعي- أنه نبي، فلو أيده الله تأييد الصادق للزم أن يسوي بينه وبين الصادق، فيستوي الهدى والضلال، والخير والشر، وطريق الجنة وطريق النار، ويرتفع التمييز بين هذا وهذا، وهذا ممّا يوجب الفساد العام للناس في دينهم ودنياهم وآخرتهم.

ولهذا أمر النبي ﷺ بقتال من يقاتل على الدين الفاسد من أهل البدع، كالخوارج، وأمر بالصبر على جور الأئمة، ونهى عن قتالهم والخروج عليهم، ولهذا قد يمكن الله كثيرًا من الملوك

الظالمين مدّة، وأمّا المتنبئون الكذابون فلا يطيل تمكينهم، بل لا بدّ أن يهلكهم؛ لأن فسادهم عام في الدين والدنيا والآخرة. قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٦]، وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشورى: ٢٤]، فأخبر: أنه- بتقدير الافتراء- لا بدّ أن يعاقب من افترى عليه»[(١)].

وخلاصة القول في هذا الأمر ما ذكره شيخ الإسلام في موضع آخر: «أن الشر لا يضاف إلى الله، إلّا على أحد الوجوه الثلاثة، وقد تضمنت الفاتحة للأقسام الثلاثة هو- سبحانه- الرحمن الذي وسعت رحمته كلّ شيء، وفي الصحيح عن النبيﷺ أنه أرحم بعباده من الوالدة بولدها[(٢)]، وقد سبقت وغلبت رحمته غضبه، وهو الغفور الودود، الحليم الرحيم.

فإرادته أصل كلّ خير ونعمة، وكل خير ونعمة فمنه، ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، وقد قال سبحانه: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾، ثمّ قال: ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠].

وقال تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٨]، فالمغفرة والرحمة من صفاته المذكورة بأسمائه، فهي من موجب نفسه المقدسة، ومقتضاها ولوازمها.

وأمّا العذاب فمن مخلوقاته، الذي خلقه بحكمة، هو باعتبارها حكمة ورحمة؛ فالإنسان لا يأتيه الخير إلّا من ربه وإحسانه وجوده، ولا يأتيه الشر إلّا من نفسه»[(٣)].

الإنسانُ والتعرّض للبلاء:

لقد مدحَ الله – عز وجل – الصابرين في مواقف البلاء ووعدهم بالأجر العظيم على هذا الصبر، قال- تعالى- في محكم كتابه: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥، ١٥٦]، ومع هذا كره لنا أن نعرض أنفسنا للبلاء، أو نضعها

(١) الفتاوى، (١٤/ ٢٦٦) وما بعدها.
(٢) مختصر صحيح مسلم للمنذري، ت: الألباني، (٢/ ٥١٢).
(٣) الفتاوى، (١٤/ ٢٧٢).

في مواطن لا تطيقها، حيث قال ﷺ: «**لا ينبغي للمؤمن أن يذلّ نفسه**». قالو: كيف يذل نفسه؟ قال: «**يتعرض من البلاء ما لا يطيق**».

وفي هذه المعاني تحدّث شيخ الإسلام حيث يقول: «ولهذا كره للمرء أن يتعرض للبلاء بأن يوجب على نفسه ما لا يوجبه الشارع عليه بالعهد والنذر ونحو ذلك، أو يطلب ولاية، أو يقدم على بلد فيه طاعون، كما ثبت في الصحيحين من غير وجه عن النبي ﷺ أنه نهى عن النذر، وقال: (إنه لا يأتي بخير، وإنما يستخرج به من البخيل)[١].

وثبت عنه في الصحيحين أنه قال لعبد الرحمن بن سمرة: (لا تسأل الإمارة؛ فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها، وإن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها، وإذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيرًا منها فأت الذي هو خير، وكفر عن يمينك)[٢].

وثبت عنه في الصحيحين أنه قال في الطاعون: (إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارًا منه)[٣].

وثبت عنه في الصحيحين أنه قال: (لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، ولكن إذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف)[٤].

وأمثال ذلك ممّا يقتضي أن الإنسان لا ينبغي له أن يسعى فيما يوجب عليه أشياء ويحرم عليه أشياء فيبخل بالوفاء، وكما يفعل كثير ممّن يعاهد الله عهودًا على أمور، وغالب هؤلاء يبتلون بنقض العهود»[٥].

ماذا يجب على الإنسان عند البلاء؟

عندما يتعرّض الإنسان للبلاء تحار نفسه وقد يفقد عقله أو صحته في زحام الهموم والصدمات، لذلك كان الصبر عند الشدائد هو العلاج لكل هذه الأعراض لأن الصبر يعطي الإنسان الفرصة للتفكير والمراجعة فيحصل بذلك الفوز والفلاح في الدنيا والآخرة، وعلى

(١) صحيح مسلم، (٣/ ١٢٦١)، باب: النهي عن النذر، وأنه لا يرد شيئًا.
(٢) صحيح البخاري، باب: من لم يسأل الإمارة أعين عليها، (٩/ ٦٣).
(٣) صحيح البخاري، (٤/ ١٧٥).
(٤) صحيح مسلم، (٣/ ١٣٦٢).
(٥) مجموع الفتاوى، (١٠/ ٣٨).

المسلم عند تعرضه للابتلاء واجبات يتحتم عليه القيام بها، حتى تزول المحنة ويتنزل الفرج، يقول شيخ الإسلام: «ويقتضي أن الإنسان إذا ابتلي فعليه أن يصبر ويثبت ولا يتّكل؛ حتى يكون من الرجال الموقنين القائمين بالواجبات، ولا بدّ في جميع ذلك من الصبر؛ ولهذا كان الصبر واجبًا باتفاق المسلمين على أداء الواجبات وترك المحظورات، ويدخل في ذلك الصبر على المصائب عن أن يجزع فيها، والصبر عن اتباع أهواء النفوس فيما نهى الله عنه.

وقد ذكر الله الصبر في كتابه في أكثر من تسعين موضعًا، وقرنه بالصلاة في قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]، ﴿ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣]، وقوله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [هود: ١١٤-١١٥]، ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه: ١٣٠]، ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ الآية [غافر: ٥٥]، وجعل «الإمامة في الدين» موروثة عن الصبر واليقين بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ فإن الدين كله علم بالحق وعمل به، والعمل به لا بدّ فيه من الصبر، بل وطلب علمه يحتاج إلى الصبر، كما قال معاذ بن جبل - رضي الله عنه -: عليكم بالعلم؛ فإن طلبه لله عبادة، ومعرفته خشية، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، ومذاكرته تسبيح، به يعرف الله ويعبد، وبه يمجد الله ويوحد، يرفع الله بالعلم أقوامًا يجعلهم للناس قادة وأئمة يهتدون بهم، وينتهون إلى رأيهم.

فجعل البحث عن العلم من الجهاد، ولا بدّ في الجهاد من الصبر؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ١-٣]، وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي ٱلْأَيْدِي وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [ص: ٤٥].

ووضّح شيخُ الإسلام أنّ أفضل ما يقابل به الإنسان البلاء هو الرضا والصبر فيقول: «وأمّا (الرضا) فقد تنازع العلماء والمشايخ من أصحاب الإمام أحمد وغيرهم في الرضا بالقضاء: هل

هو واجب أو مستحب؟ على قولين: فعلى الأول يكون من أعمال المقتصدين، وعلى الثاني يكون من أعمال المقربين. قال عمر بن عبد العزيز: الرضا عزيز ولكن الصبر معول المؤمن.

وقد بيّن شيخ الإسلام منزلة الرضا، ووضح أن الحمد من كمال الرضا، فذكر أن الرضا بما أمر الله به فأصله واجب وهو من الإيمان، وقد فصل في هذا الأمر تفصيلًا كثيرًا مصطحبًا ذلك بالأدلة من الكتاب والسنة وأقوال الأئمة[1].

وجوبُ الاحتراز من أسباب الفتنة والبلاء:

الاحتراز من الفتن واجبٌ على كلّ مسلم؛ فإن الإنسان إذا تعرض للفتن فقد يفتن ولا يسلم، ومن هذه الفتن التي يعرض الإنسان نفسه لها: الدخول على السلطان، أو الاختلاط بالنساء، فيقع بالمحرمات، أو الاختلاط بأصحاب البدع والمنكرات، أو طلب الإمارة والملك والرئاسة، وبيّن ذلك الشيخ فيقول: «فإن في (العلم) و(الإمارة) و(الجهاد) و(الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) و(الصلاة) و(الحج) و(الصوم) و(الزكاة) من الفتن النفسية وغيرها ما ليس في غيرها.

ويعرض في ذلك ميل النفس إلى الرئاسة والمال والصور، فإذا كانت النفس غير قادرة على ذلك لم تطمع فيه كما تطمع مع القدرة؛ فإنها مع القدرة تطلب تلك الأمور المحرمة؛ بخلاف حالها بدون القدرة؛ فإن الصبر مع القدرة جهاد؛ بل هو من أفضل الجهاد. وأكمل من ثلاثة أوجه: (أحدها): أن الصبر عن المحرمات أفضل من الصبر على المصائب. (الثاني): أن ترك المحرمات مع القدرة عليها وطلب النفس لها أفضل من تركها بدون ذلك. (الثالث): أن طلب النفس لها إذا كان بسبب أمر ديني، كمن خرج لصلاة أو طلب علم أو جهاد فابتلي بما يميل إليه من ذلك فإن صبره عن ذلك يتضمن فعل المأمور وترك المحظور، بخلاف ما إذا مالت نفسه إلى ذلك بدون عمل صالح، ولهذا كان يونس بن عبيد يوصي بثلاث يقول: لا تدخل على سلطان، وإن قلت: آمره بطاعة الله. ولا تدخل على امرأة، وإن قلت: أعلمها كتاب الله. ولا تصغ أذنك إلى صاحب بدعة وإن قلت: أرد عليه»[2].

---

(١) الفتاوى، (١٠/ ٤٠) وما بعدها.

(٢) الفتاوى، (١٠/ ٥٧٦، ٥٧٧).

كما يبيّن شيخ الإسلام هذا في موضع آخر بقوله: «فإذا قدر أنه ابتلي بذلك بغير اختياره أو دخل فيه باختياره وابتلي فعليه أن يتقي الله، ويصبر ويخلص ويجاهد.

وصبره على ذلك وسلامته مع قيامه بالواجب من أفضل الأعمال، كمن تولى ولاية وعدل فيها، أو ردّ على أصحاب البدع بالسنة المحضة ولم يفتنوه، أو علم النساء الدين على الوجه المشروع من غير فتنة.

لكن الله إذا ابتلى العبد وقدر عليه أعانه، وإذا تعرض العبد بنفسه إلى البلاء وكله الله إلى نفسه، كما قال النبي ﷺ لعبد الرحمن بن سمرة: (لا تسأل الإمارة؛ فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها، وإن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها)[١]، وكذلك قال في الطاعون: (إذا وقع ببلد وأنتم بها فلا تخرجوا فرارًا منه، وإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه)[٢].

فمَن فعل ما أمره الله به فعرضت له فتنة من غير اختياره فإنّ الله يعينه عليها بخلاف مَن تعرّض لها، لكن باب التوبة مفتوح؛ فإن الرجل قد يسأل الإمارة فيوكل إليها، ثمّ يندم فيتوب من سؤاله فيتوب الله عليه ويعينه؛ إمّا على إقامة الواجب، وإمّا على الخلاص منها؛ وكذلك سائر الفتن، كما قال: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣]»[٣].

***

(١) صحيح البخاري، (٩/ ٦٣).
(٢) مسند أحمد، ط الرسالة، (٣/ ٢١٤).
(٣) الفتاوى، (١٠/ ٥٧٧، ٥٧٨).

المبحثُ السّابع

سنّةُ الله في الخائنين للأمانة

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢٧، ٢٨].

«يأمر – تعالى – عباده المؤمنين أن يؤدوا ما ائتمنهم الله عليه من أوامره ونواهيه؛ فإنّ الأمانة قد عرضها الله على السموات والأرض والجبال، فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلومًا جهولًا، فمَن أدى الأمانة استحقّ من الله الثواب الجزيل، ومن لم يؤدها – بل خانها – استحق العقاب الوبيل، وصار خائنًا لله وللرسول ولأمانته، منقصًا لنفسه بكونه اتصفت نفسه بأخسّ الصفات، وأقبح الشيات، وهي الخيانة مفوتًا لها أكمل الصفات وأتمها، وهي الأمانة.

ولمّا كان العبد ممتحنًا بأمواله وأولاده، فربما حمله محبة ذلك على تقديم هوى نفسه على أداء أمانته، أخبر الله – تعالى – أنّ الأموال والأولاد فتنة يبتلي الله بهما عباده، وأنها عارية ستؤدى لِمَن أعطاها، وتردّ لِمَن استودعها ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

فإنْ كان لكم عقل ورأي، فآثروا فضله العظيم على لذة صغيرة فانية مُضمحلة، فالعاقل يوازن بين الأشياء، ويؤثر أولاها بالإيثار، وأحقّها بالتقديم»(١).

وقد أعطى الشيخ صورةً من صور الأمانة والحفاظ عليها، وصورة من صور التخلي عنها بقوله: «فإن الرجل لحبّه لولده أو لعتيقه قد يؤثره في بعض الولايات، أو يعطيه ما لا يستحقه، فيكون قد خان أمانته، كذلك قد يؤثره زيادة في ماله أو حفظه بأخذ ما لا يستحقه أو محاباة مَن يداهنه في بعض الولايات، فيكون قد خان الله ورسوله وخان أمانته.

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص(٣١٩).

ثمّ إنّ المؤدي للأمانة مع مخالفة هواه يثبته الله فيحفظه في أهله وماله، والمطيع لهواه يعاقبه الله بنقيض قصده فيذلّ أهله ويذهب ماله، وفي ذلك الحكاية المشهورة أن بعض خلفاء بني العباس سأل بعض العلماء أن يحدثه عمّا أدرك فقال: أدركت عمر بن عبد العزيز فقيل له: يا أمير المؤمنين أقفرت أفواه بنيك من هذا المال، وتركتهم فقراء لا شيء لهم، وكان في مرض موته فقال: أدخلوهم عليّ، فأدخلوهم بضعة عشر ذكرًا ليس فيهم بالغ، فلمّا رآهم ذرفت عيناه ثمّ قال: يا بني، والله ما منعتكم حقًّا هو لكم، ولم أكنْ بالذي آخذ أموال الناس فأدفعها إليكم، وإنما أنتم أحد رجلين: إمّا صالح فالله يتولّى الصالحين، وإمّا غير صالح فلا أترك له ما يستعين به على معصية الله، قوموا عني.

قال: فلقد رأيت بعض ولده حمل على مائة فرس في سبيل الله، يعني: أعطاها لَمن يغزو عليها.

قلت: هذا وقد كان خليفة المسلمين من أقصى المشرق بلاد الترك إلى أقصى المغرب بلاد الأندلس وغيرها، ومن جزائر قبرص وثغور الشام والعواصم كطرسوس ونحوها إلى أقصى اليمن، وإنما أخذ كلّ واحد من أولاده من تركته شيئًا يسيرًا يقال: أقلّ مِن عشرين درهمًا.

قال: وحضرت بعض الخلفاء وقد اقتسم تركته بنوه فأخذ كلّ واحد منهم ستمائة ألف دينار، ولقد رأيت بعضهم يتكفّف الناس- أي: يسألهم بكفّه، وفي هذا الباب من الحكايات والوقائع المشاهدة في الزمان والمسموعة عمّا قبله ما فيه عبرة لكل ذي لبّ»[1].

***

(١) السياسة الشرعية لابن تيمية، ص(١٥، ١٦).

المبحثُ الثّامن

سنّةُ الله في التسخير

معنى التسخير لغة:

ومعنى التسخير في اللغة: التّذليل، والسخرة: ما تسخره من دابة أو خادم بلا أجر أو ثمن، ويقال: سخرته بمعنى: قهرته وذللته، قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ [إبراهيم: ٣٣]، أي: ذللهما، وقال الزجّاج: تسخير ما في السموات، أي: تسخير الشمس والقمر والنجوم للآدميّين، وهو الانتفاع بها في بلوغ منابتهم، والاقتداء بها في مسالكهم، وتسخير ما في الأرض، أي: تسخير بحارها وأنهارها ودوابها وجميع منافعها(١).

وسنّة الله في التسخير هي سنة تدلنا على أن كلّ ما في هذا الكون مسخر من قبل الله - عز وجل - لعباده؛ حتى ينتفعوا، وليستفيدوا من مكونات هذا الكون في عمارة الأرض، وتحقيق العبودية الكاملة، ولقد ألمح الشيخ عن هذه السنة حين حديثه عن الأسباب، فذكر أنّ الأسباب ليست وحدها مستقلة، ويجب أن لا يعتمد الإنسان على الأسباب، وذكر أنّ كلّ ما في الكون مسخّر من قبل الله - عز وجل - بتدبيره وحكمته، فيقول شيخُ الإسلام متحدثًا عن حركة الكون: «والحركات كلها: إمّا (طبيعية) وإمّا (إرادية) وإمّا (قسرية)، فالقسرية تابعة للقاسر، والطبيعية هي التي لا إحساس للمتحرك بها كحركة التراب إلى أسفل، والإرادية هي التي للمتحرك بها حس كحركة الحيوان، فما كان من هذه متحركًا بطبع فيه أو إرادة فمبدأ حركته منه، وما كان مقسورًا فقاسره من المخلوقات إنما يقسره لما فيه من الاستعداد لقبول قسره، وذلك معنى ليس من القاسر، فحركات الأفلاك إذا اجتمعت ليست مستقلّة بتحريك هذه الأجسام، وإن جاز أن تكون جزءًا للسبب، كما نشهد أن الشمس جزء سبب في نمو بعض الأجسام ورطوبتها ويبسها ونحو ذلك، ثمّ بتقدير أن تكون أسبابًا فلها موانع ومعارضات؛ إذ ما من سبب يقدر إلّا وله مانع إرادي أو طبيعي أو غير ذلك كـ: الدعاء والصدقة والأعمال الصالحة؛ فإنها من

(١) لسان العرب، (٧/ ١٤٥).

أعظم الأسباب في دفع البلاء النازل من السماء، ولهذا أمرنا بذلك عند الكسوف، وغيره من الآيات السماوية التي تكون سببًا للعذاب، كما قال النبي ﷺ: (إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، ولكنهما آيتان من آيات الله يخوف بهما عباده، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى الصلاة)(١)، وأمر ﷺ عند الكسوف بالصلاة والذكر والاستغفار والصدقة والعتاقة»(٢).

المسخَّراتُ الكونية ودلالتها على الله- تعالى:

اهتمّ شيخُ الإسلام- رحمه الله- بذكر المسخّرات الكونية ودلالتها على الله- تعالى، وفوائدها في حياة الخلق، فيرى أنّ: «النجوم من آيات الله الدالة عليه، المسبحة له، الساجدة له، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾[الحج: ١٨].

وهو- سبحانه- مع ذلك قد جعل فيها منافع لعباده وسخرها لهم كما قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ [إبراهيم: ٣٣]، وقال: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣]، ومن منافعها الظاهرة ما يجعله- سبحانه- بالشمس من الحرّ والبرد والليل والنهار ونضاج الثمار وخلق الحيوان والنبات والمعادن، وكذلك ما يجعله بها لهم من الترطيب والتيبيس، وغير ذلك من الأمور المشهودة، كما جعل في النار الإشراق والإحراق، وفي الماء التطهير والسقي وأمثال ذلك من نعمه التي يذكرها في كتابه، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧيَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٤٨-٤٩]، وقد أخبر الله في غير موضع أنه يجعل حياة بعض مخلوقاته ببعض كما قال تعالى: ﴿لِّنُحْـِۧيَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾، وكما قال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾»(٣).

(١) صحيح البخاري، (٢/ ٣٤).
(٢) الفتاوى، (٨/ ١٧١).
(٣) مجموع الفتاوى، (٣٥/ ١٦٧).

مِن سنة الله في خلقه أن جعل بعضهم فوق بعض درجات كما أنه سخر بعضهم لبعض:

يتحدّث شيخُ الإسلام عن سنّة الله- تعالى- في تسخير الخلق لبعضهم بعضًا أنْ فضّل بعضهم على بعض في الدنيا؛ ليتخذ بعضهم بعضًا سخريًّا، ومعنى ذلك أن يستفيد بعضهم من بعض في الأعمال والحرف والصنائع؛ لأنه لو تساوى الناس في الغنى ولم يحتَجْ بعضهم إلى بعض لتعطلت المصالح والمنافع، ولم تنشأ منهم المجتمعات، ولم تقم فيها حضارة، «فمنهم من يؤثر أن يكون هو القاهر، ثمّ إنه مع هذا لا بدّ له- في العقل والدين- من أن يكون بعضهم فوق بعض، كما أن الجسد لا يصلح إلّا برأس، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ وَرَفَعَ بَعۡضَكُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمۡ﴾ [الأنعام: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِى ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗا﴾ [الزخرف: ٣٢]»[1].

***

(١) السياسة الشرعية، ص(٢١٧)، والحديث خرجه البيهقي في شعب الإيمان، (١٣/ ٨٥).

المبحثُ التّاسع

سنّةُ اللّه في السعادة والشقاء

قال- تعالى- مبيّنًا سنّته في السعادة والشقاوة: ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤].

يقول الطبري- رحمه الله: «﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي﴾ الذي أذكره به فتولى عنه ولم يقبله ولم يستجب له، ولم يتعظ به فينزجر عما هو عليه مقيم من خلافه أمر ربه ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا﴾ يقول: فإن له معيشة ضيقة، والضنك من المنازل والأماكن والمعايش: الشديد، يقال: هذا منزل ضنك: إذا كان ضيّقًا»[(١)].

يقول شيخ الإسلام- رحمه الله- مبيّنًا الطريق الأصلح للسعادة: «القلب لا يصلح ولا يفلح ولا يلتذّ ولا يسرّ ولا يطيب ولا يسكن ولا يطمئن إلّا بعبادة ربه وحبه والإنابة إليه، ولو حصل له كلّ ما يلتذّ به من المخلوقات لم يطمئن ولم يسكن؛ إذ فيه فقر ذاتي إلى ربه، ومن حيث هو معبوده ومحبوبه ومطلوبه، وبذلك يحصل له الفرح والسرور واللذة والنعمة والسكون والطمأنينة.

وهذا لا يحصل له إلّا بإعانة الله له، لا يقدر على تحصيل ذلك له إلّا الله، فهو دائمًا مفتقر إلى حقيقة ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، فإنه لو أعين على حصول ما يحبه ويطلبه ويشتهيه ويريده ولم يحصل له عبادته لله بحيث يكون هو غاية مراده ونهاية مقصوده، وهو المحبوب له بالقصد الأول، وكلّ ما سواه إنما يحبه لأجله، لا يحبّ شيئًا لذاته إلّا الله، فمتى لم يحصل له هذا لم يكن قد حقّق حقيقةَ (لا إله إلّا الله)، ولا حقق التوحيد والعبودية والمحبة، وكان فيه من النقص والعيب، بل من الألم والحسرة والعذاب بحسب ذلك.

---

(١) جامع البيان، ت: شاكر، (١٨/ ٣٩٠).

ولو سعى في هذا المطلوب ولم يكنْ مستعينًا بالله متوكلًا عليه مفتقرًا إليه في حصوله لم يحصل له؛ فإنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فهو مفتقر إلى الله من حيث هو المطلوب المحبوب المراد المعبود، ومن حيث هو المسئول المستعان به المتوكل عليه، فهو إلهه، لا إله له غيره، وهو ربه لا ربّ له سواه»[١].

من أسباب السعادة في نظر الشيخ- رحمه الله-:

تتبّع شيخُ الإسلام- رحمه الله- أسباب السعادة، وسننَ الله- تعالى- فيها من خلال فهْم الشيخ لمضامين القرآن الكريم، ويمكننا أن نرصدها على النحو الآتي:

١ـ اتّباع المرسلين:

قال- رحمه الله: «وإذا كانت (سعادة الدنيا والآخرة) هي باتباع المرسلين، فمن المعلوم أنّ أحقّ الناس بذلك هم أعلمهم بآثار المرسلين، وأتبعهم لذلك، فالعالمون بأقوالهم وأفعالهم المتبعون لها هم أهل السعادة في كلّ زمان ومكان، وهم الطائفة الناجية من أهل كلّ ملّة، وهم أهل السنة والحديث من هذه الأمة؛ فإنهم يشاركون سائر الأمّة فيما عندهم من أمور الرسالة، ويمتازون عنهم بما اختصوا به من العلم الموروث عن الرسول؛ ممّا يجهله غيرهم أو يكذب به»[٢].

٢- فعلُ المأمور وتركُ المحظور:

ويبيّن شيخُ الإسلام- رحمه الله أن فعل المأمور وترك المحظور من أسباب السعادة التي يتحصل عليها الإنسان في حياته فيقول: «لكن الله جعل فعل المأمور وترك المحظور سببًا للنجاة والسعادة؛ فشهادة التوحيد تفتح باب الخير، والاستغفار من الذنوب يغلق باب الشر».

٣- الإخلاصُ لله- تعالى:

ويرى- رحمه الله: «أنه إذا كان العبد مخلصًا له اجتباه ربه، فيحيي قلبه، واجتذبه إليه فينصرف عنه ما يضادّ ذلك من السوء والفحشاء، ويخاف من حصول ضدّ ذلك، بخلاف القلب الذي

(١) مجموع الفتاوى، (١٠/ ١٩٤).
(٢) مجموع الفتاوى، (٤/ ٢٦).

لم يخلص لله فإنه في طلب وإرادة وحب مطلق، فيهوى ما يسنح له، ويتشبّث بما يهواه، كالغصن أي نسيم مر بعطفه أماله، فتارة تجتذبه الصور المحرمة وغير المحرّمة، فيبقى أسيرًا عبدًا لمن لو اتخذه هو عبدًا له لكان ذلك عيبًا ونقصًا وذمًّا، وتارة يجتذبه الشرف والرئاسة فترضيه الكلمة وتغضبه الكلمة، ويستعبده مَن يثني عليه ولو بالباطل، ويعادي مَن يذمّه ولو بالحقّ، وتارة يستعبده الدرهم والدينار، وأمثال ذلك من الأمور التي تستعبد القلوب، والقلوب تهواها، فيتخذ إلهه هواه، ويتبع هواه بغير هدى من الله.

ومَن لم يكن خالصًا لله عبدًا له قد صار قلبه مستعبدًا لربه وحده لا شريك له بحيث يكون هو أحبّ إليه ممّا سواه، ويكون ذليلًا خاضعًا له، وإلّا استعبدته الكائنات، واستوْلت على قلبه الشياطين، وكان من الغاوين إخوان الشياطين، وصار فيه من السوء والفحشاء ما لا يعلمه إلّا الله»[(١)].

٤ – اعتقادُ الحقّ الثابت:

يبيّن الشيخُ– رحمه الله– أنّ أشدّ الناس سعادة وأبعدهم عن الشقاء مَن كان ملتزمًا بالحقّ الثابت، فيقول:

(فكلّ مَن استقرأ أحوال العالم وجدَ المسلمين أحدّ وأسدّ عقلًا، وأنهم ينالون في المدّة اليسيرة من حقائق العلوم والأعمال أضعاف ما يناله غيرهم في قرون وأجيال، وكذلك أهل السنة والحديث تجدهم كذلك متمتعين. وذلك لأنّ اعتقاد الحقّ الثابت يقوّي الإدراك ويصحّحه، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدًى﴾، محمد: ١٧. وقال: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيۡرًا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّأٓتَيۡنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجۡرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيۡنَٰهُمۡ صِرَٰطًا مُّسۡتَقِيمًا﴾(النساء: ٦٦)[(٢)].

***

(١) مجموع الفتاوى، (١٠/ ٢١٦).
(٢) مجموع الفتاوى: (٤/ ١٠).

المبحثُ العاشر

مِن سننِ اللّه في خلقه أنْ جعل لهم أميرًا، ولا يصلح حالهم إلّا بهذه الإمارة

يقول شيخُ الإسلام- رحمه الله: «يجب أنْ يعرف أنّ ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين، بل لا قيام للدين إلّا بها؛ فإنّ بني آدم لا تتم مصلحتهم إلّا بالاجتماع لحاجة بعضهم إلى بعض، ولا بدّ لهم عند الاجتماع من رأس حتى قال النبي ﷺ: (إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمّروا أحدهم) رواه أبو داود من حديث أبي سعيد وأبي هريرة[١].

وروى الإمام أحمد في المسند، عن عبد الله بن عمرو، أن النبي ﷺ قال: (لا يحلّ لثلاثة يكونوا بفلاة من الأرض إلّا أمّروا عليهم أحدهم)، فأوجب ﷺ تأمير الواحد في الاجتماع القليل العارض في السفر تنبيهًا بذلك على سائر أنواع الاجتماع، ولأن الله- تعالى- أوجب الأمر بالمعروف والنهيَ عن المنكر، ولا يتمّ ذلك إلّا بقوة وإمارة، وكذلك سائر ما أوجبه من الجهاد والعدل وإقامة الحج والجمع والأعياد، ونصر المظلوم، وإقامة الحدود لا يتمّ إلّا بالقوة والإمارة، ولهذا روي: (إنّ السلطان ظلّ الله في الأرض)[٢].

ويقال: ستّون سنَة من إمامٍ جائر أصلحُ من ليلة بلا سلطان، والتجربة تبيّن ذلك، ولهذا كان السّلف كالفضيل بن عياض وأحمد بن حنبل وغيرهما يقولون: لو كان لنا دعوة مُجابة لدعونا بها للسلطان، وقال النبيﷺ: (إنّ الله يرضى لكم ثلاثة: أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا، وأن تناصحوا مَن ولّاه الله أمركم) رواه مسلم[٣].

---

(١) سنن أبي داود، ت: الأرنؤوط، (٤/ ٢٤٩).
(٢) شعب الإيمان، (٩/ ٤٧٦).
(٣) صحيح مسلم، (٣/ ١٣٤٠).

وقال: (ثلاث لا يغلّ عليهم قلب مسلم: إخلاص العمل لله، ومناصحة ولاة الأمر، ولزوم جماعة المسلمين؛ فإن دعوتهم تحيط بهم من ورائهم) رواه أهل السنن(١).

في الصحيح عنه أنه قال: الدين النصيحة، الدين النصيحة، الدين النصيحة. قالوا: لَمن يا رسول الله؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم(٢).

فالواجبُ اتّخاذ الإمارة دينًا وقربة يتقرب بها إلى الله؛ فإن التقرب إليه فيها بطاعته وطاعة رسوله من أفضل القربات، وإنما يفسد فيها حالُ كثيرٍ من الناس لابتغاء الرياسة أو المال بها، وقد روى كعب بن مالك، عن النبي ﷺ أنه قال: (ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال أو الشرف لدينه)(٣)، قال الترمذي: حديث حسن صحيح، فأخبر أنّ حرص المرء على المال والرياسة يفسد دينه مثل أو أكثر من إرسال الذئبين الجائعين لزريبة الغنم»(٤).

***

(١) مسند أحمد، ط: الرسالة، (٣٥/ ٤٦٧).
(٢) صحيح البخاري، (١/ ٢١).
(٣) سنن الترمذي، ت: بشار، (٤/ ١٦٦)، ومصنف ابن أبي شيبة، (٧/ ٨٤).
(٤) السياسة الشرعية، ص(٢١٧).

المبحثُ الحادي عشر

مِن سُنن الله في الأمّة المسلمة

١ـ أنها لا تجتمع على ضلالة:

يقول شيخُ الإسلام في معنى الإجماع: «إنْ تجتمع علماء المسلمين على حكم من الأحكام، وإذا ثبت إجماع الأمّة على حكمٍ من الأحكام؛ لم يكن لأحدٍ أن يخرج عن إجماعهم؛ فإنّ الأمّة لا تجتمع على ضلالة، ولكن كثيرٌ من المسائل يظنّ بعض الناس فيها إجماعًا ولا يكون الأمرُ كذلك، بل يكون القول الآخر أرجح في الكتاب والسنة»[١].

٢ـ أنّها لا تؤخذ بسنَةٍ عامة:

وأيضًا مِن سنن الله في الأمَم المسلمة أنه- تعالى- لا يبتليها بشرّ عام، ولكنه يبتليها بشرور جزئية؛ حتى تثوب إلى رشدها وتسترجع مجدها، خاصة إذا حادت عن منهج الله، يقول شيخ الإسلام: (وليس إذا وقع في المخلوقات ما هو شر جزئي بالإضافة: يكون شرًّا كليًّا عامًّا، بل الأمور العامة الكلية لا تكون إلّا خيرًا ومصلحة للعباد.)[٢].

٣ـ الامتحانُ للمؤمنين ونصرة الله لهم:

فمِن سنن الله- تعالى- في المؤمنين أن يمتحنهم وينصرهم على أعدائهم من الكفار المكذّبين للرسل، فذكر شيخُ الإسلام في تناوله لسورة العنكبوت «امتحان الله تعالى للمؤمنين ونصره لهم، وحاجتهم إلى الصبر والجهاد، وذكر فيها حسن العاقبة لمن صبر، وعاقبة من كذب الرسل، فذكر قصة إبراهيم؛ لأنها من النمط الأول، ونصرة الله له على قومه، وكذلك سورة الصافات قال فيها: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ﴾ [الصافات: ٧١-٧٣]، وهذا يقتضي أنها عاقبة رديئة، إمّا بكونهم غلبوا

(١) مجموع الفتاوى، (٢٠/ ١٠).
(٢) مجموع الفتاوى، (١٤/ ٢٦٨).

وذلوا، وإمّا بكونهم أهلكوا، ولهذا ذكر فيها قصة إلياس، ولم يذكرها في غيرها، ولم يذكر هلاك قومه، بل قال: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ۝١٢٧ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الصافات: ١٢٧-١٢٨]، وإلياس قد روي أن الله- تعالى- رفعَه، وهذا يقتضي عذابهم في الآخرة؛ فإن إلياس لم يقمْ فيهم، وإلياس المعروف بعد موسى من بني إسرائيل، وبعد موسى لم يُهلك المكذّبين بعذاب الاستئصال، وبعد نوح لم يهلك جميع النوع، وقد بعث في كلّ أمّة نذيرًا، والله- تعالى- لم يذكر- قطّ- عن قوم إبراهيم أنهم أهلكوا كما ذكر عن غيرهم، بل ذكر أنهم ألقوه في النار فجعلها الله عليه بردًا وسلامًا، وأرادوا به كيدًا، فجعلهم الله الأسفلين الأخسرين»[١].

٤- مضاهاتُها لليهود والنصارى:

يقول شيخُ الإسلام- رحمه الله: «كفْرُ اليهود أصلُه من جهة عدم العمل بعلمهم؛ فهُم يعلمون الحقّ ولا يتبعونه عملًا، أو لا قولًا ولا عملًا، وكفر النصارى من جهة عملهم بلا علم، فهم يجتهدون في أصناف العبادات بلا شريعة من الله، ويقولون على الله ما لا يعلمون.

ولهذا كان السلف- سفيان بن عيينة، وغيره- يقولون: إنّ مَن فسد مِن علمائنا ففيه شبهٌ من اليهود! ومَن فسد مِن عبّادنا ففيه شبه من النصارى. وليس هذا موضع شرح ذلك.

ومع أنّ الله قد حذّرنا سبيلهم، فقضاؤه نافذ بما أخبر به رسوله ممّا سبق في علمه، حيث قال فيما خرجاه في الصحيحين: عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله: (لتتّبعن سننَ مَن كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه). قالوا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: (فمَن)[٢].

وروى البخاري في صحيحه، عن أبي هريرة، عن النبي قال: (لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتي مأخذ القرون، شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع). فقيل: يا رسول الله، كفارس والروم؟ قال: (ومَن الناس إلّا أولئك)؟[٣].

---

(١) النبوات، ص(٢٩).
(٢) صحيح البخاري، (٤/ ١٦٩)، وصحيح مسلم، (٤/ ٢٠٥٤).
(٣) مسند أحمد، ت: شاكر، (٨/ ٣١٣).

فأخبر أنه سيكون في أمّته مضاهاة لليهود والنصارى، وهم أهل الكتاب، ومضاهاة لفارس والروم، وهم الأعاجم.

وقد كان ينهى عن التشبه بهؤلاء وهؤلاء، وليس هذا إخبارًا عن جميع الأمّة، بل قد تواتر عنه أنّه قال: (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرة على الحقّ حتى تقوم الساعة)[١]، وأخبر أنّ الله لا يجمع هذه الأمّة على ضلالة، وأنّ الله لا يزال يغرس في هذا الدين غرسًا يستعملهم فيه بطاعته.

فعلم بخبره الصدق أنه في أمّته قوم متمسكون بهديه، الذي هو دين الإسلام محضًا، وقوم منحرفون إلى شعبة من شعب اليهود، أو إلى شعبة من شعب النصارى، وإن كان الرجل لا يكفر بكلّ انحراف، بل وقد لا يفسق- أيضًا، بل قد يكون الانحراف كفرًا، وقد يكون فسقًا، وقد يكون معصية، وقد يكون خطأ.

وهذا الانحراف أمرٌ تقتضيه الطباعُ ويزيّنه الشيطان، فلذلك أمر العبد بدوام دعاء الله- سبحانه- بالهداية إلى الاستقامة التي لا يهودية فيها ولا نصرانية أصلًا»[٢].

***

(١) صحيح البخاري، (٩/ ١٠١)، وصحيح مسلم، (١/ ١٣٧).
(٢) اقتضاء الصراط المستقيم لشيخ الإسلام، ص(٧٩-٨٣).

المبحثُ الثّاني عشر

سنّةُ الله في قبول الأعمال

ومِن سنن الله- تعالى- في قبول الأعمال: (أنْ تكون أعمالًا صالحة، ومخلصة لله - عز وجل -).

قال- رحمه الله: «وهذان الأصلان هُما تحقيق: (شهادة أن لا إله إلّا الله، وأن محمدًا رسول الله)، كما قال تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢] قال الفضيل بن عياض: أخلصه وأصوبه. قالوا: يا أبا علي، ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل حتى يكون خالصًا صوابًا.

والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة، وذلك تحقيق قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

وكان أميرُ المؤمنين عمر بن الخطاب يقول في دعائه له: اللهم اجعل عملي كله صالحًا، واجعله لوجهك خالصًا، ولا تجعل لأحد فيه شيئًا، وقال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]»(١).

وقال- رحمه الله: «ومن هذا الباب: الحديث الذي رواه ابن ماجه، عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ في دعاء الخارج إلى الصلاة: (اللهم إني أسألك بحقّ السائلين عليك، وبحقّ ممشاي هذا، فإني لم أخرج أشرًا ولا بطرًا ولا رياء ولا سمعة، ولكن خرجت اتقاءَ سخطك، وابتغاء مرضاتك، أسألك أن تنقذني من النار، وأن تغفر لي ذنوبي؛ فإنه لا يغفر الذنوب إلّا أنت)»(٢).

***

(١) مجموع الفتاوى، (١/ ٣٣٣).

(٢) الفتاوى، (١/ ٣٤٠)، والحديث في مصنف ابن أبي شيبة، (٦/ ٢٥).

المبحثُ الثّالث عشر

مِن سُنن الله – عز وجل – العدل

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ﴾ [النحل: ٩٠، ٩١].

تلك قاعدةٌ قرآنية ماضية وسنّة ربانية من أعظم سنن الشرائع السماوية؛ «وذلك لأن أمورَ الناس تستقيم في الدنيا مع العدل الذي فيه الاشتراك في أنواع الإثم أكثر ممّا تستقيم مع الظلم في الحقوق وإن لم تشترك في إثم؛ ولهذا قيل: إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة. ويقال: الدنيا تدوم مع العدل والكفر، ولا تدوم مع الظلم والإسلام.

وقد قال النبي ﷺ: (ليس ذنب أسرع عقوبة من البغي وقطيعة الرحم)؛ فالباغي يصرع في الدنيا وإن كان مغفورًا له مرحومًا في الآخرة؛ وذلك أن العدل نظام كلّ شيء؛ فإذا أقيم أمر الدنيا بعدل قامت وإن لم يكن لصاحبها في الآخرة من خلاق، ومتى لم تقم بعدل لم تقم وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يجزى به في الآخرة؛ فالنفس فيها داعي الظلم لغيرها بالعلو عليه والحسد له؛ والتعدي عليه في حقه»[(١)].

صورُ العدل كما ذكرها شيخ الإسلام ابن تيمية:

مِن سُنن الله – عز وجل – في هذا الكون العدل، ومن أجل تحقيق هذا العدل في الكون والحياة لكلّ المخلوقات بأمان واستقرار، وحتى تتحقّق العبودية لله وحده وعمارة الأرض جعل الله – عز وجل – صورًا كثيرة لتحقيق هذا العدل، منها: الحدود والأحكام المختلفة، ومن هذه الحدود القصاص الذي يحفظ على الإنسان حياته وأمنه وحقه في البقاء كما أراد الله له.

(١) مجموع الفتاوى، (٢٨/ ١٤٦).

١- القصاص:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٧٨ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٨، ١٧٩].

يقول شيخُ الإسلام- رحمه الله- في ذلك مُظهرًا معرفتَه بالنفوس البشرية وما يجول بها: «وذلك لأنّ أولياء المقتول تغلي قلوبهم بالغيظ حتى يؤثروا أن يقتلوا القاتل وأولياءه، وربما لم يرضوا بقتل القاتل بل يقتلون كثيرًا من أصحاب القاتل كسيد القبيلة ومقدم الطائفة، فيكون القاتل قد اعتدى في الابتداء وتعدّى هؤلاء في الاستيفاء، كما كان يفعله أهل الجاهلية الخارجون عن الشريعة في هذه الأوقات من الأعراب وغيرهم، وقد يستعظمون قتل القاتل لكونه عظيماً أشرف من المقتول، فيفضي ذلك إلى أولياء المقتول يقتلون مَن قدروا عليه من أولياء القاتل، وربما حالف هؤلاء قومًا واستعانوا بهم، وهؤلاء قومًا فيفضي إلى الفتن والعداوات العظيمة.

وسببُ ذلك خروجهم عن سنن العدل الذي هو القصاص في القتلى، فكتب الله علينا القصاص- وهو المساواة والمعادلة في القتلى- وأخبر أن فيه حياة؛ فإنه يحقن دمَ غير القاتل من أولياء الرجلين.

وأيضًا فإذا علم مَن يريد القتل أنه يُقتَل كفّ عن القتل، وقد روي عن علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - وعمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده- رضي الله عنهما، عن النبيﷺ أنه قال: (المؤمنون تتكافأ دماؤهم، وهم يدٌ على مَن سواهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، ألا لا يقتل مسلم بكافر، ولا ذو عهد في عهده)[١]. رواه أحمد وأبو داود وغيرهما من أهل السنن.

فقضى رسول الله ﷺ أن المسلمين تتكافأ دماؤهم- أي: تتساوى وتتعادل- فلا يفضُلُ عربي على عجمي، ولا قرشي أو هاشمي على غيره من المسلمين، ولا حرٌّ أصلي على مولى عتيق، ولا عالم أو أمير على أمي أو مأمور، وهذا متفق عليه بين المسلمين، بخلاف ما كان عليه أهل الجاهلية وحكام اليهود»[٢].

---

(١) سنن أبي داود، (٤/ ١٨١).

(٢) السياسة الشرعية، ص(١٩٥).

٢- العدل في الأموال:

ومِن صور العدل- أيضًا- «العدل في الأموال»؛ فهو عماد الحياة، وبه تقوم المصالح، لذلك وضع الله - عز وجل - كثيرًا من الأحكام التي تنظم العلاقة الحالية بين الناس. يقول شيخُ الإسلام- رحمه الله- شارحًا ذلك: «وأمّا الأحوال فيجب الحكم بين الناس فيها بالعدل، كما أمر الله ورسوله مثل: قسم المواريث بين الورثة على ما جاء به الكتاب والسنة.

وقد تنازع المسلمون في مسائل من ذلك، وكذلك في المعاملات من المبايعات والإجارات والوكالات والمشاركات والهبات والوقوف والوصايا ونحو ذلك من المعاملات المتعلقة بالعقود والقبوض، فإن العدل فيها هو قوام العالمين، لا تصلح الدنيا والآخرة إلّا به.

فمِن العدل فيها ما هو ظاهر يعرفه كلّ أحد بعقله كوجوب تسليم الثمن على المشتري، وتسليم المبيع على البائع المشتري، وتحريم تطفيف المكيال والميزان، ووجوب الصدق والبيان، وتحريم الكذب والخيانة والغش، وأن جزاء القرض الوفاء والحمد.

ومنها ما هو خفي جاءت به الشرائع أو شريعتنا أهل الإسلام، فإنّ عامّة ما نهى عنه الكتاب والسنة من المعاملات يعود إلى تحقيق العدل، والنهي عن الظلم، دقّه وجلّه، مثل أكثر المال الباطل وجنسه من الربا والميسر وأنواع الربا والميسر التي نهى النبي ﷺ مثل: بيع الغرر، وبيع حبل الحبلى، وبيع الطير في الهواء، والسمك في الماء، والبيع إلى أجل غير مسمى، وبيع المسراة، وبيع المدلس والملامسة والمنابذة والمزابنة والمحاقلة والنجش، وبيع الثمن قبل بدوّ صلاحه، وما نهى عنه من أنواع المشاركات الفاسدة كالمخابرة كزرع بقعةٍ بعينها من الأرض.

ومن ذلك ما قد ينازع فيه المسلمون لخفائه واشتباهه، فقد يرى هذا العقد والقبض صحيحًا عدلًا، وإن كان غيره يرى فيه جورًا يوجب فساده، وقد قال الله- تعالى: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]، والأصل في هذا أنه لا يحرم على الناس من المعاملات

التي يحتاجون إليها إلا ما دلّ الكتاب والسنة على تحريمه، كما لا يشرع لهم من العبادات التي يتقربون بها إلى الله إلّا ما دلّ الكتاب والسنة على شرعه»[1].

٣- العدلُ مع النفس:

إنّ العدل مع النفس مِن أهمّ أنواع العدل؛ لأن الإنسان إن لم يكن عادلًا مع نفسه فإنه يوردها المهالك، فلا تأخذ حظّها في الدنيا ولا تأخذ حظها في الآخرة؛ لذلك وضّح شيخُ الإسلام لنا كيفية العدل مع النفس، وبيّن أنّ من أهمّ صور العدل معها هو فعل الحسنات وترك السيئات؛ وذلك لأنّ «العمل له أثر في القلب من نفع وضرّ وصلاح قبل أثره في الخارج، فصلاحها عدل لها، وفسادها ظلم لها، قال تعالى: ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ ﴾ [فصلت: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ [الإسراء: ٧].

قال بعض السلف: إن للحسنة لنورًا في القلب، وقوة في البدن، وضياء في الوجه، وسعة في الرزق، ومحبة في قلوب الخلق، وإن للسيئة لظلمة في القلب، وسوادًا في الوجه، ووهنًا في البدن، ونقصًا في الرزق، وبغضًا في قلوب الخلق»[2].

مِن فضل العدل:

١- أنّ العدلَ أصلٌ جامع:

يقول شيخُ الإسلام ابن تيمية في فضل العدل: «إنّ جماع الحسنات العدل، وجماعَ السيئات الظلم، وهذا أصلٌ جامع عظيم»[3].

٢- أنّ العدلَ صفةٌ من صفات المؤمنين:

وقال- رحمه الله: «والمؤمن إنْ قدَرَ عدل وأحسن، وإن قهِرَ وغُلب صبر واحتسب»[4].

***

(١) السياسة الشرعية، ص(٢١١).
(٢) الفتاوى، (١٠/ ٩٨).
(٣) مجموع الفتاوى، (١/ ٨٦).
(٤) الفتاوى، (٢/ ٣٢٧).

المبحث الرّابع عشر

سنّة الله في النصر والهزيمة

معنى النصر: إعانة المظلوم، نصره على عدوه.

وفي الحديث: «**انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا**»(١)، وتفسيره: أن يمنعه من الظلم إن وجده ظالمًا، وإن كان مظلومًا أعانه على ظالمه، والاسم النصرة.

والنصرة: حسن المعونة، قال الله - عز وجل -: ﴿**مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ**﴾ [الحج: ١٥]، المعنى: مَن ظنّ مِن الكفار أن الله لا يظهر محمدًا على مَن خالفه فليختنق غيظًا حتى يموت كمدًا؛ فإن الله - سبحانه وتعالى - يظهره، ولا ينفعه غيظه وموته حنقًا، فالهاء في قوله: ﴿**أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ**﴾ للنبي محمد ﷺ.

وانتصر الرجل: إذا امتنع من ظالمه.

قال الأزهري: يكون الانتصار من الظالم: الانتصاف والانتقام، وانتصر منه: انتقم.

والانتصار: الانتقام، والتناصر: التعاون على النصر(٢).

وردَ النصرُ في القرآن الكريم على أربعة وجوه:

الوجه الأول: النصر بمعنى: المنع، وذلك في قوله تعالى: ﴿**وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ**﴾ [البقرة: ٤٨].

الوجه الثاني: النصر بمعنى: العون، فذلك كقوله تعالى: ﴿**وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ**﴾ [الحشر: ١١]، يعني: لنعيننكم.

الوجه الثالث: يعني: الظفر، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿**وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ**﴾ [آل عمران: ١٢٦]، ومثل قوله تعالى: ﴿**وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ**﴾ [البقرة: ٢٥٠].

---

(١) صحيح البخاري، (٣/ ١٢٨).

(٢) لسان العرب لابن منظور، جـ١٣، ١٤، ص(٢٦٧، ٢٦٩).

الوجه الرابع: يعني: الانتقام في مثل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ [محمد: ٤].

ومن هذه المعاني يظهر أنّ النصر له صور متعدّدة يجعلها الله لعباده، فقد ينصرهم بمنعهم مِن أعدائهم، وقد يكون بالعون على الأعداء، وقد يكون بالظفر المادي والتّمكين، وقد يكون بالانتقام من أعدائهم الكافرين، إلى غير ذلك مِن وجوه النصر»(١).

تقريرُ سنّة الله في النصر والهزيمة وبيانها:

«إنّ مِن سنن الله في هذا الكون سنتَه - عز وجل - في نصر المؤمنين وهزيمة الكافرين، وهي طرفٌ من الناموس الأكبر الذي يحكم الحياة الإنسانية، وقد ربط الله بين نصره للمؤمنين وبين الحقّ الذي تقوم عليه السماء والأرض والنظام الكوني بشكل عام، وهذه السنة- شأنها كشأن بقية سنن الله- نافذةٌ ماضية، كما تمضي هذه الكواكب والنجوم في دوراتها المنتظمة، وكما يتعاقب الليل والنهار في الأرض على مدار الزمان، وكما تنبثق الحياة في الأرض الميتة التي ينزل عليها الماء، بل إن هذه السنة هي الأكثر مضيًّا ونفاذًا من كلّ ذلك؛ لأن هذه السنة المادية قد تنخرق لتحقق سنة النصر، أو لحكمة يريدها الله»(٢).

ولقد تحدّث شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- عن هذه السنة الإلهية، ووضّح فيها قوانين الله - عز وجل - وشريعته الواضحة في النصر والهزيمة، فتراه يتحدّث عن ذلك في مواضع متعدّدة من كتاباته موضّحًا أنّ سنن الله على مرّ العصور والأزمات ثابتة تلحق أوّل الأمم وآخرها لا تتبدّل، ومِن ذلك ما أورده عن تفاصيل حرب التتار مع المسلمين، وما ألحقوه بالأمّة من الهزيمة والبلاء في معارك مريبة، ثمّ نالت الأمّة الفوز والانتصار على هذا العدو الحاقد.

يقول شيخُ الإسلام: «لقد صدق الله وعده ونصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٢٥]، والله- تعالى- يحقّق لنا التمام بقوله: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ

(١) السنن الإلهية في الحياة الإنسانية، د/ شريف صالح أحمد الخطيب، (٢/ ١١٦).
(٢) السنن الإلهية في الحياة الإنسانية، د/ شريف صالح أحمد الخطيب، (٢/ ١١٧)، مكتبة الرشد، ط ٢٠٠٤، الرياض، السعودية.

مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢٦، ٢٧].

فإنّ هذه الفتنة التي ابتلي بها المسلمون مع هذا العدو المفسد الخارج عن شريعة الإسلام قد جرى فيها شبيهٌ بما جرى للمسلمين مع عدوهم على عهد رسول الله ﷺ في المغازي التي أنزل الله فيها كتبه، وابتلى بها نبيه والمؤمنين ممّا هو أسوة لَمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرًا إلى يوم القيامة؛ أي: هذه القصص المذكورة في الكتاب ليست بمنزلة ما يفترى من القصص المكذوبة كنحو ما يذكر في الحروب من السير المكذوبة.

وقال- تعالى- لّما ذكر قصة فرعون: ﴿ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴾ [النازعات: ٢٥-٢٦].

وقال في سيرة نبينا محمد ﷺ مع أعدائه ببدر وغيرها: ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ [آل عمران: ١٣].

وقال- تعالى- في محاصرته لبني النضير: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ [الحشر: ٢].

فأمرنا أن نعتبر بأحوال المتقدمين علينا من هذه الأمّة وممّن قبلها من الأمم.

وذكر في غير موضع أنّ سنّته في ذلك سنة مطردة وعادته مستمرة، فقال تعالى: ﴿ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٦٠-٦٢].

وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [الفتح: ٢٢، ٢٣].

وأخبر- سبحانه- أنّ دأب الكافرين من المستأخرين كدأب الكافرين من المستقدمين، فينبغي للعقلاء أن يعتبروا بسنة الله وأيامه في عباده ودأب الأمم وعاداتهم»[١].

وقد تبطئ هذه السنّة فلا تتحقّق سريعًا، أو تتحقّق بصورة قد لا يدركها البشر، ولكن المؤمنين الصادقين يوقنون أنّ النصر آتٍ لا محالة، وأنه هو سنة الله – عز وجل – التي لا تتبدّل ولا تتخلّف.

يقول شيخُ الإسلام مبيّنًا هذا المعنى عند حديثه عن قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ [يوسف: ١١٠]: «فمن المعلوم أنّ الله إذا وعد الرسل والمؤمنين بنصر مطلق- كما هو غالب إخباراته- لم يقيّد زمانه ولا مكانه ولا سنته ولا صفته، فكثيرًا ما يعتقد الناس في الموعود به صفات أخرى لم ينزل عليها خطاب الحقّ، بل اعتقدوها بأسباب أخرى كما اعتقد طائفةٌ من الصحابة إخبار النبي ﷺ لهم أنهم يدخلون المسجد الحرام ويطوفون به أنّ ذلك يكون عام الحديبية؛ لأن النبي ﷺ خرج معتمرًا، ورجا أن يدخل مكّة ذلك العام ويطوف ويسعى، فلمّا استيأسوا من دخوله مكة ذلك العام- لمّا صدّهم المشركون حتى قاضاهم النبي ﷺ على الصلح المشهور- بقي في قلبِ بعضهم شيء حتى قال عمر للنبي ﷺ: ألم تخبرنا أنا ندخل البيت ونطوف؟ قال: بلى، فأخبرتك أنك تدخله هذا العام؟ قال: لا. قال: فإنك داخله ومطوّف به». وكذلك قال له أبو بكر[٢].

ويتحدّث شيخُ الإسلام في موضعٍ آخر مؤكّدًا على هذا المعنى من أنّ وعد الله بالنصر للمؤمنين الصادقين لا بدّ أن يتحقّق، وإنْ ظنّ الناس خلاف ذلك، ويبيّن أنّ سبب هذا الظنّ الذي قد يصيب بعض الناس بسبب أنّ باب الوعد والوعيد هو في الكتاب بأسماء مطلقة للمؤمنين والصابرين والمجاهدين والمحسنين، فما أكثر مَن يظنّ مِن الناس أنه مِن أهل الوعد، ويكون اللفظ في ظنّه أنه متّصف بما يدخل في الوعد لا في اعتقاد صدق الوعد في نفسه، ويضرب

(١) الفتاوى، (٢٨/ ٤٢٤) وما بعدها.
(٢) الفتاوى، (١٥/ ١٨٤).

مثالًا على ذلك فيقول: «وهذا كقوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ الآيتين [الصافات: ١٧١، ١٧٢]، فقد يظنّ الإنسان في نفسه أو غيره كمال الإيمان المستحقّ للنصر، وأن جند الله الغالبون، ويكون الأمرُ بخلاف ذلك»[1].

وأيضًا يقول شيخ الإسلام: إنّ النصر قد يقع، ويتحقّق موعوده- سبحانه- للإنسان بالنصر، ولكنّه لا يدرك ذلك، فقد يأتي النصر بصورٍ غير مألوفة لا توجد في اعتقادات الناس، ولكن في خيرهم وفلاحهم، فيقول- رحمه الله- في ذلك: «وقد يقع مِن النصر الموعود به ما لا يظنّ أنه مِن الموعود به، فالظنّ المخطئ في فهْم ذلك كثير جدًّا، أكثر مِن باب الأمر والنهي، مع كثرة ما وقع من الغلط في ذلك، وهذا ممّا لا يحصر الغلط فيه إلّا الله- تعالى، وهذا عامّ لجميع الآدميّين؛ لكن الأنبياء- صلوات الله عليهم وسلامه- لا يقرّون؛ بل يتبيّن لهم، وغير الأنبياء قد لا يتبيّن له ذلك في الدنيا، ولهذا كثرَ في القرآن ما يأمر نبيّهﷺ بتصديق الوعد والإيمان، وما يحتاج إليه ذلك مِن الصبر إلى أنْ يجيء الوقت، ومن الاستغفار لزوال الذنوب التي بها تحقيق اتّصافه بصفة الوعد، كما قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ الآية [غافر: ٧٧]، والآيات في هذا الباب كثيرة معلومة»[2].

إنّ حال الناس في وقت الأزمات التي تصيب الأمّة يختلف من حيث اختلاف الناس في درجاتهم الإيمانية بين متيقّن من النصر، وبين يائس منه، وبين آخر قد هزّته المفاجأة فلا يدري ماذا يفعل ولا إلى أين يصير، وهنا تظهر قوة المؤمن وثباته الذي هو حتمًا يكون عاملًا من عوامل النصر على الأعداء في كلّ زمان ومكان، وخير تطبيق لهذه الأحوال ما ذكره ابن تيمية من حال الناس عند غزو التتار لهم، وهي حال أشبه بوقت غزوة الأحزاب في عهد رسول الله ﷺ، فالله في كلّ زمان ومكان يثبت المؤمنين ويلهمهم ماذا يفعلون في مثل هذه المواقف

---

(١) الفتاوى، (١٥/ ١٩٤).
(٢) الفتاوى، (١٥/ ١٩٥).

الصعبة، فيكون ذلك من أسباب نصرهم على عدوهم مهما كان ذلك عسيرًا، في حين ترى المنافقين وضعاف الإيمان يتخبطون فيخرج المؤمنون من الأزمة وقد فازوا بالأجر والنصر معًا، أمّا غيرهم فيخرجون من الأزمة صفر اليدين، لا هم فرحون بموعود الله حيث أصابهم الشك فلم يقفوا في صفّ الحقّ، ولا هُم مأجورون على صبرهم وثباتهم.

فإنّ الناس تفرّقوا فيها ما بين شقي وسعيد، كما يتفرّقون كذلك في اليوم الموعود، وفرّ الرجل فيها من أخيه وأمّه وأبيه؛ إذْ كان لكلّ امرئ منهم شأن يغنيه، وكان مِن الناس مَن أقصى همّته النجاة بنفسه لا يلوي على ماله ولا ولده ولا عرسه، كما أنّ منهم مَن فيه قوّة على تخليص الأهل والمال، وآخر فيه زيادة معونة لَمن هو منه ببال، وآخر منزلته منزلة الشفيع المُطاع، وهُم درجات عند الله في المنفعة والدفاع، ولم تنفع المنفعة الخالصة من الشكوى إلّا الإيمان والعمل الصالح والبر والتقوى.

وبليت فيها السرائر، وظهرت الخبايا التي كانت تكنّها الضمائر، وتبين أن البهرج من الأقوال والأعمال يخون صاحبَه أحوج ما كان إليه في المآل، وذم سادته وكبراءه مَن أطاعهم فأضلوه السبيلَ، كما حمد ربّه من صدق في إيمانه فاتّخذ مع الرسول سبيلًا، وبان صدق ما جاءت به الآثار النبوية من الأخبار بما يكون، وواطأتها قلوب الذين هُم في هذه الأمّة محدثون، كما تواطأت عليه المبشرات التي أريها المؤمنون، وتبيّن فيها الطائفة المنصورة الظاهرة على الدين الذين لا يضرّهم مَن خالفهم ولا مَن خذلهم إلى يوم القيامة؛ حيث تحزّبت الناس ثلاثة أحزاب: حزب مجتهد في نصر الدين، وآخر خاذل له، وآخر خارج عن شريعة الإسلام، وانقسم الناس ما بين مأجور ومعذور، وآخر قد غرّه بالله الغرور، وكان هذا الامتحان تمييزًا من الله وتقسيمًا؛ ﴿لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٤]»[1].

عواملُ النصر:

للنّصر أسبابٌ وعواملُ، منها ما هو مادي ومنها ما هو معنوي.

---

(١) الفتاوى، (٢٨/ ٤٢٧) وما بعدها.

أولًا: الأسباب المعنوية:

اتّباع الرسل:

مِن أهم أسباب النصر اتّباع الرسل وتعاليمهم التي أمروا بها قومهم من التمسك بحبل الله، وحسن الاعتماد على الله- عز وجل -، وطاعتهم فيما أمرهم الله به، واتباع سنتهم، والاقتداء بهم في مثل مواقفهم التي سلكوها من قبل، يقول شيخ الإسلام في ذلك: «والله- سبحانه- قد أخبر أنه ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾، [التوبة: ٣٣]، وأخبر أنه ينصر رسله والذين آمنوا في الحياة الدنيا، والله- سبحانه- يجزي الإنسان بجنس عمله؛ فالجزاء من جنس العمل؛ فمن خالف الرسل عوقب بمثل ذنبه؛ فإن كان قد قدح فيهم ونسب ما يقولونه إلى أنه جهل وخروج عن العلم والعقل ابتلي في عقله وعلمه، وظهر من جهله ما عوقب به. ومن قال عنهم: إنهم تعمدوا الكذب أظهر الله كذبه، ومن قال: إنهم جهال أظهر الله جهله؛ ففرعون وهامان وقارون لما قالوا عن موسى: إنه ساحر كذاب أخبر الله بذلك عنهم في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ [غافر: ٢٣-٢٤]، وطلب فرعون إهلاكه بالقتل، وصار يصفه بالعيوب كقوله: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴾ [غافر: ٢٦]، وقال: ﴿ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ [الزخرف: ٥٢]، أهلك الله فرعون وأظهر كذبه وافتراءه على الله وعلى رسله، وأذلّه غاية الإذلال، وأعجزه عن الكلام النافع؛ فلم يبين حجّة.

وفرعون هذه الأمّة، أبو جهل، كان يسمّى أبا الحكم، ولكن النبي ﷺ سمّاه أبا جهل، وهو كما سمّاه رسول الله r أبو جهل أهلك به نفسه وأتباعه في الدنيا والآخرة.

والذين قالوا عن الرسول: إنه أبتر، وقصدوا أنه يموت فينقطع ذكره عوقبوا بانبتارهم كما قال تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴾ [الكوثر: ٣]، فلا يوجد من شنأ الرسول إلّا بترَه الله حتى أهل البدع المخالفون لسنته.

قيل لأبي بكر بن عياش: إنّ بالمسجد قومًا يجلسون للناس ويتكلمون بالبدعة. فقال: مَن جلس للناس جلس الناس إليه، لكن أهل السنة يبقون ويبقى ذكرهم، وأهل البدعة يموتون ويموت ذكرهم»[١].

وتحدّث شيخُ الإسلام في موضع آخر عن هزيمة اليهود، وبيّن أن سببها تكذيبهم للأنبياء، ومخالفتهم لهم، يقول شيخ الإسلام: «فاليهود- من حين ضُربت عليهم الذلّة أينما ثقفوا إلّا بحبل من الله وحبلٍ من الناس- لم يكونوا بمجرّدهم ينتصرون لا على العرب ولا غيرهم، وإنما كانوا يقاتلون مع حلفائهم قبل الإسلام، والذلة ضربت عليهم من حين بعث المسيح - عليه السلام - فكذبوه»[٢].

مِن عوامل النصرِ الجهادُ في سبيل الله:

لقد جعلَ الله - عز وجل - الجهادَ سنّته في هذا الكون للوقوف في وجه الأعداء؛ للحفاظ على أمن الأمّة وأعراضها وضعفائها ومقدراتها، فإذا ترك المسلمون الجهاد وضيّعوا هذه السنة فقد استحقوا عقوبة الله - عز وجل - بأن يسلط عليهم الأعداء، ويرزقهم الذلّ والمهانة، وفي ذلك تحدّث شيخ الإسلام عن فريضة الجهاد وأهميتها في نصر الأمّة في أكثر من موضع، ومن هذه المواضع يقول شيخُ الإسلام: «ولهذا مضت السنّة بأنّ الشروع في العلم والجهاد يلزم كالشروع في الحج، يعني: أنّ ما حفظه من علم الدين وعلم الجهاد ليس له إضاعته؛ لقول النبي ﷺ: (مَن قرأ القرآن ثمّ نسيه لقي الله وهو أجذم) رواه أبو داود[٣]، وقال: (عرضت علي أعمال أمتي- حسنها وسيئها- فرأيت في مساوئ أعمالها الرجل يؤتيه الله آية من القرآن ثمّ ينام عنها حتى ينساها)، وقال: (مَن تعلّم الرمي ثمّ نسيه فليس منا) رواه مسلم[٤].

(١) الفتاوى، (١٣/ ١٧١، ١٧٢، ١٧٣).
(٢) الفتاوى، (١/ ٣٠١).
(٣) سنن أبي داود، ت: الأرنؤوط، (٧/ ٢٠٩).
(٤) الجامع الصحيح للسنن والمسانيد، (٣٤/ ٢٤٣).

وكذلك الشروع في عمل الجهاد؛ فإنّ المسلمين إذا صافوا عدوًّا أو حاصروا حصنًا ليس لهم الانصراف عنه حتى يفتحوه، ولذا قال النبي ﷺ: (ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمَتَه أن ينزعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه)»[١].

الإخلاصُ والاتحاد

مِن أسباب النصر والتمكين، الاعتصامُ بحبل الله وكتابه، والبعدُ عن التعزّي بعزاء الجاهلية، وهو التعصّب للقبائل وغير القبائل، والقتال من أجل ذلك لا يفلح عند الله، أي: لا بدّ للمجاهد أن يكون مخلصًا لله- تعالى- في جهاده، ويكون مجاهدًا لكي تكون كلمةُ الله هي العليا، عاريًا من حظوظ الأنفس، ورغبات الدنيا، طامعًا في ثواب الله ومرضاته، ولقد ذكر شيخُ الإسلام في هذا كثيرًا من الأحاديث التي تؤيّد هذا المعنى، منها:

قال رسول الله ﷺ: (**إذا التقى المسلمان بسيفيْهما فالقاتل والمقتول في النار). قيل: يا رسول الله، هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: (إنه أراد قتل صاحبه)**[٢].

من عوامل النصر: الإرادة:

مِن عوامل النصر: الإرادة الصادقة المنبعثة من الإيمان بالله إيمانًا صادقًا قويًّا بأنه هو ناصرهم ومعينهم ومؤيدهم، وأنّه هو حسيبهم يعلم ما بهم، وأنهم بذلوا كلّ ما في وسعهم بعزيمة وهمة، فيرحمهم- سبحانه- وينزل عليهم نصرَه المبين، ويؤيّدهم بجنود مِن عنده، فهم لم يفعلوا إلّا كلّ ما يرضي الله ورسولَه بنيّة صالحة، وهدفهم نصرُ دين الله، ورفع كلمة التوحيد، أو تخليص الأمّة ممّا يلحقها من فساد واعتداء.

فبالإرادة وحدَها قد ينصر اللهُ المسلمين على عدوّهم نصرًا لم يكونوا يتوقّعونه، وبقوّة وأسباب لم يكونوا يعلمونها، بل كانوا يكرهونها، وهذا ما حدث مع التتار عند غزوهم لبلاد الشام، ولنترك أحد المجاهدين الأعلام أصحاب الإرادة القوية والعزيمة الثابتة شيخ الإسلام

(١) مجموع الفتاوى، (٢٨/ ١٨٧).
(٢) صحيح البخاري، (١/ ١٥)، وصحيح مسلم، (٤/ ٢٢١٣).

ابن تيمية، والذي يشبه هزيمة التتار بغزوة الأحزاب عندما هزم الله المشركين ومن والاهم، وفي ذلك يقول: «قد كان بعض الناس يكره تلك الثلوج والأمطار العظيمة التي وقعت في هذا العام حتى طلبوا الاستصحار غير مرّة، وكنا نقول لهم: هذا فيه خيرة عظيمة، وفيه لله حكمة وسرّ فلا تكرهوه، فكان من حكمته: أنه فيما قيل: أصاب قازان وجنوده حتى أهلكهم، وهو كان فيما قيل: سبب رحيلهم.

وابتلي به المسلمون ليتبيّن مَن يصبر على أمر الله وحكمه ممّن يفرّ عن طاعته وجهاد عدوه.

وكان مبدأ رحيل قازان فيمَن معه من أرض الشام وأراضي حلب يوم الاثنين حادي عشر جمادى الأولى يوم دخلتْ مصر عقيْب العسكر، واجتمعت بالسّلطان وأمراء المسلمين، وألقى الله في قلوبهم مِن الاهتمام بالجهاد ما ألقاه، فلمّا ثبّت الله قلوب المسلمين صرف العدو جزاءً منه، وبيانًا أنّ النيّة الخالصة والهمّة الصادقة ينصر الله بها، وإن لم يقعِ الفعل، وإن تباعدت الديار»(1).

الأسبابُ الماديّة للنصر:

للنصر أسبابٌ ماديّة متعدّدة، ومن أهمها:

١- إعدادُ العدّة والسلاح:

لقد جعل الله - عز وجل - القوةَ المادية من أسباب النصر التي لا يمكن الاستغناء عنها، حيث قال- تعالى- في كتابه الكريم: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وكلمة ﴿قُوَّةٖ﴾ جاءت نكرة لتدلّ على الشمول لجميع أنواع القوى في كلّ عصر، وأنّ هذا الشمول وهذا الخلود من مزايا القرآن الكريم، فهو يأتي بالكلمة الواحدة تحسبها كغيرها من الكلمات، فإذا تتابعت العصور وتطوّر الناس من حالٍ إلى حال وجدتها أوسعَ من هذه العصور ومِن تلكُم التطورات، فكلمة القوّة شملت ما عرفه الصحابة أيام الرسول ﷺ مِن: سيف ورمح ودرع، وهي تشمل اليومَ ما نعرفه من أسلحة متطوّرة، وكلمة الرمي التي فسر

---

(١) مجموع الفتاوى، (٢٨/ ٤٦٣)، والسنن الإلهية في الحياة الإنسانية، ص(١٦٥).

بها الرسول ﷺ القوة التي في الآية تنبيهًا لأهميتها ومكانتها، ولأنها أداة حسم في المعركة تشمل الرمي بالسهام والنبل بالأمس، وتشمل اليوم الرمي بالرصاص أو القنابل أو الصواريخ من البندقية أو المدفعية أو راجمات الصواريخ.

ويقول شيخُ الإسلام مؤكّدًا على أن هذه القوة هي «الرمي«: «الرمي في سبيل الله، والطعن في سبيل الله، والضرب في سبيل الله، كلّ ذلك ممّا أمر الله- تعالى- به ورسوله، وقد ذكر الله- تعالى- الثلاثة فقال تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [محمد: ٤]، وقال تعالى: ﴿فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾ [المائدة: ٩٤]، وقال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وقد ثبت في صحيح مسلم وغيره عن النبي ﷺ أنه قرأ على المنبر هذه الآية فقال: (ألَا إنّ القوة الرمي، ألَا إنّ القوة الرمي، ألَا إنّ القوة الرمي)، وثبت عنه ﷺ في الصحيح أنه قال: (ارموا واركبوا، وأنْ ترموا أحبّ إليّ من أن تركبوا، ومَن تعلم الرمي ثمّ نسيه فليس منّا)، وفي رواية: (ومَن تعلم الرمي ثمّ نسيه فهي نعمة جحدها)، وفي السنن عنه r أنه قال: (كل لهو يلهو به الرجل فهو باطل؛ إلّا رميه بقوسه، وتأديبه فرسه، وملاعبته امرأته، فإنهن من الحق)(١)، وقال: (ستفتح عليكم أرضون، ويكفيكم الله، فلا يعجز أحدكم أن يلهو بأسهمه)(٢).

وقد كشف القرآن الكريم للمؤمنين عن منابع القوة وعناصرها، وأمرهم بالبحث عنها واستخدامها، ومسايرة التقدم البشري، والسبق في الكشف والاختراع والسلطان، وبيّن لهم أنها في الحديد وما يستخرج منه من المصنوعات النافعة بواسطة النار التي هي أقوى منه كنتيجة للفكر والعمل، وأثبت لهم هذه الحقيقة حتى جعلها عقيدة لا قيام لدينهم ولا لدولتهم إلّا

---

(١) مسند أحمد، ط: الرسالة، (٢٨/ ٥٣٣).
(٢) صحيح مسلم، (٣/ ١٥٢٢).

بها، حيث أعلمهم أنه أنزل الحديد مع الكتاب إشارة إلى أن القوة مع الحق، ولا قيام له إلّا به، فقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥]، فلا عزة إذًا ولا قوة ولا منعة إلّا بالحديد والنار، وهذه سنة الله[1].

ولأنّ الحديد من أهم عناصر القوة وعمادها فلا تخلو منه صنعة أو أسلحة، ولا تقوم حياة الناس إلّا به، لذلك ذكر شيخُ الإسلام ذلك مبينًا دعائم الإسلام، حيث هو عماد الأسلحة التي تستخدم في جهاد الأعداء.

يقول ابن تيمية- رحمه الله: «فالمقصود أن يكون الدينُ كله لله، وأن تكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الله: اسم جامع لكلماته التي تضمنها كتابه، وهكذا قال الله- تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ...﴾ الآية، فالمقصود من إرسال الرسل وإنزال الكتب أن يقوم الناس بالقسط في حقوق الله وحقوق خلقه، ثمّ قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ ...﴾، فمَن عدل عن الآيات قوّم بالحديد، ولهذا كان قوام الدين بالمصحف والسيف»[2].

٢- إعداد المجاهدين عسكريًّا:

«ومِن الأسس والقواعد التي يقوم عليها النصر إعداد القوة المادية، ومن أهم إعدادات القوة المادية إعدادُ الرجال المقاتلين، فالرجال هُم أساسًا عماد الحرب وبهم تكون، وهذا الإعداد يحتاج إلى تدريب؛ لأنّ الحرب تحتاج إلى نوعٍ معيّن من الرجال بقدرات خاصة تأتي نتيجة لإعدادٍ خاص بدنيًّا وفنيًّا، ومِن هنا كان التدريب ركنَ الزاوية في الحرب.

ونظرًا لأهمية التدريب؛ فقد حرص الإسلام حرصًا شديدًا على تنشئة أبنائه تنشئة قوية في أجسامهم، أو على إعدادهم عسكريًّا بالتدريب على السلاح، ومرحلة الإعداد هذه تبدأ

(١) السنة الإلهية في الحياة الإنسانية، ص(٢٥٢) وما بعدها بتصرف.
(٢) الفتاوى، (٢٨/ ٦٣-٦٤)، وانظر: السنن الإلهية، ص(٢٥٥) بتصرف.

من مرحلة مبكرة في حياة المسلم، إنها تبدأ في مرحلة الطفولة بأن يرعى الآباء أبناءهم برعاية أجسامهم لتقوى، وتدريبهم على أنواع الرياضة من السباحة والرماية وركوب الخيل والمصارعة والجري وغير ذلك».

كما كتب عمر لأهل الشام يقول: (علّموا أولادكم السباحة والرماية وركوب الخيل)، مع تعويدهم على الخشونة والقسوة وغرس معاني القوة والرجولة والجهاد في نفوسهم.

ولقد عدّد شيخُ الإسلام- رحمه الله- الأحاديث التي وردت في ذلك أو التي كلها تدعو المسلمين إلى تعلّم هذه المهارات القتالية التي هي من أفضل الأعمال؛ لأنها من أعمال الجهاد، والجهاد أفضل ما تطوّع به الإنسان.

مِن هذه الأحاديث:

في صحيح البخاري عنه ﷺ أنه قال: (ارموا بني إسماعيل؛ فإن أباكم كان راميًا)(١).

ومرّ على نفرٍ مِن أَسْلم ينتضّلون فقال ﷺ: (ارموا بني إسماعيل؛ فإن أباكم كان راميًا، ارموا وأنا مع بني فلان). فأمسك أحد الفريقين بأيديهم فقال: (ما لكم لا ترمون)؟ قالوا: كيف نرمي وأنت معهم؟ فقال: (ارموا وأنا معكم كلكم)(٢).

وقال ﷺ: (مَن رمى بسهم في سبيل الله- بلغَ العدو أو لم يبلغه- كانت له عدل رقبة).

وفي السّنن عنه ﷺ أنه قال: (إنّ الله يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة: صانعه يحتسب في صنعته الخير؛ والرامي به، والمُمدّ به)(٣).

وفي الصحيحين عن النبي ﷺأنه قال: (إنّ في الجنة مائة، درجة ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين السماء والأرض، أعدّها الله للمجاهدين في سبيله)(٤).

---

(١) صحيح البخاري، (٤/ ٣٨).
(٢) صحيح البخاري، (٤/ ١٤٧).
(٣) مسند أحمد، ط: الرسالة، (٢٨/ ٥٧١).
(٤) صحيح البخاري، (٤/ ١٦).

٣- الجمع بين القوة الروحية والقوة الماديّة:

إنّ مِن أهم عوامل النّصر الجمع بين القوتين الروحية والمادية، كما يؤكد الشيخُ هذا بأنه (لن يقوم الدين إلّا بالكتاب والميزان والحديد، كتاب يهدى به، وحديد ينصره، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد: ٢٥] فالكتاب به يقوم العلم والدين، والميزان به تقوم الحقوق في العقود المالكية والقبوض، والحديد به تقوم الحدود على الكافرين والمنافقين، ولهذا كان في الأزمان المتأخّرة الكتاب للعلماء والعباد، والميزان للوزراء والكتّاب، وأهل الديوان، والحديد للأمراء والأجناد، والكتاب له الصلاة؛ والحديد له الجهاد؛ ولهذا كان أكثرُ الآيات والأحاديث النبوية في الصلاة والجهاد، وكان النبيﷺيقول في عيادة المريض: «اللّهم اشفِ عبدك يشهد لك صلاة؛ وينكأ لك عدوًّا»[(١)].

تطبيقاتٌ على سنة الله في النصر:

لقد ذكر شيخُ الإسلام في رسالةٍ كتبها إلى الملك الناصر يهنئه بنصره على التتار، واصفًا فيها حالَ التتار التي أدّت إلى هزيمتهم، وبين فيها سبب نصر الملك الناصر على عدوّه من التتار، ولقد جاء في هذه الرسالة:

«بسم الله الرحمن الرحيم»

مِن الدّاعي أحمد بن تيمية إلى سلطان المسلمين، ومَن أيّد الله في دولته الدين، وأعزّ بها عباده المؤمنين، وقمعَ فيها الكفار والمنافقين والخوارج المارقين، نصره الله، ونصر به الإسلام، وأصلح له وبه أمورَ الخاص والعام، وأحيا به معالم الإيمان، وأقام به شرائع القرآن، وأذلّ به أهلَ الكفر والفسوق والعصيان.

سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاته.

فإنا نحمدُ إليكم الله الذي لا إله إلّا هو، وهو للحمدِ أهل، وهو على كلّ شيء قدير، ونسأله

(١) الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٥/ ١١٦)

أن يصلي على خاتم النبيين، وإمام المتقين، محمد عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليمًا.

أمّا بعد،

فقد صدقَ الله وعده، ونصر عبدَه، وأعزّ جنده، وهزم الأحزاب وحده، وأنعم الله على السلطان وعلى المؤمنين في دولته نعمًا لم تعهد في القرون الخالية، وجدّد الإسلام في أيامه تجديدًا بانت فضيلتُه على الدول الماضية، وتحقّق في ولايته خبرُ الصادق المصدوق أفضل الأوّلين والآخرين الذي أخبر فيه عن تجديد الدين في رءوس المئين.

والله- تعالى- يوزعه والمسلمين شكر هذه النعم العظيمة في الدنيا والدين، ويتمّها بتمام النصر على سائر الأعداء المارقين.

وذلك أنّ السلطان- أتمّ الله نعمته- حصل للأمّة بيُمن ولايته وحسن نيّته وصحة إسلامه وعقيدته وبركة إيمانه ومعرفته وفضل همته وشجاعته وثمرة تعظيمه للدين وشرعته ونتيجة اتباعه كتاب الله وحكمته؛ ما هو شبيهٌ بما كان يجري في أيام الخلفاء الراشدين، وما كان يقصده أكابرُ الأئمة العادلين من جهاد أعداء الله المارقين من الدين.. »(١).

وهكذا يتّضح لنا من خلال قراءة هذه الرسالة وضع أيدينا على أسباب النصر، وهي:

١- إحياء معالم الإيمان.

٢- إقامة شرائع القرآن.

٣- يمن ولايته وحسن نيته.

٤- صحة إسلام القائد وعقيدته.

٥- بركة إيمان القائد ومعرفته.

٦- همة القائد وشجاعته.

٧- تعظيمه للدين وشرعته.

٨- قيامه لفريضة الجهاد.

---

(١) الفتاوى، (٢٨/ ٣٩٨-٣٩٩).

كما وضّح- أيضًا- الأسباب التي أدّت إلى هزيمة التتار مثل أنهم: «أهل الفجور والطغيان، وذوو الغي والعدوان، الخارجون عن شرائع الإيمان طلبًا للعلو في الأرض والفساد، وتركًا لسبيل الهدى والرشاد».

أو أنّهم الأعداء «أهل البدع المارقون، وذوو الضلال المنافقون الخارجون عن السنة والجماعة، المفارقون للشرعة والطاعة»[1].

ولقد جعل شيخُ الإسلام الجهاد سببًا للنصر على الأعداء وحضّ عليه بالحديث في فضله وأهميته، كما ذمّ المتقاعسين عنه، وبيّن أنّ الله - عز وجل - قد ذمهم، وبيّن أنّ الجهاد سببٌ عظيم للمغفرة، وهو الدواء الناجح لكثير من الأدواء[2]، ومن ذلك يقول شيخ الإسلام: «واعلموا أنّ الجهاد فيه خير الدنيا والآخرة، وفي تركه خسارة الدنيا والآخرة، قال الله- تعالى- في كتابه: ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ﴾ [التوبة: ٥٢]، يعني: إمّا النصر والظفر وإمّا الشهادة والجنة، فمَن عاش مِن المجاهدين كان كريمًا له ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة، ومن مات منهم أو قتل فإلى الجنة، قال النبي ﷺ: (يعطى الشهيد ست خصال: يغفر له بأول قطرة من دمه، ويرى مقعده من الجنة، ويكسى حلة من الإيمان، ويزوج ثنتين وسبعين من الحور العين، ويوقى فتنة القبر، ويؤمن من الفزع الأكبر) رواه أهل السنن، وقال ﷺ: (إن في الجنة لمائة درجة، ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين السماء والأرض، أعدها الله - عز وجل - للمجاهدين في سبيله)، فهذا ارتفاع خمسين ألف سنة في الجنة لأهل الجهاد، وقال ﷺ: (مثل المجاهد في سبيل الله مثل الصائم القائم القانت الذي لا يفتر من صلاة ولا صيام)[3]، وقال رجل: أخبرني بعمل يعدل الجهاد في سبيل الله؟ قال: (لا تستطيعه). قال: أخبرني به؟ قال: (هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تصوم لا تفطر وتقوم لا تفتر)؟ قال: لا. قال: (فذلك الذي يعدل الجهاد في سبيل الله)[4].

---

(١) الفتاوى، (٢٨/ ٣٩٩).
(٢) انظر: الفتاوى، (٢٨/ ٤١٧-٤٢٢).
(٣) صحيح البخاري، (٤/ ١٦).
(٤) صحيح البخاري، (٤/ ١٥).

وهذه الأحاديث في الصحيحين وغيرهما.

وكذلك اتّفق العلماء- فيما أعلم- على أنه ليس في التطوعات أفضل من الجهاد؛ فهو أفضل من الحج، وأفضل من الصوم التطوع، وأفضل من الصلاة التطوع.

والمرابطة في سبيل الله أفضل من المجاورة بمكة والمدينة وبيت المقدس، حتى قال أبو هريرة - رضي الله عنه -: لأنْ أرابط ليلة في سبيل الله أحبّ إليّ من أن أوافق ليلة القدر عند الحجر الأسود.

فقد اختار الرباطَ ليلة على العبادة في أفضل الليالي عند أفضل البقاع؛ ولهذا كان النبي ﷺ وأصحابه يقيمون بالمدينة دونَ مكة؛ لمعان منها: أنهم كانوا مرابطين بالمدينة؛ فإنّ الرباط هو المقام بمكان يخيفه العدو ويخيف العدو، فمن أقام فيه بنية دفع العدو فهو مرابط والأعمال بالنيات، قال رسول الله ﷺ: (رباط يوم في سبيل الله خيرٌ من ألف يوم فيما سواه من المنازل) رواه أهل السنن وصححوه[1].

وفي صحيح مسلم، عن سلمان، أن النبي ﷺ قال: (رباط يوم وليلة في سبيل الله خيرٌ من صيام شهر وقيامه، ومن مات مرابطًا أجري عليه عمله، وأجري عليه رزقه من الجنة، وأمن الفتّان)[2]، يعني: منكرًا ونكيرًا.

فهذا في الرباط فكيف الجهاد؟

وقال ﷺ: (لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم في وجه عبد أبدًا)[3]، وقال: (من اغبرّت قدماه في سبيل الله حرمهما الله على النار) فهذا في الغبار الذي يصيب الوجه والرجل فكيف بما هو أشقّ منه؛ كـ: الثلج والبرد والوحل؟

ولهذا عاب الله - عز وجل - المنافقين الذين يتعلّلون بالعوائق كـ: الحر والبرد؛ فقال - عز وجل -: ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي

(١) راجع سنن النسائي، (٦/ ٣٩).
(٢) مستخرج أبي عوانة، (٤/ ٤٩٧).
(٣) سنن النسائي، (٦/ ١٣).

﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ قُلۡ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّٗاۚ لَّوۡ كَانُواْ يَفۡقَهُونَ﴾ [التوبة ٨١]، وهكذا الذين يقولون: لا تنفروا في البرد فيقال: نار جهنم أشدّ بردًا، كما أخرجاه في الصحيحين من النبي ﷺ أنه قال: (اشتكت النار إلى ربها فقالت: ربي أكل بعضي بعضًا، فأذن لها بنفسين نفس في الشتاء، ونفس في الصيف، فأشدّ ما تجدون من الحر والبرد فهو من زمهرير جهنم)[١].

فالمؤمن يدفع بصبره على الحر والبرد في سبيل الله حرّ جهنم وبردها، والمنافق يفرّ من حرّ الدنيا وبردها حتى يقع في حر جهنم وزمهريرها.

واعلموا- أصلحكم الله- أنّ النصرة للمؤمنين، والعاقبة للمتقين، وأنّ الله مع الذين اتقوا والذين هُم محسنون.

وهؤلاء القوم مقهورون مقموعون، والله - عز وجل - ناصرنا عليهم، ومنتقم لنا منهم، ولا حول ولا قوة إلّا بالله العلي العظيم.

فأبشروا بنصر الله- تعالى- وبحُسن عاقبته ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]، وهذا أمرٌ قد تيقناه وتحقّقناه، والحمد لله رب العالمين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١١ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٢ وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٣ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾ [الصف: ١٠-١٤].

واعلموا- أصلحكم الله- أنّ مِن أعظم النعم على من أراد الله به خيرًا أنْ أحياه إلى هذا الوقت الذي يجدّد الله فيه الدين، ويحيي فيه شعار المسلمين وأحوال المؤمنين والمجاهدين حتى يكون شبيهًا بالسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار.

---

(١) صحيح البخاري، (٤/ ١٢٠)، وصحيح مسلم، (١/ ٤٣١).

فمَن قام في هذا الوقت بذلك كان مِن التابعين لهم بإحسان الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه، وأعدّ لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدًا، ذلك الفوز العظيم.

فينبغي للمؤمنين أن يشكروا الله- تعالى- على هذه المحْنة التي حقيقتها منْحة كريمة من الله، وهذه الفتنة التي في باطنها نعمة جسيمة حتى والله لو كان السابقون الأوّلون من المهاجرين والأنصار- كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وغيرهم- حاضرين في هذا الزمان لكان من أفضل أعمالهم جهاد هؤلاء القوم المجرمين، ولا يفوت مثل هذه الغزاة إلّا مَن خسرت تجارته، وسفّه نفسه، وحرم حظًّا عظيمًا من الدنيا والآخرة؛ إلّا أن يكون ممّن عذر الله- تعالى- كـ: المريض والفقير والأعمى وغيرهم، وإلّا فمَن كان له مال وهو عاجز ببدنه فليغزُ بماله؛ ففي الصحيحين، عن النبيﷺ أنه قال: (مَن جهّز غازيًا فقد غزا، ومَن خلفه في أهله بخير فقد غزا)[1].

ومَن كان قادرًا ببدنه وهو فقير فليأخذ من أموال المسلمين ما يتجهّز به، سواء كان المأخوذ زكاة أو صلة أو من بيت المال أو غير ذلك؛ حتى لو كان الرجل قد حصل بيده مال حرام وقد تعذّر ردّه إلى أصحابه لجهله بهم ونحو ذلك، أو كان بيده ودائع أو رهون أو عوار قد تعذّر معرفة أصحابها فلينفقها في سبيل الله؛ فإنّ ذلك مصرفها.

ومَن كان كثير الذنوب فأعظم دوائه الجهاد؛ فإنّ الله – عز وجل – يغفر ذنوبه، كما أخبر الله في كتابه بقوله – عز وجل –: ﴿يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ﴾.

ومَن أراد التخلّص من الحرام والتوبة ولا يمكن ردّه إلى أصحابه فلينفقه في سبيل الله عن أصحابه؛ فإنّ ذلك طريق حسنة إلى خلاصه، مع ما يحصل له من أجر الجهاد».

وأيضًا ذكر من أسباب النصر: الاعتصام بحبل الله وكتابه وسنة رسوله، والبعد عن التعزّي بعزاء الجاهلية، والمقصود به هو التعصّب للقبائل وغيرها، والقتال من أجل ذلك لا يفلح عند الله، وقال ﷺ: (من قتل تحت راية عمية يغضب لعصبية ويدعو لعصبية فهو في النار) رواه مسلم، وقال ﷺ: (من تعزّى بعزاء أهل الجاهلية فأعضوه بهنّ أبيه ولا تكنوا)، فسمع أبي بن

---

(١) صحيح البخاري، (٤/ ٢٧)، وصحيح مسلم، (٣/ ١٥٠٦).

كعب رجلاً يقول: يا لفلان فقال: اعضض أير أبيك. فقال: يا أبا المنذر؛ ما كنت فاحشًا. فقال بهذا أمرنا رسول الله ﷺ. رواه أحمد في مسنده.

ووضح الشيخ: ومعنى قوله: (مَن تعزّى بعزاء الجاهلية)، يعني: يعتزي بعزواتهم، وهي الانتساب إليهم في الدعوة، مثل قوله: يا لقيس، يا ليمن، ويا لهلال، ويا لأسد، فمَن تعصّب لأهل بلدته أو مذهبه أو طريقته أو قرابته أو لأصدقائه دون غيرهم كانت فيه شعبة من الجاهلية، حتى يكون المؤمنون كما أمرهم الله- تعالى- معتصمين بحبله وكتابه وسنة رسوله؛ فإنّ كتابهم واحد ودينهم واحد ونبيّهم واحد وربهم إله واحد لا إله إلّا هو، له الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون، قال الله- تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١٠٥﴾ يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞ﴾ [آل عمران: ١٠٢- ١٠٦]. قال ابن عباس- رضي الله عنهما: تبيضّ وجوه أهل السنة والجماعة، وتسودّ وجوه أهل الفرقة والبدعة.

فاللهَ الله، عليكم بالجماعة والائتلاف على طاعة الله ورسوله والجهاد في سبيله؛ يجمع اللهُ قلوبكم، ويكفّر عنكم سيئاتكم، ويحصل لكم خير الدنيا والآخرة[1].

النّصرُ سنّة إلهية:

لقد خلق الله الكونَ وجعل كلّ ما فيه محكومًا بالسنن والقوانين الإلهية الثابتة التي لا تتغيّر ولا تتبدّل، وقد جعل الله للنصر قوانينَ ثابتة، كما جعل للهزيمة قوانينها، ولقد تحدّث شيخُ الإسلام عن هذه السنّة ووضّح فيها قوانين الله وشريعته الواضحة في النصر والهزيمة، فنراه

(١) الفتاوى، (٢٨/ ٤٢٣)، وصحيح مسلم، (٤/ ٢٢١٤).

يتحدّث عن ذلك في مواضع متعددة من كتاباته، موضحًا أنّ سنن الله على مرّ العصور والأزمان ثابتة تلحق أول الأمم وآخرها لا تتبدّل، ومن هذا الحديث كلامه الذي أورده عن تفاصيل حرب التّتار مع المسلمين، وما ألحقوه في الأمّة من هزيمة في المعارك، وأخيرًا نال الأمّة الفوز والانتصار على هذا العدو الحاقد، يقول شيخُ الإسلام: «فإنّ هذه الفتنة التي ابتلي بها المسلمون مع هذا العدو المفسد الخارج عن شريعة الإسلام قد جرى فيها شبيه بما جرى للمسلمين مع عدوهم على عهد رسول الله r في المغازي التي أنزل الله فيها كتبه، وابتلى بها نبيه والمؤمنين، ممّا هو أسوة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرًا إلى يوم القيامة؛ فإنّ نصوص الكتاب والسنة اللذين هما دعوة محمد ﷺ يتناولان عموم الخلق بالعموم اللفظي والمعنوي، أو بالعموم المعنوي... »[(١)].

مِن أسباب هزيمة المؤمنين:

لقد كثرت وتعدّدت أسباب النصر والهزيمة على مرّ العصور والأزمان، ومنها: عدم الاستعداد الجيد للمعارك، والبعد عن منهج الله وأحكامه، أو التفرقة والضعف بين الصفوف، أو التفرقة والنفاق، أو البخل بالنفقة، أو الجبن والهلع والتقاعس عن الجهاد، ولشيخ الإسلام في ذلك أحاديث منها: كلامه ووصفه لأسباب هزيمة المسلمين أمام التتار في بداية الأمر فيقول- رحمه الله: «وكان هذا مثل حال المسلمين لما انكسروا في العام الماضي، وكانت هزيمة المسلمين في العام الماضي بذنوب ظاهرة وخطايا واضحة من: فساد النيات والفخر والخيلاء والظلم والفواحش والإعراض عن حكم الكتاب والسنة، وعن المحافظة على فرائض الله، والبغي على كثير من المسلمين الذين بأرض الجزيرة والروم، وكان عدوّهم في أول الأمر راضيًا منهم بالموادعة والمسالمة، شارعًا في الدخول في الإسلام، كان مبتدئًا في الإيمان والأمان، وكانوا هم قد أعرضوا عن كثيرٍ من أحكام الإيمان، فكان من حكمة الله ورحمته بالمؤمنين أن ابتلاهم بما ابتلاهم به ليمحّص الله الذين آمنوا، وينيبوا إلى ربهم، وليظهر من عدوهم ما ظهر منه من البغي

(١) الفتاوى، (٢٨/ ٤٢٥).

والمكر والنكث والخروج عن شرائع الإسلام، فيقوم بهم ما يستوجبون به النصر، وبعدوهم ما يستوجب به الانتقام»[١].

للهزيمة حكمةٌ ربّانية:

إنّ الله – عز وجل – يبتلي الناس بالهزيمة، فيكون ذلك سببَ رجوعهم إلى ربّهم، فيحصل لهم من البركة والخير ما لا يحصل لهم لو انتصروا على عدوهم، يقول في ذلك شيخ الإسلام– رحمه الله– في حديثٍ عن هزيمة المسلمين أمام التتار مقارنة بهزيمتهم في غزوة أحد: «فقد كان في نفوس كثيرٍ من مقاتلة المسلمين ورعيتهم من الشر الكبير ما لو يقترن به ظفر بعدوّهم– الذي هو على الحال المذكورة– لأوجب لهم ذلك من فساد الدين والدنيا ما لا يوصف.

كما أنّ نصر الله للمسلمين يوم بدر كان رحمة ونعمة، وهزيمتهم يوم أحد كان نعمة ورحمة على المؤمنين؛ فإنّ النبي ﷺ قال: (لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلّا كان خيرًا، وليس ذلك لأحد إلّا للمؤمن، إن أصابته سراء فشكر الله كان خيرًا له، وإن أصابته ضراء فصبر كان خيرًا له)»[٢].

تطبيقاتٌ على سنن الله في النصر والهزيمة:

يقول شيخُ الإسلام تطبيقًا على سنّة الله في النصر والهزيمة: «فلمّا كانت حادثة المسلمين عام أول شبيهة بأحد، وكان بعد أحد بأكثر من سنة– وقيل: بسنتين– قد ابتلي المسلمون عام الخندق.

كذلك في هذا العام ابتلي المؤمنون بعدوهم كنحو ما ابتلي المسلمون مع النبي ﷺ عام الخندق، وهي غزوة الأحزاب التي أنزل الله فيها «سورة الأحزاب»، وهي سورة تضمّنت ذكر هذه الغزاة التي نصر الله فيها عبده ﷺ، وأعزّ فيها جنده المؤمنين، وهزم الأحزاب– الذين تحزّبوا عليه– وحده بغير قتال، بل بثبات المؤمنين بإزاء عدوهم.

---

(١) الفتاوى، (٢٨/ ٤٣١-٤٣٢).
(٢) الفتاوى، (٢٨/ ٤٣٢).

ذكر فيها خصائص رسول الله ﷺ وحقوقه وحرمته وحرمة أهل بيته لما كان هو القلب الذي نصره الله فيها بغير قتال، كما كان ذلك في غزوتنا هذه سواء، وظهر فيها سرّ تأييد الدين كما ظهر في غزوة الخندق، وانقسم الناس فيها كانقسامهم عام الخندق»[1].

بيْن غزوة الأحزاب ومعركة المغول:

شيخُ الإسلام رسم صورةً لغزوة الأحزاب وقارنها بمعركة المغول وما فيها من الأحداث، وسنذكر مقتطفاتٍ مِن كلامه في ذلك: «وفي هذه الحادثة تحزّب هذا العدو من مغول وغيرهم من أنواع التّرك ومن فرس ومستعربة، ونحوهم من أجناس المرتدة، ومِن نصارى الأرْمن وغيرهم، ونزل هذا العدو بجانب ديار المسلمين وهو بين الإقدام والإحجام مع قلّة من بإزائهم من المسلمين، ومقصودهم الاستيلاء على الدار واصطلام أهلها، كما نزلَ أولئك بنواحي المدينة بإزاء المسلمين.

٢- وكذلك دام الحصارُ على المسلمين عام الخندق- على ما قيل- بضعًا وعشرين ليلة. وقيل: عشرين ليلة، وهذا العدوّ عبر الفرات سابع عشر ربيع الآخر، وكان أول انصرافه راجعًا عن حلب لما رجع مقدّمهم الكبير قازان بمن معه يوم الاثنين حادي أو ثاني عشر جمادى الأولى يوم دخل العسكر عسكر المسلمين إلى مصر المحروسة، واجتمع بهم الداعي وخاطبهم في هذه القضية، وكان الله - عز وجل - لما ألقى في قلوب المؤمنين ما ألقى من الاهتمام والعزم ألقى الله في قلوب عدوهم الروع والانصراف.

٣- وكان عام الخندق بردًا شديدًا وريحًا شديدة منكرة بها صرفَ الله الأحزاب عن المدينة، كما قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [الأحزاب: ٩]، وهكذا هذا العام أكثر الله فيه الثلج والمطر والبرد على خلاف أكثر العادات، حتى كره أكثر الناس ذلك، وكنّا نقول لهم: لا تكرهوا ذلك؛ فإنّ لله فيه حكمة ورحمة.

وكان ذلك من أعظم الأسباب التي صرف الله به العدو؛ فإنه كثر عليهم الثلج والمطر والبرد حتى هلك من خيلهم ما شاء الله، وهلك- أيضًا- منهم مَن شاء الله، وظهر فيهم وفي بقية

(١) الفتاوى، (٢٨/ ٤٣٣).

خيْلهم من الضعف والعجز بسبب البرد والجوع ما رأوا أنهم لا طاقة لهم معه بقتال، حتى بلغني عن بعض كبار المقدمين في أرض الشام أنه قال: لا بيّض الله وجوهنا، أعدونا في الثلج إلى شعره ونحن قعود لا نأخذهم؟ وحتى علموا أنهم كانوا صيدًا للمسلمين لو يصطادونهم؛ لكن في تأخير الله اصطيادهم حكمة عظيمة»[1].

وموضع آخر تتشابه فيه المعركتان تسجّله الآية الكريمة في غاية الروعة، حيث يقول الله- تعالى- في سورة الأحزاب: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١٠، ١١].

يقول شيخُ الإسلام: «وهكذا هذا العام، جاء العدو من ناحيتي علو الشام وهو شمال الفرات، وهو قبلي الفرات، فزاغت الأبصار زيغًا عظيمًا، وبلغت القلوب الحناجر؛ لعظم البلاء؛ لا سيّما لمّا استفاض الخبر بانصراف العسكر إلى مصر، وتقرب العدو وتوجّهه إلى دمشق، وظنّ الناس بالله الظنونا، هذا يظن أنه لا يقف قدامهم أحد من جند الشام حتى يصطلموا أهل الشام، وهذا يظن أنهم لو وقفوا لكسروهم كسرة، وأحاطوا بهم إحاطة الهالة بالقمر.

وهذا يظنّ أنّ أرض الشام ما بقيت تسكن ولا بقيت تكون تحت مملكة الإسلام.

وهذا يظنّ إنهم يأخذونها، ثمّ يذهبون إلى مصر فيستولون عليها فلا يقف قدامهم أحدٌ فيحدث نفسه بالفرار إلى اليمن ونحوها.

وهذا- إذا أحسن ظنّه- قال: إنهم يملكونها العام كما ملكوها عام هولاكو سنة سبع وخمسين، ثمّ قد يخرج العسكر من مصر فيستنقذها منهم كما خرج ذلك العام، وهذا ظنّ خيارهم.

وهذا يظنّ أنّ ما أخبره به أهل الآثار النبوية وأهل التحديث والمبشرات أماني كاذبة وخرافات لاغية، وهذا قد استولى عليه الرّعب والفزع حتى يمرّ الظنّ بفؤاده مرّ السحاب ليس له عقل يتفهم ولا لسان يتكلم.

---

(١) الفتاوى، (٢٨/ ٤٥٤).

وهذا قد تعارضت عنده الأمارات وتقابلت عنده الإرادات؛ لا سيّما وهو لا يفرق من المبشرات بين الصادق والكاذب، ولا يميّز في التحديث بين المخطئ والصائب، ولا يعرف النصوص الأثرية معرفة العلماء؛ بل إمّا أن يكون جاهلًا بها، وقد سمعها سماع العبر، ثمّ قد لا يتفطّن لوجوه دلالتها الخفية، ولا يهتدي لدفع ما يتخيل أنه معارض لها في بادئ الروية؛ فلذلك استولت الحيرة على مَن كان متّسمًا بالاهتداء وتراجمت به الآراء تراجم الصبيان بالحصباء ﴿ هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا ﴾. ابتلاهم الله بهذا الابتلاء الذي يكفر به خطيئاتهم، ويرفع به درجاتهم، وزلزلوا بما يحصل لهم من الرجفات ما استوجبوا به أعلى الدرجات.

قال الله– تعالى: ﴿ وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا ﴾ [الأحزاب: ١٢]، وهكذا قالوا في هذه الفتنة فيما وعدهم أهل الوراثة النبوية والخلافة الرسالية وحزب الله المحدثون عنه، حتى حصل لهؤلاء التأسي برسول الله ﷺ كما قال الله– تعالى: ﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ ﴾»[١].

قدّم شيخ الإسلام شبيهًا آخر بين المعركتين، وهي ظهور المنافقين بكثرة حيث يقول الله– تعالى: ﴿ إِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡ ﴾ [الأنفال: ٤٩]، وهؤلاء فئة خطيرة على المجتمع تعيقهم عن تحقيق التقدم والرقي، بل تساعدهم على الهزيمة بتلونهم وخيانتهم وتقاعسهم وجبنهم وأهواؤهم، لذلك يقول شيخُ الإسلام مبينًا خطرَ ذلك: «على أنّ المرض والنفاق في القلب يوجب الريب في الأنباء الصادقة التي توجب أمن الإنسان من الخوف، حتى يظنّوا أنها كانت غرورًا لهم كما وقع في حادثتنا هذه سواء»[٢].

ويقول في موضع آخر: «وهكذا لما قدم هذا العدو كان من المنافقين مَن قال: ما بقيت الدولة الإسلامية تقوم فينبغي الدخول في دولة التتار.

وقال بعضُ الخاصة: ما بقيت أرض الشام تسكَن؛ بل ننتقل عنها إمّا إلى الحجاز واليمن وإمّا إلى مصر.

---

(١) الفتاوى، (٢٨/ ٤٤٦، ٤٤٧).
(٢) الفتاوى، (٢٨/ ٤٥٠).

وقال بعضهم: بل المصلحة الاستسلام لهؤلاء كما قد استسلم لهم أهل العراق، والدخول تحت حكمهم.

فهذه المقالاتُ الثلاث قد قيلت في هذه النازلة، كما قيلت في تلك، وهكذا قال طائفة من المنافقين والذين في قلوبهم مرض لأهل دمشق خاصة والشام عامة: لا مقام لكم بهذه الأرض، ونفي المقام بها أبلغ من نفي المقام، وإن كانت قد قرئت بالضم- أيضًا؛ فإن مَن لم يقدر أن يقوم بالمكان فكيف يقيم به؟ قال الله- تعالى: ﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [الأحزاب: ١٣]»[1].

ووضّح شيخُ الإسلام في سياقه لتفسير الآية عن مجاهد والحسن أن معنى ذلك: أن الله يحفظها، فهُم يقصدون الفرار من الجهاد، ويحتجّون بحجة العائلة.

ويضيف شيخُ الإسلام ذلك الحدث وما انطبق منه على تلك المعركة الدائرة بين المسلمين والتتار فيقول: «وهكذا أصاب كثيرًا من الناس في هذه الغزاة، صاروا يفرّون مِن الثغر إلى المعاقل والحصون وإلى الأماكن البعيدة كمصر، ويقولون: ما مقصودنا إلّا حفظ العيال، وما يمكن إرسالهم مع غيرنا، وهم يكذبون في ذلك؛ فقد كان يمكنهم جعلهم في حصن دمشق لو دنا العدو، كما فعل المسلمون على عهد رسول الله ﷺ، وقد كان يمكنهم إرسالهم والمقام للجهاد، فكيف بمَن فرّ بعد إرسال عياله؟ قال الله- تعالى: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا﴾ [الأحزاب: ١٤]، فأخبر أنه لو دخلت عليهم المدينة من جوانبها ثمّ طلبت منهم الفتنة- وهي الافتتان عن الدّين بالكفر أو النفاق- لأعطوا الفتنة، ولجؤوها من غير توقّف.

وهذه حالُ أقوام لو دخل عليهم هذا العدو المنافق المجرم، ثمّ طلب منهم موافقته على ما هو عليه من الخروج عن شريعة الإسلام- وتلك فتنة عظيمة- لكانوا معه على ذلك.

كما ساعدهم في العام الماضي أقوام بأنواع من الفتنة في الدين والدنيا ما بين ترك واجبات وفعل محرمات، إمّا في حق الله، وإمّا في حق العباد، كـ: ترك الصلاة وشرب الخمور وسب

(١) الفتاوى، (٢٨/ ٤٥٠).

السلف وسب جنود المسلمين، والتجسس لهم على المسلمين، ودلالتهم على أموال المسلمين وحريمهم، وأخذ أموال الناس وتعذيبهم وتقوية دولتهم الملعونة، وإرجاف قلوب المسلمين منهم إلى غير ذلك من أنواع الفتنة»[١].

أيضًا من السنن الإلهية في النصر هو عدم الفرار من المعركة، وأنّ مَن يفرّ مِن المعركة لن ينفعه هذا الفرار؛ فالموت قدر لا بدّ منه، فالفرار من الموت كالفرار من الطاعون، ولذلك قال النبي ﷺ: (إذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارًا منه)[٢]، والفرار من القتل كالفرار من الجهاد، وحرف «لن» ينفي الفعل في الزمن المستقبل، والفعل نكرة، والنكرة في سياق النفي تعمّ جميع أفرادها، فاقتضى ذلك: أنّ الفرار من الموت أو القتل ليس فيه منفعة أبدًا، وهذا خبر الله الصادق، فمن اعتقد أن ذلك ينفعه فقد كذب الله في خبره.

والتجربة تدلّ على مثل ما دل عليه القرآن؛ فإنّ هؤلاء الذين فرّوا في هذا العام لم ينفعهم فرارهم؛ بل خسروا الدين والدنيا وتفاوتوا في المصائب، والمرابطون الثابتون نفعهم ذلك في الدين والدنيا حتى الموت الذي فرّوا منه كثر فيهم، وقلّ في المقيمين، فما منع الهرب من شاء الله، والطالبون للعدو والمعاقبون له لم يمت منهم أحد ولا قتل؛ بل الموت قلّ في البلد من حين خرج الفارون، وهكذا سنة الله قديمًا وحديثًا.

ثمّ قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ١٦] يقول: لو كان الفرار ينفعكم لم ينفعكم إلّا حياة قليلة ثمّ تموتون؛ فإن الموت لا بدّ منه، وقد حكي عن بعض الحمقى أنه قال: فنحن نريد ذلك القليل، وهذا جهل منه بمعنى الآية؛ فإن الله لم يقل: إنهم يمتعون بالفرار قليلًا، لكنه ذكر أنه لا منفعة فيه أبدًا، ثمّ ذكر جوابًا ثانيًا أنه لو كان ينفع لم يكن فيه إلّا متاع قليل، ثمّ ذكر جوابًا ثالثًا وهو أن الفار يأتيه ما قضي له من المضرة، ويأتي الثابت ما قضي له من المسرّة، فقال: ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ١٧]، ونظيره: قوله في سياق آيات الجهاد: ﴿أَيْنَمَا

(١) الفتاوى، (٢٨/ ٤٥٢).
(٢) مسند أبي داود الطيالسي (٢/ ٢٢).

تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٖ مُّشَيَّدَةٖۗ﴾ الآية [النساء: ٧٨]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزّٗى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةٗ فِي قُلُوبِهِمْۗ وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ [آل عمران: ١٥٦]، فمضمون الأمر: أن المنايا محتومة، فكم من حضر الصفوف فسلم، وكم ممّن فرّ من المنية فصادفته، كما قال خالد بن الوليد- لمّا احتضر: لقد حضرت كذا وكذا صفًّا، وإن ببدني بضعًا وثمانين ما بين ضربة بسيف وطعنة برمح ورمية بسهم، وهأنذا أموت على فراشي كما يموت البعير، فلا نامت أعين الجبناء(١).

ظهر- أيضًا- توافق آخرَ بيْن الغزوتين، وهو وجود المعوقين عن النصر في كلّ معركة، والقائلين لإخوانهم: ارجعوا فلن تستطيعوا أن تفعلوا شيئًا؛ حيث يقول الله- تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَاۖ﴾ [الأحزاب: ١٨]، يقول شيخ الإسلام في هذا المعنى: «فوصف المثبطين عن الجهاد- وهُم صنفان- بأنهم إمّا أن يكونوا في بلد الغزاة، أو في غيره، فإن كانوا فيه عوقوهم عن الجهاد بالقول أو بالعمل أو بهما، وإن كانوا في غيره راسلوهم أو كاتبوهم: بأن يخرجوا إليهم من بلد الغزاة؛ ليكونوا معهم بالحصون أو بالبعد، كما جرى في هذه الغزاة، فإن أقوامًا في العسكر والمدينة وغيرهما صاروا يعوقون من أراد الغزو، وأقوامًا بعثوا من المعاقل والحصون وغيرها إلى إخوانهم: هلمّ إلينا، قال الله- تعالى- فيهم: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ١٨ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْۖ﴾، أي: بخلاء عليكم بالقتال معكم، والنفقة في سبيل الله، وقال مجاهد: بخلاء عليكم بالخير والظفر والغنيمة.

وهذه حال مَن بخل على المؤمنين بنفسه وماله، أو شحّ عليهم بفضل الله من نصره ورزقه الذي يجريه بفعل غيره؛ فإن أقوامًا يشحون بمعروفهم، وأقوامًا يشحّون بمعروف الله وفضله، وهم الحسّاد»(٢).

---

(١) الفتاوى، (٢٨/ ٤٥٤).

(٢) الفتاوى، (٢٨/ ٤٥٦).

من سنن الله في النصر: التثبيت والتأييد للمؤمنين الصادقين في المعركة بجند من عنده، يقول شيخُ الإسلام في هذا المعنى: «فإن الله صرف الأحزاب عام الخندق بما أرسل عليهم من ريح الصبا (ريح شديدة باردة)، وبما فرق به بين قلوبهم حتى شتت شملهم ولم ينالوا خيرًا؛ إذ كان همّهم فتح المدينة والاستيلاء عليها وعلى الرسول والصحابة، كما كان همّ هذا العدو فتح الشام والاستيلاء على مَن بها مِن المسلمين، فردّهم الله بغيظهم حيث أصابهم من الثلج العظيم والبرد الشديد والريح العاصف والجوع المزعج ما الله به عليم»[1].

وأيضًا من أسباب النصر: أن الله فرق بين قلوب هؤلاء المغول والكرج، وألقى بينهم تباغضًا وتعاديًا، كما ألقى - سبحانه - عام الأحزاب بين قريش وغطفان وبين اليهود[2].

خاتمةٌ لسنّة الله في النصر:

أفضل ما نختمُ به هذه السنة كلامُ شيخ الإسلام يصف حالَ المسلمين من كلّ زمان ومكان عندما تهبّ عليهم العواصف والمصائب، ثمّ بفضل الله ورحمته أولًا وبإيمانهم الثابت وعقيدتهم الصالحة وتمسّكهم بسنة نبيهم يهديهم الله إلى فعل الصواب والخير، وينصرهم ويثبتهم بجند من عنده - سبحانه هو القادر المعين، يقول شيخ الإسلام: «فإنّ هذه الحادثة كان فيها أمور عظيمة جازت حد القياس، وخرجت عن سنن العادة، وظهر لكلّ ذي عقل من تأييد الله لهذا الدين وعنايته بهذه الأمّة وحفظه للأرض التي بارك فيها للعالمين بعد أن كادَ الإسلام أن ينثلم، وكرّ العدو كرة فلم يلوِ على شيء، وخذل الناصرون فلم يلووا على شيء»[3].

***

(١) الفتاوى، (٢٨/ ٤٦٣).
(٢) الفتاوى، (٢٨/ ٤٦٤).
(٣) الفتاوى، (٢٨/ ٤٦٦-٤٦٧).

المبحثُ الخامسُ عشر
سنّةُ الله في الغرابة

معنى الغرابة: مصدر غرب، والجمعُ غرباء، وهي ما يحيد عن المفهوم العام، وما يجعل الشيء غريبًا عنْ غيره خارجًا عن المألوف، ورجل غُرُب، وغريب: بعيد عن وطنه، والأنثى غريبة، وفي الحديث سئل النبي عن الغرباء، فقال: الذين يحيون ما أمات الناسُ من سنتي.

يقول النبي في الحديث الصحيح: «بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا فطوبى للغرباء»[(١)].

تحدّث شيخُ الإسلام عن هذه السنة الإلهية، وأن معنى هذه السنّة أنّ الإسلام يعرض له ما يعرض لكلّ الدعوات والرسالات من القوة والضعف والامتداد والانكماش والازدهار والذبول وفق سنة الله التي لا تتبدّل؛ فهو كغيره خاضع لهذه السنن الإلهية التي لا تعامل الناس بوجهين، ولا تكيل لهم بكيلين، فما يجري على الأديان والمذاهب يجري على الإسلام، وما يجري على سائر الأمم يجري على أمّة الإسلام[(٢)].

وقد تحدّث شيخ الإسلام عن هذه السنة موضحًا إيّاها في فصل كامل بدأ بذلك الحديث، ثمّ ذكر أن هذا الحديث وهذه الغربة لا تقتضي منّا ترك الإسلام، فهذا غير جائز والعياذ بالله، وذكر كثيرًا من الدلالات القرآنية التي توضّح أن الله تعالى لم يقبل العمل إلّا ممّن كان مسلمًا ومات على ذلك، مثل قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وأكد- أيضًا- أنه ليس معنى أنّ الإسلام غريب أنْ لا نتمسك به، يقول شيخ الإسلام: «ولهذا لما بدأ الإسلام غريبًا لم يكن غيره من الدين مقبولًا، بل قد ثبت في الحديث الصحيح- حديث عياض بن حمار، عن النبي ﷺ أنه قال: (إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم- عربهم وعجمهم- إلّا بقايا من أهل الكتاب) الحديث، ولا يقتضي

(١) صحيح مسلم، (١/ ١٣٠).
(٢) فتاوى معاصرة، يوسف القرضاوي، ص(٥٧).

هذا أنه إذا صار غريبًا أن المتمسك به يكون في شرّ، بل هو أسعد الناس كما قال في تمام الحديث: (فطوبى للغرباء)، و(طوبى) من الطيب، قال تعالى: ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾ [الرعد: ٢٩]، فإنه يكون من جنس السابقين الأولين الذين اتبعوه لما كان غريبًا، وهم أسعد الناس.

أمّا في الآخرة فهُم أعلى الناس درجة بعد الأنبياء- عليهم السلام.

وأمّا في الدنيا فقد قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٢]، أي: أن الله حسبك وحسب متبعك، وقال تعالى: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦]، وقال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ﴾ [الزمر: ٣٦]، وقال: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ﴾ [الطلاق: ٢-٣]. فالمسلم المتبع للرسول الله- تعالى- حسبه وكافيه، وهو وليه حيث كان ومتى كان.

ولهذا كان المسلمون المتمسّكون بالإسلام في بلاد الكفر لهم السعادة كلما كانوا أتم تمسكًا بالإسلام، فإن دخل عليهم شرّ كان بذنوبهم؛ حتى إن المشركين وأهل الكتاب إذا رأوا المسلم القائم بالإسلام عظّموه وأكرموه وأعفوه من الأعمال التي يستعملون بها المنتسبين إلى ظاهر الإسلام من غير عمل بحقيقته لم يكرم.

وكذلك كان المسلمون في أول الإسلام وفي كلّ وقت، فإنه لا بدّ أن يحصل للناس في الدنيا شرّ، ولله على عباده نعم، لكن الشر الذي يصيب المسلم أقل، والنعم التي تصل إليه أكثر، فكان المسلمون في أول الإسلام وإن ابتلوا بأذى الكفار والخروج من الديار فالذي حصل للكفار من الهلاك كان أعظم بكثير، والذي كان يحصل للكفار من عز أو مال كان يحصل للمسلمين أكثر منه حتى من الأجانب، فرسول الله ﷺ- مع ما كان المشركون يسعون في أذاه بكل طريق- كان الله يدفع عنه ويعزّه ويمنعه وينصره من حيث كان أعز، قريش ما منهم إلّا من كان يحصل له من يؤذيه ويهينه من لا يمكنه دفعه إذ لكل كبير كبير يناظره ويناويه ويعاديه، وهذه حال من لم يتبع الإسلام- يخاف بعضهم بعضًا، ويرجو بعضهم بعضًا، وأتباعه الذين هاجروا إلى

الحبشة أكرمهم ملك الحبشة وأعزهم غاية الإكرام والعز، والذين هاجروا إلى المدينة فكانوا أكرم وأعز.

والذي كان يحصل لهم من أذى الدنيا كانوا يعوضون عنه عاجلًا من الإيمان وحلاوته ولذته ما يحتملون به ذلك الأذى، وكان أعداؤهم يحصل لهم من الأذى والشرّ أضعاف ذلك من غير عوض لا آجلًا ولا عاجلًا؛ إذ كانوا معاقبين بذنوبهم، وكان المؤمنون مُمتحنين ليخلص إيمانهم وتكفر سيئاتهم، وذلك أن المؤمن يعمل لله، فإن أوذي احتسب أذاه على الله، وإن بذل سعيًا أو مالًا بذله لله، فاحتسب أجره على الله.

والإيمان له حلاوة في القلب، ولذة لا يعدلها شيء ألبتة، وقد قال النبي ﷺ (ثلاث مَن كن فيه وجد بهنّ حلاوة الإيمان: مَن كان الله ورسوله أحب إليه ممّا سواهما، ومَن كان يحبّ المرء لا يحبّه إلّا لله، ومَن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار) أخرجاه في الصحيحين.

وفي صحيح مسلم: (ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد نبيًّا)[١]»[٢].

كيفيةُ تعايش الإنسان مع الغربة:

إنّ الإنسان المسلم ينبغي له مع هذه الظروف الصعبة ألّا ييأس ولا يقنط، بل يكون إيجابيًّا يحاول أن يبذل جهده في نشر دينه، وتوسيع مساحته في موطنه، وأن يصبر على الأذى، كما صبر النبي ﷺ وصحابته، يقول شيخ الإسلام عن هذا: «وكما أن الله نهى نبيه أن يصيبه حزن أو ضيق ممّن لم يدخل في الإسلام في أول الأمر، فكذلك في آخره.

فالمؤمن منهيّ أن يحزن عليهم، أو يكون في ضيق من مكرهم، وكثير من الناس إذا رأى المنكر أو تغير كثير من أحوال الإسلام جزع وكل وناح، كما ينوح أهل المصائب، وهو منهيّ

(١) صحيح مسلم، (١/ ٦٢).
(٢) الفتاوى، (١٨/ ٢٩٥).

عن هذا؛ بل هو مأمور بالصبر والتوكل والثبات على دين الإسلام، وأن يؤمن بأن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، وأن العاقبة للتقوى، وأن ما يصيبه فهو بذنوبه، فليصبر إن وعد الله حقّ، وليستغفر لذنبه، وليسبح بحمد ربه بالعشي والإبكار»(1).

ألّا يغتمّ بقلّة مَن يعرف حقيقة الإسلام، ولا يضيق صدره بذلك، ولا يكون في شك من دين الإسلام، كما كان الأمر حين بدأ، قال تعالى: ﴿ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ ﴾ [يونس: ٩٤] إلى غير ذلك من الآيات والبراهين الدالة على صحة الإسلام، وكذلك إذا تغرب يحتاج صاحبه من الأدلة والبراهين إلى نظير ما احتاج إليه في أول الأمر، وقد قال الله: ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٤- ١١٦]، وقال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَـٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان: ٤٤](2).

صورُ الغربة التي تعتري الإسلامَ وأهله من الغرباء:

يبيّن الشيخ صورَ الغربة التي تعتري الإسلام فيقول: «وقوله r: (ثم يعود غريبًا كما بدأ) يحتمل شيئين: أحدهما: أنه في أمكنة وأزمنة يعود غريبًا بينهم، ثمّ يظهر كما كان في أول الأمر غريبًا، ثمّ ظهر، ولهذا قال: (سيعود غريبًا كما بدأ)، وهو لما بدأ كان غريبًا لا يعرف، ثمّ ظهر وعرف، فكذلك يعود حتى لا يعرف، ثمّ يظهر ويعرف، فيقلّ من يعرفه في أثناء الأمر كما كان مَن يعرفه أولًا.

ويحتمل أنّه في آخر الدنيا لا يبقى مسلم إلّا قليلًا، وهذا إنما يكون بعد الدّجال ويأجوج ومأجوج عند قرب الساعة، وحينئذ يبعث الله ريحًا تقبض روح كلّ مؤمن ومؤمنة، ثمّ تقوم

(١) الفتاوى، (١٨/ ٢٩٥).
(٢) الفتاوى، (١٨/ ٢٩٧-٢٩٨).

القيامة، وأمّا قبل ذلك فقد قال ﷺ: (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحقّ لا يضرّهم مَن خالفهم ولا من خذلهم حتى تقوم الساعة)[1].

وهذا الحديث في الصحيحين ومثله من عدّة أوْجه، فقد أخبر الصادق المصدوق أنه لا تزال طائفة ممتنعة من أمته على الحقّ أعزاء لا يضرهم المخالف، ولا خلاف الخاذل.

فأمّا بقاء الإسلام غريبًا ذليلًا في الأرض كلها قبل الساعة فلا يكون هذا.

وقوله ﷺ: (ثم يعود غريبًا كما بدأ) أعظم ما تكون غربته إذا ارتد الداخلون فيه عنه، وقد قال تعالى: ﴿مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤]، فهؤلاء يقيمونه إذا ارتد عنه أولئك، وكذلك بدأ غريبًا ولم يزل يقوى حتى انتشر، فهكذا يتغرب في كثير من الأمكنة والأزمنة، ثمّ يظهر حتى يقيمه الله تعالى، كما كان عمر بن عبد العزيز لمّا ولي قد تغرب كثير من الإسلام على كثير من الناس حتى كان منهم من لا يعرف تحريم الخمر، فأظهر الله به في الإسلام ما كان غريبًا.

وفي السنن: «إن الله يبعث لهذه الأمّة على رأس كلّ مائة سنة مَن يجدّد لها دينها»[2]، والتجديد إنما يكون بعد الدُرُوس، وتلك هي غربة الإسلام.

وقد تكون الغربة في بعض شرائعه، وقد يكون ذلك في بعض الأمكنة؛ ففي كثير من الأمكنة يخفى عليهم من شرائعه ما يصير به غريبًا بينهم لا يعرفه منهم إلّا الواحد بعد الواحد.

ومع هذا فطوبى لِمَن تمسّك بتلك الشريعة كما أمر الله ورسوله؛ فإن إظهاره والأمر به والإنكار على من خالفه هو بحسب القوة والأعوان، وقد قال النبي ﷺ: (من رأى منكم منكرًا فليغيّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان)[3].

---

(١) صحيح البخاري، (٩/ ١٠١)، وصحيح مسلم، (١/ ١٣٧).
(٢) سنن أبي داود: (٤/ ١٠٩)، وقال الألباني: صحيح.
(٣) صحيح مسلم، (١/ ٦٩).

وإذا قدر أن في الناس من حصل له سوء في الدنيا والآخرة بخلاف ما وعد الله به رسوله وأتباعه فهذا من ذنوبه ونقص إسلامه كالهزيمة التي أصابتهم يوم أحد»[١].

ويقول شيخُ الإسلام- أيضًا- موضّحًا صورة من صور الغربة، وكيفية التعامل معها: «وكثير من الناس قد ينشأ في الأمكنة والأزمنة التي يندرس فيها كثير من علوم النبوات حتى لا يبقى من يبلغ ما بعث الله به رسوله من الكتاب والحكمة، فلا يعلم كثيرًا ممّا يبعث الله به رسوله، ولا يكون هناك من يبلغه ذلك، ومثل هذا لا يكفر؛ ولهذا اتفق الأئمّة على أن مَن نشأ ببادية بعيدة عن أهل العلم والإيمان وكان حديث العهد بالإسلام فأنكر شيئًا من هذه الأحكام الظاهرة المتواترة؛ فإنه لا يحكم بكفره حتى يعرف ما جاء به الرسول؛ ولهذا جاء في الحديث: (يأتي على الناس زمان لا يعرفون فيه صلاة ولا زكاة ولا صومًا ولا حجًّا إلّا الشيخ الكبير والعجوز الكبيرة يقول: أدركنا آباءنا وهم يقولون: لا إله إلّا الله وهُم لا يدرون صلاة ولا زكاة ولا حجًّا. فقال: ولا صوم ينجيهم من النار)»[٢].

ويبيّن شيخ الإسلام سببَ وصول هؤلاء إلى هذه الحالة من عدم معرفتهم بالدين وأحكامه فيقول: «وهؤلاء الأجناس وإن كانوا قد كثروا في هذا الزمان فلقلة دعاة العلم والإيمان وفتور آثار الرسالة في أكثر البلدان، وأكثر هؤلاء ليس عندهم من آثار الرسالة وميراث النبوة ما يعرفون به الهدى، وكثير منهم لم يبلغهم ذلك»[٣].

وقد بيّن شيخ الإسلام طريقة التعامل مع هذه الفئة فيقول: «وفي أوقات الفترات وأمكنة الفترات يثاب الرجل على ما معه من الإيمان القليل، ويغفر الله فيه لمن لم تقم الحجّة عليه ما لا يغفر به لَمن قامت الحجة عليه»[٤].

***

(١) الفتاوى، (١٨/ ٢٩٥-٢٩٩).
(٢) مجموع الفتاوى، (١١/ ٤٠٧)، وراجع نفس المرجع، (٣٥/ ١٠٣).
(٣) مجموع الفتاوى، (٣٥/ ١٦٥).
(٤) السابق جزءًا وصفحة.

المبحثُ السّادس عشر

سنّةُ الله في التمكين

معنى التمكين في اللغة:

يقول ابن سيده: المكانة: هي المنزلة عند الملك، والجمع مكانات، وتمكّن من الشيء واستمكن: ظفر به، والاسم من كلّ ذلك المكانة، ويقال: أمكنني الأمر، ومكنني فهو ممكن(1).

إنّ سنّة التمكين سنة جعلها الله تعالى للمؤمنين الصالحين، حيث يقول عز وجل: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًاۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔاۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [النور: ٥٥].

سنة الله في الخلق ثابتة باقية فمن اتصف بصفات السابقين الذين اتصفوا بالعدل والخير وكان هدفهم الأول والأخير عبادة الله وحده وعدم الشرك به مكنهم الله عز وجل في الأرض، وجعلهم أئمة الهدى لهذه الأمة، وهذا ما حدث للصحابة في عصرهم، وهو الذي سيحدث لكلّ جيل قام بما قام به الصحابة مقتدين مهتدين بهم.

وجيلُ التمكين الذي يمنّ الله عليه بأن يكون سببًا من أسباب نشر دين الله في أرضه وبلاغ رسالته لعباده «هو هذا الجيل الفريد الذي يمكن الله للدين على يديه، تنتظره البشرية عامة، والأمّة المسلمة خاصة، انتظار الظامئ في الهاجرة للماء البارد والوارف الظليل، إنهم المصابيح المنيرة في كلّ عتمة مدلهمة وفتنة مهلكة، هؤلاء هم السائرون على الدّرب النير الواضح عبر العصور، هم الذين لم يركنوا إلى حولهم وقوتهم، ولا اعتمدوا على عقولهم وعلومهم، وإنما شعّ نور الهداية على عقولهم وقلوبهم فاستضاءوا به كما يستضيء المبصرون بنور الشمس، لقد سار

(١) لسان العرب لابن منظور، جـ١٣-١٤، ص(١١٢-١١٣).

هؤلاء ونور الله يشع عليهم، وعنايته تكلؤهم، بينما الناس من حولهم الذين لم يسلكوا سبيلهم يرفضون أن يستضيئوا بنور السماء، ويأبون إلّا أن يعتمدوا على أنوار خافتة باهتة، لا يستطيعون أن يكشفوا بها غياهب الظلام، فكانوا كمن يمسك بيده ذبالة في ليل بهيم عاصف، بينما الأولون يمسكون بنور الشمس الساطعة، هؤلاء الذين نصف حالهم يتفرّدون عمّن سواهم بخصائص واضحة، وصفات بينة، تجعلهم يمثلون في عالم البشر نمطًا فريدًا.. فإن لهم شخصية محددة المعالم، تراها في المسلمين الأوائل، كالرسل والأنبياء، وأتباعهم، كما تجدها في الذين يتمثلون الإسلام بصدق في هذه الأمّة، هؤلاء هم جيل التّمكين»[١].

إنّ من صفات هذا الجيل كما تحدّث عنه شيخ الإسلام ابن تيمية أنه جيل متمسك بالشريعة كما أمر الله ورسوله، متمسك بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يقول شيخ الإسلام: «فطوبى لَمن تمسّك بتلك الشريعة كما أمر الله ورسوله»[٢].

أيضًا أنه جيل يحبّ الله تعالى ويحبهم الله، يقول شيخ الإسلام: «فإن قيل: قوله- تبارك وتعالى: ﴿مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ هو خطاب لذلك القرن، كقوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النور: ٥٥]، ولهذا بين النبي ﷺ أنهم أهل اليمن الذين دخلوا في الإسلام لما ارتدّ مَن ارتدّ مِن العرب، ويدل على ذلك أنه في آخر الأمر لا يبقى مؤمن.

قيل: قوله- تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ خطاب لكلّ مَن بلغه القرآن من المؤمنين كسائر أنواع هذا الخطاب، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [المائدة: ٦] وأمثالها.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ﴾، وكلاهما وقع ويقع كما أخبر الله تعالى، فإنه ما ارتد عن الإسلام طائفة إلّا أتى الله بقوم يحبهم يجاهدون عنه، وهم الطائفة المنصورة إلى قيام الساعة»[٣].

---

(١) صفات جيل التمكين في المنظور القرآني، د/ رمضان خميس، ص(١١).
(٢) الفتاوى، (١٨/ ٢٩٨).
(٣) الفتاوى، (١٨/ ٢٩٩-٣٠٠).

تبيّن ممّا سبق أنهم جيل اختصهم الله بفضله ورحمته وتمكينه ونصره، فهم الفئة المنصورة إلى يوم القيامة.

وأيضًا من صفاتهم الرائعة أنهم لا يوالون اليهود والنصارى،، فهم معتزون بدينهم في كلّ الأوقات والأحوال، وهو شغلهم الدائم، ويوالون المؤمنين، ويحرصون على نفع الناس.

يقول شيخُ الإسلام ابن تيمية مبيّنًا أنّ ذكر الطائفة المنصورة جاء بعد النهي عن موالاة اليهود والنصارى: «يبين ذلك أنه ذكر هذا في سياق النهي عن موالاة الكفار؛ فقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَـٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَـٰدِمِينَ﴾ إلى قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥١-٥٤]، فالمخاطبون بالنهي عن موالاة اليهود والنصارى هم المخاطبون بآية الردّة.

ومعلومٌ أنّ هذا يتناول جميع قرون الأمّة، وهو لما نهى عن موالاة الكفار، وبيّن أنّ مَن تولاهم مِن المخاطبين فإنه منهم، بيّن أنّ مَن تولاهم وارتدّ عن دين الإسلام لا يضر الإسلام شيئًا، بل سيأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه، فيتولون المؤمنين دون الكفار، ويجاهدون في سبيل الله لا يخافون لومة لائم، كما قال في أول الأمر: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَـٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَـٰفِرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩]، فهؤلاء الذين لم يدخلوا في الإسلام، وأولئك الذين خرجوا منه بعد الدخول فيه لا يضرون الإسلام شيئًا، بل يقيم الله مَن يؤمن بما جاء به رسوله، وينصر دينه إلى قيام الساعة»[1].

إنهم جيلٌ لا يستبدلون، فهم ثابتون على دينهم وشريعتهم حتى يلقوا الله تعالى، فيدخلهم الجنة، بينما يستبدل الله غيرهم ممّن ذلوا واتبعوا الكفار شبرًا شبرًا، فهم جيل يقومون بالجهاد وبفرائض الإسلام كما أمر الله تعالى، يقول شيخ الإسلام: «وأهل اليمن هم ممّن جاء الله بهم لمّا

(١) الفتاوى، (١٨/ ٣٠٠-٣٠١).

ارتدّ مَن ارتدّ إذ ذاك، وليست الآية مختصة بهم، ولا في الحديث ما يوجب تخصيصهم، بل قد أخبر الله أنه يأتي بغير أهل اليمن كأبناء فارس لا يختص الوعد بهم، بل قد قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ٣٨ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ [التوبة: ٣٨، ٣٩]، وهذا- أيضًا- خطاب لكلّ قرن، وقد أخبر فيه أنه مَن نكل عن الجهاد المأمور به عذبه واستبدل به من يقوم بالجهاد، وهذا هو الواقع»(١).

أيضًا هو جيلٌ يعرف الإنفاق في سبيل الله، ولا يعرف البخل، يقول شيخ الإسلام: «وكذلك قوله في الآية الأخرى: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُۖ وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُۚ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨]، فقد أخبر- تعالى- أنه مَن يتولّ عن الجهاد بنفسه أو عن الإنفاق في سبيل الله؛ استُبدل به.

فهذه حالُ الجبان البخيل يستبدل الله به من ينصر الإسلام وينفق فيه، فكيف تكون حال أصل الإسلام مَن ارتدّ عنه؟ أتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم، وهذا موجود في أهل العلم والعبادة والقتال والمال؛ مع الطوائف الأربعة مؤمنون مجاهدون منصورون إلى قيام الساعة، كما منهم مَن يرتدّ، أو من ينكل عن الجهاد والإنفاق»(٢).

ثمّ يذكر شيخُ الإسلام أن هذا الجيل هو الذي قال الله فيه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [النور: ٥٥]، فيقول معلقًا: «فهذا الوعد مناسب لكلّ مَن اتّصف بهذا الوصف، فلما اتصف به الأولون استخلفهم الله كما وعد، وقد اتّصف بعدهم

(١) الفتاوى، (١٨/ ٣٠١).
(٢) الفتاوى، (١٨/ ٣٠١-٣٠٢).

به قوم بحسب إيمانهم وعملهم الصالح، فمن كان أكمل إيمانًا وعمل صالحًا كان استخلافه المذكور أتمّ، فإن كان فيه نقص وخلل كان في تمكينه خلل ونقص، وذلك أن هذا جزاء هذا العمل فمَن قام بذلك العمل استحق ذلك الجزاء.

لكن ما بقي قرن مثل القرن الأول فلا جرم ما بقي قرن يتمكّن تمكّن القرن الأول. قال ﷺ: (خير القرون القرن الذين بعثت فيهم، ثمّ الذين يلونهم، ثمّ الذين يلونهم)، ولكن قد يكون هذا لبعض أهل القرن كما يحصل هذا لبعض المسلمين في بعض الجهات، كما هو معروف في كلّ زمان»(١).

***

(١) الفتاوى، (١٨/ ٣٠٣).

المبحثُ السّابع عشر

سنّةُ الله في الاستبدال

معنى الاستبدال: تبديل الشيء، أي: تغييره، وإن لم تأتِ ببدل، واستبدل الشيء بغيره وتبدل به: إذا أخذ مكانه، قال أبو العباس: وحقيقته: أن التبديل تغيير الصورة إلى صورة أخرى[(١)].

قضت سنّتُه- تعالى- أن يستبدل مِن الأقوام مَن تولّوا عن شريعته فلم يطبقوها، وكانوا مرتدّين عن الإسلام غير عاملين به، كافرين بنعمة الله في هدايتهم إلى الإيمان به.

قال تعالى: ﴿مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾، يقول شيخُ الإسلام موضحًا لهذه الآية: «هو خطاب لذلك القرن كقوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾،النور ٥٥. ولهذا بين النبي ﷺ أنهم أهل اليمن الذين دخلوا في الإسلام لمّا ارتد مَن ارتدّ من العرب، ويدلّ على ذلك أنه في آخر الأمر لا يبقى مؤمن.

قيل: قوله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ خطاب لكل من بلغه القرآن من المؤمنين كسائر أنواع هذا الخطاب، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ وأمثالها، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ﴾»[(٢)].

وكلام الشيخ هذا يوضّح لنا أن الاستبدال سنة جعلها الله لكل زمان ومكان، ثمّ يعقب على الكلام السابق فيقول: «وكلاهما وقع ويقع كما أخبر الله تعالى، فإنه ما ارتد عن الإسلام طائفة إلّا أتى الله بقوم يحبهم يجاهدون عنه، وهم الطائفة المنصورة إلى قيام الساعة»[(٣)].

***

(١) لسان العرب، (١/ ٣٨).
(٢) الفتاوى، (١٨/ ٢٩٩، ٣٠٠).
(٣) الفتاوى، (١٨/ ٣٠٠).

المبحثُ الثّامن عشر

سنّةُ الله في التدافع

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢].

معنى التدافع في اللغة:

منه دفعت إلى فلان شيئًا، ودفعت الرجل فاندفع، واندفع الفرس؛ أي: أسرع في سيره، اندفعوا في الحديث وتدافع القوم؛ أي: دفع بعضهم بعضًا، وتدافعوا في الحرب؛ أي: دفع بعضهم بعضًا.

وفي الاصطلاح:

هو الصراعُ والقتال بين الناس، بين الخير والشرّ، وبين الحقّ والباطل، بين أمّة وأمّة.

سنّة الله في التدافع سنّة إلهية ثابتة منذ خلق الله الإنسان، فالصراع بين الحقّ والباطل والخير والشرّ موجودٌ منذ القدم، حيث يقول عز وجل: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١].

«وقد أضاف الله تعالى الدفع إلى نفسه على قراءة الجمهور فقال: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ﴾ في الآيتين؛ ليدلّ على أنّ هذا الدفع سنة منه، وأنه سنة من سُنن الله في الاجتماع البشري الذي أقام عليها دعائم العمران والاستقرار في الوجود، ولولا هذا الدفع- دفع الله الناس بعضهم ببعض- الذي هو دفع أهل الباطل بأهل الحقّ، وأهل الإفساد في الأرض بأهل الإصلاح فيها لغلب أهل الباطل بأهل الحقّ، وأهل الإفساد في الأرض بأهل الإصلاح فيها، لغلب

أهل الباطل والإفساد في الأرض وبغوا على الصالحين وأوقعوا بهم، حتى يكون لهم السلطان وحدهم فتفسد الأرض بفسادهم، وتبطل منافعها وتتعطّل مصالحها، حتى إن أماكن العبادة من الصوامع والبيع والصلوات والمساجد على قداستها وتخصيصها لعبادة الله وذكره لا تسلم من أذاهم، بل تمتد إليها أيدي الظالمين بالهدم والتخريب، ولا يقف أمام هذا الإفساد والتخريب إلّا أن يدفع بمثل القوة التي يصول بها ويجول الباطل وأهله، فكان من فضل الله على العالمين وإحسانه إلى الناس أجمعين أنْ شرع لأهل دينه الحقّ المصلحين في الأرض قتال المفسدين فيها من الكافرين والبغاة المعتدين ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟﴾ [الحج: ٣٩]، فأهل الحقّ حرب لأهل الباطل في كلّ زمان ومكان، والله ناصرهم ما نصروا الحقّ وأرادوا الإصلاح في الأرض ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾»[1].

ولقد تنبّه شيخ الإسلام لهذه السنة وأشار إليها في حديثه عن الإرادة الكونية، وهي الإرادة المستلزمة لوقوع المراد التي يقال فيها: ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فذكر أنّ هذه الإرادة متمثّلة في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾، البقرة: ٢٥٣. أي: أن الصراع والاقتتال هو مشيئة الله وسنته في خلقه[2].

«وهذه الآية جزء من قوله- تعالى- الذي ورد في سورة البقرة آية (٢٥٣): ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَـٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَيَّدْنَـٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ وَلَـٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾، وفي هذه الآية بيّن عز وجل أنه بالرغم من وحدة الرسل الذين أرسلهم الله للبشر، وبرغم وحدة ما جاءوا به من توحيد الله وإفراده بالعبودية، إلّا أنّ الاختلاف والتقاتل وقع بين أتباعهم وبين سائر البشر وفق مشيئة الله وسنته مِن خلق الإنسان بتكوينه واستعداده قادرًا على الهدى أو الضلال، ومشيئته عز وجل في اختلاف استعدادات البشر وقواهم وميولهم»[3].

---

(١) السنن الإلهية في الحياة الإنسانية، (٢/ ١١١).

(٢) انظر: الفتاوى، (٨/ ٥٥، ١٨٨).

(٣) السنن الإلهية في الحياة الإنسانية، الظلال، (١/ ٢٨٤).

وذكر شيخُ الإسلام في موضع آخر أن الآية الكريمة ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴾ جاء بعدها قوله تعالى: ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾، ثمّ قال: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴾.

فبيّن أنّ الله عز وجل لا مبدّل لكلماته، وأنها تمّت صدقًا وعدلًا، وأنه قد تواتر عن النبي ﷺ أنه كان يستعيذ ويأمر بالاستعاذة بكلمات الله التامّات، وفي بعض من الأحاديث: «التي لا يجاوزهنّ برّ ولا فاجر»[(١)].

وفي هذا الكلام إشارةٌ إلى السنن الإلهية، وهذه السنة التي وردت في الآية هي سنة الله في التدافع، حيث بيّنت الآية أنّ الصراع بين الحقّ والباطل سنة إلهية وجدت دائمًا بين البشر، ثمّ ينتصر الحقّ في النهاية في الدنيا وفي الآخرة بالدخول في الجنة والفوز بها، فهذا الاختلاف في المنهج بين الإيمان بالله والكفر به مَدْعاة للتخاصم والنزاع، وعلى المسلمين المؤمنين أن يقوموا بواجبهم بمدافعة أهل الباطل؛ حتى يتحقّق وعد الله لهم بالنصر والتمكين في الأرض طلبًا لرضى الله عز وجل.

***

(١) الفتاوى، (٨/ ٥٥)، (١٤/ ٤٩٦، ٤٩٧).

المبحثُ التّاسع عشر
سنّةُ الله في أوليائه

معنى الولاية: الأولياء جمع: ولي، وهو النّصير، والله وليّه، أي: حافظُه، والولي الصالح هو الرجُل المعروف بسيرته المستقيمة وعبادته وسلوكه، والولي: هو التابع المحبّ، وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة: ٢٥٧]. قال أبو إسحاق: الله وليّهم في حجاجهم وهدايتهم وإقامة البرهان لهم؛ لأنه يزيدهم بإيمانهم هداية، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧]، ووليّهم- أيضًا- في نصرهم على عدوّهم، وإظهار دينهم على دين مُخالفيهم، وقيل: وليّهم، أي: يتولّى ثوابهم ومجازاتهم بحسن أعمالهم[1].

ممّا لا شكّ فيه أنّ الولاية منزلة عند الله للعبد الصالح تتطلّع إليها القلوب المؤمنة الصالحة؛ لأنّ الله حباها بالجزاء الرّائع والنصرة الدائمة والمساندة في الدنيا والآخرة، وهي منزلة لها سنتها التي لا تتبدّل ولا تتغيّر؛ حيث يقول عز وجل: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٣، ٦٤].

ذكر الله عز وجل في هذه الآية الكريمة أن موعود الله آتٍ لا محالة، وأن أولياء الله تعالى الذين مِن صفتهم أنهم يتّقون الله ويخافونه ويؤمنون به حقّ الإيمان لن ينالوا خوفًا ولا حزنًا، دائمًا فرحون فهم لهم البشرى في الدنيا والآخرة، حيث يلقون الثواب العظيم والأجر الوافر[2].

***

(١) لسان العرب لابن منظور، جـ١٥-١٦، ص(٢٨٣).
(٢) انظر: الفتاوى، (١٤/ ٤٩٧).

المبحثُ العشرون

سنّةُ الله في الأنبياء

للأنبياء رسالةٌ عظيمة هدفُها إخراج الناس من ظلمات الكفر والعناد والعبودية لغير الله إلى أنوار الدين، وحرية العبودية لله عز وجل؛ ليكونوا سعداء في الدنيا والآخرة، وليخرجوا من ضيق النفس وظلمها إلى رحابة النفس وعدل الإسلام، لذلك اقتضت سنته عز وجل أنّ «جميع الأنبياء يتعرّضون في دعوتهم للإيذاء والتكذيب، وهذه سنّة إلهيّة لكلّ من يحمل عبء رسالات الأنبياء والدعوة إلى الله؛ أنْ يحكم عليه بالتكذيب والإيذاء بكل أنواعه، سواء كان هذا الإيذاء معنويًّا أم ماديًّا، ولقد تحدّث القرآن الكريم في آيات كثيرة عن صور إيذاء الأنبياء مثل: القتل والإخراج والتكذيب والسخرية والشتم والتعذيب؛ وذلك حتى يعلم الناس أنّ الدين أمرٌ مهمّ في حياتهم لابد أن يدافعوا عنه بأرواحهم وأموالهم وكل ما يملكون؛ حتى ينتشر فتكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الكافرين هي السفلى، يقول عز وجل في كتابه الكريم: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٤]، فبيّنت الآية أن هذه هي حكمته النافذة التي لا تتبدل ولا تتغير، وأن نصر الله عز وجل آتٍ بعد هذا الصبر والتحمل والإيذاء»(١).

ويذكر الشيخُ بعد تفسيره لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ [يوسف: ١١٠]: «وفي قصص هذه الأمور عبرة للمؤمنين بهم؛ فإنهم لا بدّ أن يبتلوا بما هو أكثر من ذلك، ولا ييأسوا إذا ابتلوا بذلك، ويعلمون أنه قد ابتلي به مَن هو خيرٌ منهم، وكانت العاقبة إلى خير، فليتيقن المرتاب، ويتوب المذنب، ويقوى إيمان المؤمنين، فبها يصحّ الاتساء بالأنبياء كما في قوله: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ﴾»(٢).

(١) انظر: الفتاوى، (١٤/ ٤٩١).
(٢) الفتاوى، (١٥/ ١٧٨).

من سُنن الله في البشر أنْ خلقهم أحرارًا:

قد جعل الله عز وجل الحرية والاختيار والإرادة سلوكًا لازمًا للمؤمنين، لم يرغمهم على الإيمان به، أو يجبرهم على فعل الخير، ولكنه- سبحانه- ترك لهم الاختيار، فقال تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]، ولكن رحمته- سبحانه- اقتضت ألّا يتركهم همَلًا، فبيّن لهم طريق الخير وحبّبه إلى نفوسهم، وبين لهم الشر وبغضه إلى نفوسهم، وأرسل لهم الأنبياء ليرشدهم، وهذا لا يتعارض مع قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

يقول شيخُ الإسلام: «وكذلك ما خلقهم إلّا للعبادة، ثمّ قد يعبدون، وقد لا يعبدون»، ثمّ بيّن أنّه- سبحانه- لم يقل: إنّه فعل الأول ليفعل هو الثاني، ولا ليفعل بهم الثاني، فلم يذكرْ أنه خلقهم ليجعلهم هم عابدين؛ فإن ما فعله من الأسباب لما يفعله هو من الغايات يجب أن يفعله لا محالة، ويمتنع أن يفعل أمرًا ليفعل أمرًا ثانيًا، ولا يفعل الأمر الثاني، ولكن ذكر أنه فعل الأول ليفعلوا هم الثاني؛ فيكونون هم الفاعلين له، فيحصل بفعلهم سعادتهم، وما يحبّه ويرضاه لهم، فيحصل ما يحبه هو، وما يحبونه هم، كما تقدم أن كلّ ما خلقه وأمر به غايته محبوبة لله ولعباده، وفيه حكمة له، وفيه رحمة لعباده.

فهذا الذي خلقهم له لو فعلوه لكان فيه ما يحبّه وما يحبّونه، ولكن لم يفعلوه، فاستحقّوا ما يستحقه العاصي المخالف لأمره، التارك فعل ما خلق لأجله من عذاب الدنيا والآخرة، وهو- سبحانه- قد شاء أن تكون العبادة ممّن فعلها، فجعلهم عابدين مسلمين بمشيئته وهداه لهم وتحبيبه إليهم الإيمان؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ [الحجرات: ٧]، فهؤلاء أراد العبادة منهم خلقًا وأمرًا أمرهم بها؛ وخلقًا جعلهم فاعلين، والصنف الثاني لم يشأ هو أن يخلقهم عابدين، وإن كان قد أمرهم بالعبادة»[1].

(١) الفتاوى، (٨/ ٥٦-٥٩).

ومثل هذه السنة سنة الله في التسخير حيث قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ [الحج: ٣٧]، أي: جعل الأنعام سخرةً للإنسان؛ حتى ينتفع بها، فيحصل له من تعظيم الله عز وجل وتكبيره ما يكون نتيجة لانتفاعه.

مِن سُنن الله في الأنبياء أنّه يؤيّدهم بالمعجزات، وينصرهم على مَن كذّبوهم:

يقول شيخُ الإسلام في كتاب النبوّات: «من آيات الأنبياء: نصرهم على قومهم، وذلك على وجهين:

١- إهلاك الأمم وإنجاء الرسل وأتباعهم كـ: قوم نوح وهود وصالح وشعيب ولوط وموسى.

٢- إظهار برهان النبي بالحجة والعلم والقدرة، كما أظهر إبراهيم على قومه، فقد أظهره عليهم بالحجة والعلم، وأظهره- أيضًا- بالقدرة؛ حيث أذلّهم ونصره، وهذا من جنس المجاهد الذي هزم عدوه، وتلك من جنس المجاهد الذي قتل عدوه.

وإبراهيم بعد هذا لم يقمْ بينهم، بل هاجر وتركهم، وأولئك الرسل لم يزالوا مقيمين بين ظهراني قومهم حتى هلكوا، فلم يوجد في حقّ قوم إبراهيم سبب الهلاك وهو إقامته فيهم وانتظار العذاب النازل، وهكذا محمد مع قومه لم يقمْ فيهم، بل خرج عنهم حتى أظهره الله- تعالى- عليهم بعد ذلك»(١).

(١) النبوات، ص(٢٠٥، ٢٠٩) بتصرف يسير.

المبحثُ الحادي والعشرون

سنّةُ الله في التداول

معنى التداول في اللغة: الدَّولة والدُّولة: العاقبة في المال والحرب سواء، وقيل: الدُّولة: في المال والدَّولة: في الحرب، وقيل: هما سواء فيهما. قال الجوهري: الدَّولة في الحرب أنْ تُدال إحدى الفئتين على الأخرى، يقال: كانت لنا عليهم الدَّولة، والجمع: الدُّوَل، والدُّولة: في المال، يقال: صار الفيئ دولة بينهم يتداولونه مرّة لهذا ومرّة لهذا، والجمع: دولات ودُوَل، والدَّولة: الانتقال من حال الشدة إلى الرخاء، وتداولنا الأمر: أخذناه بالدول، ودالت الأيام، أي: دارت، والله يداولها بين الناس، ويقال: تداولنا العمل بيننا، بمعنى: تعاورناه(١).

قال تعالى: ﴿كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ﴾ [الحشر: ٧]، سنة التداول من السنن الشاملة لكثيرٍ من الاتجاهات، وقد ذكرها القرآن في مواضع متعددة، وكلمة تداول تعني: تعاقب، قال تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ [الحج: ٦١]، أي: يتعاقبان، ويحلّ أحدهما محلّ الآخر، فكما يولج الله الليل والنهار يولج كذلك الحضارات والأمم والأموال، فتزول أمّة وتحلّ أمّة أخرى محلها، وتزول حضارة لتأتي حضارة أخرى أقوى أو أفيد محلّها وهكذا، والتاريخ شاهد على ذلك، وما ذكره القرآن من قصص الغابرين يدلّ على هذا التداول، وأنه تفنى أمّة أو تهلك وتأتي أمّة أخرى تستحق البقاء والوجود، حتى يحلّ بها الفناء فتزول ويأتي غيرها، والعوامل التي تحكم تلك المداولة جاءت في القرآن الكريم في مواضع كثيرة، منها: أنّ صلاح الأمم وإيمانها وقوتها يكون سببًا في بقائها، كما أن ترفَ الأمم وبطرها وكفرها وتكذيبها لرسلها ولليوم الآخر يكون سببًا لفنائها(٢).

ولقد أشار شيخُ الإسلام إلى هذه السنة في أثناء حديثه عن كلمات الله التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر، ويقصد السنة الإلهية فذكر هذه الآية: ﴿كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ﴾، أي: حتى لا

(١) لسان العرب لابن منظور، جـ٥-٦، ص(٣٢٧-٣٢٨).
(٢) فقه السنن الإلهية ودوره في البناء الحضاري، عادل عيساوي، ص(٢٢٨).

يظل المال في يد الأغنياء يحتكرونه لهم فينقسم الجميع ويصبحوا فئات متفرقة، مجموعة الأغنياء بما تمتلكه من أموال، ودولة الفقراء الذين يعانون النقص في احتياجاتهم الضرورية، فيحقدون على الأغنياء ويظاهرونهم العداء، فيحدث التنافر والتفرقة بين المجتمع، وقد يحدث الاقتتال أو السرقة والفساد، لذلك عالج الله هذا الأمر بأن أمر المؤمنين بإخراج الزكاة والصدقات؛ حتى يسود التعاطف والود في المجتمع عندما يجد الفقراء حاجاتهم التي يحتاجون إليها.

وقد ذكر شيخُ الإسلام في مواضع كثيرة هذا التداول، وأسبابَ بقاء الأمم وفنائها فقال: «إن الله يبقي الدولة الكافرة مع العدل، ويهلك الدول المسلمة مع الظلم»، فأظهر أنّ البقاء يكون بالعدل، وهذا العدل يشمل العدل في جميع المجالات سياسية واقتصادية واجتماعية وغيرها.

وهكذا نجد أن حكمة الله وسنته في رسله وأتباعهم جرت بأن يداولوا مرة ويُدال عليهم أخرى، لكن تكون لهم العاقبة، فإنهم لو انتصروا دائمًا دخل معهم المؤمنون وغيرهم، ولم يتميّز الصادق من غيره، ولو انتصر عليهم دائمًا لم يحصل المقصود من البعثة والرسالة، فاقتضت حكمةُ الله أنْ جمع لهم بين الأمرين؛ ليتميّز مَن يتّبعهم ويطيعهم للحقّ، وما جاءوا به ممّن يتبعهم على الظهور والغلبة خاصة.

ومنها: أنْ يتميّز المؤمن الصادق من المنافق الكاذب؛ فإن المسلمين لما أظهرهم الله على أعدائهم يوم بدر، وطار بهم الصيت دخل معهم في الإسلام ظاهرًا من ليس معهم باطنًا، فاقتضت حكمة الله تعالى أنه سبب لعباده محنة ميّزت بين المؤمن والمنافق، فأطلع المنافقون رؤوسهم في غزوة أحد، وتكلّموا بما كانوا يكتمونه، وظهرت مخبأتهم، وعاد تلويحهم تصريحًا، وانقسم الناس إلى كافر ومؤمن ومنافق انقسامًا ظاهرًا، وعرف المؤمنون أنّ لهم عدوًّا من نفس دورهم، وهم معهم لا يفارقونهم، فاستعدّوا لهم وتحرّزوا، وبهذا يتميّز المؤمنون من المنافقين، فيعلمهم الله علم رؤية ومشاهدة بعد أن كانوا معلومين في غيبه، وذلك العلم الغيبي لا يترتب عليه ثواب ولا عقاب، وإنّما يترتب الثواب والعقاب على المعلوم إذا صار مشاهدًا واقعًا في الحسّ(١).

(١) السنن الإلهية في الحياة الإنسانية، (٢/ ٣٠٣-٣٠٤).

المبحثُ الثّاني والعشرون

سنّةُ الله في الكافرين والمشركين

إنّ الله سبحانه وتعالى خلق الأرض، وخلق آدم u وذريته؛ ليقوموا بإعمارها، وليكون الإنسان خليفةَ الله في الأرض، يحيى ويموت تبعًا لأوامر الله تعالى، وما كان للإنسان أن يكفر بالله حرًّا على أرض الله التي خلقها له عابثًا لاهيًا مفسدًا فيها دون أن يرشده الله إلى الحقّ، لذلك اقتضت سنته عز وجل أن يرسل لهم الأنبياء والرسل؛ ليرشدوهم إلى الصواب والحقّ.

ويوضّح لنا شيخ الإسلام هذ المعنى من خلال قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ [البينة: ١]: «أي: لم يكونوا متروكين باختيار أنفسهم يفعلون ما يهوونه لا حجر عليهم، كما أنّ المنفكّ لا حجر عليه، وهو لم يقل: «مفكوكين»، بل قال: ﴿مُنفَكِّينَ﴾، وهذا أحسن؛ فإنه نفي لفعلهم، ولو قال: «مفكوكين» كان التقدير: لم يكونوا مسيبين مخلّين فهو نفي لفعل غيرهم، والمقصود أنهم لم يكونوا متروكين لا يؤمرون ولا ينهون، ولا ترسل إليهم رسل، بل يفعلون ما شاءوا ممّا تهواه الأنفس.

والمعنى: أنّ الله ما يخليهم ولا يتركهم، فهو لا يفكهم حتى يبعث إليهم رسولًا، وهذا كقوله: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦] لا يؤمر ولا ينهى، أي: أيظنّ أنّ هذا يكون؟ هذا ما لا يكون ألبتة، بل لا بدّ أن يؤمر وينهى.

وقريبٌ من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ [الزخرف: ٣-٥]، وهذا استفهام إنكار، أي: لأجل إسرافكم نترك إنزال الذكر، ونعرض عن إرسال الرسل، ومن كره إرسالهم؟

فإنّ الأول تكذيب بوجودهم، والثاني يتضمّن بغضَهم وكراهة ما جاءوا به.

قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ [محمد: ٩]، وقال عن مؤمن آل فرعون: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴾ [غافر: ٣٤].

وأمّا مَن كذّب بهم بعد الإرسال فكفره ظاهر، ولكن مَن ظنّ أنّ الله لا يرسل إليه رسولًا، وأنّه يترك سدى مهملًا لا يؤمر ولا ينهى فهذا- أيضًا- ممّا ذمّه الله، إذا كان لا بدّ من إرسال الرسل وإنزال الكتب، كما أنه- أيضًا- لا بدّ مِن الجزاء على الأعمال بالثواب والعقاب وقيام القيامة.

ولهذا ينكر- سبحانه- على مَن ظنّ أنّ ذلك لا يكون، فقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾ [ص: ٢٧-٢٨]، وقال تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الحجر: ٨٥، ٨٦]، وقال: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [الجاثية: ٢٢].

وقال عن أولي الألباب: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران: ١٩١]، ونحوه في القرآن ممّا يبيّن أنّ الأمر والنهي والثواب والعقاب والمعاد ممّا لا بدّ منه، وينكر على من ظنّ أو حسب أن ذلك لا يكون، وهو يقتضي وجوب وقوع ذلك، وأنه يمتنع أن لا يقع»[1].

ثمّ يقول الشيخُ مؤكّدًا على ما سبق: إنّ قوله تعالى: ﴿ لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴾ [البينة: ١] «بيان منه أن الكفار لم يكن الله ليدعهم ويتركهم

---

(١) الفتاوى، (١٦/ ٤٩٥-٤٩٧).

على ما هم عليه من الكفر، بل لا يفكهم حتى يرسل إليهم الرسول بشيرًا ونذيرًا ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١]، ومما يبيّن ذلك أن «حتى» حرف غاية، وما بعد الغاية يخالف ما قبلها، كما في قوله: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ [البقرة: ١٨٧]، وقوله: ﴿حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، وقوله: ﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٣٠]، ونظائر ذلك»[1].

مِن سنّة الله في الكافرين أنْ جعلَ لهم العذاب المقيم في الدنيا والآخرة:

يقول شيخُ الإسلام في قوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٨] إنها إشارة إلى ما هو لازم لهم في الدنيا والآخرة من الآلام النفسية: غمًّا وحزنًا، وقسوة وظلمة قلب، وجهلًا، فإنّ للكفر والمعاصي من الآلام العاجلة الدائمة ما الله به عليم، ولهذا تجد غالب هؤلاء لا يطيبون عيشهم إلّا بما يزيل العقل، ويلهي القلب ومن تناول مسكر، أو رؤية مُلْه، أو سماع مطرب، ونحو ذلك وبإزاء ذلك قوله في المؤمنين: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ [التوبة: ٧١] فإن الله عجّلَ للمؤمنين من الرحمة في قلوبهم، وغيرها بما يجدونه من حلاوة الإيمان ويذوقونه مِن طعمه، وانشراح صدورهم للإسلام، إلى غير ذلك من السرور بالإيمان، والعلم والعمل الصالح، بما لا يمكن وصفه.[2]

***

(١) الفتاوى، (١٦/ ٥٠١).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم، (١/ ١١٠)

المبحثُ الثّالثُ والعشرون

سنّة الله- تعالى- في المُظهرين للإيمان

مضت سنّةُ الله- تعالى- وإرادته في خلقه أن يمحّصهم، ويُظهر ما في قلوبهم، فيعرف المتقين من المنافقين، وكذلك حتى تتّضح درجات الإيمان، فيأخذوا أجورهم في الجنة بإنصاف تامّ، وكذلك ليعرف الصفّ الإسلامي مَن سيقوم بنصره حقًّا ومَن سيخذله إذا احتاجت الضرورة إلى نصرته، وهذا التّمحيص هو سنة الله المطّردة الثابتة على مرّ الأزمان لكلّ مَن أظهر إيمانه وأصبح في صفّ المؤمنين الطائعين لله تعالى.

يقول شيخُ الإسلام: «وهو- سبحانه- قد ذكر أنّ المُظهرين للإيمان ما كان ليدعهم حتى يميز الخبيثَ من الطيب ويمتحنهم، كما قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩]، وقال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٦]، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]»[1].

***

(١) الفتاوى، (١٦/ ٥٠٤).

المبحثُ الرّابع والعشرون

سنّةُ الله تعالى فيمَن يُعرض عن ذكره

قال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٣- ١٢٦].

معنى الذّكر في الآية:

يقول شيخُ الإسلام: إنه قد يُقصد بالذكر القرآن، أو ما أنزله من الكتاب؛ فإنّ الذكر مصدر، والمصدر تارة يُضاف إلى الفاعل، وتارة إلى المفعول، فإذا قيل: ذكر الله بالمعنى الثاني كان ما يذكر به مثل قول العبد: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلّا الله والله أكبر.

وإذا قيل: بالمعنى الأوّل كان ما يذكره هو، وهو كلامه وهذا هو المراد في قوله: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي﴾؛ لأنه قال قبل ذلك: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾، وهداه هو ما أنزله من الذكر، وقال بعد ذلك: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا﴾، والمقصود أنْ يعرف أنّ الذكر هو كلامه المنزل، أو هو ذكر العبد له، فسواء قيل: ذكري كتابي أو كلامي أو هداي أو نحو ذلك كان المسمّى واحدًا[(١)].

أشار شيخُ الإسلام إلى أهمية فهم القرآن، وكيف أنّ حاجة الأمّة ماسّة إلى ذلك، وذكر الآيات التي تبيّن كيف أنه مَن أعرض عن ذكره- سبحانه- كان له مصيرًا لا يحمد وضلالًا لا يداويه إلّا الرجوع إلى ذكره (الذي هو كتابه) بتدبّر وفهم وتطبيق لآياته المحكمات، متمسكين في ذلك بمنهج النبي ﷺ وصحابته؛ فقد أوضح النبي معاني القرآن كما يبيّن لهم ألفاظه، كما قال تعالى: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]، كما قال أبو عبد الرحمن السلمي: حدثنا

(١) الفتاوى، (١٣/ ٣٣٤، ٣٣٥).

الذين كانوا يقرئوننا القرآن كـ: عثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلّموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل. قالوا: فتعلّمنا القرآن والعلم والعمل جميعًا؛ ولهذا كانوا يبقون مدّة في حفظ السورة، وقال أنس: كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جلّ في أعيننا، وأقام ابن عمر على حفظ البقرة عدّة سنين، قيل: ثمان سنين. ذكره مالك؛ وذلك أنّ الله- تعالى- قال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص: ٢٩]، وقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾، وقال: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ﴾، وتدبّر الكلام دون فهم معانيه لا يمكن، وكذلك قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، وعقل الكلام متضمّن لفهمه(١).

ويقول شيخُ الإسلام مؤكدًا على فهم القرآن، ومبينًا أنه هو الغاية دون سواه: «ومن المعلوم أن كلّ كلام فالمقصود منه فهم معانيه دون مجرد ألفاظه؛ فالقرآن أولى بذلك، وأيضًا فالعادة تمنع أن يقرأ قوم كتابًا في فنٍّ من العلم كـ: الطبّ والحساب ولا يستشرحوه، فكيف بكلام الله الذي هو عصمتهم، وبه نجاتهم وسعادتهم، وقيام دينهم ودنياهم؟»(٢).

ولو رجعنا إلى القرآن وفهمه وكيف أنه يغير حياتنا كلها إلى الأفضل فيتحقّق لنا السعادة في الدنيا والآخرة؛ نجد قولَ النبي ﷺ في وصف القرآن: (إنه هو حبل الله المتين، والذكر الحكيم، والصراط المستقيم الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسن، ولا يخلق عن كثرة الترديد، ولا تنقضي عجائبه، ولا يشبع منه العلماء، من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم، ومن تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله)(٣).

ولو تتبّعنا ما ذكره شيخ الإسلام- رحمه الله- من الآيات التي تدلّ على أهمية تدبّر القرآن وفهمه وتطبيقه واتّباع أحكامه (أوامره ونواهيه)، وفهم سننه وقصصه وآدابه، وما احتوى

(١) الفتاوى، (١٣/ ٣٣٠، ٣٣١).
(٢) الفتاوى، (١٣/ ٣٣٢).
(٣) الفتاوى، (١٣/ ٣٣٠). والحديث في مسند الشاميين للطبراني (٣/ ٢٥٨).

عليه من مبشّرات ومحذورات وإخبارات عن الساعة واليوم الآخر ومقاصد الآيات (ومحكمه ومتشابهه)، إلى الفوائد التي لا تعدّ ولا تحصى؛ لعرفنا مدى الخطر الذي يحيط بنا مِن الإعراض عن ذكره الحكيم، أو سوء التعامل مع كتاب الله، وقد أوضح شيخُ الإسلام في هذا الجانب كثيرًا من خلال كتاباته كلها موضحًا شمولية المنهج القرآني لكلّ الحياة، ولا ينبغي لنا أن نأخذ جانبًا واحدًا ونترك الجوانب الكثيرة من هدايات القرآن، وسنورد الآيات القرآنية متأمّلين متفهمين معانيها؛ حتى ندرك هذه السنة، قال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٣-١٢٦]، فهكذا هذا جزاء المكذبين المعرضين عن كتابه كليًّا أو جزئيًّا، أو مقصرين في فهمه وتطبيقه، الحرمان من السعادة في الدنيا، بل يصيبهم الشقاء، ثمّ الخزي في الآخرة، قال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥-١٦] جاء في هذه الآية المقابلة بين النور والظلام؛ فالنور لمن اتبع طريقه المستقيم ونهجه المبين الموجود في كتابه، والظلام والحيرة لمن أعرض عن هذا الخير، وقال تعالى: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١-٢]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٢-٥٣][(١)].

مِن سنّته- سبحانه- إرسال الرسل عند الاختلاف والتفرقة:

(١) ذكرت الآيات في الفتاوى، (١٣/ ٣٣٠، ٣٣١).

قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣].

ثمّ قال تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢١٣].

ومثل ذلك: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣]، ثمّ قال: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ [الشورى: ١٤].

يقول الشيخ السعدي- رحمه الله في تفسير (٢١٣ من سورة البقرة): «إنّ الناس كانوا مُجتمعين على الكفر والضلال والشقاء، ليس لهم نور ولا إيمان، فرحمهم الله- تعالى- بإرسال الرسل إليهم.

﴿مُبَشِّرِينَ﴾ من أطاع الله بثمرات الطاعات، من الرزق، والقوة في البدن والقلب، والحياة الطيبة، وأعلى ذلك، الفوز برضوان الله والجنة.

﴿وَمُنذِرِينَ﴾ من عصى الله بثمرات المعصية، من حرمان الرزق، والضعف، والإهانة، والحياة الضيقة، وأشدّ ذلك سخط الله والنار.

﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ وهو الإخبارات الصادقة، والأوامر العادلة، فكلّ ما اشتملت عليه الكتب فهو حقّ، يفصل بين المختلفين في الأصول والفروع، وهذا هو الواجب عند الاختلاف والتنازع، أن يردّ الاختلاف إلى الله وإلى رسوله، ولولا أن في كتابه وسنة رسوله فصل النزاع، لَما أمر بالردّ إليهما، ولَما ذكر نعمته العظيمة بإنزال الكتب على أهل الكتاب، وكان هذا يقتضي اتفاقهم عليها واجتماعهم، فأخبر- تعالى- أنّهم بغى بعضُهم على بعض، وحصل النزاع والخصام وكثرة الاختلاف.

فاختلفوا في الكتاب الذي ينبغي أن يكونوا أولى الناس بالاجتماع عليه، وذلك من بعد ما علموه وتيقّنوه بالآيات البينات، والأدلة القاطعات، فضلّوا بذلك ضلالًا بعيدًا.

﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ من هذه الأمّة ﴿لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾، فكلّ ما اختلف فيه أهل الكتاب، وأخطؤوا فيه الحقّ والصواب، هدى الله للحقّ فيه هذه الأمّة ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ تعالى، وتيْسييره لهم ورحمته»[(١)].

أورد الشيخُ ابن تيمية بعض آراء المفسرين التي توضح هذه الآيات، وتفصل في معناها، وذكر رأي ابن أبي العالية من أنّ الله أرسل الرسل وأنزل الكتاب عند الاختلاف ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ قال: أنزل الكتاب عند الاختلاف ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ﴾، يعني: بني إسرائيل، أوتوا الكتاب والعلم ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ يقول: بغيًا على الدنيا وطلب ملكها وزخرفها وزينتها أيهم يكون له الملك والمهابة في الناس، فبغى بعضهم على بعض، وضرب بعضهم رقاب بعض، ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ﴾ يقول: فهداهم الله عند الاختلاف أنهم أقاموا على ما جاءت به الرسل قبل الاختلاف، أقاموا على الإخلاص لله وحده، وعبادته لا شريك له، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وأقاموا على الأمر الأول الذي كان قبل الاختلاف، واعتزلوا الاختلاف، فكانوا شهداء على الناس يوم القيامة، كانوا شهداء على قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم شعيب وآل فرعون أن رسلهم قد بلغتهم، وأنهم كذبوا رسلهم[(٢)].

وهكذا هي سنّته- سبحانه- في جميع المخلوقات، أنهم إذا انتشر فيهم الظلم والبغض واغترّوا بالدنيا وتفرّقوا بعث لهم مَن يجمع شملهم ويوحدهم، وينشر فيهم الخير، ويبعدهم عن الشر، فيستحقون لقب أنهم شهداء على الناس يوم القيامة، وفي زماننا هذا بعد أن جاء نبينا محمد ﷺ ختامًا للأنبياء كان العلماء الربانيون هم الرسل في هذا الكون يقع عليهم عبء

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص(٩٥-٩٦).
(٢) الفتاوى، (١٦/ ٥١٤).

إصلاح الناس، وردّهم إلى دينهم، فيمتنع التفرق، وتسود الوحدة والخير، ويتحقّق الشهود الحضاري لهم.

ويقول شيخُ الإسلام: «الاختلاف في كتاب الله نوعان: أحدهما: يذمّ فيه المختلفين كلّهم كقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِى ٱلۡكِتَـٰبِ لَفِى شِقَاقِۭ بَعِيدٍ﴾، وقوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾.

والثاني: يمدح المؤمنين ويذمّ الكافرين كقوله: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَـٰتُ وَلَـٰكِنِ ٱخۡتَلَفُواْ فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ وَمِنۡهُم مَّن كَفَرَۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلُواْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ﴾».

***

المبحثُ الخامسُ والعشرون

سنّةُ الله في شانئ الرسول

ومعنى شانئ الرسول ﷺ، أي: مُبغضه وكارهه وذامّه ومنتقصه، وهذه سنة الله -تعالى- الماضية في كلّ مَن يحاول الانتقاص من مقام النبي ﷺ؛ فهو يمثل للأمّة القدوة والمعلم والمربي.

يقول شيخُ الإسلام: «فإنه عز وجل بتر شانئ رسوله من كلّ خير، فيبتر ذكره وأهله وماله، فيخسر ذلك في الآخرة، ويبتر حياته فلا ينتفع بها، ولا يتزود فيها صالحًا لمعاده، ويبتر قلبه فلا يعي الخير، ولا يؤهله لمعرفته ومحبته والإيمان برسله، ويبتر أعماله فلا يستعمله في طاعة، ويبتره من الأنصار فلا يجد له ناصرًا ولا عونًا، ويبتره من جميع القرب والأعمال الصالحة فلا يذوق لها طعمًا، ولا يجد لها حلاوة، وإن باشرها بظاهره فقلبه شارد عنها.

وهذا جزاء مَن شنأ بعض ما جاء به الرسول ﷺ، ورده لأجل هواه أو متبوعه أو شيخه أو أميره أو كبيره.

كمَن شنأ آيات الصفات وأحاديث الصفات وتأوّلها على غير مراد الله ورسوله منها، أو حملها على ما يوافق مذهبه ومذهب طائفته، أو تمنى أن لا تكون آيات الصفات أنزلت ولا أحاديث الصفات قالها رسول الله ﷺ.

ومن أقوى علامات شناءته لها وكراهته لها أنه إذا سمعها حين يستدل بها أهل السنة على ما دلّت عليه من الحقّ اشمأز من ذلك، وحاد ونفر عن ذلك؛ لما في قلبه مِن البغض لها، والنفرة عنها، فأي: شانئ للرسول أعظم من هذا.

وكذلك أهل السماع الذين يرقصون على سماع الغناء والقصائد والدفوف والشبابات إذا سمعوا القرآن يتلى ويقرأ في مجالسهم استطالوا ذلك واستثقلوه، فأي شنآن أعظم من هذا.

وقسْ على هذا سائر الطوائف في هذا الباب.

وكذا مَن آثر كلام الناس وعلومهم على القرآن والسنة، فلولا أنه شانئ لما جاء به الرسول ما فعل ذلك، حتى إن بعضهم لينسى القرآن بعد أن حفظه ويشتغل بقول فلان وفلان.

ولكن أعظم مَن شنأه وردّه من كفر به وجحده وجعله أساطير الأولين، وسحرًا يؤثر، فهذا أعظم وأطمّ انبتارًا، وكلّ من شنأه له نصيب من الانبتار على قدر شناءته له، فهؤلاء لمّا شنئوه وعادوه جازاهم الله بأن جعل الخير كله معاديًا لهم فبترهم منه، وخصّ نبيّه ﷺ بضدّ ذلك، وهو أنه أعطاه الكوثر، وهو من الخير الكثير الذي آتاه الله في الدنيا والآخرة، فممّا أعطاه في الدنيا الهدى والنصر والتأييد وقرة العين والنفس وشرح الصدر ونعم قلبه بذكره وحبّه بحيث لا يشبه نعيمه نعيمًا في الدنيا ألبتة، وأعطاه في الآخرة الوسيلة والمقام المحمود، وجعله أول مَن يفتح له ولأمّته باب الجنة، وأعطاه في الآخرة لواءَ الحمد والحوض العظيم في موقف القيامة إلى غير ذلك.

وجعل المؤمنين كلّهم أولاده وهو أبٌ لهم، وهذا ضد حال الأبتر الذي يشنؤه ويشنأ ما جاء به.

وقوله: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ﴾، أي: مبغضك، والأبتر: المقطوع النسل الذي لا يولد له خير ولا عمل صالح، فلا يتولد عنه خير ولا عمل صالح.

فالحذر الحذر- أيّها الرجل- مِن أن تكره شيئًا ممّا جاء به الرسول ﷺ، أو تردّه لأجل هواك، أو انتصارًا لمذهبك، أو لشيخك، أو لأجل اشتغالك بالشهوات، أو بالدنيا؛ فإن الله لم يوجب على أحدٍ طاعة أحدٍ إلّا طاعة رسوله، والأخذ بما جاء به، بحيث لو خالف العبد جميع الخلق واتبع الرسول ما سأله الله عن مخالفة أحد، فإن من يطيع أو يطاع إنما يطاع تبعًا للرسول، وإلّا لو أمر بخلاف ما أمر به الرسول ما أطيع.

فاعلم ذلك واسمع وأطعْ واتّبع، ولا تبتدع تكن أبترَ مردودًا عليك عملك، بل لا خير في عمل أبتر من الاتباع، ولا خير في عامله، والله أعلم»[1].

(١) الفتاوى، (١٦/ ٥٢٦-٥٢٩).

وفي موضع آخر يقول شيخُ الإسلام: (فمن شنأ شيئًا ممّا جاء به الرسول- صلى الله عليه وسلم- فله من ذلك نصيب؛ فإنّ ما أكرم الله به نبيّه من سعادة الدنيا والآخرة فللمؤمنين المتابعين نصيبٌ بقدر إيمانهم. فما كان من خصائص النبوة والرسالة فلم يشارك فيه أحدٌ من أمّته وما كان مِن ثواب الإيمان والأعمال الصالحة فلكلّ مؤمن نصيب بقدر ذلك)[1].

سنّةُ الله في متّبع الرسول:

وهكذا نجد سُننّ الله- تعالى- الماضية في شانئ الرسول، وما تمضي سننه في شانئه تبدو سننه في متّبعه في كفاية الله له وحفظه وتنوير قلبه بالبصيره والفراسة الصائبة، يحدثنا عن هذا شيخُ الإسلام عند تفسير قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الأنفال: ٦٤)، فيذكر أن معنى حسبك الله (أي الله كافيك وكافي من اتبعك من المؤمنين، فلو كانت كفايته للمؤمنين المتبعين للرسول سواء اتبعوه أو لم يتّبعوه لم يكن للإيمان واتباع الرسول ثمّ أثر في هذه الكفاية ولا كان لتخصّصهم بذلك معنى، وكان هذا نظير أن يقال هو خالقك وخالق من اتبعك من المؤمنين، ومعلوم أنّ المراد خلاف ذلك، وإذا كان الحسب معنى يختص به بعض الناس علم أن قول المتوكّل حسبي الله، وقوله تعالى ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ [سورة الطلاق ٣] أمرٌ مختصّ لا مشترك، وأنّ التوكل سبب ذلك الاختصاص، والله تعالى إذا وعد على العمل بوعدٍ أو خصّ أهلَه بكرامة؛ فلا بدّ أن يكون بين وجود ذلك العمل وعدمه فرق في حصول تلك الكرامة، وإن كان قد يحصل نظيرها بسبب آخر فقد يكفي الله بعضَ مَن لم يتوكل عليه كالأطفال لكن لا بدّ أن يكون للمتوكل أثرٌ في حصول الكفاية الحاصلة للمتوكلين، فلا يكون ما يحصل من الكفاية بالتوكل حاصلًا مطلقًا وإن عدم التوكل)[2].

وممّا يؤكّد أن الاتّباع ينير بصيرة القلب قوله: (كلّ مَن وافق الرسولﷺ في أمر خالف فيه غيره؛ فهو من الذين اتبعوه في ذلك، وله نصيب من قوله: ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ فإن

(١) مجموع الفتاوى، جـ٢٨ صـ٣٨

(٢) جامع الرسائل لابن تيمية: (١/ ٨٩).

المعية الإلهية المتضمنة للنصر هي لما جاء به إلى يوم القيامة، وهذا قد دلّ عليه القرآن، وقد رأينا من ذلك وجرّبنا ما يطول وصفه)[١].

ويقول أيضًا: (وذكر- سبحانه- آية النور عقيب آيات غضّ البصر، فقال: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وكان شاه بن شجاع الكرماني لا تخطئ له فراسة، وكان يقول: مَن عمر ظاهره باتباع السّنة وباطنه بدوام المراقبة، وغضّ بصره عن المحارم، وكفّ نفسه عن الشهوات، وذكر خصلة خامسة وهي أكلُ الحلال؛ لم تخطئ له فراسة. والله تعالى يجزي العبدَ على عمله بما هو من جنس عمله؛ فغضّ بصره عمّا حرم يعوّضه الله عليه من جنسه بما هو خير منه فيطلق نور بصيرته ويفتح عليه باب العلم والمعرفة والكشوف، ونحو ذلك ممّا ينال ببصيرة القلب)[٢].

***

(١) مجموع الفتاوى، جـ٢٨ صـ٣٧

(٢) مجموع الفتاوى، جـ٢١ صـ٢٥٧\٢٥٨.

المبحثُ السّادس والعشرون

من سُنن الله- تعالى- في المخلوقات أنْ خلقهم أزواجًا وأقرانًا

مِن سنّته- سبحانه- في المخلوقات أنْ خلقهم أزواجًا وأقرانًا، وهذه سنّة ربانية ثابتة ومطردة، لا يتخلّف عنها كائن من الكائنات، يقول الشيخ في ذلك: «إنّ الله عز وجل هو وحده الواحد الأحدُ المختصّ بالوحدانية دون سواه، تنزه عن كلّ ما يكون طبعًا في مخلوقاته ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ١-٤] فنفى عن نفسه الأصول والفروع والنظراء، وهي جماع ما ينسب إليه المخلوق من الآدميّين والبهائم والملائكة والجن، بل والنبات ونحو ذلك؛ فإنّه ما من شيء من المخلوقات إلّا ولا بدّ أن يكون له شيء يناسبه: إمّا أصل وإمّا فرع وإمّا نظير أو اثنان من ذلك أو ثلاثة، وهذا في الآدميّين والجن والبهائم ظاهر، وأمّا الملائكة فإنهم وإنْ لم يتوالدوا بالتناسل فلهم الأمثال والأشباه؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٤٩ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الذاريات: ٤٩-٥٠] قال بعض السّلف: لعلكم تتذكرون فتعلمون أن خالق الأزواج واحد[١].

سنّةُ الله في خلق الناس درجات:

لقد منّ الله على بني آدم أنّه خلقهم ورزقهم وفاضَلَ بينهم في الرزق، ورفع بعضهم فوق بعض درجات، وسخّرهم لبعضهم البعض؛ حتى يعمر الكون، وينتفع الناس بما خلقه الله لهم مِن نعم، فيعبدوه حقّ عبادته.

ومن الأشياء التي يتفاضل بها الناس العلم، يقول شيخ الإسلام: «ذكر الله أنه يرفع درجات من يشاء في قصة مناظرة إبراهيم، وفي قصة احتيال يوسف، ولهذا قال السلف: بالعلم؛ فإن سياق الآيات يدلّ عليه، فقصّة إبراهيم في العلم بالحجة والمناظرة لدفع ضرر الخصم عن

(١) الفتاوى، (٢/ ٤٣٩).

الدين، وقصّة يوسف في العلم بالسياسة والتدبير لتحصل منفعة المطلوب، فالأول علم بما يدفع المضارّ في الدين، والثاني علم بما يجلب المنافع، أو يقال: الأول هو العلم الذي يدفع المضرّة عن الدين ويجلب منفعته، والثاني علمٌ بما يدفع المضرّة عن الدنيا ويجلب منفعتها».

ويواصل شيخُ الإسلام حديثه مبيّنًا أنّ هذين الصّنفين من قصر عن علمهما أصبح مقهورًا لهما، فتارة بالاحتياج إليهم إذا هجم عدوّ يفسد الدين بالجدل، أو الدنيا بالظلم، وتارة بالاحتياج إليهم إذا هجم على أنفسهم مِن أنفسهم ذلك، وتارة بالاحتياج إليهم لتخليص بعضهم مِن شرّ بعض في الدين والدنيا، وتارة يعيشون في ظلهم في مكان ليس فيه مبتدع يستطيل عليهم ولا والٍ يظلمهم وما ذاك إلّا لوجود علماء الحجج الدامغة لأهل البدع والسياسة الدافعة للظلم.

صنفان إذا صلحوا صلحَ الناس: العلماء والأمراء، وكما أنّ المنفعة فيهما فالمضرّة منهما؛ فإنّ البدع والظلم لا تكون إلّا فيهما: أهل الرياسة العلمية، وأهل الرياسة القدرية، ولهذا قال طائفة من السلف كالثوري وابن عيينة وغيرهما ما معناه: إنّ مَن نجا من فتنة البدع وفتنة السلطان؛ فقد نجا مِن الشرّ كله»[١].

***

(١) الفتاوى، (١٤/ ٤٩٤).

المبحثُ السّابع والعشرون

سنّةُ الله في الأنفس

للنّفس البشرية أسرارٌ كثيرة، منها ما اكتشفه العلم، ومنها ما يعرفه الناس بالعُرف والخبرة، ومنها ما أخبرنا عنه القرآن الكريم؛ ولله في هذه الأنفس سنن لا تتبدّل ولا تتحوّل، فطرها الله عليها ولا تصلح إلّا بمراعاتها، وقد عُني شيخ الإسلام عناية خاصة في معظم كتبه بها مبيّنًا أن سعادة الإنسان وصلاحه لا يتمّ إلّا بالاهتمام بهذه السنن وتطبيقها، وأن نحسن التعامل مع النفوس كما أمرنا الله حتى نظفر بسعادة الدنيا والآخرة.

ولقد تعدّدت سننُ الله في الأنفس فهي بمثابة سنّة كليّة تحوي تحتها سننًا جزئية ومنها:

جعل الغيرةَ صفةً لازمة للنفس الإنسانية:

يقول شيخُ الإسلام في ذلك مبينًا أنّ الله قد جعل الغيرة في نفس بني آدم لازمة لهم: «إن الله قد جعل في نفوس بني آدم من الغيرة ما هو معروف؛ فيستعظم الرجل أن يطأ الرجل امرأته أعظم من غيرته على نفسه أن يزني، فإذا لم يكره أن تكون زوجته بغيًّا وهو ديوث كيف يكره أن يكون هو زان، ولهذا لم يوجد من هو ديوث أو قواد يعفّ عن الزنا؛ فإن الزاني له شهوة في نفسه، والديوث ليس له شهوة في زنا غيره، فإذا لم يكن معه إيمان يكره به زنا غيره بزوجته كيف يكون معه إيمان يمنعه من الزنا، فمَن استحلّ أن يترك امرأته تزني استحل أعظم الزنا، ومن أعان على ذلك فهو كالزاني، ومن أقرّ على ذلك مع إمكان تغييره فقد رضيه، ومَن تزوّج غير تائبة فقد رضي أن تزني؛ إذ لا يمكنه منعها من ذلك؛ فإن كيد النساء عظيم»[1].

المودّة والرحمة بين الزوجين:

معنى المودة: الودّ مصدر وددت، وهو يودّ من الأمنية ومن المودّة، يقول ابن سيده: الودّ هو الحبّ يكون في جميع مداخل الخير، والودّ بضم الواو وفتحها وبكسرها هو المودّة، والودود هو المحبّ[2].

---

(١) الفتاوى، (١٥/ ٣٢٠).

(٢) لسان العرب، (١٥/ ١٧٧).

وقد قال الله- تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم: ٢١].

فالمودة والرحمة نعمتان جعلهما الله- تعالى- ملازميْن لكلّ زوجين راغبين في أن تكون لهما أسرة ناجحة مكتوب لها الدوام والاستمرار.

«إنّ المودّة وحدها آصرة عظيمة، وهي آصرة الصداقة والأخوة وتفاريعهما، والرحمة وحدها آصرة منها الأبوة والبنوة، فما ظنّكم بآصرة جمعت الأمرين، وكانت بجعل الله- تعالى، وما هو بجعل الله فهو في أقصى درجات الإتقان»(١).

«والمودّة والرحمة التي يريد الله في سنته لحفظ المجتمع هما مادة لبناء أول مجتمع يقوم عليه صرح المجتمع الشامخ العريض، وهما ثمرة الإخاء الرحمي الذي ربط الله بوشائجه الإنسانية كلها رباطًا أخويًّا لا تنفصم عراه»(٢).

يقول شيخُ الإسلام ابن تيمية: «والله- تعالى- قد جعل بين الزوجين مودّة ورحمة، فأحدهما يحبّ لنفسه ما يحبّ للآخر، فإذا رضيت المرأة أن تنكح زانيًا فقد رضيت عمله، وكذلك إن رضي الرجل أن ينكح زانية فقد رضي عملها، ومن رضي الزنا كان بمنزلة الزاني، فإن أصل الفعل هو الإرادة، ولهذا جاء في الأثر: (من غاب عن معصية فرضيها كان كمَن شهدها أو فعلها)، وفي الحديث: (المرء على دين خليله)(٣)، وأعظم الخلة خلّة الزوجين»(٤).

من سُنن الله في خلق الأنفس محبّةُ العلم دون الجهل:

في النفوس حاجةٌ ضرورية إلى العلم؛ به تقوم، وعليه تبنى، ولا تستقرّ نفس سوية إلّا به، ولا تسعد إلّا في رياضه؛ ولذا كانت أول كلمة من القرآن الكريم نزولًا: ﴿ٱقْرَأْ﴾ داعية إلى

(١) التحرير والتنوير: (١/ ٦٤٤).
(٢) سنن الله في المجتمع من خلال القرآن الكريم للصادق عرجون، ص(٣٠)، ط: الدار السعودية، ط: الثالثة، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٠م.
(٣) مسند إسحاق بن راهويه، (١/ ٣٥٢).
(٤) الفتاوى، (١٥/ ٣١٩).

القراءة، التي هي باب أساس من أبواب العلم، يقول شيخُ الإسلام في ذلك: «ومن المعلوم أنّ الله خلق في النفوس محبّة العلم دون الجهل، ومحبّة الصدق دون الكذب، ومحبّة النافع دون الضّار، وحيث دخل ضدّ ذلك فلمعارض من هوى وكبر وحسد ونحو ذلك.

كما أنّه في صالح الجسد خلق الله فيه محبّة الطعام والشراب الملائم له دون الضّار، فإذا اشتهى ما يضرّه أو كره ما ينفعه فلمرض في الجسد، وكذلك- أيضًا- إذا انْدفع عن النفس المعارض من الهوى والكبر والحسد وغير ذلك أحبّ القلب ما ينفعه من العلم النافع والعمل الصالح.

كما أنّ الجسد إذا اندفع عنه المرض أحبّ ما ينفعه من الطعام والشراب، فكلّ واحد من وجود المقتضي وعدم الدافع سبب للآخر، وذلك سبب لصلاح حال الإنسان، وضدّهما سببٌ لضدّ ذلك؛ فإذا ضعف العلم غلب الهوى الإنسان، وإن وجد العلم والهوى وهما المقتضي والدافع فالحكم للغالب.

وإذا كان كذلك فصلاحُ بني آدم الإيمان والعمل الصالح، ولا يخرجهم عن ذلك إلّا شيئان:

أحدهما: الجهل المضادّ للعلم فيكونون ضلّالًا.

والثاني: اتّباع الهوى والشهوة اللذين في النفس فيكونون غواة مغضوبًا عليهم؛ ولهذا قال: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم: ١، ٢]، وقال: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديّين من بعدي، تمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ»[(١)].

فوصفهم بالرشد الذي هو خلاف الغي، وبالهدى الذي هو خلاف الضلال، وبهما يصلح العلم والعمل جميعًا، ويصير الإنسان عالمًا عادلًا، لا جاهلًا ولا ظالمًا»[(٢)].

سنّةُ الله في أهل الطاعة:

لقد جعل الله تعالى القوة والعزّة لازمةً من لوازم أهل الطاعة؛ فهُم أقوياء بتمسكهم بما أمرهم الله به من الطاعات، ومجاهدتهم لأنفسهم، واعتمادهم الدائم على الله تعالى، وعزّتهم

(١) سنن أبي داود، (٤/ ٢٠١).
(٢) الفتاوى، (١٥/ ٢٤٢).

بالله تعالى؛ لأنه هو الغني، وهو الذي يرزقهم ويدافع عنهم ويحميهم من شر أعدائهم المحدقين بهم، وقد ذكر شيخُ الإسلام هذه السنة موضّحًا ومبيّنًا لها فيقول: «وقد دلّ القرآن على أنّ القوة والعزة لأهل الطاعة التائبين إلى الله في مواضع كثيرة كقوله في سورة هود: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ﴾ [هود: ٥٢]، وقوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]، وإذا كان الذي قد يهجر السيئات يغضّ بصره ويحفظ فرجه وغير ذلك ممّا نهى الله عنه؛ يجعل الله له من النور والعلم والقوة والعزة ومحبة الله ورسوله، فما ظنّك بالذي لم يحُمْ حول السيئات، ولم يعرِها طرفَه قطّ، ولم تحدّثه نفسُه بها، بل هو يجاهد في سبيل الله أهلها ليتركوا السيئات؟ فهل هذا وذاك سواء؛ بل هذا له من النور والإيمان والعزة والقوة والمحبة والسلطان والنجاة في الدنيا والآخرة أضعاف أضعاف ذاك، وحاله أعظم وأعلى، ونورُه أتمّ وأقوى؛ فإن السيئات تهواها النفوس، ويزينها الشيطان، فتجتمع فيها الشبهات والشهوات»(١).

سنّة الله في أهل الجهاد:

إنّ لأهل الجهاد والإيمان منزلة عند الله عز وجا؛ فالجهاد تمام الإيمان وذروة سنامه، لذلك مدحهم الله عز وجل في كتابه العزيز، وأعطاهم من المزايا ما لم يعطِ لغيرهم، يوضح شيخ الإسلام هذه السنة الإلهية فيقول: «إذا كان المؤمن قد حبّب الله إليه الإيمان وزينه في قلبه، وكره إليه الكفر والفسوق والعصيان حتى يعوض عن شهوات الغي بحب الله ورسوله وما يتبع ذلك، وعن الشهوات والشبهات بالنور والهدى، وأعطاه الله من القوة والقدرة ما أيده به حيث دفع بالعلم الجهل، وبإرادة الحسنات إرادة السيئات، وبالقوة على الخير القوة على الشر في نفسه فقط، والمجاهد في سبيل الله يطلب فعل ذلك في نفسه وغيره- أيضًا؛ حتى يدفع جهله بالعلم، وإرادته السيئات بإرادة الحسنات ونحو ذلك، والجهاد تمام الإيمان، وسنام العمل»(٢).

---

(١) الفتاوى، (١٥/ ٤٠٠).
(٢) الفتاوى، (١٥/ ٤٠١).

إنّ سنة الله تعالى في أهل الإيمان والجهاد أن يرفعهم على غيرهم من الناس، وأن يغفر لهم ويدخلهم جنته، ويثبت أقدامهم، وينصرهم على عدوهم إذا هم أخلصوا لله عز وجل، يقول شيخُ الإسلام موضّحًا هذه السنة: «والجهاد تمام الإيمان وسنام العمل كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥]، وقال: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ الآية، وقال: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ﴾ الآية [التوبة: ١٩]، فكذلك يكون هذا الجزاء في حقّ المجاهدين كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، فهذا في العلم والنور.

وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ٦٦-٦٨] فقتل النفوس هو قتل بعضهم بعضًا وهو من الجهاد، والخروج من ديارهم هو الهجرة، ثمّ أخبر أنهم إذا فعلوا ما يوعظون به من الهجرة والجهاد كان خيرًا لهم وأشدّ تثبيتًا؛ ففي الآية أربعة أمور: الخير المطلق، والتثبيت المتضمّن للقوة والمكنة، والأجر العظيم، وهداية الصراط المستقيم.

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]، وقال: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ إلى قوله: ﴿عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠-٤١]، وقال: ﴿يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤]»(١).

سنّةُ الله عز وجل في أهل الفواحش:

للفواحش آثارُها السيئة على الفرد والمجتمع؛ فهي وسيلة من أهمّ وسائل الهدم، وقد عاقب الله عليها بعض الأقوام السابقة كقوم لوط فأهلكهم بإصرارهم على هذا السوء، وهذه سنّته- سبحانه- فمَن يفعل فعلهم يجترئ على الله تعالى بتلك المعاصي التي نهى الله عنها، يقول في ذلك شيخُ الإسلام:

(١) الفتاوى، (١٥/ ٤٠٢).

«وأمّا أهل الفواحش الذين لا يغضّون أبصارهم، ولا يحفظون فروجهم، فقد وصفهم الله بضدّ ذلك من السّكرة والعَمه والجهالة وعدم العقل وعدم الرشد والبغض وطمس الأبصار، هذا مع ما وصفهم به من الخبث والفسوق والعدوان والإسراف والسوء والفحش والفساد والإجرام، فقال عن قوم لوط: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [النمل: ٥٥]، فوصفهم بالجهل وقال: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢]، وقال: ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ [هود: ٧٨]، وقال: ﴿فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾ [القمر: ٣٧]، وقال: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف: ٨١]، وقال: ﴿فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [النمل: ٦٩]، وقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٤]، وقال: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ﴾ إلى قوله: ﴿انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ إلى قوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [العنكبوت: ٢٩-٣٤]، وقوله: ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ [الذاريات: ٣٤]»[١].

مِن السّنن الإلهية أنّ كلّ بني آدم خطّاء، وأنّ الله يغفر الذنوب جميعًا:

لقد خلق الله- تعالى- بني آدم جميعًا لديهم قابلية للخطأ، ولديهم قابلية للتوبة عند المعاصي والرجوع لله تعالى، ومِن حكمته- سبحانه- وسننِه الماضية أنه غفور رحيم، يغفر لكلّ مَن رجع إليه تائبًا نادمًا، ولقد تناول شيخُ الإسلام ابن تيمية هذا المعنى موضّحًا ومبيّنًا: «أنه لا يخلو مؤمن من بعض الذنوب مثل: ترك غض البصر، أو ترك إبداء الزينة، وما يتبع ذلك.

ويؤكد ذلك بحديث: (ما من أحد من بني آدم إلّا أخطأ أو همّ بخطيئة إلّا يحيى بن زكريا)[٢]، وذلك لا يكون إلّا عن نظر، وفي السنن عن النبي ﷺ أنه قال: (كلّ بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون)[٣].

وفي الصحيح عن أبي ذر، عن النبي ﷺ: (يقول الله- تعالى: يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعًا ولا أبالي، فاستغفروني أغفر لكم).

(١) الفتاوى، (١٥/ ٤٠٢).
(٢) مصنف ابن أبي شيبة، (٦/ ٣٤٦).
(٣) سنن الترمذي، ت: شاكر، (٤/ ٦٥٩)، وقال الترمذي: هذا حديث غريب، لا نعرفه إلّا من حديث علي بن مسعدة، عن قتادة.

وفي الصحيحين عن ابن عباس قال: ما رأيت شيئًا أشبه باللّمم ممّا قال أبو هريرة: إنّ النبي ﷺ قال: (إنّ الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة؛ فزنا العينين النظر، وزنا اللسان النطق) الحديث إلى آخره، وفيه: (والنفس تتمنى ذلك وتشتهي، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه) أخرجه البخاري تعليقًا من حديث طاووس، عن أبي هريرة[(١)]».

ويقول- أيضًا: «ومنها أنّ أهل الفواحش الذين لم يغضوا أبصارهم ولم يحفظوا فروجهم مأمورون بالتوبة، وإنّما أمروا بها لتقبل منهم، فالتوبة مقبولة منهم ومن سائر المذنبين، كما قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ [التوبة: ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الشورى: ٢٥]، وسواء كانت الفواحش مغلّظة لشدّتها وكثرتها كـ: إتيان ذوات المحارم وعمل قوم لوط أو غير ذلك، وسواء تاب الفاعل أو المفعول به فمَن تابَ تابَ الله عليه بخلاف ما عليه طائفة من الناس؛ فإنهم إذا رأوا مَن عمل مِن هذه الفواحش شيئًا أيسوه من رحمة الله حتى يقول أحدهم: من عمل من ذلك شيئًا لا يفلح أبدًا ولا يرجون له قبول توبة»[(٢)].

مِن سنّة الله في خلقه أنْ جعل الجزاءَ من جنس العمل:

قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾.

قال ابن القيم: (من هدى في هذه الدار إلى صراط الله المستقيم الذي أرسل به رسله وأنزل به كتبه هدى هناك إلى الصراط المستقيم الموصل إلى جنته ودار ثوابه وعلى قدر ثبوت قدم العبد على هذا الصراط الذي نصبه الله لعباده في هذه الدار؛ يكون ثبوتُ قدمه على الصراط المنصوب على متن جهنم، وعلى قدر سيره على هذه الصراط يكون سيره على ذاك الصراط؛ فمنهم مَن يمرّ كالبرق، ومنهم من يمرّ كالطرف، ومنهم من يمرّ كالريح، ومنهم من يمرّ كشدّ الركاب، ومنهم من يسعى سعيًا، ومنهم من يمشي مشيًا، ومنهم من يحبوا حبوًا، ومنهم المخدوش

(١) والحديث أخرجه مسلم- أيضًا- في صحيحه: (٤/ ٢٠٤٦).
(٢) الفتاوى: (١٥/ ٤٠٣، ٤٠٤).

المسلّم، ومنهم المكدوس في النار؛ فلينظر العبد سيره على ذلك الصراط مِن سيره على هذا حذو القذة بالقذة: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾)[١].

قال ابن تيمية: (ولمّا كان في الصبر من حبس النفس والخشونة التي تلحق الظاهر والباطن من التعب والنصب والحرارة ما فيه كان الجزاء عليه بالجنة التي فيها السعة والحرير الذي فيه اللّين والنعومة والإتكاء الذي يتضمن الراحة والظلال المنافية للحر[٢].

قال ابن تيمية: (فالجزاء من جنس العمل؛ فمَن كان في الدنيا ليس بحي الحياة النافعة التي خلق لأجلها، بل كانت حياته من جنس حياة البهائم، ولم يكن ميتًا عديم الإحساس؛ كان في الآخرة كذلك)[٣].

ولنا في الأمم السابقة عبرةٌ وعظة حيث أهلكهم الله بنفس طريقتهم في الاعتداء والظلم، فمَن أخاف الناس أخافه الله، ولقد عاقب الله المتخلّفين في غزوة تبوك بأنْ حرمهم من الجهاد.

قال شيخ الإسلام: (ومن احتمل الهوان والأذى في طاعة الله على الكرامة والعز في معصية الله كما فعل يوسف- عليه السلام- وغيرُه من الأنبياء والصالحين؛ كانت العاقبة له في الدنيا والآخرة، وكان ما حصل له من الأذى قد انقلب نعيمًا وسرورًا[٤].

من سُنن الله في الأنفس الأمرُ بالمعروف والنهيُّ عن المنكر:

إنّ صلاح المجتمع لا يتمّ إلّا بصلاح الفرد، وإنّ ضرر المجتمع يتمّ- أيضًا- بضرر الفرد؛ لذلك فإنّ سنة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من السنن الاجتماعية التي جعلها الله تعالى لحفظ المجتمع ووقايته من الفساد والخطأ، ولو تذكّرنا حديث النبي ﷺ وتمثيله لذلك بالسفينة التي كان أعلاها قومٌ وأسفلها قومٌ قد قاموا بخرق السفينة، فإذا سكتَ الذين بالأعلى ولم ينهوهم عن فعلهم غرقوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعًا، لذلك اهتمّ ابن

---

(١) مدارج السالكين: جـ١ صـ٣٣

(٢) جامع الرسائل: جـ١ صـ٧٣.

(٣) مجموع الفتاوى: جـ١٤ صـ٢٩٧-٢٩٨

(٤) السابق: جـ١٥ صـ١٣٢

تيمية بهذه السنة قولًا وفعلًا، يقول ابن تيمية: «وبنو آدم لا يعيشون إلّا باجتماع بعضهم مع بعض، وإذا اجتمع اثنان فصاعدًا فلا بدّ أن يكون بينهما ائتمار بأمر وتناهٍ عن أمر، وإذا كان الأمر والنهي من لوازم وجود بني آدم، فمن لم يأمر بالمعروف الذي أمر الله به ورسوله، ويَنْهَ عن المنكر الذي نهى الله عنه ورسوله، ويؤمَر بالمعروف الذي أمر الله به ورسوله، ويُنْه عن المنكر الذي نهى الله عنه ورسوله؛ وإلّا فلا بدّ أن يأمر وينهى، ويؤمر وينهى، إمّا بما يضاد ذلك، وإمّا بما يشترك فيه الحقّ الذي أنزله الله بالباطل الذي لم ينزله الله»(١).

في سياق هذه السنّة الإلهية الاجتماعية الجماعية نجد الجزاء في الآخرة يأخذ طابعًا جماعيًّا تبعًا للجزاء الدنيوي، ففي الآخرة كذلك سنن جزائية فردية وجماعية، كما يوجد كتاب فردي يوجد كتاب للمجتمع بناءً على سنن الاجتماع البشري.

قال تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٨، ٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤] فهما كتابان: كتاب فردي وكتاب جماعي، «ولا يوجد فقط كتاب للفرد وكتاب للأمّة، وإنما يوجد- أيضًا- إحضار للفرد وإحضار للأمّة؛ حيث إن هناك إحضارًا بين يدي الله – عز وجل –، فالإحضار الفردي يأتي فيه كلّ إنسان فردًا فردًا، وهناك إحضار للفرد وسط جماعة، وإحضار للأمّة بين يدي الله تعالى»(٢).

وسنرى كيف تحدّث ابن تيمية عن هلاك الأمم، وعَدّ من أسباب الهلاك إغفال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

اختلافُ الناس في امتثالهم لسنّة الله في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

أمرَ الله- تعالى- عبادَه بمباشرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأنّه صمام أمان البشرية وضمان بقائها، ولأنّه ليس بالأمر السهل؛ مدحه الله- تعالى- وجعله من خصائص الخيريّة

(١) الاستقامة: (٢/ ٢٩٢، ٢٩٤).
(٢) فقه السنن الإلهية: ص(٢١٥، ٢١٦).

للأمّة المسلمة، يقول شيخ الإسلام: «فإنّه كثيرًا ما يجتمع في كثير من الناس بغضُ الكفر وأهله وبغضُ الفجور وأهله وبغضُ نهيهم وجهادهم، كما يحبّ المعروف وأهله، ولا يحبّ أن يأمر به ولا يجاهد عليه بالنفس والمال؛ وقد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤]، وقوله: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ الآية [المجادلة: ٢٢].

وكثيرٌ من الناس بل أكثرهم كراهتهم للجهاد على المنكرات أعظم من كراهتهم للمنكرات، لا سيّما إذا كثرت المنكرات وقويت فيها الشبهات والشهوات، فربّما مالوا إليها تارة وعنها أخرى، فتكون نفس أحدهم لوّامة بعد أن كانت أمارة، ثمّ إذا ارتقى إلى الحال الأعلى في هجر السيئات وصارت نفسه مطمئنة تاركةً للمنكرات والمكروهات لا تحبّ الجهاد ومصابرة العدو على ذلك، واحتمال ما يؤذيه من الأقوال والأفعال، فإنّ هذا شيء آخر داخل في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ الآيات إلى قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا﴾ [النساء: ٧٧-٨٥]»[(١)].

أهمّية سنّة الله في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

خلق الله- تعالى- البشر وجعلَ في نفوسهم ضعفًا لوجود الشهوات والأهواء، وقد تنزعهم تلك المواطن الضعيفة في نفوسهم إلى البعد عن الحقّ، والركون إلى الدنيا وأهلها، أو التراخي عن السعي إلى الجنة ونعيمها، لذلك جعل الله الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وسيلة لردّ

(١) الفتاوى: (١٥/ ٣٤١).

الناس إلى رشدهم وتنبيههم إلى مواطن الخير والسبق، وهذه رحمة الله بعباده وتكريمه لهم، يقول شيخُ الإسلام في هذه السنة مبينًا قدرها: «وكلّ بشر على وجه الأرض فلا بدّ له من أمر ونهي، ولا بدّ أن يأمر وينهى حتى لو أنّه وحده لكان يأمر نفسه وينهاها؛ إمّا بمعروف وإمّا بمنكر؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: ٥٣]، فإن الأمر هو طلب الفعل وإرادته؛ والنهي طلب الترك وإرادته، ولا بدّ لكلّ حي من إرادة وطلب في نفسه يقتضي بهما فعل نفسه، ويقتضي بهما فعل غيره إذا أمكن ذلك؛ فإن الإنسان حي يتحرك بإرادته، وبنو آدم لا يعيشون إلّا باجتماع بعضهم مع بعض، وإذا اجتمع اثنان فصاعدًا فلا بدّ أن يكون بينهما ائتمار بأمر وتناهٍ عن أمر؛ ولهذا كان أقلّ الجماعة في الصلاة اثنين؛ كما قيل: الاثنان فما فوقهما جماعة؛ لكن لما كان ذلك اشتراكًا في مجرد الصلاة حصل باثنين أحدهما إمام والآخر مأموم، كما قال النبي ﷺ لمالك بن الحويرث وصاحبه: (إذا حضرت الصلاة فأذّنا وأقيما؛ وليؤمّكما أكبركما)[(١)]، وكانا متقاربين في القراءة، وأمّا الأمور العادية ففي السنن أنه ﷺ قال: **(لا يحلّ لثلاثة يكونون في سفر إلّا أمروا عليهم أحدهم)**[(٢)]».

وهذا كما أن كلّ بشر فإنه حي متحرك بإرادته همام حارث فمن لم تكن نيته صالحة وعمله عملًا صالحًا لوجه الله، وإلّا كان عملًا فاسدًا أو لغير وجه الله وهو الباطل، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾ [الليل: ٤]، وهذه الأعمال كلها باطلة من جنس أعمال الكفار ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ [محمد:١]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩]، وقال: ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

وقد أمر الله في كتابه بطاعته وطاعة رسوله وطاعة أولي الأمر من المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]».

---

(١) صحيح البخاري، (١/ ١٣٢).
(٢) مسند أحمد، (١١/ ٢٢٧).

ووضّح معنى أولي الأمر فقال: «وأولو الأمر أصحاب الأمر وذووه؛ وهم الذين يأمرون الناس؛ وذلك يشترك فيه أهل اليد والقدرة وأهل العلم والكلام؛ فلهذا كان أولو الأمر صنفين: العلماء، والأمراء. فإذا صلحوا صلحَ الناس وإذا فسدوا فسد الناس؛ كما قال أبو بكر الصديق – رضي الله عنه – للأحمسية لمّا سألته: ما بقاؤنا على هذا الأمر؟ قال: ما استقامت لكم أئمتكم، ويدخل فيهم الملوك والمشايخ وأهل الديوان؛ وكلّ مَن كان متبوعًا فإنّه من أولي الأمر، وعلى كلّ واحدٍ من هؤلاء أنْ يأمر بما أمر الله به، وينهى عمّا نهى عنه، وعلى كلّ واحدٍ ممّن عليه طاعته أنْ يطيعه في طاعة الله، ولا يطيعه في معصية الله، كما قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه حين تولّى أمر المسلمين وخطبهم؛ فقال في خطبته: أيّها الناس، القوي فيكم الضعيف عندي حتى آخذَ منه الحقّ، والضعيف فيكم القوي عندي حتى آخذ له الحقّ، أطيعوني ما أطعت الله فإذا عصيت الله فلا طاعة لي عليكم»[(١)].

أحوالُ الناس في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

يتنوّع الناس في قيامهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فنجد أنّ الناس (ثلاثة أقسام: قوم لا يقومون إلّا في أهواء نفوسهم؛ فلا يرضون إلّا بما يعطونه، ولا يغضبون إلّا لما يحرمونه؛ فإذا أعطي أحدهم ما يشتهيه من الشهوات الحلال والحرام زال غضبه، وحصل رضاه، وصار الأمر الذي كان عنده منكرًا- ينهى عنه ويعاقب عليه، ويذمّ صاحبه ويغضب عليه- مرضيًّا عنده، وصار فاعلًا له وشريكًا فيه، ومعاونًا عليه، ومعاديًا لِمَن نهى عنه وينكر عليه.

وهذا غالبٌ في بني آدم يرى الإنسان ويسمع من ذلك ما لا يحصيه، وسببه: أنّ الإنسان ظلوم جهول؛ فلذلك لا يعدل، بل ربّما كان ظالمًا في الحالين يرى قومًا ينكرون على المتولّي ظلمه لرعيته واعتداءه عليهم، فيرضى أولئك المنكرون ببعض الشيء فينقلبون أعوانًا له، وأحسن أحوالهم أن يسكتوا عن الإنكار عليه، وكذلك تراهم ينكرون على مَن يشرب الخمر ويزني ويسمع الملاهي حتى يدخلوا أحدهم معهم في ذلك، أو يرضوه ببعض ذلك، فتراه قد صار عونًا لهم.

(١) الفتاوى، (٢٨/ ١٧٠، ١٧١).

وهؤلاء قد يعودون بإنكارهم إلى أقبح من الحال التي كانوا عليها، وقد يعودون إلى ما هو دون ذلك أو نظيره.

وقوم يقومون ديانة صحيحة يكونون في ذلك مخلصين لله، مصلحين فيما عملوه، ويستقيم لهم ذلك حتى يصبروا على ما أوذوا.

وهؤلاء هُم الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وهُم من خير أمّة أخرجت للناس: يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله.

وقوم يجتمع فيهم هذا وهذا، وهُم غالب المؤمنين، فمَن فيه دين وله شهوة تجتمع في قلوبهم إرادة الطاعة وإرادة المعصية، وربما غلب هذا تارة وهذا تارة.

وهذه القسمة الثلاثية كما قيل: الأنفس ثلاث: أمّارة، ومطمئنة، ولوّامة.

فالأوّلون هُم أهل الأنفس الأمّارة التي تأمره بالسوء، والأوسطون هُم أهل النفوس المطمئنة التي قيل فيها: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ [الفجر: ٢٧-٣٠]، والآخرون هم أهل النفوس اللوّامة التي تفعل الذنب ثمّ تلوم عليه، وتتلون تارة كذا، وتارة كذا، وتخلط عملًا صالحًا وآخر سيئًا»[1].

سنّةُ الله في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أنّها مصحوبةٌ بالابتلاء:

إنّ الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر لا بدّ له من الابتلاء والمِحن ممّا يجعل المرء يتعرّض للفتنة، لذلك كان لا بدّ له من أخلاقيّات يلتزم بها حتى يستطيع أن يحمي نفسه من هذه الفتن، يقول شيخُ الإسلام مبيّنًا ذلك: «فهذه الأخلاق والأفعال يحتاج إليها المؤمن عمومًا وخصوصًا في أوقات المِحن والفتن الشديدة؛ فإنهم يحتاجون إلى صلاح نفوسهم، ودفع الذنوب عن نفوسهم عند المقتضي للفتنة عندهم، ويحتاجون- أيضًا- إلى أمْر غيرهم ونهيه بحسب قدرتهم، وكلّ مِن هذين الأمرين فيه من الصعوبة ما فيه، وإن كان يسيرًا على مَن يسّره الله عليه.

(١) الفتاوى، (٢٨/ ١٤٧، ١٤٨).

وهذا لأنّ الله أمر المؤمنين بالإيمان والعمل الصالح، وأمرهم بدعوة الناس وجهادهم على الإيمان والعمل الصالح، كما قال الله- تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠-٤١]، وكما قال: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١]، وكما قال: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾ [المجادلة: ٢١]، وكما قال: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧٣]»[(١)].

أحوالُ الناس في التّعامل مع الفتن التي تلقاهم حالَ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

تختلف أحوالُ الناس في تحمّل ما يصيبهم من البلاء حالَ الأمر والنهي، يوضّح الشيخ هذا التباين فيرى أنّ «الناس هنا ثلاثة أقسام: قسم يأمرون وينهون ويقاتلون طلبًا لإزالة الفتنة التي زعموا، ويكون فعلُهم ذلك أعظم فتنة؛ كالمقتتلين في الفتنة الواقعة بين الأمّة.

وأقوام ينكلون عن الأمر والنهي والقتال الذي يكون به الدين كله لله، وتكون كلمة الله هي العليا لئلّا يفتنوا، وهُم قد سقطوا في الفتنة، وهذه الفتنة المذكورة في سورة براءة دخل فيها الافتتان بالصور الجميلة؛ فإنها سبب نزول الآية، وهذه حال كثير من المتدينين يتركون ما يجب عليهم من أمر ونهي وجهاد يكون به الدين كله لله وتكون كلمة الله هي العليا؛ لئلّا يفتنوا بجنس الشهوات؛ وهُم قد وقعوا في الفتنة التي هي أعظم ممّا زعموا أنهم فرّوا منه، وإنما الواجب عليهم القيام بالواجب وترك المحظور، وهما متلازمان؛ وإنما تركوا ذلك لكوْن نفوسهم لا تطاوعهم إلّا على فعلهما جميعًا أو تركهما جميعًا، مثل كثيرٍ ممّن يحبّ الرئاسة أو المال وشهوات الغي؛ فإنه إذا فعل ما وجب عليه من أمر ونهي وجهادٍ وإمارة ونحو ذلك فلا بدّ أن يفعل شيئًا من المحظورات، فالواجب عليه أن ينظر أغلب الأمرين، فإن كان المأمور أعظم أجرًا من ترك ذلك المحظور لم يترك ذلك لما يخاف أن يقترن به ما هو دونه في المفسدة، وإن كان ترك المحظور أعظم أجرًا لم يفوّت ذلك برجاء ثواب بفعل واجب يكون دون ذلك»[(٢)].

---

(١) الفتاوى، (٢٨/ ١٦٥).

(٢) الفتاوى، (٢٨/ ١٦٦، ١٦٧).

المبحثُ الثّامن والعشرون

سنّةُ الله عز وجل في المحبّة والكراهية

ومِن طبيعة النّفس الحبّ والكره، ولكن الإسلام يعرّف النفس أي شيء تحبّ، وأي شيء تكره، فيوقع في النفس حبّ الذات، ولكن بقدر محدود لا يطغى بحيث يصير عبدًا لشهواته وللذاته وللدنيا، ويوقع عليه الحبّ لله؛ لأنه الودود الرحيم المنعم.

ويجعل النفس تحبّ الكون بما يوقع عليها مِن أنّ هذا الكون مخلوق لله، وأنهما عبدان لله، وأن هذا الكون مسخَّر لخدمة الإنسان.

ثمّ يجعل الحبّ للمؤمنين فيدفعه إلى السعي على مصالحهم ومنافعهم.

ثمّ يوقع على وتر حبّ جنس الإنسان؛ لأنه من مخلوقات الله، والآيات والأحاديث التي جاءت تبيّن هذه المعاني كثيرة نورد بعضها: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١]، ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا﴾ [البقرة: ١٦٥].

ومن الأحاديث كقوله: «من أحبّ لقاء الله أحبّ الله لقاءه، ومَن كره لقاء الله كره الله لقاءه»[١].

وأمّا الكره فهو لكلّ ما ورد خارج طاعة الله سواء كان شيطانًا جنيًّا أو إنسيًّا، ويوجه الإسلام طاقة الكره الفكرية إلى كره الظلم بجميع أنواعه «يا عبادي، إنّي حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا»[٢].

والعدوان شرّ ينبغي أن يكره ويقاوم ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ﴾ [البقرة: ١٩٤].

---

(١) مسند أحمد، ت: شاكر (٨/ ٢٠١).

(٢) صحيح مسلم، (٤/ ١٩٩٤).

والاعتداء على الضعفاء في الجماعة ينبغي أن يكره ويقاوم ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾ [النساء: ٧٥].

وفتنة الناس عن دينهم شرّ ينبغي أن يكره ويقاوم ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٩١]، ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٣].

والإفساد في الأرض ومحاربة الله ورسوله، والصدّ عن سبيله شرّ ينبغي أن يكره وأن يقاوم.

والفواحش ما ظهرَ منها وما بطن شرّ ينبغي أن يقاوم، وكلّ انحراف عن سبيل الله شرّ ينبغي أن يقاوم ويكره، وجماع الشرّ كلّه الشيطان، وهو الذي يتمثّل فيه الشرّ كله، وهو الذي يدعو إلى كلّ شرّ، ومن ثمّ ينبغي أن توجّه له طاقة الكره كاملة، وتُعلَن عليه حربٌ لا هوادة فيها ولا تسليم!

والمؤمن بكلّ طاقاته مجنّد حياته كلها لدفع الشرّ، ومحاولة التغلب عليه، وبذلك يتوازن الحبّ والكره، ويصدر عن كلّ وتر منهما نغمة الصحيح.

والإسلام يوافق الفطرة في هذا فيعترف بالدّوافع: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ [آل عمران: ١٤] يعترف بدافع حبّ الحياة وما يتفرع عنه من دافع حفظ الذات وحفظ النوع، ودافع القتال عن الذات، أو القتال عن الغير، ودافع الملك، ودافع التميز والبروز.

ولكن لا يترك لهذه الدوافع العنان، بل يضبطها بضوابط لتستقيم الحياة، وإلّا لساقت هذه الدوافع الإنسان إلى الدمار والهلاك، فمهمّة العقيدة والقيم الإسلامية هي ضبط هذه الدوافع حتى لا تصل إلى حدّ التهور والدمار(١).

---

(١) السنن الإلهية في الحياة الإنسانية، د/ شريف الشيخ صالح أحمد الخطيب، (٢/ ٨٦-٩٠).

لو نظرنا إلى جميع الأفعال الموجودة في هذا الكون ستجد وراءها إمّا بغضًا لهذا الفعل، أو محبّة له، وما كان من خلاف ذلك كان من لوازم أفعال أخرى، يقول شيخُ الإسلام موضّحًا هذا المعنى: «فأمّا وجود الفعل فلا يكون إلّا عن محبّة وإرادة، حتى دفعه للأمور التي يكرهها ويبغضها هو لما في ذلك من المحبوب أو اللذة يجدها بالدّفع، فيقال: شفى صدره وقلبه، والشفاء والعافية بمحبوب.

والمحبة والإرادة تكون إمّا بواسطة، وإمّا بغير واسطة مثل فعله للأشياء التي يكرهها كشرب الدواء والمكروه، وفعل الأشياء المخالفة لهواه وصبره ونحو ذلك.

فإنّ هذه الأمور وإنْ كانت مكروهة من بعض الوجوه فإنما يفعل- أيضًا- لمحبّة وإرادة، وإن لم تكن المحبّة لنفسها بل المحبّة لملازمها، فإنه يحبّ العافية والصحة المستلزمة لإرادة شرب الدواء، ويحبّ رحمة الله ونجاته من عذابه المستلزم لإرادة ترك ما يهواه، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠]، فلا يترك الحي ما يحبّه ويهواه إلّا لما يحبّه ويهواه، لكن يترك أضعفهما محبّة لأقواهما محبّة كما يفعل ما يكرهه لما محبّته أقوى من كراهة ذلك، وكما يترك ما يحبّه لما كراهته أقوى من محبة ذلك»[١].

المحبّةُ والإرادة أصلان للبغض والكراهية:

«ولهذا كانت المحبّة والإرادة أصلًا للبغض والكراهة، وعلّة لها، ولازمًا مستلزمًا لها من غير علة»[٢].

أسبابُ البغض:

«وفعل البغض في العالم إنّما هو لمنافاة المحبوب، ولولا وجود المحبوب لم يكن البغض بخلاف الحبّ للشيء، فإنه قد يكون لنفسه لا لأجل منافاته للبغض، وبغض الإنسان وغضبه ممّا يضادّ وجود محبوبه ومانع ومستلزم لا يكره عليه، ونجد قوة البغض للنافي أشدّ وأحْوط»[٣].

(١) قاعدة في المحبة، ص(٨).
(٢) قاعدة في المحبة، ص(٨).
(٣) قاعدة في المحبة، ص(٨).

الحبّ في الله والبغضُ في الله رأسُ الإيمان:

يقول شيخُ الإسلام- رحمه الله: «ولهذا كان رأسُ الإيمان الحبَّ في الله والبغضَ في الله، وكان من أحبَّ لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله؛ فقد استكمل الإيمان»[(١)].

المحبّة المحمودة والمحبّة المذمومة:

المحبّة المحمودة: التي أمر الله بها وخلق خلقه لأجلها هي ما في عبادته وحده لا شريك له؛ إذ العبادة متضمّنة لغاية الحبّ بغاية الذّل، والمحبّة التي تليق به- سبحانه- هي العبادة والإنابة ونحوهما[(٢)].

المحبّة المذمومة: هي المحبّة التي دخل فيها الشرك، كما قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا ﴾.

ولهذا كان هذا الحبّ أعظم الأقسام المذمومة في المحبّة، كما أن حبّ الله أعظم الأنواع المحمودة[(٣)].

السعادةُ والنعيم لأصحاب المحبّة المحمودة، والشقاءُ لأصحاب المحبّة المذمومة:

إنّ الشرك بالله هو أعظمُ أقسام الحبّ المذمومة؛ فهو أصل الشقاء ورأسه الذي لا يبقي في العذاب إلّا أهله.

أمّا أصحاب المحبّة المحمودة من أهل التوحيد الذين أحبّوا الله وعبدوه وحده لا شريك له فلا يبقى منهم في العذاب أحد، والذين اتّخذوا من دونه أندادًا يحبّونهم كحبّه وعبدوا غيره هُم أهل الشرك الذين قال الله- تعالى- فيهم: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ ﴾ [النساء: ٤٨].

وجماعُ القرآن هو الأمر بتلك المحبّة ولوازمها، والنهي عن هذه المحبّات ولوازمها، وضرب الأمثال والمقاييس للنوعين، وذكر قصص أهل النوعين.

---

(١) قاعدة في المحبة، ص(٩).
(٢) قاعدة في المحبة، ص(١٠).
(٣) قاعدة في المحبة، ص(١١).

وأصل دعوة جميع المرسلين قولهم: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩]، وعلى ذلك قاتلَ مَن قاتل منهم المشركين، كما قال خاتم الرسل: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلّا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلّا بحقّها وحسابهم على الله»(١).

قال الله- تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِ﴾ [الشورى: ١٣].

ولهذا قال في الحديث المتّفق عليه في الصحيحين، عن أنس بن مالك -رضي الله عنه- قال: «ثلاث مَن كنّ فيه وجد حلاوة الإيمان»(٢)، وفي رواية في الصحيح: «لا يجد طعم الإيمان إلّا مَن كان فيه ثلاث: أن يكون الله ورسوله أحبّ إليه ممّا سواهما، وأن يحبّ المرء لا يحبّه إلّا لله، وأن يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله كما يكره أن يلقى في النار».

وفي الصحيح عن أنس- أيضًا، عن النبي قال: «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبّ إليه من ولده ووالده والناس أجمعين»(٣).

وفي صحيح البخاري أنّ عمر قال: يا رسولَ الله، والله لأنت أحبّ إليّ من كلّ شيء إلّا من نفسي. فقال: «لا يا عمر، حتى أكون أحبّ إليك من نفسك». قال: فو الذي بعثك بالحقّ لأنت أحبّ إلي من نفسي. قال: «الآن يا عمر»(٤).

آثارُ وتوابع المحبّة:

يقول شيخُ الإسلام- رحمه الله: «كما بيّنّا أنّ المحبّة والإرادة أصل كلّ عمل في العالم؛ فعن إرادة ومحبّة صدر، ولهذا كانت المحبّة والإرادة مُنقسمة إلى: محبوب لله وغير محبوب، كما أنّ العمل والحركة منقسم كذلك.

(١) صحيح البخاري، (١/ ١٤).
(٢) صحيح البخاري، (١/ ١٢).
(٣) صحيح مسلم، (١/ ٦٧).
(٤) قاعدة في المحبة، ص(١١، ١٢، ١٣)، وانظر الحديث في الجامع الصحيح للسنن والمسانيد، (٤/ ٤٣).

وإذا كان كذلك فالمحبّة لها آثار وتوابع سواء كانت صالحة محمودة نافعة، أو كانت غير ذلك، لها وجْدٌ وحلاوة وذوق ووصال وصدود، ولها سرور وحزن وبكاء.

والمحبّة المحمودة هي المحبّة النافعة، وهي التي تجلب لصاحبها ما ينفعه وهو السعادة، والضارة هي التي تجلب لصاحبها ما يضرّه وهو الشقاء، ومعلوم أنّ الحي العالم لا يختار أن يحبّ ما يضرّه، لكن يكون ذلك عن جهل وظلم؛ فإنّ النفس قد تهوى ما يضرّها ولا ينفعها، وذلك ظلم منها لها، وقد تكون جاهلة بحالها به بأنْ تهوى الشيء وتحبّه بلا علم منها بما في محبّته من المنفعة والمضرّة وتتبع هواها، وهذا حال مَن اتّبع هواه بغير علم.

وقد يكون عن اعتقادٍ فاسد، وهو حال مَن اتّبع الظنّ وما تهوى نفسه، وكلّ ذلك من أمور الجاهلية، وإن كان كلّ من جهلها وظلمها لا يكاد يخلو عن شبهة يشتبه بها الحقّ، وشهوة هي في الأصل محمودة إذا وضعت في محلّها كحال الذي يحبّ لقاء قريبِه؛ فإن هذا محمود، وهو أصل صلة الرحم التي هي شجنة من الرحمن.

لكن إذا اتّبع هواه حتى خرج عن العدل بين ذوي القربى وغيرهم كان هذا ظلمًا، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ [الأنعام: ١٥٢]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥].

وكذلك الذي يحبّ الطعام والشراب والنساء فإن هذا محمود، وبه يصلح حال بني آدم، ولولا ذلك لما استقامت نفس الأنساب، ولا وجدت الذرية، ولكن يجب العدل والقصد في ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١]، وكذلك: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ [المؤمنون: ٦، ٧]، فإذا تجاوز حدّ العدل، وهو المشروع؛ صار ظالمًا عاديًا بحسب ظلمه وعدوانه[١].

(١) قاعدة في المحبة، ص(١٦، ١٧).

الأهواءُ المذمومة:

عدّد شيخُ الإسلام صورًا من الأهواء المذمومة، منها:

١- الآراءُ المخالفة للسنّة والشريعة في مسائل الاعتقاد الخبرية ومسائل الأحكام العملية، وسمّى أهلها: أهل الأهواء؛ لأنّ الرأي المخالف للسنة جهلٌ لا علم، ويؤكّد على ذلك بدليلٍ من القرآن حيث يذكر الله في القرآن مَن يتّبع هواه بغير علم، ويذمّ من يتبع هواه بغير هدي من الله، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١١٩].

وكلّ مَن اتبع هواه اتبعه بغير علم؛ إذ لا علم بذلك إلّا بهدى الله الذي بعث به رسله، كما قال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾، ولهذا ذمّ الله الهوى في مواضع من كتابه[(١)].

٢- واتباع الهوى يكون في الحبّ والبغض، كقوله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦]، فهنا يكون اتباع الهوى هو ما يخالف الحقّ في الحكم، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥][(٢)].

نهى النبيُّ عن اتّباع أهواء الخلق:

قال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠]، نهى عن اتباع أهواء الذين أوتوا الكتاب بعد ما جاءهم من العلم.

---

(١) قاعدة في المحبة، ص(١٩).

(٢) قاعدة في المحبة، ص(١٩، ٢٠).

وكذلك قال- تعالى- في آية أخرى: ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡ﴾ [المائدة: ٤٩].

وقال تعالى: ﴿قُلۡ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشۡهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَاۖ فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشۡهَدۡ مَعَهُمۡۚ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٠].

فقد نهاه عن اتّباع أهواء المشركين، واتباع أهواء أهل الكتاب، وحذره أن يفتنوه عما أنزل الله إليه من الحقّ، وذلك يتضمّن النهي عن اتباع أهواء أحد في خلاف شريعته وسنته، وكذا أهل الأهواء من هذه الأمّة.

وقد بيّن ذلك في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ١٨ إِنَّهُمۡ لَن يُغۡنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۖ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: ١٨، ١٩].

فقد أمره في هذه الآية باتّباع الشريعة التي جعله عليها، ونهاه عن اتباع ما يخالفها، وهي أهواء الذين لا يعلمون.

ولهذا كان كلّ مَن خرج عن الشريعة والسنة مِن أهل الأهواء كما سماهم السلف(١).

وأخيرًا يقول شيخُ الإسلام ملخّصًا ما في هذه السنة بكلام رائع: «ولمّا كانت كلّ حركة وعمل في العالم فأصلها المحبّة والإرادة، وكلّ محبّة وإرادة لا يكون أصلها محبّة الله وإرادةَ وجهه فهي باطلةٌ فاسدة؛ كان كلّ عمل لا يُراد به وجهه باطلًا، فأعمال الثقلين الجنّ والإنس منقسمة؛ منهم مَن يعبد الله ومنهم مَن لا يعبده، بل قد يجعل معه إلهًا آخر، وأمّا الملائكة فهم عابدون لله.

وجميعُ الحركات الخارجة عن مقدور بني آدم والجن والبهائم فهي من عمل الملائكة وتحريكها لما في السماء والأرض وما بينهما، فجميع تلك الحركات والأعمال عبادات لله مُتضمنة

---

(١) انظر: قاعدة في المحبة، ص(٢٠، ٢١، ٢٢) بتصرف.

لمحبّته وإرادته وقصده، وجميع المخلوقات عابدة لخالقها، إلّا ما كان من مردَة الثقلين، وليست عبادتها إيّاه قبولها لتدبيره وتصريفه وخلقه، فإنّ هذا عام لجميع المخلوقات حتى كفار بني آدم، فلا يخرج أحدٌ عن مشيئته وتدبيره، وذلك بكلمات الله التي كان النبي يستعيذ بها فيقول: (أعوذ بكلمات الله التامّات التي لا يجاوزهن برّ ولا فاجر)، وهذا من عموم ربوبيّته وملكه.

وهذا الوجه هو الذي أدركه كثيرٌ من أهل النظر والكلام حتى فسّروا ما في القرآن والحديث من عبادة الأشياء وسجودها وتسبيحها بذلك، وهُم غالطون في هذا التّخصيص شرعًا وعقلًا- أيضًا؛ فإنّ المعقول الذي لهم يعرفهم أنّ كلّ شيء وكلّ مُتحرك وإنْ كان له مبدأ فلا بدّ له من غاية ومنتهى، كما يقولون: لها علّتان، فاعلية وغائية، والذي ذكروه إنّما هو من جهة العلة الفاعلية، وبعض المخلوقين كذلك يجعلونه من جهة العلة الغائية، وهذا غلط»[١].

ذكر الشيخ- رحمه الله- آراءَ الفلاسفة وردّ عليها، ثمّ ذكر بعد ذلك استنتاجًا وهو «أنّه إذا كانت المحبّة والإرادة أصل كلّ عمل وحركة، وأعظمها في الحقّ محبّة الله وإرادته بعبادته وحده لا شريك له، وأعظمها في الباطل أن يتّخذ الناس من دون الله أندادًا يحبونهم كحب الله، ويجعلون له عدلًا وشريكًا؛ علم أنّ المحبة والإرادة أصل كلّ دين، سواء كان دينًا صالحًا أو دينًا فاسدًا؛ فإنّ الدين هو من الأعمال الباطنة والظاهرة، والمحبّة والإرادة أصل ذلك كلّه، والدين هو الطاعة والعبادة والخلق، فهو الطّاعة الدائمة اللازمة التي قد صارت عادة وخلقًا بخلاف الطاعة مرّة واحدة، ولهذا فسّر الدين بالعادة والخلق، ويفسر الخلق بالدين- أيضًا- كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، قال ابن عباس: على دين عظيم، وذكره عنه سفيان بن عيينة، وأخذه الإمام أحمد عن سفيان بن عيينة وبذلك فسراه، وكذلك يفسر بالعادة..»[٢].

ويقول- أيضًا: «وإذا كان كلّ عمل عن محبّة وإرادة، والترك يكون عن بغض وكراهة، وكلّ أحد همام حارث له حبّ وبغض لا يخلو الحي عنهما، وعمله يتبع حبّه وبغضه، ثمّ قد

(١) قاعدة في المحبة، ص(٢٢-٢٣).
(٢) انظر: قاعدة في المحبة، ص(٣١-٣٢).

يكون ذلك في أمور هي له عادة وخلق، وقد يكون في أمور عارضة لازمة؛ علم أنّ كلّ طائفة من بني آدم لا بدّ لهم من دين يجمعهم؛ إذْ لا غني لبعضهم عن بعض، وأحدهم لا يستقل بجلب منفعته ودفع مضرته، فلا بدّ من اجتماعهم، وإذا اجتمعوا فلا بدّ أن يشتركوا في اجتلاب ما ينفعهم كلهم مثل: طلب نزول المطر، وذلك محبتهم له، وفي دفع ما يضرهم مثل عدوهم، وذلك بغضهم له، فصار ولا بدّ أن يشتركوا في محبة شيء عام وبغض شيء عام، وهذا هو دينهم المشترك العام.

وأمّا اختصاص كلّ منهم بمحبة ما يأكله ويشربه وينكحه وطلب ما يستره باللباس فهذا يشتركون في نوعه لا في شخصه، بل كلّ منهم يحب نظير ما يحبه الآخر لا عينه، بل كلّ منهم لا ينتفع في أكله وشربه ونكاحه ولباسه بعين ما ينتفع به الآخر، بل بنظيره.

وهكذا هي الأمور السماوية في الحقيقة، فإنّ عين المطر الذي ينزل في أرض هذا ليس هو عينَ الذي ينزل في أرض هذا، ولكن نظيره ولا عين الهواء البارد الذي يصيب جسد أحدهم قد لا يكون نفس عين الهواء البارد الذي يصيب جسد الآخر، بل نظيره»[(١)].

لكنّ الأمور السماوية تقع مشتركة عامّة، ولهذا تعلّق حبّهم وبغضهم بها عامّة مشتركة بخلاف الأمور التي تتعلّق بأفعالهم كالطعام واللباس، فقد تقع مختصة، وقد تقع مشتركة.

وإذا كان كذلك فالأمور التي يحتاجون إليها يحتاجون أن يوجبوها على أنفسهم، والأمور التي تضرّهم يحتاجون أن يحرموها على نفوسهم وذلك دينهم، وذلك لا يكون إلّا باتفاقهم على ذلك وهو التعاهد والتعاقد؛ ولهذا جاء في الحديث «لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمَن لا عهد له»[(٢)]، فهذا هو من الدين المشترك بين جميع بني آدم من التزام واجبات ومحرمات، وهو الوفاء والعهد، وهذا قد يكون باطلًا فاسدًا إذا كان فيه مضرّة لهم راجحة على منفعته، وقد يكون دينًا حقًّا إذا كانت منفعة خاصة أو راجحة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ

(١) قاعدة في المحبة، ص(٣٥).
(٢) السنن الكبرى للبيهقي، (٦/ ٤٧١).

مَا تَعۡبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ﴾ [سورة الكافرون](1).

«وإذا كان لا بدّ لكل آدمي من اجتماع، ولا بدّ في كلّ اجتماع من طاعة ودين، وكل دين وطاعة لا يكون لله فهو باطل، فكل دين سوى الإسلام فهو باطل، وأيضًا- فلا بدّ لكل حي من محبوب هو منتهى محبته وإرادته، وإليه تكون حركة باطنه وظاهره، وذلك هو إلهه، ولا يصلح ذلك إلّا لله وحده لا شريك له، فكلّ ما سوى الإسلام فهو باطل.

والمتفرّقون- أيضًا- فيه الذين أخذ كلّ منهم ببعضه وترك بعضه، وافترقت أهواؤهم قد برئ الله ورسوله منهم، ولا بدّ في كلّ دين وطاعة ومحبّة مِن شيئين: أحدهما: الدين المحبوب المطاع، وهو المقصود المراد. والثاني: نفس صورة العمل التي تطاع ويعبد بها، وهو السبيل والطريق والشريعة والمنهاج والوسيلة.

كما قال الفضيل بن عياض في قوله تعالى: ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا﴾ قال: أخلصه وأصوبه. قالوا: يا أبا علي، ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إنّ العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل، حتى يكون خالصًا صوابًا، والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة.

فهكذا كان الدين يجمع هذين الأمرين المعبود والعبادة، والمعبود إله واحد، والعبادة طاعته وطاعة رسوله، فهذا هو دين الله الذي ارتضاه، كما قال تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة: ٣]، وهو دين المؤمنين من الأولين والآخرين، وهو الدين الذي لا يقبل الله من أحد غيره؛ لأنه دين فاسد باطل كمن عبد مَن لا تصلح عبادته، أو عبد بما لا يصلح أن يعبد به»(2).

وموضوع الحبّ والكراهية يحوي تحتَه كثيرًا من العناوين التي لا يمكن استقصاؤها في هذه الرسالة، ومن هذه العناوين: تفاوت الناس في الحبّ والكراهية، وكيف يتبدّل الحبّ بالكراهية

---

(١) قاعدة في المحبة، ص(٣٦).
(٢) قاعدة في المحبة، ص(٣٩، ٤٠).

والعكس[١].

أيضًا- إن كلّ محبة وكراهية لا بدّ أن يتبعها لذّة وألم؛ ففي نيل المحبوب لذّة، وفراقه يكون فيه ألم، وفي نيل المكروه ألم، وفي العافية فيه تكون لذّة، فاللذة تكون بعد إدراك المشتهى، والمحبّة تدعو إلى إدراكه[٢].

أصل الإيمان العملي هو حبّ الله- تعالى- ورسوله، وحبّ الله أصل التوحيد العملي[٣].

أصلُ الإشراك العملي بالله الإشراك في المحبّة، قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾[٤].

إنّ الحبّ يوجب المجاهدة ومحبة الجهاد؛ لأنه من أحبّ الله وأحبّه الله أحبّ ما يحبّه الله، وأبغض ما يبغضه الله، ووالى مَن يواليه الله، وعادى مَن يعاديه الله، لا تكون محبّة قط إلّا وفيها ذلك بحسب قوّتها وضعفها؛ فإنّ المحبّة توجب الدّنو من المحبوب، والبعد عن مكروهاته، ومتى كان مع المحبّة نبذ ما يبغضه المحبوب؛ فإنها تكون تامّة[٥].

***

(١) انظر: السابق، ص(٥٠) وما بعدها.
(٢) قاعدة في المحبة، ص(٦٠) وما بعدها.
(٣) السابق: ص(٦٨).
(٤) السابق: ص(٦٩، ٧٠).
(٥) السابق: ص(٨٩) وما بعدها.

المبحثُ التّاسع والعشرون

سنّةُ الله في إهلاك الأمم

إنّ لله – عز وجل – في الأمم والجماعات سننًا جارية لا تتخلّف ولا تتبدّل، ومن هذه السنن سنّته في الإهلاك، والمرادُ بالإهلاك هنا: التساقط والنّفاد والدمار، يقول شيخُ الإسلام موضّحًا هذه السنّة: «ومن المعلوم بما أرانا الله من آياته في الآفاق وفي أنفسنا وبما شهد به في كتابه: أنّ المعاصي سببُ المصائب؛ فسيئات المصائب والجزاء من سيئات الأعمال. وأنّ الطاعة سببُ النعمة فإحسان العمل سبب لإحسان الله، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾، وقال تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ﴾ [آل عمران: ١٥٥]، وقال: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡ﴾ [آل عمران: ١٦٥]، وقال: ﴿أَوۡ يُوبِقۡهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ وَيَعۡفُ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشورى: ٣٤]، وقال: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ كَفُورٞ﴾ [الشورى: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣].

وقد أخبر- سبحانه- بما عاقب به أهلَ السيئات من الأمم، كـ: قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وأصحاب مدين وقوم فرعون في الدنيا، وأخبر بما يعاقبهم به في الآخرة، ولهذا قال مؤمن آل فرعون: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ٣٠ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ٣١ وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ٣٢ يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾ [غافر: ٣٠-٣٣]، وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلۡعَذَابُۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُ﴾ [القلم: ٣٣]، وقال: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيۡنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٖ﴾ [التوبة: ١٠١]، وقال: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ دُونَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ

لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [السجدة: ٢١]، وقال: ﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾ إلى قوله: ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾ [الدخان: ١٠-١٦]»(١).

ومِن هنا يتّضح لنا أنّ سنّة الله- تعالى- في إهلاك الأمم ماضية لكلّ مَن وقع في أسباب الهلاك.

منهجُ القرآن الكريم في تناوله لإهلاك الأمم:

ولقد وضّح شيخُ الإسلام هذه السنّة، ثمّ عرض منهج القرآن في تناوله لهلاك الأمم؛ فذكر أنّ القرآن عدّد صور ذكر هذه السنّة، فمرّة ذكر العقاب الدنيوي فقط، ومرّة ذكر العقاب الأخروي فقط، ومرّة ذكر العقاب الدنيوي مقرونًا بالآخروي، وقد يأتي العذاب الأخروي مقرونًا ببيان ثواب الأمم الطائعة لله - عز وجل -.

يقول الشيخ- رحمه الله: «لهذا يذكر الله في عامّة سور الإنذار ما عاقب به أهل السيئات في الدنيا، وما أعدّه لهم في الآخرة، وقد يذكر في السورة وعد الآخرة فقط؛ إذ عذاب الآخرة أعظم؛ وثوابها أعظم؛ وهي دار القرار، وإنما يذكر ما يذكره من الثواب والعذاب في الدنيا تبعًا»(٢).

ثمّ عدّد شيخُ الإسلام الأمثلة التي توضّح هذا الكلام، أمّا ذكره للأمم التي تثاب أو التي لها من الثواب والأجر فمثل قصة يوسف: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يوسف: ٥٦-٥٧]، وقال عن إبراهيم- عليه الصلاة والسلام: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٧].

وأمّا ذكره لعقوبة الدنيا والآخرة ففي سورة: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا﴾ ثم قال: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾ فذكر القيامة مطلقًا، ثمّ قال: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ

(١) الفتاوى، (٢٨/ ١٣٨).
(٢) مجموع الفتاوى، (٢٨/ ١٣٩).

مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذۡ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةً لِّمَن يَخۡشَىٰٓ﴾، ثمّ ذكر المبدأ والمعاد مفصلًا فقال: ﴿ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلۡكُبۡرَىٰ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلۡجَحِيمَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾ إلى آخر السورة.

وكذلك في «المزمل» ذكر قوله: ﴿وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيۡنَآ أَنكَالٗا وَجَحِيمٗا ﴿١٢﴾ وَطَعَامٗا ذَا غُصَّةٖ وَعَذَابًا أَلِيمٗا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا﴾.

كذلك في «سورة الحاقة» ذكر قصص الأمم؛ كـ: ثمود وعاد وفرعون، ثمّ قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ إلى تمام ما ذكره من أمر الجنة والنار.

وكذلك في سورة القلم؛ ذكر قصة أهل البستان الذين منعوا حقّ أموالهم، وما عاقبهم به، ثمّ قال: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلۡعَذَابُۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾.

كذلك في «سورة التغابن» قال: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُ فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْۚ وَّٱسۡتَغۡنَى ٱللَّهُۚ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٞ﴾، ثمّ قال: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ﴾.

وكذلك في سورة «ق» ذكر حال المخالفين للرسل، وذكر الوعد والوعيد في الآخرة.

وكذلك في «سورة القمر» ذكر هذا وهذا.

كذلك في «آل حم» مثل حم غافر؛ والسجدة، والزخرف، والدخان وغير ذلك. إلى غير ذلك ممّا لا يحصى[1].

---

(١) الفتاوى، (٢٨/ ١٣٩) وما بعدها بتصرف يسير.

صورُ هلاكِ الأمم في القرآن الكريم:

تنوّعت صور الهلاك للأمم في كتاب الله – عز وجل –، وذكر الله تفصيلًا لهذا الهلاك حتى تكون أحوالهم عبرة لمن يأتي بعدهم، فلا يصدر منهم ما يكون سببًا لهلاكهم، كما كانت الأمم البائدة، ومن هذه الأمم: ثمود حيث أهلكهم الله بالصيحة، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الروم: ٩]، يقول شيخُ الإسلام: «وهذا كثير في الكتاب العزيز، يخبر الله– سبحانه– عن إهلاك المخالفين للرسل ونجاة أتباع المرسلين؛ ولهذا يذكر– سبحانه– في سورة الشعراء قصّة موسى وإبراهيم ونوح وعاد وثمود ولوط وشعيب، ويذكر لكلّ نبي إهلاكه لمكذبيهم، والنجاة لهم ولأتباعهم، ثمّ يختم القصة بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾، فختم القصة باسمين من أسمائه تقتضيها تلك الصفة ﴿وهو العزيز الرحيم﴾ فانتقم من أعدائه بعزّته وأنجى رسله وأتباعهم برحمته»[(١)].

ويقول شيخُ الإسلام– رحمه الله– موضّحًا هذا التنوع: «وكان عذاب كلّ أمّة بحسب ذنوبهم وجرائمهم، فعذّب قوم عاد بالريح الشديدة العاتية التي لا يقوم لها شيء، وعذّب قوم لوط بأنواع من العذاب لم يعذب بها أمّة غيرهم، فجمع لهم بين الهلاك والرّجم بالحجارة من السماء وطمس الأبصار وقلب ديارهم عليهم؛ بأن جعل عاليها سافلها والخسف بهم إلى أسفل سافلين، وعذّب قوم شعيب بالنار التي أحرقتهم وأحرقت تلك الأموال التي اكتسبوها بالظلم والعدوان، وأمّا ثمود فأهلكهم بالصيحة فماتوا في الحال.

فإذا كان هذا عذابه لهؤلاء وذنبهم مع الشرك عقر الناقة التي جعلها الله آية لهم، فمَن انتهك محارم الله واستخفّ بأوامره ونواهيه وعقر عباده وسفك دماءهم كان أشدّ عذابًا.

ومَن اعتبر أحوال العالم قديمًا وحديثًا، وما يعاقب به مَن يسعى في الأرض بالفساد وسفك الدماء بغير حقّ وأقام الفتن واستهان بحرمات الله علم أنّ النجاة في الدنيا والآخرة للذين آمنوا وكانوا يتقون»[(٢)].

---

(١) الفتاوى، (١٩/ ٩٨).

(٢) الفتاوى، (١٦/ ٢٥٠)

مِن أسباب هلاك الأمم:

تنوّعت أسبابُ هلاك الأمم في القرآن الكريم، ومنها:

١- الشرك والذنوب.

٢- مخالفة الرسل وتكذيبهم.

٣- الظلم بشتى صوره وأنواعه.

٤- الفساد بألوانه المتعدّدة.

٥- الانحراف عن منهج الله.

لقد ارتبطت كلّ أمّة من الأمم التي أهلكها الله بذنبٍ لم يسبق أحد إليه غيرها، وجمعوا مع ذلك الشرك، «فمثلًا قوم لوط كان مع الشرك إتيان الفواحش، وفي عاد مع الشرك التجبر والتكبر والتوسع في الدنيا وشدة البطش، وقولهم: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]، وفي أصحاب مدين مع الشرك الظلم في الأموال، وفي قوم فرعون الفساد في الأرض والعلو؛ لذلك كان عذابهم على ذنوبهم من جنس أعمالهم.

ويذكر شيخُ الإسلام أسباب الهلاك بصورة أكثر تفصيلًا في موضع آخر فيقول: «قصّ الله علينا أخبار الأمم المكذّبة للرسل، وما صارت إليه عاقبتهم، وأبقى آثارهم وديارهم عبرةً لَمن بعدهم وموعظة، وكذلك مسخ من مسخ قردة وخنازير لمخالفتهم لأنبيائهم، وكذلك من خسف به، وأرسل عليه الحجارة من السماء وأغرقه في اليم، وأرسل عليه الصيحة، وأخذه بأنواع العقوبات، وإنما ذلك بسبب مخالفتهم للرسل وإعراضهم عمّا جاءوا به، واتخاذهم أولياء من دونه.

وهذه سنتُه- سبحانه- فيمَن خالف رسله وأعرض عمّا جاءوا به واتبع غير سبيلهم؛ ولهذا أبقى الله- سبحانه- آثار المكذبين لنعتبر بها ونتّعظ؛ لئلّا نفعل كما فعلوا فيصيبنا ما أصابهم.

كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ رِجۡزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكۡنَا مِنۡهَآ ءَايَةَۢ بَيِّنَةً لِّقَوۡمٍ يَعۡقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٤، ٣٥]، وقال تعالى:

﴿ ثُمَّ دَمَّرۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمۡ لَتَمُرُّونَ عَلَيۡهِم مُّصۡبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيۡلِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ [الصافات: ١٣٦-١٣٨]، أي: تمرّون عليهم نهارًا بالصباح وبالليل، ثمّ قال: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾، وقال- تعالى- في مدائن قوم لوط: ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٖ مُّقِيمٍ﴾ [الحجر: ٧٤-٧٦]، يعني: مدائنهم بطريق مقيم يراها المارّ بها، وقال تعالى: ﴿ أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾. الروم: ٩.

وهذا كثيرٌ في الكتاب العزيز يخبر الله- سبحانه- عن إهلاك المخالفين للرسل، ونجاة أتباع المرسلين؛ ولهذا يذكر- سبحانه- في سورة الشعراء قصة موسى وإبراهيم ونوح وعاد وثمود ولوط وشعيب، ويذكر لكلّ نبي إهلاكه لمكذبيهم، والنجاة لهم ولأتباعهم، ثمّ يختم القصة بقوله: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾، فختم القصة باسمين من أسمائه تقتضيها تلك الصفة وهو ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ فانتقم من أعدائه بعزته، وأنجى رسله وأتباعهم برحمته»[(١)].

ومن سنّته- تعالى- أنه لا يعذّبُ إلّا بذنب:

يرى الشيخ أنّ هذا مِن سنن الله- تعالى- في إهلاك الأمم فيقول: «والقرآن يبيّن في غير موضعٍ أنّ الله لم يهلك أحدًا ولم يعذّبه إلّا بذنب، فقال هنا: ﴿ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَ﴾ [النساء: ٧٩]، وقال لهم في شأن أحد: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡ ﴾ [آل عمران: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾، وقال- تعالى- في سورة الشورى- أيضًا: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ كَفُورٞ﴾ [الشورى: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوۡ نَهَارٗا مَّاذَا يَسۡتَعۡجِلُ مِنۡهُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴾ [يونس: ٥٠]»[(٢)].

***

(١) الفتاوى، (١٩/ ٩٨).
(٢) الفتاوى، (١٤/ ٤٢٤).

المبحثُ الثّلاثون

سنّةُ الله في بقاء الأمم

المقصود ببقاء الأمم هو التّمكين لها في الأرض ونجاتها ممّا حلّ بالأمم الماضية من العذاب، وتحوي في طيّاتها البركة والنماء والاستمرار، كما يعني الاستخلاف في الأرض، قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

وإذا تتبّعنا الآيات القرآنية الكريمة وجدنا بوضوح أنّها تدلّ على أن الله- تعالى- له في بقاء الأمم وفنائها سننٌ ثابتة لا تتغيّر ولا تتبدّل، وتتبّع شيخ الإسلام هذه الآيات الكريمة وغيرها، وتناول السّننية فيها فيما نعرضه في الصفحات الآتية:

أسبابُ بقاء الأمم:

عرض شيخُ الإسلام سنةَ الله في بقاء الأمم مبينًا ذلك بمقابلتها بأسباب الهلاك، فذكرَ مثالين للأمم التي أراد لها البقاء والخير مثل: قوم يوسف – عليه السلام –، وقوم إبراهيم، وذكر الآيات؛ ففي قصة يوسف – عليه السلام – ذكر قوله تعالى: «﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يوسف: ٥٦-٥٧]، وقال: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [آل عمران: ١٤٨]، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٤١، ٤٢]، وقال عن إبراهيم- عليه الصلاة والسلام: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾»[1].

(١) الفتاوى، (٢٨/ ١٤٠).

ونلمح ممّا سبق أهم الصفات التي ساعدت تلك الأمم على البقاء من: التقوى والعمل الصالح والصبر على الابتلاء، وحسن توكلهم على الله تعالى.

ولقد ذكر شيخُ الإسلام أسبابَ هلاك الأمم بعد استعراضه لفضيلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأسبابها وشروطها وفضلها، وبيّن أنها وسيلة للقضاء على الذنوب التي هي السبب الأساس لهلاك الأمم، ممّا يفهم ضمنًا أنّ من أسباب بقاء الأمم التي وضّح الشيخ الأخذ بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهو سببٌ من أسباب خيرية هذه الأمّة المحمدية؛ لقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ.. ﴾؛ لذلك يستبين لنا أنّ من أسباب بقاء الأمم الأعمال الصالحة والإيمان بالله - عز وجل -.

وكما جاء سابقًا العدل وترك الظلم؛ حيث ذكر شيخُ الإسلام أن الله يبقى مع الأمّة العادلة ولو كانت كافرة، ويهلك الأمم الظالمة ولو كانت مؤمنة، من خلال الآيات التي ذكرها في قصة يوسف وقصة إبراهيم- عليهما السلام- نجد أنّ من أسباب بقاء الأمم تتمثل: في الأخذ بالصبر وحسن التوكل على الله - عز وجل -، وصفة الإحسان التي وصفت بها هذه الأمم.

كما كان من صفات الأمم الهالكة عدم الإيمان بالله، واقتراف المعاصي والسيئات، والشح والطغيان والظلم، وممّا ذكر شيخ الإسلام في هلاك الأمم في موضع آخر الشح حيث ذكر حديث النبي ﷺ كما في الصحيح: «إيّاكم والشح؛ فإنه أهلك من كان قبلكم، أمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالظلم فظلموا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا»[1].

ومن أسباب البقاء- أيضًا: التقوى يقول شيخ الإسلام: «وأمّا غير المتقين فلهم عاجلة لا عاقبة، والعاقبة وإن كانت في الآخرة فتكون في الدنيا- أيضًا؛ كما قال- تعالى- لمّا ذكر قصة نوح ونجاته بالسفينة: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ إلى قوله: ﴿فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٨، ٤٩]»[2].

***

(١) الفتاوى، (٢٨/ ١٤٤).

(٢) الفتاوى، (٢٨/ ١٦٣).

المبحثُ الحادي والثلاثون

سنّةُ الله في التغيير

معنى التغيير:

غيّر بمعنى: بدّل، وتغيّر الشيء عن حاله: تحوّل، وغيره: حوّله وبدله، كأنه جعله غير ما كان، وفي التنزيل العزيز: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٥٣]، قال تعلب: معناه: حتى يبدلوا ما أمرهم الله، والغير: الاسم من التغيير، وغير الدهر أحواله المتغيرة، وورد في حديث الاستسقاء: «تغيّر الحال من حال إلى حال، وانتقالها من الصلاح إلى الفساد»(١).

واستعمل القرآن كلمةَ التغيير بمعنى الدلالة على الانتقال من المعنى الإيجابي إلى المعنى السلبي، ومن النعمة إلى النقمة، ومن الأمن إلى إنزال العقوبة، وذلك في الآيات المتحدّثة عن عالم الشهادة الذي هو موطن التكليف والعمل، ومنه قوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [البقرة: ٥٩]، وقوله تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٥٢، ٥٣].

إنّ تغيّر المجتمعات والأمم من حالٍ إلى حال ظاهرة مشاهدة يشهد لها التاريخ، ويؤكّدها الواقع الذي نعيشه؛ فالمجتمعات لا تبقى على حال واحدة، بل دائمة التغير من حالٍ إلى حال.

وتأتي للدّلالة على الانتقال من المعنى السلبي إلى المعنى الإيجابي، ومن دفع النّقمة إلى جلب النعمة، ومن إنزال العقوبة إلى طلب الأمن، وذلك في الآيات المتحدّثة عن عالم الغيب، الذي

(١) لسان العرب لابن منظور، (١١/ ١٠٧).

هو موطن الحساب والجزاء، مثل قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٣].

وخلاصة مفهوم التغيير في القرآن يدلّ على الانتقال الكلي من المحمود إلى المذموم، ومن الأمن إلى العقوبة، وهذا التغيير هو التغيير الجذري الذي هو من باب العقوبة، أمّا التغيير النسبي (الإصلاح) فجاء في قوله تعالى: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]، وهو ما بيّنه النبي ﷺ في قوله: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»، فالمقصود الإصلاح والتتميم، لا الإلغاء والإقصاء[1].

وإذا كان هذا التغير ظاهرة اجتماعية ملموسة، فإن هذا التغيير لا بدّ له من قانون يضبطه، وسنة يسير عليها، فلا يمضي جزافًا، ويخبط خبط عشواء! فهذا الكون له سنن تضبطه، وله قوانين تحكمه، فلا يتغير من حال إلى حال إلّا وفق سنة من سنن الله؛ فالله تعالى جعل لكل شيء قدرًا، وكل شيء عنده بمقدار، كما قال- عزّ مِن قائل: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، فأبانَ- سبحانه- في هذه الآية سنتَه العامّة الشاملة لكلّ ما خلق، فنظام تحديد مقادير العناصر والصفات نظام مطرد في كلّ ما خلق الله، وهو نظام لا استثناء فيه.

قال سبحانه: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]، فأكّد- سبحانه- بيان سنّته العامّة في الخلق التي سبق أن أعلنها في سورة القمر، وأضاف هنا الإشارة إلى الإحكام والدّقة التّامة والتقدير إذ قال هنا: ﴿فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾، وأضاف أنّ عمليات الخلق متلاحقة بإحكام التقدير كما هي مبدوءة بإحكام التقدير، كما في سورة القمر ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾، وإذا كان كلّ شيء عند الله بمقدار، وقد جعل لكلّ شيء قدرًا، وخلق كلّ شيء فقدره تقديرًا، فأي تغيير في مقادير الأجزاء والعناصر والشروط لشيء ما، عمّا هي عليه عند الله وفي سنته التي أبانها

---

(١) التغيير وبناء الأمّة الوسط، د/ المثنى عبد الفتاح، ص(٤٠-٤٢) بتصرف، والحديث في السنن الكبرى للبيهقي، (١٠/ ٣٢٣).

لنا، أو ما خلق الله أو جعله؛ ينتج تغييرًا في صفات ذلك الشيء وآثاره، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ١١]، ويقول تعالى: ﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيّٞ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝٥٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ [الأنفال: ٥٢-٥٣]، في هاتين الآيتين يقرّر- سبحانه- سنّة من سننه، وهي أنه يغيّر ما بالقوم نتيجةَ تغييرهم لما في نفوسهم، وقد وضع ذلك في صيغة قانون ثابت لا يتخلف ولا يحابي ولا يظلم، «فقد مضت سنّته أن تترتّب مشيئة الله بالبشر على تصرف هؤلاء البشر، وأن تنفذ فيهم سنته بناءً على تعرضهم لهذه السنة بسلوكهم»(١).

ولقد اهتمّ شيخُ الإسلام- رحمه الله- بالتغير الذي يصيب الناس سواء كان حسنًا أو سيئًا، ويبيّن الطرق والمناهج التي يجب على الناس سلوكها لحدوث التغيير الحسن الذي يجعلهم في رضى الله - عز وجل -، فيمنحهم السعادة والهناء في الدنيا، ثمّ النجاة والجنة في الآخرة.

ووضّح في كثيرٍ مِن كتبه أحوال النفس وكيفية التعامل معها، وكان ذلك واضحًا في سننِ الله في الأنفس عند شيخ الإسلام ابن تيمية؛ حيث التغيير لا يكون تغييرًا إلّا إذا عالج خلجاتِ النفس ودقائقها، ووضح وسائل التغيير، وأهميته في حياة الناس، وسنوضّح ذلك:

١- تعريف التغيير:

«إنّ لفظ (التغيّر) لفظ مُجمل؛ فالتغير في اللغة المعروفة لا يُراد به مجرد كون المحلّ قامت به الحوادث؛ فإن الناس لا يقولون للشمس والقمر والكواكب إذا تحركت: إنّها قد تغيّرت، ولا يقولون للإنسان إذا تكلم ومشى: إنه تغير، ولا يقولون إذا طاف وصلى وأمر ونهى وركب: إنه تغير، إذا كان ذلك عادته، بل إنها يقولون: تغير لِمَن استحال مِن صفة إلى صفة؛ كالشمس إذا زال نورها ظاهرًا لا يقال: إنها تغيرت، فإذا اصفرت قيل: تغيرت.

(١) السنن الإلهية في الحياة الإنسانية، (٢/ ٥-٨).

وكذلك الإنسان إذا مرض أو تغيّر جسمه بجوع أو تعب قيل: قد تغير، وكذلك إذا تغيّر خلقه ودينه مثل أن يكون فاجرًا فينقلب ويصير بارًّا، أو يكون بارًّا فينقلب فاجرًا فإنه يقال: قد تغيّر.

وفي الحديث: رأيت وجهَ رسول الله ﷺ متغيرًا لمّا رأى منه أثر الجوع، ولم يزل يراه يركع ويسجد.

فلم يسمّ حركته تغيرًا، وكذلك يقال: فلان قد تغير على فلان إذا صار يبغضه بعد المحبّة، فإذا كان ثابتًا على مودّته لم يسمّ هشته إليه وخطابه له تغيرًا، وإذا جرى على عادته في أقواله وأفعاله فلا يقال: إنه قد تغير، قال الله- تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾، ومعلوم أنهم إذا كانوا على عادتهم الموجودة يقولون ويفعلون ما هو خير لم يكونوا قد غيروا ما بأنفسهم، فإذا انتقلوا عن ذلك فاستبدلوا بقصد الخير قصد الشر، وباعتقاد الحقّ اعتقاد الباطل قيل: قد غيروا ما بأنفسهم، مثل مَن كان يحبّ الله ورسوله والدار الآخرة فتغيّر قلبُه وصار لا يحبّ الله ورسوله والدار الآخرة، فهذا قد غيّر ما في نفسه»[(١)].

٢- أنواع التغيير:

إنّ التغيير الذي يحدثه اللهُ بالأمم على ضَربيْن: تغيير من نعمة إلى النقمة، كما دلّت عليه آيتا الأنفال والرعد؛ حيث وردتا في سياق تغيير النعمة إلى نقمة، وزادت على ذلك آية سورة الأنفال بما فيه من التصريح بهذا المعنى؛ حيث قال الله- تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾.

وتغييرٌ من النقمة إلى النعمة، ويدل عليه آية سورة الرعد: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾؛ حيث وردت في التغيير بصورة عامة، أي: من كلا الجانبين إلى الآخر، فكلمة ﴿مَا﴾ الواردة في هذه الآية تفيد العموم.

ويشهد لذلك واقع الأمم؛ فكم من أمّة كانت في نقمة فغير الله ما بها من نقمة إلى نعمة حين غيّروا ما بأنفسهم، فالعرب قبل الإسلام كانوا أمّة ذليلة لا أحد يحفل بهم فأعزّهم الله

(١) الفتاوى، (٦/ ٢٤٩-٢٥٠).

بالإسلام، كما قال عمر: «نحن قوم أعزّنا الله بالإسلام ومهما ابتغينا العزة بغير الإسلام أذلّنا الله».

وعن علي - رضي الله عنه -، أنّ الرسول ﷺ حدّثه عن ربّه فقال: «قال الرب - عز وجل -: وعزتي وجلالي وارتفاعي فوق عرشي، ما من أهل قرية، ولا من أهل بيت، ولا رجل باد كانوا على ما كرهت من معصيتي، ثمّ تحولوا عنها إلى ما أحببت من طاعتي إلّا تحوّلت لهم عمّا يكرهون من عذابي إلى ما يحبّون من رحمتي».

وتغيير الله ما بالقوم من نقمةٍ إلى نعمة ومن شرّ إلى خير قد يكون إذا غيروا جميعًا ما بأنفسهم، وقد يكون هذا التغيير مرهونًا بفئةٍ منهم تصلح ما بأنفسها وتستجيب لهدي ربّها، فيكون صلاح هذه الفئة طريقًا لصلاح المجتمع كله حيث يمكنهم من هذا الإصلاح، ويهيئ نفوس الناس إلى قبول ما يدعون إليه من خير وصلاح.

والنّصّ يفيد أن بإمكان قوم أن يبقوا في عزٍّ ونعمة من الله، ويقول في ذلك الشيخ المراغي: «وفي الآية إيماءٌ إلى أنّ نعم الله على الأمّة منوطة ابتداء ودوامًا بأخلاق وصفات وأعمال تقتضيها، فما دامت هذه الشئون ثابتة لهم متمكنة فيهم كانت تلك النعم ثابتة لهم، والله لا ينتزعها بغير ظلم ولا جرم..». وهكذا فإن «في ذلك تنبيهًا على لزوم الطاعة وتحذيرًا بوبال المعصية»[1].

يقول شيخُ الإسلام: التغيير نوعان: «أحدهما: أن يبدو ذلك فيبقى قولًا وعملًا يترتب عليه الذمّ والعقاب.

والثاني: أن يغيّروا الإيمان الذي في قلوبهم بضدّه من الريب والشك والبغض، ويعزموا على ترك فعل ما أمر الله به ورسوله، فيستحقون العذاب هنا على ترك المأمور، وهناك على فعل المحظور.

وكذلك ما في النفس ممّا يناقض محبة الله والتوكل عليه والإخلاص له والشكر له يعاقب عليه؛ لأنّ هذه الأمور كلها واجبة، فإذا خلي القلب عنها واتصف بأضدادها؛ استحقّ العذاب على ترك هذه الواجبات»[2].

(١) السنن الإلهية في الحياة الإنسانية، (٢/ ١٤).
(٢) الفتاوى، (١٤/ ١٠٩).

منهجُ شيخِ الإسلام ابن تيمية في التغيير:

لعلّ أهمّ ملامح المنهج التغييري والإصلاحي لدى شيخ الإسلام يتلخّص في النقاط الآتية:

١- إصلاح النفس، يقول الله- تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾، لذلك اهتمّ الشيخ بمعرفة النفس الإنسانية وخصائصها وأمراضها، وبيّن ذلك ووضّحه في كثير من كتاباته؛ لأنّ بها مناط التغيير، ولا يكون إلّا عن طريقها كما وضّحت الآية؛ فوضح أنواعها وصفاتها(١).

٢- الاستعانة بالله – عز وجل –:

يقول شيخُ الإسلام- رحمه الله: «يجب على المؤمن أن يستعين بالله، ويتوكّل عليه في أن يقيم قلبه ولا يزيغه، ويثبته على الهدى والتقوى، ولا يتبع الهوى، كما قال تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ [الشورى: ١٥]».

٣- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

يرى شيخُ الإسلام أنّ القيام بهذا الحقّ هو أهم وسائل التغيير؛ فإن النفس مجبولةٌ على أنها لو رأت غيرها يهتمّ بالخير وكان في نفسها ذلك الخير ضعيفًا؛ قويت لما رأت مَن يقوم بنفس فعلها، ويثبتها عليه، وقد سبق الحديث عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عند الشيخ.

٤- الإصلاح عن طريق دعوة الناس إلى الخير:

وضع شيخُ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- منهاجًا لدعوة الناس إلى الخير ليظهر فيه فهمَه لنفوس الناس، وطرق إصلاحها، ويظهر ذلك جليًّا في إظهاره كيفية التعامل مع الناس عندما ندعوهم إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، فذكر شيخ الإسلام- رحمه الله- أنّ التعامل مع

(١) انظر: (مصنفات النفس) الفتاوى، (٢٨/ ٢١، ١٤٧-١٤٨).

الناس لا بدّ أن يكون طبقًا لطبيعتهم ونفوسهم، معلّلًا ذلك بأنّ مِن الناس مَن إذا نصحته يترك ما لديه من الفضل إلى ما هو أفضل منه، لا يستطيع أن يفعل الأفضل ولا ما هو أفضل منه.

ويرى- أيضًا- أنّ مِن الناس مَن يضرّ إذا سلك طريقًا من سبل السلام الإسلامية أن يرى غيره أفضل منها؛ لأنه يتشوّف إلى الأفضل، فلا يقدر عليه، والمفضول يعرض عنه.

لذلك فإنّه ليس من مصلحته أن يعرف أفضل من طريقته، إذا كان يترك طريقته ولا يسلك تلك، فليس- أيضًا- مِن الحقّ أنْ يعتقد أنّ طريقته أفضل من غيرها، بل مصلحته أنْ يسلك تلك الطريقة المفضية إلى رحمة الله- تعالى.

ويبيّن في ذلك أنّ النصيحة أو هذا العمل الدعوي مبني على أربعة أصول في معالجة النفس:

الأول: معرفة مراتب الحقّ والباطل والحسنات والسيئات والخير والشر؛ ليعرف خير الخيرين وشرّ الشرّين.

والثاني: معرفة ما يجب من ذلك وما لا يجب، وما يستحبّ من ذلك وما لا يستحب.

الثالث: معرفة شروط الوجوب والاستحباب من الإمكان والعجز، وأن الوجوب والاستحباب قد يكون مشروطًا بإمكان العلم والقدرة.

والرابع: معرفة أصناف المخاطبين وأعيانهم؛ ليؤمر كلّ شخص بما يصلحه، أو بما هو أصلح له من طاعة الله ورسوله ﷺ، وينهى بما ينفع نهيه عنه، ولا يؤمر بخير يوقعه فيما هو شرّ من المنهي عنه مع الاستغناء عنه»[(١)].

٥- المبادرةُ بفعل الطاعات وترك السيئات:

يقول شيخُ الإسلام: «وهذا- أيضًا- حال الأمّة فيما تفرّقت فيه واختلفت في المقالات والعبادات، وهذه الأمور ممّا تعظم بها المحنة على المؤمنين؛ فإنهم يحتاجون إلى شيئيْن: إلى دفع الفتنة التي ابتلي بها نظراؤهم من فتنة الدين والدنيا عن نفوسهم مع قيام المقتضي لها؛ فإن معهم

(١) انظر: مجموع الفتاوى، (١٤/ ٤٣٣) بتصرف.

نفوسًا وشياطين كما مع غيرهم، فمع وجود ذلك من نظرائهم يقوى المقتضي عندهم، كما هو الواقع؛ فيقوى الداعي الذي في نفس الإنسان وشيطانه، وما يحصل من الداعي بفعل الغير والنظير.

فكم ممّن لم يردْ خيرًا ولا شرًّا حتى رأى غيره- لا سيما إن كان نظيره- يفعله ففعله؛ فإنّ الناس كأسراب القطا؛ مجبولون على تشبه بعضهم ببعض.

ولهذا كان المبتدئ بالخير والشرّ له مثلُ مَن تبعه من الأجر والوزر، كما قال النبي ﷺ: (مَن سنّ سنة حسنة فله أجرها وأجر مَن عمل بها إلى يوم القيامة مِن غير أن ينقص مِن أجورهم شيئًا، ومَن سنّ سنّة سيئة فعليه وزرها ووزر مَن عمل بها إلى يوم القيامة مِن غير أن ينقص مِن أوزارهم شيئًا)[1]؛ وذلك لاشتراكهم في الحقيقة، وإن حكم الشيء حكم نظيره، وشبه الشيء مُنجذب إليه، فإذا كان هذان داعيين قويين فكيف إذا انضمّ إليهما داعيان آخران؟

وذلك أنّ كثيرًا من أهل المنكر يحبّون من يوافقهم على ما هم فيه، ويبغضون مَن لا يوافقهم، وهذا ظاهرٌ في الديانات الفاسدة مِن موالاة كلّ قوم لموافقيهم، ومعاداتهم لمخالفيهم.

وكذلك في أمور الدنيا والشهوات كثيرًا ما يختارون ويؤثرون من يشاركهم إمّا للمعاونة على ذلك كما في المتغلّبين من أهل الرّياسات وقطاع الطريق ونحوهم، وإمّا بالموافقة كما في المجتمعين على شرب الخمر؛ فإنهم يختارون أن يشرب كلّ من حضر عندهم، وإمّا لكراهتهم امتيازه عنهم بالخير، إمّا حسدًا له على ذلك؛ لئلّا يعلو عليهم بذلك ويحمد دونهم، وإمّا لئلّا يكون له عليهم حجة، وإمّا لخوفهم من معاقبته لهم بنفسه، أو بمَن يرفع ذلك إليهم؛ ولئلّا يكونوا تحت منّته وخطره ونحو ذلك من الأسباب، قال الله- تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩]، وقال- تعالى- في المنافقين: ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾ [النساء: ٨٩]، وقال عثمان بن عفان - رضي الله عنه - ودت الزانية لو زنى النساء كلهن»[2].

---

(١) شعب الإيمان، (٩/ ٢٤٠).

(٢) الفتاوى، (٢٨/ ١٤٩-١٥١).

٦- مقابلةُ السيئات بالحسنات:

يقول الشيخ: «لهذا يؤمر المؤمنون أنْ يقابلوا السيئات بضدّها من الحسنات؛ كما يقابل الطبيب المرض بضدّه؛ فيؤمر المؤمن بأن يصلح نفسه، وذلك بشيئين: بفعل الحسنات، وترك السيئات، مع وجود ما ينفي الحسنات ويقتضي السيئات، وهذه أربعة أنواع.

ويؤمر- أيضًا- بإصلاح غيْره بهذه الأنواع الأربعة بحسب قدرته وإمكانه، قال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ١-٣]»[١].

٧- الصبر على فعل الحسن وترك السيئ:

يقول ابن تيمية: «لا بدّ من الصبر على فعل الحسن المأمور به، وترك السيئ المحظور، ويدخل في ذلك الصبر على فعل الأذى وعلى ما يقال؛ والصبر على ما يصيبه من المكاره، والصبر عن البطر عند النعم، وغير ذلك من أنواع الصبر.

ولا يمكن للعبد أن يصبر إن لم يكن له ما يطمئن به ويتنعم به ويغتذي به وهو اليقين؛ كما في الحديث الذي رواه أبو بكر الصديق - رضي الله عنه -، عن النبيﷺ أنه قال: **(يا أيها الناس، سلوا الله اليقين والعافية؛ فإنه لم يعط أحد بعد اليقين خيرًا من العافية فسلوهما الله)**»[٢].

٨- معرفةُ الإنسان ربّه معرفة جيدة ومعرفة صفاته وأسمائه:

إنّ العبودية الحقة لله - عز وجل - تخرج الإنسان من عبودية النفس وهواها وطاعتها في الشرّ إلى عبودية الله وحده وطاعته واجتناب نواهيه، فيثمر فيها الخير والعدل والصلاح.

يقول شيخُ الإسلام: «وهكذا حال مَن كان متعلقًا برئاسة أو بصورة ونحو ذلك من أهواء نفسه، إن حصل له رضي، وإن لم يحصل له سخط، فهذا عبد ما يهواه من ذلك، وهو رقيق له؛ إذ الرق والعبودية في الحقيقة هو رق القلب وعبوديته، فما استرق القلب واستعبده فهو عبده، ولهذا يقال:

---

(١) الفتاوى، (٢٨/ ١٥٢).

(٢) الفتاوى، (٢٨/ ١٥٣).

العبد حر ما قنع   والحر عبد ما طمع[١]

وقال القائل:

أطعت مطامعي فاستعبدتني   ولو أني قنعت لكنت حرًّا[٢]

ويقال: الطمع غلّ في العنق، قيدٌ في الرجل، فإذا زال الغلّ من العنق زال القيد من الرجل، ويروى عن عمر بن الخطاب t أنه قال: الطمع فقر، واليأس غنى، وإنّ أحدكم إذا يئس مِن شيء استغنى عنه.

وهذا أمر يجده الإنسان من نفسه؛ فإن الأمر الذي ييأس منه لا يطلبه ولا يطمع به، ولا يبق قلبه فقيرًا إليه، ولا إلى مَن يفعله، وأما إذا طمع في أمر من الأمور ورجاه تعلق قلبه به فصار فقيرًا إلى حصوله؛ وإلى مَن يظنّ أنه سبب في حصوله، وهذا في المال والجاه والصور وغير ذلك، قال الخليل – عليه السلام–: ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧].

فالعبد لا بدّ له من رزق، وهو محتاج إلى ذلك، فإذا طلب رزقه من الله صار عبدًا لله فقيرًا إليه، وإن طلبه من مخلوق صار عبدًا لذلك المخلوق فقيرًا إليه»[٣].

ويقول في موضع آخر: «فإذا عرف العبدُ أنّ الله ربُّه وخالقه، وأنه مفتقرٌ إليه محتاج إليه؛ عرف العبودية المتعلقة بربوبية الله، وهذا العبد يسأل ربه ويتضرّع إليه ويتوكل عليه، لكن قدْ يطيع أمره، وقد يعصيه، وقد يعبده مع ذلك، وقد يعبد الشيطان والأصنام، ومثل هذه العبودية لا تفرق بين أهل الجنة وأهل النار، ولا يصير بها الرجل مؤمنًا، كما قال الله– تعالى: ﴿وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦]؛ فإن المشركين كانوا يقرون أن الله خالقهم ورازقهم، وهم يعبدون غيره، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ

(١) المستطرف في كلّ فن مستظرف، ص(٧٩).
(٢) روض الأخيار المنتخب من ربيع الأبرار، ص(٢٦٧).
(٣) الفتاوى، (١٠/ ١٨٢).

لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [لقمان: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٩]»[١].

وهذه المعرفة وحدها لا تكفي لإصلاح النفس، ولا بدّ للإنسان مِن أن يعرف ربه معرفة الألوهية، يقول شيخ الإسلام: «فمَن وقف عند هذه الحقيقة وعند شهودها، ولم يقمْ بما أمر الله به مِن الحقيقة الدينية التي هي عبادته المتعلقة بألوهيته وطاعة أمره وأمر رسوله؛ كان من جنس إبليس وأهل النار.

فإن ظنّ مع ذلك أنه من خواص أولياء الله وأهل المعرفة والتحقيق، الذين سقط عنهم الأمر والنهي الشرعيان؛ كان من أشر أهل الكفر والإلحاد.

ومَن ظنّ أنّ الخَضِرَ وغيره سقط عنهم الأمر لمشاهدة الإرادة ونحو ذلك، كان قوله هذا من شرّ أقوال الكافرين بالله ورسوله، حتى يدخل في النوع الثاني من معنى العبد، وهو العبد بمعنى العابد، فيكون عابدًا لله، لا يعبد إلّا إياه، فيطيع أمره وأمر رسله، ويوالي أولياءه المؤمنين المتقين، ويعادي أعداءه.

وهذه العبادة متعلّقة بالإلهية لله- تعالى، ولهذا كان عنوان التوحيد: لا إله إلّا الله، بخلاف مَن يقرّ بربوبيته ولا يعبده، أو يعبد معه إلهًا آخر.

فالإله هو الذي يألهه القلب بكمال الحب والتعظيم والإجلال والإكرام والخوف والرجاء ونحو ذلك، وهذه العبادة هي التي يحبها الله ويرضاها، وبها وصف المصطفين مِن عباده، وبها بعث رسله»[٢].

ولكن، كيف تكون العبادةُ التي تحقّق للإنسان سعادة الدنيا والآخرة؟

يوضّح شيخُ الإسلام- رحمه الله- العبادة بقوله: «هي اسمٌ جامع لكلّ ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة؛ فـ: الصلاة والزكاة والصيام والحج وصدق الحديث

(١) العبودية، ص(٥٢).
(٢) العبودية، ص(٥٤).

وأداء الأمانة وبرّ الوالدين وصلة الأرحام والوفاء بالعهود والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد للكفار والمنافقين والإحسان للجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والمملوك من الآدميين والبهائم والدعاء والذكر والقراءة وأمثال ذلك من العبادة. وكذلك حبّ الله ورسوله، وخشية الله والإنابة إليه، وإخلاص الدين له، والصبر لحكمه، والشكر لنعمه، والرضا بقضائه، والتوكل عليه، والرجاء لرحمته، والخوف من عذابه، وأمثال ذلك؛ هي من العبادة لله.

وذلك أنّ العبادة لله هي الغاية المحبوبة له والمرضية له التي خَلق الخلق لها، كما قال الله- تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وبها أرسل جميع الرسل كما قال نوح لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩]»[1].

«والرسول هو المبلّغ عن الله- تعالى- أمرَه ونهيَه وتحليله وتحريمه، فالحلالُ ما أحلّه، والحرام ما حرّمه، والدين ما شرعه.. فعلينا أن نصدّق بخبره، ونطيع أمره، ونعبد الله بما شرع، لا نعبده بغير ذلك من الأهواء والظنون والبدع، ففي الأولى أن لا نعبد إلّا إيّاه- سبحانه، وفي الثانية أن نعبده بما شرع لنا»[2].

أمّا معرفة الله بأسمائه وصفاته فقد بيّن شيخُ الإسلام أن طريقة سلف الأمّة وأئمتها إثبات ما أثبته من الصفات من غير تكييف ولا تمثيل، ومن غير تحريف ولا تعطيل.

وكذلك ينفون عنه ما نفاه عن نفسه، ومع إثبات ما أثبته من الصفات من غير إلحاد، لا في أسمائه ولا في آياته؛ فإنّ الله ذمّ الذين يلحدون في أسمائه وآياته، كما قال الله- تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، فطريقتهم تتضمّن إثبات الأسماء والصفات، مع نفي مماثلة المخلوقات إثباتًا بلا تشبيه، وتنزيهًا بلا تعطيل، كما قال الله- تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

---

(١) العبودية، ص(٤٤).

(٢) مجموع الفتاوى، (١/ ٣٦٥)، والعبودية، ص(١٧٠).

إنّ الإيمان بالله – سبحانه وتعالى – وتوحيده في ألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته على نحو ما وصفت ليؤثر في النفس تأثيرًا عميقًا، إن هذه العقيدة تنفذ إلى باطن الإنسان وأعماق نفسه؛ فتغيّر محاور الثقل في النفس، وتجعلها كلها لله.

فالإنسانُ عندما يؤمن بأنّ هناك إلهًا واحدًا هو الخالق وهو الرازق، وهو الذي بيده ملكوت كلّ شيء، ويؤمن إيمانًا لا يخالجه شك أنه وحده الذي يستحق العبادة لا أحد سواه، فعندما يتحرّر الإنسان من كلّ الأرباب الزائفة، يتحرّر من إله الشهوة، يتحرّر من إله المادة، يتحرّر من إله الطاغوت، يتحرّر من كلّ شيء، فعبودية الإنسان لربه هي مصدر عزته وحريته؛ فإنّ الإنسان بطبعه وفطرته لا بدّ له من إلهٍ يؤلّهه، فإذا جعل الله هو إلهه، فإنّ الآلهة الأخرى تنجاب وتزول من نفسه، وإذا لم يفرد الله بالألوهية ولم يؤمن به فلا بدّ أن يعبد شيئًا ما فيعبد الدرهم والدينار والخميصة والقطيفة، ويعبد الجنس، يعبد الشهوة، يعبد الشجر، يعبد الحجر، يعبد الإنسان، يعبد شيئًا ما؛ لأن الإنسان «له إرادة دائمًا، وكلّ إرادة فلا بدّ لها من مراد تنتهي إليه، فلا بدّ لكلّ عبدٍ مِن مراد محبوب هو منتهى حبه وإرادته، فمن لم يكن الله معبوده ومنتهى حبه وإرادته، بل استكبر عن ذلك، فلا بدّ أن له مرادًا محبوبًا يستعبده غير الله، فيكون عبدًا لذلك المراد المحبوب، إمّا المال وإمّا الجاه وإمّا الصور، وإمّا ما يتخذه إلهًا من دون الله كـ: الشمس والقمر والكواكب، أو غير ذلك ممّا عبد من دون الله»(١).

«وأنّ المخلص لله ذاقَ من حلاوة عبوديته لله ما يمنعه عن عبوديته لغيره، ومن حلاوة محبته لله ما يمنعه عن محبة غيره؛ إذ ليس عند القلب السليم أحلى ولا ألذ ولا أطيبَ ولا أسرّ ولا أنعم من حلاوة الإيمان المتضمن عبوديته لله، ومحبته له، وإخلاص الدين له، وذلك يقتضي انجذاب القلب إلى الله، فيصير القلب منيبًا إلى الله، خائفًا منه، راغبًا راهبًا، كما قال تعالى: ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٣٣]؛ إذ المحبّ يخاف من زوال مطلوبه، أو حصول مرغوبه، فلا يكون عبد الله ومحبّه إلّا بين خوف ورجاء، كما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٧].

(١) العبودية لابن تيمية، ص(١١١-١١٢).

وإذا كان العبد مخلصًا لله اجتباه ربّه، فأحيا قلبه، واجتذبه إليه، فينصرف عنه ما يضاد ذلك من السوء والفحشاء، ويخاف من حصول ضد ذلك، بخلاف القلب الذي لم يخلص لله؛ فإن فيه طلبًا وإرادة وحبًّا مطلقًا، فيهوى ما يسنح له، ويتشبث بما يهواه، كالغصن أيّ نسيم مرّ به؛ عطفه وأماله، فتارة تجتذبه الصور المحرمة وغير المحرمة، فيبقى أسيرًا عبدًا لمن لو اتخذه هو عبدًا له لكان ذلك عيبًا ونقصًا وذمًّا.

وتارة يجتذبه الشرف والرئاسة فترضيه الكلمة وتغضبه الكلمة، ويستعبده من يثني عليه ولو بالباطل، ويعادي مَن يذمّه ولو بالحق.

وتارة يستعبده الدرهم والدينار، وأمثال ذلك من الأمور التي تستعبد القلوب، والقلوب تهواها، فيتّخذ إلهه هواه ويتّبع هواه بغير هدى من الله، ومن لم يكن خالصًا لله عبدًا له قد صار قلبه معبدًا لربّه وحده لا شريك له بحيث يكون الله أحب إليه من كلّ ما سواه، ويكون ذليلًا له خاضعًا، وإلا استعبدته الكائنات، واستولت على قلبه الشياطين، فكان من الغاوين إخوان الشياطين، وصار فيه من السوء والفحشاء ما لا يعلمه إلّا الله.

وهذا أمر ضروري لا حيلة فيه؛ فالقلب إن لم يكن حنيفًا مقبلًا على الله، معرضًا عمّا سواه، وإلّا كان مشركًا، قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [الروم: ٣٠-٣٢]»[(١)].

من هذا التحليل النفسي الرائع لابن تيمية، ندرك تمامًا أن الإيمان بالله طريق الحرية، وأن الكفر بالله والإشراك به طريق العبودية والاستعباد لمن لا يستحق العبادة»[(٢)].

(١) العبودية، ص(١١١-١٤٢).
(٢) السنن الإلهية في الحياة الإنسانية وأثر الإيمان بها في العقيدة والسلوك، د/ شريف الشيخ صالح، (٢/ ٦٠-٦١).

وأنّ طريق العبودية لله – عز وجل – هو أفضل الطرق وأهمها للحصول على التغيير، وهذه هي سنّته، فلا يصلح فرد ولا أمّة إلّا إذا تغيّر حالهم إلى العبودية الحقة لله – عز وجل –.

وهذا ما يؤكّده العلّامة الصادق عرجون، وهو أن الله– تعالى– «لا يُحدث للناس حالًا من النعيم أو البؤس إلّا اذا أحدثوا لأنفسهم حالًا غيروا به ما كانوا عليه من الخير والهدى، فعاثوا فى الشر والفساد، أو ما كانوا عليه من الطغيان والإفساد، فثابوا إلى الخير، وأنابوا إلى ربهم تائبين، والله– تعالى– أخبر أنه فطر الناس على الخير والهدى، فقال جلَّ شأنه: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾، فإذا غير الناس فطرة الله بسوء تصرفهم، وانحدروا مع الشيطان إلى مزالق الشر والفساد فى عقائدهم وتفكيرهم وسلوكهم الاجتماعي؛ أنزل الله بهم عقابه، وأذاقهم عذابه الشديد؛ ليتذكروا ما كانوا عليه من خير وهدى، علّهم يعودون إلى إصلاح أحوالهم، فيرفع الله عنهم بأسه وشدة وطأته، فإذا عادوا إلى الشرّ والفساد عاد الله عليهم ببطشه وانتقامه، وهكذا تقتضي سنّة الله وعدله أنْ يجزي الإحسان إحسانًا، والسوء عقابًا وعذابًا، فإن أحسن الناس كان إحسانهم لأنفسهم؛ لأنهم يجنون ثماره نعمًا ورحمة، وإن أساءوا فعواقب إساءتهم راجعة إليهم، لا يضرّون إلّا أنفسهم»[1].

***

(١) سنن الله في المجتمع، ص(٢٨).

المبحثُ الثّاني والثلاثون
التّوازنُ عند شيخ الإسلام ابن تيمية

تعريفُ التوازن:

وزن: وزن الشيء، أي: رجح، ويروى بيت الأعشى:

وإن يستضافوا إلى حكمة   يضاف إلى عادل قد وزن

وقد وزن وزانة: إذا كان مثبتًا، وقال أبو سعيد: أوزن نفسه على الأمر وأوزنها: إذا وطّن نفسه من الميزان، أي: العدل، وأيضًا وزن الشيء، أي: قدره(١).

والمقصود من التوازن: إعطاء كلّ أمر من الأمور قدره المستحق له دون تقصير أو نقص، مع الموازنة بينه وبين الأمور الأخرى.

التّوازنُ سنّة إلهية:

إنّ كلّ ما في الكون يدلّ على هذا التوازن، فلا يطغى شيء على شيء، فكلّ نواميس الكون تسير بنظام وبتوازن في العمل والوقف، لا تزيد ولا تنقص إلّا بأمر الله وتدبيره.

ونجدُ هذا التوازن في كلّ الجوانب حتى في الألوان والأشكال والتعدّد، ولقد تحدّث العلماءُ كثيرًا عن هذه الظاهرة بما يعرف بالتوازن البيئي للكائنات، وهي- أيضًا- نلاحظها في شرائع الله وأحكامه، نجد منهجًا وسطًا متوازنًا في كلّ الأحكام والأوامر والأخلاقيات والقوانين، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧].

ويعرّف العلّامةُ الشيخ الصادق عرجون- رحمه الله- التوازنَ بأنه سنّة هذا الكون وسمته المميزة فيقول: «والتوازن بين عناصر الكون ووشائجه هو سنة الله التي دبر بها الكون، وعليها

(١) انظر: لسان العرب، باب وزن، ص(٢٠٥، ٢٠٦)، الجزء (١٥، ١٦).

أدار فلك نظامه الإلهي البديع، وهذا التوازن هو العدل الذى قامت به السموات والأرض، وهو الحقّ الذي خلقت به الحياة.

ومن أبرع ما عبّر به البيان القرآني عن سنة الله العامة في الكون ما لقّن الله- تعالى- كليمَه موسى - عليه السلام - في جوانب التعنت الفرعوني؛ إذ يقول حاكيًا للسؤال والجواب في أوجز أسلوب إعجازي ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٤٩-٥٠]، والتعبير بقوله: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ بيان لسنّته- تعالى- في توازن عناصر كلّ مخلوق، توازنًا جرى على تقدير مُنسّق مُحكم، والتعبير بقوله: ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ بيان لسنة الله- تعالى- في توازن التمكين الذي أوتيه كلّ مخلوق في طرائق عيشه وضوابط حياته، فإعطاء الله- تعالى- كلّ شيء في الوجود تقديره الملائم لمكانه مِن نظام الكون، وتوجيه الله- تعالى- لكلّ مخلوقٍ بمقتضى خلقته الخاصّة التي فطره الله- تعالى- عليها، لكي يُعْطى ما أريد منه في الحركة الكونية الدائبة هو سنّة التوازن الكوني العام التي يقوم عليها صلاحه وبقاؤه في نظامه الإلهي البديع»[(١)].

وهناك توازنٌ واضح بين الكون والشريعة قد أشار إليه الأستاذ سيد قطب- رحمه الله- فيقول: «وهو منهج قائم على العلم المطلق بحقيقة الكائن الإنساني، والحاجات الإنسانية، وبحقيقة الكون الذي يعيش فيه الإنسان، وبطبيعة النواميس التي تحكمه وتحكم الكينونة الإنسانية..

ومِن ثمّ لا يفرط في شيء من أمور هذه الحياة، ولا يقع فيه ولا ينشأ عنه أي تصادم مدمّر بين أنواع النشاط الإنساني، ولا أي تصادم مدمّر بين هذا النشاط والنواميس الكونية، إنّما يقع التوازن والاعتدال والتوافق والتناسق..

الأمرُ الذي لا يتوافر أبدًا لمنهج من صنع الإنسان الذي لا يعلم إلّا ظاهرًا من الأمر، وإلّا الجانب المكشوف في فترة زمنية معينة، ولا يسلم منهج يبتدعه من آثار الجهل الإنساني، ولا

(١) سنن الله في المجتمع من خلال القرآن الكريم، ص(١٦، ١٧).

يخلو من التصادم المدمّر بين بعض ألوان النشاط، وبعض الهزّات العنيفة الناشئة عن هذا التصادم»[١].

وبهذا يتّضح لنا توازن الكون كلّه الذي يتماشى مع الشريعة الربانية الهادية، وهكذا ندرك أنه لا يشذّ عن التوازن إلّا مخالفٌ للكون أو معاند للشريعة[٢].

وهكذا نجد أن هذا التوازن البديع في هذا الكون ملحوظ في كلّ الجوانب، فلا يعلو أمرٌ على أمر، فسبحانه يمسك السموات أن تقع على الأرض إلّا بإذنه، كما أنه- سبحانه- هو الذي يقدر الأرزاق ويوزعها على كلّ الكائنات؛ حتى تبقى الحياة على هذه الأرض وتعمر على النحو الذي أراده الله لها.

ثمّ جعل شريعته للبشر حاكمة عليهم ومهيمنة؛ حتى يكونوا جزءًا من هذا الكون المنظّم المتوازن، فلا يحدث الخلل الذي يفسد هذا الكون، ويصبح الكلّ في فلك واحد يرتّل تسبيحة واحدة له- سبحانه.

ويقول شيخُ الإسلام مشيرًا إلى هذه السنة الإلهية في أثناء تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ٣]: «وقرأ الجمهور ﴿قَدَّرَ﴾ بتشديد الدّال فاحتمل أن يكون من القدر والقضاء، واحتمل أن يكون من التقدير والموازنة بين الأشياء»[٣].

والتوازن هو أحد معاني الوسطية والاعتدال، وتجلت الوسطية، أي: «التوازن» في قول شيخ الإسلام ابن تيمية في تفسيره لقوله تعالى: ﴿قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨]: «إن الاستقامة والاعتدال متلازمان، فمن كان قوله وعمله بالقسط كان مستقيماً، ومَن كان قوله وعمله مستقيماً كان قائماً بالقسط.

ولهذا أمرنا الله- سبحانه- أن نسأله أن يهدينا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم عليهم من: النبيّين والصديقين والشهداء والصالحين، وصراطهم هو العدل والميزان؛ ليقوم الناس

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٢/ ٨٩٠).
(٢) وسطية الإسلام ودور العلماء في إبرازها، د/ أكرم كساب، ص(٢٠١).
(٣) الفتاوى، (١٦/ ١٤٦).

بالقسط، والصراط المستقيم هو العمل بطاعته وترك معاصيه؛ فالمعاصي كلها ظلم مناقض للعدل مخالف للقيام بالقسط والعدل، والله- سبحانه- أعلم»[1].

ولقد تحدّث شيخ الإسلام في مواضع مختلفة من كتاباته شارحًا هذه السنة ومعززًا لها، فهو يذكر أنّ التوازن روحٌ تسري في هذه الأمّة في كلّ أمورها الخلقية والتشريعية والعقائدية، فلقد جعل الله – عز وجل – لنا منهجًا وسطيًا متوازنًا في كلّ شيء لا يجنح إلى اليمين ولا إلى اليسار، بل جاء متناسبًا مع حياة البشر وطبيعتهم التي جبلهم الله عليها، ملائمًا لحياتهم وظروفهم.

ومِن هذه المواضع التي ذكرها شيخُ الإسلام- رحمه الله- قوله: «وقد خصّ الله- تبارك وتعالى- محمدًا r بخصائص ميّزه بها على جميع الأنبياء والمرسلين، وجعل له شرعة ومنهاجًا، أفضل شرعة وأكمل منهاج مبين.

كما جعل أمّته خير أمّة أُخرجت للناس، هداهم الله بكتابه ورسوله لما اختلفوا فيه من الحقّ قبلهم، وجعلهم وسطًا عدلًا خيارًا.

فهُم وسط في توحيد الله وأسمائه وصفاته، وفي الإيمان برسله وكتبه وشرائع دينه، من الأمر والنهي والحلال والحرام، فأمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر، وأحلّ لهم الطيّبات وحرّم عليهم الخبائث.

لم يحرّم عليهم شيئًا من الطيبات كما حرم على اليهود، ولم يحلّ لهم شيئًا من الخبائث كما استحلتها النصارى.

ولم يضيّق عليهم باب الطهارة والنجاسة كما ضيّق على اليهود، ولم يرفع عنهم طهارة الحدث والخبث كما رفعته النصارى، فلا يوجبون الطهارة من الجنابة ولا الوضوء للصلاة ولا اجتناب النجاسة في الصلاة، بل يعدّ كثير من عبادهم مباشرة النجاسات من أنواع القرب والطاعات، حتى يقال في فضائل الراهب: (له أربعون سنة ما مسّ الماء)، ولهذا تركوا الختان مع أنه شرع إبراهيم الخليل- عليه الصلاة السلام- وأتباعه.

---

(١) الفتاوى، (١٤/ ١٧٩).

واليهود عندهم إذا حاضت المرأة لا يؤاكلونها ولا يشاربونها، ولا يقعدون معها في بيت واحد، والنصارى لا يحرّمون وطء الحائض.

وكان اليهود لا يرون إزالة النجاسة، بل إذا أصاب ثوبَ أحدٍ منهم قرضه بالمقراض، والنصارى ليس عندهم شيء نجس يحرم أكله أو تحرم الصلاة معه»(١).

ويقول في موضع آخر مؤكدًا على التوازن الذي حبى الله به هذه الأمّة: «فبعث الله محمدًا ﷺ بالشريعة الكاملة العادلة، وجعل أمّتَه عدلًا خيارًا لا ينحرفون إلى هذا الطرف ولا إلى هذا الطرف، بل يشتدون على أعداء الله، ويلينون لأولياء الله، ويستعملون العفو والصفح فيما كان لنفوسهم، ويستعملون الانتصار والعقوبة فيما كان حقًّا لله»(٢).

كما بيّن أنّ المسلمين وسط ومتوازنون عن غيرهم من الأمم في تعاملهم مع أحكام الله وشريعته، وأيضًا في عقيدتهم مع أحكام الله وشريعته، وأيضًا في عقيدتهم في الله - عز وجل - وعبوديتهم له، فيقول- رحمه الله: «ولذلك المسلمون وسط في الشريعة؛ فلم يجحدوا شرعه الناسخ لأجل شرعه المنسوخ كما فعلت اليهود، ولا غيروا شيئًا من شرعه المحكم، ولا ابتدعوا شرعًا لم يأذن به الله كما فعلت النصارى، ولا غلوا في الأنبياء والصالحين كغلو النصارى، ولا بخسوهم حقوقهم كفعل اليهود، ولا جعلوا الخالق- سبحانه- متّصفًا بخصائص المخلوق ونقائضه ومعايبه من: الفقر والبخل والعجز كفعل اليهود، ولا المخلوق متّصفًا بخصائص الخالق- سبحانه- التي ليس كمثله فيها شيء كفعل النصارى، ولم يستكبروا عن عبادته كفعل اليهود، ولا أشركوا بعبادته أحدًا كفعل النصارى.

وأهل السنة والجماعة في الإسلام كأهل الإسلام في أهل الملل؛ فهم وسط في باب صفات الله - عز وجل - بين أهل الجحد والتعطيل، وبين أهل التشبيه والتمثيل، يصفون الله بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسله من غير تعطيل ولا تمثيل إثباتًا لصفات الكمال، وتنزيهًا له عن أن

(١) الجواب الصحيح، (١/ ٦٨، ٦٩، ٧٠).
(٢) الجواب الصحيح، (٥/ ٨٣).

يكون له فيها أنداد وأمثال، إثبات بلا تمثيل، وتنزيه بلا تعطيل، كما قال تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ ردّ على الممثلة، ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾»(١).

وأيضًا نجد شيخ الإسلام يطبق هذه السنة في حياته وفي تعامله مع خصومه، فيتجلى ذلك واضحًا في موقفه مع التصوف والصوفية، حيث يقول- رحمه الله: «وأنت تجد كثيرًا من المتفقهة إذا رأى المتصوفة والمتعبدة لا يراهم شيئًا، ولا يعدهم إلّا جهالًا ضلالًا، ولا يعتقد في طريقهم من العلم والهدى شيئًا، وترى كثيرًا من المتصوفة والمتفقرة لا يرى الشريعة والعلم شيئًا، بل يرى أن المتمسك بها منقطعًا عن الله، وأنه ليس عند أهلها ممّا ينفع عند الله شيئًا.

وإنّما الصواب أنّ ما جاء به الكتاب والسنة من هذا وهذا حقّ، وما خالف الكتاب والسنة من هذا وهذا باطل»(٢).

وأيضًا في تعامله مع الرافضة حيث يقول: «والرافضة فيهم مَن هو متعبّد متورّع زاهد، لكن ليسوا في ذلك مثل غيرهم من أهل الأهواء؛ فالمعتزلة أعقل منهم وأعلم وأدْيَن، والكذب والفجور فيهم أقلّ منه في الرافضة، والزيدية من الشيعة خير منهم أقرب إلى الصدق والعدل والعلم، وليس في أهل الأهواء أصدق ولا أعبد من الخوارج... »(٣).

ويقول- أيضًا: «وقد ذهب كثير من مبتدعة المسلمين من: الرافضة والجهمية وغيرهم إلى بلاد الكفار فأسلم على يديه خلق كثير، وانتفعوا بذلك وصاروا مسلمين مبتدعين، وهو خيرٌ من أن يكونوا كفارًا، وكذلك بعض الملوك قد يغزو غزوًا يظلم فيه المسلمين والكفار ويكون آثمًا بذلك، ومع هذا فيحصل به نفع خلق كثير كانوا كفارًا فصاروا مسلمين... »(٤).

---

(١) الجواب الصحيح، (١/ ٧١).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، ص(١٠)، وراجع: كتاب وسطية الإسلام ودور العلماء في إبرازها، ص(١٨٣) وما بعدها.

(٣) منهاج السنة النبوية لابن تيمية، (٥/ ١٥٧).

(٤) دقائق التفسير، (٢/ ١٤٣)، ت: محمد السيد الجليند، جـ١، مؤسسة علوم القرآن، دمشق، ط ٢، ١٢٠٤هـ.

أيضًا- تحقّق التوازن في اختياراته العلمية والعملية، وقد عدّ ابن تيمية تحقّق الوسط في الاختيارات العلمية ممّا وقع بين الفقهاء من خلاف فقال: «وأيضًا فإن أصول الشريعة تفرق في جميع مواردها بين القادر والعاجز، والمفرط، والمعتدي، ومن ليس بمفرط ولا معتد.

والتفريق بينهما أصل عظيم معتمد، وهو الوسط الذي عليه الأمّة الوسط، وبه يظهر العدل بين القولين المتباينيْن.

وقد تأمّلت ما شاءَ اللهُ من المسائل التي يتباين فيها النزاع نفيًا وإثباتًا حتى تصير مشابهة لمسائل الأهواء، وما يتعصب له الطوائف من الأقوال؛ كمسائل الطرائق المذكورة في الخلاف بين أبي حنيفة والشافعي وبين الأئمة الأربعة، وغير هذه المسائل؛ فوجدت كثيرًا منها يعود الصواب فيه إلى الوسط؛ كمسألة إزالة النجاسة بغير الماء، ومسألة القضاء بالنكول، وإخراج القيم في الزكاة، والصلاة في أول الوقت، والقراءة خلف الإمام، ومسألة تعيين النية وتبييتها، وبيع الأعيان الغائبة، واجتناب النجاسة في الصلاة، ومسائل الشركة كـ: شركة الأبدان والوجوه والمفاوضة، ومسألة صفة القاضي.

وكذلك هو الأصل المعتمد في المسائل الخبرية العلمية التي تسمى مسائل الأصول، أو أصول الدين، أو أصول الكلام، يقع فيها اتباع الظن وما تهوى الأنفس»[(١)].

وقد قرّرنا- أيضًا- ما دلّ عليه الكتاب والسنة فيها وفي غيرها من الفرق بين المؤمن باطنًا وظاهرًا، وبين المنافق الزنديق المؤمن ظاهرًا لا باطنًا، وأن المؤمنين قد عُفي لهم عن الخطأ والنسيان، ثمّ غالب الخلاف المتباين فيها يعود الحقّ فيه إلى القول الوسط في مسائل التوحيد والصفات، ومسائل القدر والعدل، ومسائل الأسماء والأحكام، ومسائل الإيمان والإسلام، ومسائل الوعد والوعيد، ومسائل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والخروج على الأمراء ومذاهبهم، أو موافقتهم على طاعة الله؛ فأمرهم ونهيهم بحسب الإمكان والامتناع عن الخروج والفتن، وأمثال هذه الأهواء[(٢)].

---

(١) الفتاوى، (٢١/ ١٤١، ١٤٢).

(٢) الفتاوى، (٢١/ ١٤١، ١٤٢).

وهكذا نجد أنّ شيخَ الإسلام- رحمه الله- جعل سنة الله في التوازن بين الأمور منهجًا له في حياته كلها، فهو يوازن بين الأهداف المختلفة في حياته قدر الطاقة، فلا يطغى هدف على هدف، فهو العالم الحافظ المجاهد صاحب التصانيف، المسلم الواعي بقضايا الأمّة لسائر المسلمين في كلّ أمور حياتهم، منصف مع مخالفيه، متوازن في اختياراتهم العلمية والفقهية.

السّننُ الاجتماعية لدى ابن تيمية:

والمقصود بالسنن الاجتماعية أنها السنن التي تحكم الجماعات والمجتمعات الإنسانية وتنظّمها، وبدونها تحدّث الفوضى للأمم، فيكون ذلك سببًا في فشلها وتأخرها، أو هلاكها كما حدث في أمم عاد وثمود وغيرها؛ «فسنن الله- تعالى- في المجتمع جانب من جوانب الفكرة القرآنية التي بثها الله في آيات هذا الكتاب المبين نظامًا اجتماعيًّا مترابطًا إلى جانب سنن الله العامة في الكون، التي تصوّر فلسفة القرآن في فهم الحياة، كما تصوّر حكمته في نعوت الكمال لله- تعالى- خالق الحياة، وفلسفة القرآن تجعل من الكون كله حقيقة واحدة طوى فيها خالقها دلائل وجوده، وبراهين وحدانيته، وآيات قدرته وعلمه وحكمته، ووكل إلى العقل البشرى تكليفًا وتشريفًا الكشف عن هذه الدلائل والبراهين بما أودع فيه من قوة إدراكية غائصة، وبما أمدّه به من عون في تهديه إليها، وهذا المعنى هو خلاصة وعد الله- تعالى- لهذا العقل بالكشف عن آيات الله- تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣]»[١].

لقد بيّن شيخُ الإسلام- رحمه الله- من خلال حديثه عن مفهوم العبادة أن العبادة الحقة لا تكون إلّا بإعمار الكون عن طريق تنظيم علاقته بالخالق - عز وجل -، وتنظيم علاقته بالمخلوقين وبالكون الذي يعيش فيه، وسنوضّح ذلك:

أولًا: «مفهوم العبادة عند ابن تيمية: أن العبادة نوعان: عبادة دينية وعبادة كونية.

العبادة الدينية: تنظم علاقة المسلم بالخالق، وعلاقاته بالأفراد والجماعات والأمم من حوله، فالعبادة الدينية لها مظهران: مظهر تعبدي ومظهر اجتماعي.

(١) سنن الله في المجتمع، ص(٧).

وتطبيق هذه العبادة بمظهر تعبدي يقتضي تعليم الفرد وتدريبه على تنظيم علاقته بالخالق، وهو ميدان علوم التوحيد وأصول الدين.

أمّا تطبيق هذه العبادة بمفهومها الاجتماعي فيقتضي تعليم الجماعة وتدريبها على الفضائل الاجتماعية، وهو ميدان علوم الشريعة.

أمّا العبادة الكونية: معناها الخضوع لتدبير الله وتصريفه، وتدبير الله وتصريفه يتمثل في القوانين التي تنظم الكائنات ومظاهر الاجتماع والحياة، وبهذا الاعتبار فالمخلوقون كلهم عباد الله من الأبرار والفجار والمؤمنين والكفار وأهل الجنة والنار؛ لأنهم كلهم خاضعون لقوانين الله، ولا يخرجون عن مشيئته وقدرته، والألوان وما فيها كلها عباد الله؛ لأنها لا تخرج عن قوانينه في الحركة والسكون.

وفي كافة الأحوال فهو- سبحانه- رب العوالم والخوالق ومصرّف أمورها لا غيره ولا مالك سواه، اعترف الناس بذلك أو أنكروه، وسواء علموا ذلك أو جهلوه ﴿**أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ**﴾ [آل عمران: ٨٣].

وتحقيق العبادة الكونية يقتضي البحث عن أسرار الأكوان المحيطة، واكتشاف قوانينها، وتدريب المتعلم على كيفية التعامل مع الأكوان واستغلالها حسب القوانين التي فطرها الله عليها طبقًا لها، وهذا هو ميدان العلوم الطبيعية؛ فهذا الكون المحيط كتاب كبير يحتوي على آيات الآفاق التي تدلّ على وحدانية الله، وإحكام المخلوقات بالشكل الذي هي عليه يكشف عن علم الله، وإبداع أنواع المحدثات تظهر قدرة الله، وما يجري فيه من أحوال وأحداث في حياة الأفراد والأمم وبقية المخلوقات ترشد إلى فعل الله المتيقن، والنعيم الذي يزخر به الكون يدلّ على سعة رحمة الله.

وهذه علوم وأسرار إذا عرفها الإنسان وشهدها بسمعه وبصره وقلبه أدرك ضرورة العبادة التي يجب أن يعبد بها»[(١)].

---

(١) الفكر التربوي عند ابن تيمية، ص(١٠٢) وما بعدها، وانظر: الفتاوى، توحيد الألوهية، (١/ ١).

المبحثُ الثّالث والثلاثون

منهجيّةُ شيخ الإسلام ابن تيمية في عرض السّنن

يتميّز شيخُ الإسلام ابن تيمية في عرضه للسنن وتناوله لها بعددٍ من الملامح تمثل منهجيّتَه في معالجتها، ومن أهمّ هذه الملامح:

١- إبراز الجانب السنني والتركيز على إيضاحه؛ سعيًا منه إلى ترسيخ الوعي بها في نفوس المسلمين.

٢- حشد الأمثلة التي تؤيد الفكرة.

٣- ذكر كثير من الآيات القرآنية التي توضّح قضيته.

٤- تعزيز موضوعه بالأحاديث إن وجدت.

٥- عقد المقارنات بين مَن يطبّقون هذه السنن ومَن يخالفونها.

٦- الجمع بين التفصيل والإجمال.

٧- الجمع بين التأصيل والتنزيل.

٨- ربط السنن بالواقع المعيش للمسلمين.

٩- بروز الجانب الدعوي في تناوله للسنن بصورة لافتة.

السننُ الإلهية بين النظرية والتطبيق في حياة شيخ الإسلام ابن تيمية:

شغلت السّنن الربانية في حياة ابن تيمية حيزًا كبيرًا؛ حتى إنه جعلها بابًا من أبواب الدّلالة على الله- تعالى؛ فعرف أنّ الدلالة على الله تأتي من خلال:

١- دراسة الله في كتابه وآياته في الآفاق والأنفس.

٢- النظر في إتقان المخلوقات هو الذي يؤدي إلى العلم بالله- تعالى، كما أنه يؤدي إلى الوقوف على قدرة الله- تعالى.

٣- ومن خلال التكامل بين المنهج الشرعي والمنهج الكوني فإن ذلك يؤدي إلى معرفة قوانين الكون والحياة والموت والخلق ومجريات الأحداث.

لقد برزت السنن الإلهية ومعرفتها في شخصية ابن تيمية بروزًا رائعًا حيث جعلها قانونًا في الهيكل العام لحياة المسلمين وظيفتها سدّ الثغرات التي يدخل منها أعداء الإسلام لهذا الهيكل، وتركّزت كثير من اتجاهاته العلمية على هذا الأمر، فتحدث عن أمراض النفوس بوصفها ثغرًا وموطن ضعف يهدّد بنيان الأمة، وأيضًا مداخل الشيطان؛ لأنها آفة تفت في عضد الأمة، وأيضًا رأى بعينيه تلك الأمراض والخلافات وكل ما يمنع اتحاد بنيان الأمّة واتساقه، فاهتم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومجاهدة الغائبين والمضللين عن دين الإسلام، وكل ما يخالف الشرع بوصفه لا يرى النموذج الأمثل إلّا فيما رسمه الله – عز وجل – لإقامة البنيان من: شرائع وأحكام وأخلاق ومبادئ بعث من أجلها الرسول والأنبياء، حتى تبلورت في النموذج العملي لحياة الصحابة والتابعين.

وقد رأى ذلك بقلبه وعقله وعلمه الذي تعلمه فقرّر أن يكون هو فرض الكفاية لسدّ الثغور داخل الهيكل والبنيان مضحّيًا بوقته وحياته من أجل ذلك، مستعينًا بالله، متحملًا للأذى، راجيًا لثواب الله – عز وجل –، وأيضًا من هذه الثغور التي حاول القيام بسدها مواجهات أعداء الإسلام للأمّة مثل: النصارى والمنافقين والتتار والصليبيين والخارجين عن الإسلام.

لقد فهم جيدًا من خلال السنن أنّ الله – عز وجل – يهلك كلّ من يحاول أن يفتّ هذا البنيان، فأخذ على عاتقه الدعوة إلى الله لتنقذ الناس من الهلاك المحتدم إذا هم خالفوا منهج الله – عز وجل – في إقامة هذا المنهاج، الذي يهدف إلى تعمير الأرض، ولن تعمر الأرض ولن نستفيد بها إذا بعدنا عن هذا المنهاج.

وهذه مفاتيح الربانية لفهم الكون حتى نتّسق مع عنصر الزمن، ونسير كما تسير الشمس والقمر في نفس المنظومة الشاملة للكون، لا نعاديها ولا نعاكسها، بل نفهمها ونسايرها.

وهكذا لقد فهم جيدًا أنّ الآفة لا تصيب الإنسان إذا لم يأخذ بالأسباب التي تؤدي إلى منعها؛ فالمرض يأتي بنقص عناصر الجسم، أو التعرض لما لا يعتاده الجسم مثل: الحر الشديد

أو البرد الشديد أو السموم التي تتلف أجزاءه، وهكذا، أو أن الحشرات لا تأتي إلّا إذا أهملنا النظافة.

لذلك اهتمّ شيخ الإسلام بالأسباب والمسببات، واهتم آفات الكيان الاجتماعي للإنسان مثل: البعد عن منهج الله في كلّ ما يتصل بعناصر الكيان من أجسام مادية وروحية وأسرة وعلاقة بين زوجين وأبناء، ثمّ مجتمع له أفراده مثل أسباب الاختلاف والفرقة، كيفية الاجتماع والالتئام والوحدة.

وأيضًا الوهن والضعف الذي يجعل المجتمع يضعف عن صدّ أعدائه أسبابه وعلاجه ووسائله.

وكذلك اهتمّ بإنقاذ الإنسان الأخروي، ووضح الطرق الرائعة التي توصل إلى ذلك؛ ليعيش الإنسان السلام في حياته وبعد موته.

لقد فهم شيخُ الإسلام أن الآفات الاجتماعية هي نتيجة حتمية لتلك المخالفات التي يخالفها الإنسان للسنن الإلهية، لذلك حاول جاهدًا أن يشرح للناس هذه السنن، وأنها لا تتبدّل ولا تتغيّر ولا تحابي، وليدلّنا أن نسير كما هي تسير، لا نعاكسها ولا نخالفها، بل نكون نحن- أيضًا- متّسقين مع هذه النواميس كما الشمس والقمر ودوران الأرض والزمن، فنستفيد من توالي الأزمان، ومن حركة الليل والنهار من شروق الشمس وغروبها، فنستطيع أن ننفع أنفسنا، ونسخر الكون كما أراد الله لنا ذلك.

فشرع يوضح للناس أنّ الله – عز وجل – لم يتركنا هملًا، بل جاء بنا وخلقنا ومعنا الدستور الذي يعلمنا كيف نسير وفق هذه السنن، فجعل لنا الفطرة التي تقودنا إلى تلك المعرفة، والسعادة تتحقّق لو طبقنا الدستور، فهو الشراع لنا الذي يسير بنا إلى الهدف المنشود، ولو خالفنا المنهج سنغرق، ولن نستطيع الحصول على النجاة إلّا إذا استمسكنا بهذا الأمل الإلهي.

لذلك عندما وجد شيخ الإسلام الأمّة تغرق في متاهات الجهل والتفرق والأحزاب؛ أخذ يصفُ لهم هذا العلاج من مسايرة سنن الله – عز وجل –.

وهكذا يظهر لنا- أيضًا- فقه التوازن واضحًا في حياة شيخ الإسلام ابن تيمية؛ فهو يوازن ما بين جوانبه الشخصية وبين تحصيل العلم والدعوة والجهاد، وهذا بسبب نظرته الشمولية للحياة، ورؤيته التأملية للكون من حوله.

وأيضًا تظهر سنّة الصراع ما بين الحقّ والباطل واضحة في تعامله مع خصومه؛ فلقد نصره الله ورفع قدره ودحض آراء المخالفين.

وتظهر - أيضًا- سنة الله في التغيير واضحة في حياته؛ فهو دائمًا كان يستعمل الحكمة والموعظة الحسنة والنصيحة، وامتازت أخلاقه بالصبر والتسامح وصفاء القلب؛ ممّا أكسبه ذلك العلم النافع في كافة المجالات، فوصل إلى اليقين، ومحبة الله - عز وجل -، وحارب البدع والخرافات في حياته، وبيّن أنّها من أسباب الهزيمة، وأن النصر مرتبط ارتباطًا وثيقًا بالرجوع إلى الدين.

وهكذا كانت حياته كلها تطبيقًا عمليًّا للسنن الإلهية، فهو قانع في عيشه، متوكل على ربه، لا يخاف في الله لومة لائم، يتمثل فيه قول الشاعر(١):

تَوكلْتُ في رِزْقي عَلَى اللَّهِ خَالقي ... وأيقنتُ أنَّ اللهَ لا شك رازقي
وما يكُ من رزقي فليسَ يفوتني ... وَلَو كَانَ في قَاع البَحَارِ الغَوامِقِ
سيأتي بهِ اللهُ العظيمُ بفضلهِ ... ولو لم يكن مني اللسانُ بناطقِ
ففي أي شيءٍ تذهبُ النفسُ حسرةً ... وَقَدْ قَسَمَ الرَّحْمَنُ رِزْقَ الخَلائقِ

لقد علّمنا شيخُ الإسلام أن العلماء يجب أن يكونوا كالنجوم والشموس، يتسقون في منظومة جميلة تنشر النور والدفء، وتزين هذا الكون، ولا تخالف أحد الشموس الأخرى، أو تخرج عن المنظومة العامة للكون، بل هم يؤدون أهدافهم في تعاون ونظام، هدفهم صلاح الكون، مسبحين لله، عابدين له على خير طاعة، يفهمون جيدًا أنّ الكلّ ميسّر لما خُلق له، يفهمون جيدًا سنن الله وكيفية التعامل معها وتوظيفها كما أراد الله لها في اتساق وتوازن غير متخلفين عن حركة الكون وزمانه، شعارهم كما كان شيخ الإسلام يتمثّل قول الشاعر:

(١) الأبيات للإمام الشافعي، انظر: ديوانه، ص(٩٩).

لا تجزعي إن الفؤاد قد امتطى		ظهر اليقين وفي معارجه ارتقى
غذيت قلبي بالكتاب وآيه		وجعلت لي في كلّ حق منطقا
ووطئت أوهامي فما أسكنتها		عقلي وجاوزت الفضاء محلقا

بارك الله في شيخنا وأستاذنا شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- وجميع العلماء الصالحين الربانيين الذين أناروا لنا الدرب، فجزاهم الله عنا خير الجزاء.

***

المبحثُ الرّابع والثلاثون

ملاحظاتٌ حول السنن لدى ابن تيمية

تنوّعت سنن الله – عز وجل – تنوعًا بديعًا ما بين سنن كلية وسنن جزئية شاملة.

كلّ المجالات من سنن في الأنفس، وسنن في المجتمعات، وسنن في التاريخ، وسنن في الآفاق.

وجاءت الدراسة للسنن عند شيخ الإسلام ابن تيمية– رحمه الله– متنوعة؛ فنجد لديه دراسات منوعة شملت سننًا كلية لديها سنن جزئية تندرج تحتها، وأيضًا شملت سننًا شمولية تحوي تحتها سننًا كلية، وهي كالآتي:

١– سنة الله في الإيمان والكفر، ويأتي تحتها:

– الهدى والضلال.

– الشقاء والسعادة.

– سنة الله في المتوكّلين.

– سنة الله في التّمكين.

– سنة الله في سلب النعم.

– سنة الله في الفرقان.

– سنة الله في الظالمين.

– سنة الله في الخير والشر.

– سنة الله في فقر المخلوقات إلى الله.

٢- سنن الله في أهل الجهاد، ويندرج تحتها:

- سنة الله في نصر الأمم.

- سنة الله في الهزيمة.

- سنة الله في هلاك الأمم.

- سنة الله في بقاء الأمم.

٣- سنن الله في الآفاق، ويندرج تحتها:

- التسخير.

- التوازن.

- الأسباب والمسببات.

- الجمع بين المتشابهين والتفريق بين المختلفين.

- سنة الله في الثواب والعقاب.

- سنة الله فيمن يعتقد الحقّ الثابت.

- سنة الله في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

- سنة الله أن خلقهم أزواجًا.

- سنة الله في التوازن.

- التمكين والاستبدال.

- التدافع والتداول.

٣- سنن الله في الأنفس وهذه كثيرة.

٤- السنن الاجتماعية وتحوي تحتها:

- سنة الله في المجتمع.

- من سنن الله في خلقه أن جعل لهم أميرًا، ولا يصلح حالهم إلّا بهذه الإمارة.

- من سنن الله في الأمّة المسلمة ألّا تجتمع على ضلالة.

- من سنن الله في الأنبياء أنه يؤيدهم بالمعجزات، وينصرهم على من كذبوهم.

- من سنن الأنفس الامتحان للمؤمنين ونصره لهم، وحاجتهم إلى الصبر والجهاد.

- من سنن الله في الأمّة المسلمة مضاهاتها لليهود والنصارى.

- سنة الله في قبول الأعمال.

- من سنن الله - عز وجل - العدل.

- من سنة الله إرسال الرسل عند الاختلاف والتفرقة.

- من سنة الله في الخلق أن خلقهم درجات.

- المودة والرحمة بين الزوجين.

- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

- سنة الله في الحب والكراهية.

- سنة الله في إهلاك الأمم.

- سنة الله في التغيير.

٥- سنن حضارية، وهي سنن كلية جعلها الله مفتاحًا لقيام الحضارات:

- سنن المداولة.

- التدافع.

- الاستبدال.

- سنة الله في التغيير.

وهذه السنن كلها متشابكة ومتداخلة كالبناء، ولا نستطيع أن نفصل بين لبناتها وأجزائها؛ فهي لُحمة واحدة، تمثل كيانًا مشتركًا، وتكاملها هذا يؤدي إلى تعمير الأرض، وهذه هي مهمة الإنسان التي خلقه الله – عز وجل – لأجلها، ولذلك وضع له تلك القوانين والسنن التي تحكمه، وتحكم ما حوله من الآفاق، وتحكم المجتمعات حتى يكون مؤدّاها نهاية الأمر إلى التعمير والشهود الحضاري الذي ننشده.

وكلّ سنّة من السنن الجزئية يمكن أن تصنف تحت أكثر من سنّة كليّة.

إنّ مادة السنن عند شيخ الإسلام غزيرة غزارة تستحق الدراسة، ولقد اخترت في دراستي هذه ما أمكنني استقصاءه.

ولَدَى شيخ الإسلام إلمامٌ رائع بمادة كلّ سنة، وتفصيل رائع لها بحيث تصبح هذه الدراسات عند شيخ الإسلام منبعًا صافيًا يستفيد منه الدارسون في هذا الجانب.

إنّ شيخ الإسلام- رحمه الله- منبعٌ جيّد لمعرفة السنن، هذا المنبع ارتبط جيدًا بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ فهمًا جيدًا وعملًا.

كما عرفنا- أيضًا- من روافد السنن عنده أن لديه تأهيلًا جيدًا لذلك بسبب ثقافته الواسعة التي شملت كافة المجالات.

وفي ذلك حلٌّ لكثير من مشاكل المسلمين الناجمة عن التقصير في معرفة علم السنن وكشفها ودراستها وفهمها حتى نستطيع تسخيرها.

فموضوع السنن يمثل لنا المنطلق الفكري للأمم في دربها الحضاري، وهو التوجيه اللازم الذي يحكم سلوك الأفراد والجماعات، ويقودها نحو التقدم والرقي والسعادة في الدنيا والآخرة.

وعندما درسنا سيرة شيخ الإسلام- رحمه الله- وحياته تعرّفنا على شخصية رائعة تمتاز بصفات تستحق التقدير والثقة، فهي مثال صادق يجمع بين النظرية والتطبيق.

لقد كانت فكرة سنتنا كما كانت حياته قائمة بهذه السنن، وما نجاحاته التي أحرزها في وقت قصير إلّا دليل يدلّنا على الدرب الصحيح لنتقدم في حياتنا، فهو استحق أن يكون إمامًا وقائدًا في عصره وعصرنا، فما كتبه في عصره لا ينفصل عن عصرنا ما دام ذلك فهمًا وشرحًا لكتاب الله وسنة نبيه ﷺ امتزج بوعي وفكر بالكون والأنفس والمجتمعات.

إنّ معرفتنا بالسنن تمنحنا الحرية والقوة؛ فهي تدلنا على الأسباب التي تحكم كلّ شيء، فإذا عرفنا السبب توصلنا إلى اكتشاف الأشياء واستطعنا استخدامها، وكذلك في الأنفس والمجتمعات سنعرف من خلال السنن كيف نصل إلى فردٍ متوحّد مع نفسه وخالقه ثمّ الكون والمجتمع فيؤدي بذلك لتكوين مجتمع متماسك.

وتطبيق السنن وتسخيرها قد جعله الله متاحًا لنا، وأعطانا مفاتيح اكتشافها، وأرشدنا إلى كيفية استعمال تلك المفاتيح، وما علينا إلّا استعمال تلك المفاتيح لنحصل على ما نريد، فمثلًا سنة الله في الأسرة السعيدة تقوم على الأخذ بالأسباب التي تساهم في تكوين تلك الأسرة، الاستعانة بالله، وحسن التوكل على الله في اختيار الزوج والزوجة، وقد أمرنا الله – عز وجل – باختيار الزوج الصالح والزوجة الصالحة، وجعل هذا الاختيار قائمًا على الدين والخلق الرفيع، وأنّ مَن يحيد عن هذا الاختيار فسوف يبوء بالخسران؛ وذلك حتى يكونوا صالحين لتكوين ورعاية أبناء صالحين، ووضع لهم سننًا جزئية تحكم تعاملاتهم، وتوضح لهم سبيل هذه الحياة في كلّ جزء من جزئياتها حتى يستقيم البنيان.

خلاصةٌ واستنتاج:

إنّ مادة السّنن عند ابن تيمية غزيرة كثيرة غنية ثرية، يصعب حصرها ويعزّ استقصاؤها؛ فهو غزير المعرفة مثل البحر الزاخر.

إن كلّ سنّة عن شيخ الإسلام تحوي سجلًّا معرفيًّا يعتبر مرجعًا للفهم السنني، وكيفية تحويله إلى التطبيق العملي الفعلي.

إنّ شيخ الإسلام يعطينا تفصيلات ضابطة لكلّ سنّة من السنن لو طبقت تلك السّنن الجزئية لحصلنا على النجاح السنني الذي يترتب عليه العمارة الحقّة لهذا الكون، والشهود الحضاري الذي تتمنّاه الأمّة الإسلامية.

وللإنسان مع السّنن عقوبات وعطاءات جماعية بحسب انتمائه لأمّة بعينها، أو فاعليته فيها، كما أنّ عليه عقوبات وثوابات فردية، وسنحشر يوم القيامة أممًا وجماعات، وسنحاسب كذلك جموعًا وأفرادًا، فالأمّة الإسلامية من خلال دراستنا ستحاسب مرّتين، مرة أفرادًا كلّ عن نفسه وأسرته، ثمّ جماعات بما قدّمناه للإسلام والمسلمين من الخير، وبما قدمناه للأمم الأخرى من نشر الإسلام، وبما أنقذناهم به من عذاب جهنم.

لقد كانت السنن في حياة شيخ الإسلام مثالاً حيًّا طبّقه في حياته كلها، فكانت سببًا في إخراج نموذج فريد للفرد المسلم الذي يعرف حقّ ربه وأمته، ويسعى جاهدًا لإعلاء شأنها.

***

الخاتمةُ، أسأل الله حسنها

وبعدَ هذه الرحلة الماتعة النافعة مع ابن تيمية وجهوده في الدراسات القرآنية تطبيقًا على علم السّنن الربانية، وما قدّمه من نفع للإسلام والمسلمين في مجال التفسير والسّنن الربانية نجد أنّ الشيخ نبعٌ لا ينضُب ماؤه، وروح باقية على مدى الزمان، تبثّ الخير والأمل والسعادة في نفوس الناس أجمعين، وتعالج ما فسد من النفوس، وتنبّه على الأخطار، وتصحبنا إلى جنة عرضها السموات والأرض يمكننا أن نرصد الآتي:

١- حفلت حياة ابن تيمية بالجهاد العلمي والجهاد العملي، ومزج بين الدعوة قولًا وسلوكًا، وشغل الناس حيًّا وميتًا، وما زال تراثه زاخرًا بالنفع العام والخاص، وبصورة أخصّ ما يتعلق منه بالدراسات القرآنية وعلم السنن، وما زال في حاجة إلى إبراز وخدمة وتقريب يتيح لعموم الأمّة الإفادة منه والنفع به.

٢- توفّرت لابن تيمية روافد متعددة كونته قرآنيًّا وسننيًّا ومنحته القدرة على استخراج كثير من سنن الله- تعالى- في الأنفس والآفاق.

٣- أنّ تأثيره فيمن بعده بدا واضحًا جليًّا سواء فيمن تتلمذوا عليه مباشرة أو فيمن جاء بعدهم، وظلّ أثره هذا عبر قرون وما زال، وفيه من المجالات الخصبة التي تستحق الدراسة وتستأهل البحث.

٤- اعتمد شيخُ الإسلام في تفسيره على الكتاب والسنة وأقوال الصحابة والتابعين، وبعد ذلك كانت اللغة العربية وعلومها والثقافة العامة لديه وسيلة للترجيح بين الآراء واختيار أحسنها.

٥- أن الجوانب التطبيقية في علم السنن لديه بدتْ واضحةً جليّة، وساعده على هذا الوعي السعي بالحركة والدعوة، وتبيان الحقّ وتصحيح المفاهيم وإرشاد الناس إلى الحق، ودلالتهم على الله- تعالى.

٦- أن موضوع السنن بصفة عامة وتطبيقاته لدى ابن تيمية بصفةٍ خاصّة من أهمّ الموضوعات التي نحتاجها اليوم؛ لما تمرّ به أمتنا الإسلامية من مِحن ونكبات، وفيه تِبيان للنهج الصحيح للخروج ممّا هي فيه.

٧- أنّ شخصية ابن تيمية من الشخصيات التي ظُلمت وهُضمت من خصومها، وكثير من أتباعها، فلم يعرض فكره بصورة مناسبة، ونسب إليه كثير من التشدّد وهو منه براء.

إنّ مَن يدرس تراث ابن تيمية ويعكف على قراءته قراءة متأنية يجد الرحمة واللين والرفق والدعوة بالتي هي أحسن يتخلل كلّ هذا تراثه، وأن لديه رؤية واضحة وبصرًا شديدًا بمنهجية التعامل مع الطوائف الأخرى من خلال الكتاب والسنة، وقد صدقت الأيام وأيّد الواقع المعيش الذي تحياه الأمّة اليوم صواب رأيه في الحكم على الفرق النافرة عن الإسلام كلًّا أو بعضًا.

٨- تنوّعت السّنن في تراث ابن تيمية بين تأصيلية وتطبيقية وفردية وجماعية، ونفسية وتاريخية، وإن دلّ هذا على شيء فإنما يدل على استيعابه للسنن ووعيه بها وتطبيقه لها.

٩- تعلّمنا من خلال هذه الدراسة كيف أنّ العلم بالكتاب شرحًا وتفصيلًا هو الوسيلة الوحيدة لإحياء قلوب شقيت وحزنت لبعدها عن كتاب الله- تعالى.

١٠- أنّ هذه الدراسة التي قدّمت لنا مجموعة من السنن الإلهية تمثل لبنةً من لبنات تراث الشيخ وعطائه الفكري.

أهم المصادر والمراجع

أولًا: القرآن الكريم.

ثانيًا:

١- أبجد العلوم: أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن بن علي ابن لطف الله الحسيني البخاري القِنَّوجي، دار ابن حزم، الطبعة الأولى، ١٤٢٣ هـ- ٢٠٠٢ م.

٢- ابن تيمية السلفي: خليل هراس، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٤- ١٩٨٤م.

٣- ابن تيمية وجهوده في التفسير وعلوم القرآن: إبراهيم خليل بركة، المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ- ١٩٨٤م.

٤- ابن تيمية، حياته وعصره وآراؤه الفقهية: للعلامة محمد أبي زهرة، دار الفكر، ١٩٩١م.

٥- اختيارات ابن تيمية في التفسير ومنهجه في الترجيح: د/ محمد بن زيدان الهندي.

٦- أسس التجديد في منهج ابن تيمية في التفسير: د/ فرقان إسماعيل، بحث مطبوع في مجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية القانونية، ٢١/ ٢٠٠٥.

٧- إغاثة الغريق وإنارة الطريق إجابات لشيخ الإسلام ابن تيمية: شريف علي الراجحي، بدون.

٨- اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، تحقيق: ناصر عبد الكريم العقل، دار عالم الكتب، بيروت، الطبعة السابعة، ١٤١٩هـ- ١٩٩٩م.

٩- البداية والنهاية: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثمّ الدمشقي، تحقيق: علي شيري، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.

١٠- تدبر السنن الإلهية عند السلف الصالح: رشيد كهوس، دار الكتاب المغربي، الطبعة الأولى، ١٤٣٧هـ- ٢٠١٥م.

١١- تذكرة الحفاظ ، المؤلف: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ)الناشر: دار الكتب العلمية بيروت- لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م

١٢- ترجمة ابن تيمية من كتاب ذيل تاريخ الإسلام للحافظ شمس الدين الذهبي ٦٧٣، تحقيق وتعليق: محمد بن ناصر العجمي، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م- دار ابن الأثير، الكويت.

١٣- تفسير ابن كثير (تفسير القرآن العظيم): إسماعيل بن عمر بن كثير، دار الفكر، بيروت، ١٤٠١هـ.

١٤- تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار): محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني الحسيني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠ م.

١٥- ثلاث تراجم نفيسة للأئمة الأعلام ابن تيمية والحافظ علم الدين البرزالي والحافظ جمال الدين المزي: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي، تحقيق: محمد بن ناصر العجمي، دار ابن الأثير، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م.

١٦- الجامع الصحيح للسنن والمسانيد: صهيب عبد الجبار، ٢٠١٤م.

١٧- جامع بيان العلم وفضله: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي، تحقيق: أبي الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م.

١٨- الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية خلال سبعة قرون: محمد عزيز بن شمس وعلي بن محمد العمران، دار عالم الفوائد، مكة، الطبعة الثانية، شوال ١٤٢٢ هـ.

١٩ - جهود شيخ الإسلام ابن تيمية في توضيح الإيمان بالقدر: د/ تامر متولي، رسالة (دكتوراه) - الجامعة الإسلامية.١

٢٠- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، تحقيق: علي بن حسن- عبد العزيز بن إبراهيم- حمدان بن محمد، دار العاصمة، السعودية، الطبعة الثانية، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

٢١- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح: شيخ الإسلام ابن تيمية، ت: علي بن حسن الألمعي، دار الفضيلة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٨٤هـ - ٢٠٠٤م.

٢٢- الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر: شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر بن عثمان بن محمد السخاوي، تحقيق: إبراهيم باجس عبد المجيد، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م.

٢٣- الدارس في تاريخ المدارس، لعبد القادر بن محمد النعيمي الدمشقي، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م،

٢٤- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة: أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني، تحقيق: مراقبة/ محمد عبد المعيد ضان، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الهند، الطبعة الثانية، ١٣٩٢هـ- ١٩٧٢م.

٢٥- دعوة شيخ الإسلام وأثرها على الحركات الإسلامية المعاصرة، وموقف الخصوم منها: صلاح الدين مقبول أحمد، دار ابن الأثير، الكويت، ١٤١٢هـ- ١٩٩٢ م.

٢٦- دقائق التفسير، ابن تيمية، تحقيق: محمد السيد الجليند، مؤسسة علوم القرآن، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ.

٢٧- دليل الرسائل الجامعية في علوم شيخ الإسلام، إعداد: عثمان بن محمد الأخضر شوشان، الرياض، ١٤٢٤هـ.

٢٨- ذيل طبقات الحنابلة: زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السَلامي، البغدادي، ثمّ الدمشقي، الحنبلي، تحقيق: د/ عبد الرحمن بن سليمان العثيمين.

٢٩- الرد الوافر: محمد بن عبد الله (أبي بكر) بن محمد ابن أحمد بن مجاهد القيسي الدمشقي الشافعي، شمس الدين، الشهير بابن ناصر الدين، تحقيق: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٩٣هـ.

٣٠- الرسالة الزكية في ثناء العلماء على ابن تيمية: مرعي يوسف الحنبلي، دار الفرقان، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ- ١٩٨٤م.

٣١- الرؤية الإسلامية والمسألة الحضارية دراسة مقارنة: عبد الله محمد الأمين.

٣٢- السلوك لمعرفة دول الملوك: أحمد بن علي بن عبد القادر، أبو العباس الحسيني العبيدي، تقي الدين المقريزي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب، العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م.

٣٣- سنن أبي داود: سليمان بن الأشعث السجستاني، دار الفكر، بيروت، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد.

٣٤- السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية: د/ عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٢م.

٣٥- السنن الإلهية في الحياة الإنسانية: د/ شريف الشيخ صالح أحمد الخطيب، مكتبة الرشد، الرياض، ٢٠٠٤م.

٣٦- سنن الترمذي: محمد بن عيسى الترمذي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٣٧- سنن الترمذي: محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر (جـ ١، ٢)، ومحمد فؤاد عبد الباقي (جـ ٣)، وإبراهيم عطوة عوض (جـ ٤، ٥)، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، الطبعة الثانية، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.

٣٨- سنن الدارقطني: علي بن عمر، تحقيق: السيد عبد الله هاشم اليماني، دار المعرفة، بيروت، ١٣٨٦هـ.

٣٩- السنن الكبرى للنسائي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١١هـ.

٤٠- السياسة الشرعية لابن تيمية، دار ابن حزم، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

٤١- السياسة الشرعية: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.

٤٢- سير أعلام النبلاء: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي، دار الحديث، القاهرة.

٤٣- شذرات الذهب في أخبار من ذهب: عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد العَكري الحنبلي، أبو الفلاح، حققه: محمود الأرناؤوط، خرج أحاديثه: عبد القادر الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق- بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م.

٤٤- شعب الإيمان. أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ) حققه وراجع نصوصه وخرج أحاديثه: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد، أشرف على تحقيقه، تخريج أحاديثه: مختار أحمد الندوي، صاحب الدار السلفية ببومباي- الهند، الناشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م

٤٥- الشهادة الزكية في ثناء الأئمة على ابن تيمية: مرعي بن يوسف بن أبى بكر بن أحمد الكرمى المقدسي الحنبلي، تحقيق: نجم عبد الرحمن خلف، دار الفرقان، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ.

٤٦- شيخ الإسلام أحمد بن تيمية رجل الإصلاح والدعوة: دار القلم، ط أولى، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠ سلسلة: أعلام المسلمين، إبراهيم محمد العلي.

٤٧-شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية: العلامة الشيخ حسنين مخلوف، ضمن تقدمة ديوان ابن تيمية، جمع وتحقيق وشرح: د/ محمد عبد الرحيم.بدون.

٤٨- صحيح البخاري: محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

٤٩- صفات جيل التمكين في المنظور القرآني: د/ رمضان خميس، بحث منشور في مجلة كلية دار العلوم، العدد الثامن عشر، ديسمبر ٢٠٠٧م.

٥٠- طبقات علوم الحديث، ضمن الجامع، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م

٥١- العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية: شمس الدين محمد بن أحمد بن عبد الهادي بن يوسف الدمشقي الحنبلي، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار الكاتب العربي، بيروت.

٥٢- على ساحل ابن تيمية: عائض القرني، الطبعة الأولى، العبيكان، ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٣م.

٥٣- الفتاوى الفقهية الكبرى (فتاوى ابن حجر): الهيتمي، المكتبة الإسلامية.

٥٤- فتاوى معاصرة: يوسف القرضاوي، الطبعة المكتب الإسلامي، ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م.

٥٥- فقه التغيير وبناء الأمّة الوسط، البحث الفائز بجائزة الشيخ علي بن عبد الله آل ثاني الوقفية لعام ١٤٣٧هـ، ٢٠١٦م. ط: وزارة الأوقاف القطرية، ط: أولى، د/ المثنى عبد الفتاح محمود.

٥٦- فقه السنن الإلهية ودورها في البناء الحضاري، البحث الفائز بجائزة الشيخ علي بن عبد الله آل ثاني الوقفية لعام ١٤٣٢هـ، ٢٠١١م، ط: أولى، عام ٢٠١٢م ط وزارة الأوقاف القطرية، عادل بن بو يزيد عيساوي.

٥٧- الفكر التربوي عند ابن تيمية: د/ ماجد عرسان الكيلاني، مكتبة دار تراث، المدينة المنورة.

٥٨- فوات الوفيات: محمد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن بن شاكر بن هارون بن شاكر الملقب بصلاح الدين، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى.

٥٩- في ظلال القرآن: سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي، دار الشروق، بيروت- القاهرة، الطبعة السابعة عشر، ١٤١٢ هـ.

٦٠- قاعدة في المحبة: شيخ الإسلام ابن تيمية، ت: د/ محمد رشاد سالم، مكتبة التراث الإسلامي، بدون.

٦١- الكامل في التاريخ: أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين ابن الأثير، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري.

٦٢- الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار: أبو بكر بن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن خواستي العبسي، تحقيق: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد، الرياض.

٦٣- الكواكب الدرية، دار الغرب الإسلامي، ط: أولى، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، مرعي بن يوسف الحنبلي.

٦٤- لسان العرب: جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، دار ومكتبة الهلال، القاهرة.

٦٥- لمحات تاريخية من حياة ابن تيمية: صالح بن سعيد بن هلابي، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

٦٦- الملل والنحل، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبى بكر أحمد الشهرستاني (المتوفى: ٥٤٨هـ)، الناشر: مؤسسة الحلبي. إعجاز القرآن الكريم: د محمد عبد العزيز العواجي، مكتبة دار المنهاج، تقديم: د/ حكمت بشير، د/ محمد عمر عبد الله حوبة،

٦٧- أوراق مجموعة من حياة شيخ الإسلام ابن تيمية، محمد بن إبراهيم الشيباني، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ- ١٩٨٩م، مكتبة ابن تيمية.

٦٨- الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية: عمرُ بنُ عليِّ بنِ موسى بنِ خليلٍ البغداديُّ الأزجيُّ البزَّارُ، سراجُ الدينِ أبو حفصٍ، تحقيق: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٠هـ.

٦٩- أعيان العصر وأعوان النصر: صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، تحقيق: د/ علي أبو زيد، د/ نبيل أبو عشمة، د/ محمد موعد، د/ محمود سالم محمد، قدم له: مازن عبد القادر المبارك، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م.

٧٠- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي، تحقيق: حسام الدين القدسي، مكتبة القدسي، القاهرة، ١٤١٤ هـ- ١٩٩٤م.

٧١- مسند أحمد: أحمد بن حنبل الشيباني، مؤسسة قرطبة، مصر، بدون.٧٢- مسند إسحاق بن راهويه: إسحاق بن إبراهيم بن مخلد، مكتبة الإيمان، المدينة المنورة، ١٤١٢هـ.

٧٣- مسند الشافعي: أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن عبد المطلب بن عبد مناف المطلبي القرشي المكي، دار الكتب العلمية، بيروت، صحّحت هذه النسخة على النسخة المطبوعة في مطبعة بولاق الأميرية والنسخة المطبوعة في بلاد الهند، ١٤٠٠ هـ.

٧٤- مسند الشهاب: أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر بن علي بن حكمون القضاعي المصري، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٦م.

٧٥- مصنف ابن أبي شيبة: عبد الله بن محمد بن أبي شيبة، مكتبة الرشد، الرياض، ١٤٠٩هـ، تحقيق: كمال يوسف الحوت.

٧٦- معجم البلدان، المؤلف: شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (المتوفى: ٦٢٦هـ)، الناشر: دار صادر، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٩٩٥ م

٧٧- مفهوم السنن الربانية من الفهم إلى التسخير دراسة في ضوء القرآن الكريم: د/ رمضان خميس الغريب، مكتبة الشروق الدولية، ط: أولى، تقديم العلامة د/ محمد عمارة.

٧٨- مقدمة في أصول التفسير: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٤٩٠هـ- ١٩٨٠م.

٧٩- المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد: إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن محمد ابن مفلح، أبو إسحاق، برهان الدين، تحقيق: د/ عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

٨١- منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، تحقيق: محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

٨٢- منهج شيخ الإسلام ابن تيمية في التأليف، ومراحله المتعددة: د/ عبد الله محمد الحجيلي.

٨٣- النبوات: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي، القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، تحقيق: عبد العزيز بن صالح الطويان، أضواء السلف، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.

٨٤- وسطية الإسلام ودور العلماء في إبرازها: د/ أكرم كساب، الطبعة الأولى، دار النداء، ٢٠١٤م.

***

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
البسملة	٥
الاستهلال	٧
الإهداء	٩
الشكر والتقدير	١١
تقديم د. محمد عمارة	١٣
ملخص الكتاب	٢٣
ملخص الكتاب (مترجم)	٢٥
المقدمة	٢٧
الفصل الأول: ابن تيمية حياته وعصره وأبرز من تأثر بهم	٣٧
المبحث الأول: اسمه ونسبه، حياته ونشأته	٣٩
المبحث الثاني: عصره	٥٤
المبحث الثالث: تكوينه العلمي وعطاؤه الفكري	٧٢
المبحث الرابع: ثناء العلماء عليه	٩٨
الفصل الثاني: جهود ابن تيمية ومنهجه في التفسير وعلوم القرآن (الجانب التأسيسي)	١٠٧
المبحث الأول: منزلة ابن تيمية في التفسير	١٠٩
المبحث الثاني: تصنيف نوعي لمؤلفات ابن تيمية في التفسير	١١٧

المبحث الثالث: منهجه في التفسير وعلوم القرآن ١٢٩
المبحث الرابع: مصادر ابن تيمية في التفسير ١٣٢
المبحث الخامس: أثر ابن تيمية فيمن جاء بعده من المفسرين ١٣٤
المبحث السادس: شيخ الإسلام ابن تيمية وعلوم القرآن ١٤٣
المبحث السابع: ألوان التفسير لدى شيخ الإسلام ابن تيمية ١٥٥
الفصل الثالث: جهوده في علم السنن الربانية ١٦٥
المبحث الأول: روافد علم السنن عند شيخ الإسلام ابن تيمية ١٦٧
المبحث الثاني: التدبر السنني عند شيخ الإسلام ابن تيمية ١٨٩
المبحث الثالث: تعريفه لعلم السنن ١٩٥
المبحث الرابع: خصائص السنن الإلهية عند شيخ الإسلام ١٩٨
المبحث الخامس: حجية السنن الربانية عند شيخ الإسلام ابن تيمية ٢٠٢
المبحث السادس: بين السنن الإلهية الجارية والمعجزة عند شيخ الإسلام ابن تيمية ٢٠٣
المبحث السابع: العلاقة بين المسطور والمنظور عند شيخ الإسلام ابن تيمية ٢٠٥
المبحث الثامن: السنن الربانية والإرادة الإلهية ٢١٢
المبحث التاسع: كيفية الاستدلال على السنن الإلهية ٢١٣
المبحث العاشر: أنواع السنن الإلهية عند شيخ الإسلام ابن تيمية ٢١٤
الفصل الرابع: الجوانب التطبيقية من السنن الربانية في تراث ابن تيمية ٢١٩
المبحث الأول: سنة الله في الأسباب والمسببات ٢٢١
المبحث الثاني: سنة الله في الاختلاف ٢٣٢
المبحث الثالث: سنة الله في المتساين والمختلفين ٢٤٢

المبحث الرابع: سنة الله في الفرقان بين الحقّ والباطل ٢٤٧
المبحث الخامس: سنة الله في الهدى والضلال والرشد والغي ٢٥٤
المبحث السادس: سنة الله في الابتلاء ٢٦٦
المبحث السابع: سنة الله في الخائنين للأمانة ٢٨٨
المبحث الثامن: سنة الله في التسخير ٢٩٠
المبحث التاسع: سنة الله في السعادة والشقاء ٢٩٣
المبحث العاشر: من سنن الله في خلقه أن جعل لهم أميرًا ولا يصلح حالهم إلّا بهذه الإمارة ٢٩٦
المبحث الحادي عشر: سنة الله في الأمّة المسلمة ٢٩٨
المبحث الثاني عشر: سنة الله في قبول الأعمال ٣٠١
المبحث الثالث عشر: من سنن الله – عز وجل – العدل ٣٠٢
المبحث الرابع عشر: سنة الله في النصر والهزيمة ٣٠٦
المبحث الخامس عشر: سنة الله في الغرابة ٣٣٥
المبحث السادس عشر: سنة الله في التمكين ٣٤١
المبحث السابع عشر: سنة الله في الاستبدال ٣٤٦
المبحث الثامن عشر: سنة الله في التدافع ٣٤٧
المبحث التاسع عشر: سنة الله في أوليائه ٣٥٠
المبحث العشرون: سنة الله في الأنبياء ٣٥١
المبحث الحادي والعشرون: سنة الله في التداول ٣٥٤
المبحث الثاني والعشرون: سنة الله في الكافرين والمشركين ٣٥٦
المبحث الثالث والعشرون: سنة الله– تعالى– في المظهرين للإيمان ٣٥٩

المبحث الرابع والعشرون: سنة الله فيمن يعرض عن ذكره	٣٦٠
المبحث الخامس والعشرون: سنة الله في شانئ الرسول	٣٦٦
المبحث السادس والعشرون: من سنن الله- تعالى- في المخلوقات أن خلقهم أزواجًا وأقرانًا	٣٧٠
المبحث السابع والعشرون: سنة الله في الأنفس	٣٧٢
المبحث الثامن والعشرون: سنة الله في المحبة والكراهية	٣٨٦
المبحث التاسع والعشرون: سنة الله في إهلاك الأمم	٣٩٨
المبحث الثلاثون: سنة الله في بقاء الأمم	٤٠٤
المبحث الحادي والثلاثون: سنة الله في التغيير	٤٠٦
المبحث الثاني والثلاثون: سنة الله في التوازن	٤٢١
المبحث الثالث والثلاثون: منهجية شيخ الإسلام ابن تيمية في عرض السنن	٤٣٠
المبحث الرابع والثلاثون: ملاحظات حول السنن لدى ابن تيمية	٤٣٥
الخاتمة: وشملت نتائج البحث والتوصيات	٤٤١
فهرس المراجع والمصادر	٤٤٣
فهرس الموضوعات	٤٥٣

هذا الكتاب

يُعنى بجهودِ شيخ الإسلام ابن تيمية في علم السنن الربانية بين التأصيل والتنزيل، هذا الرجل الذي ضرب في كلّ غنيمة بسهمٍ وافر، وفي كلّ ميدان بما لا مزيد عليه.

ومن بين هذه الميادين ميدانُ السّنن الربانيّة تأصيلًا وتفعيلًا، ووعيًا وسعيًا، فمارسَها كتابةً وتطبيقًا.

ومِن هذه السنن: سنة الله في الأسباب والمسبّبات، وسنة الله في الاختلاف، وسنّة الله في الهدى والضلال والرّشد والغي، وسنّة الله في الابتلاء، وسنّة الله في الخائنين للأمانة، وسنّة الله في التّسخير، وسنّة الله في السعادة والشّقاء، وسنّة الله في قبول الأعمال، وسنّة الله في النصر والهزيمة.

المؤلفة

9 789772 786763

01012355714 - 01152806533
elbasheernashr@gmail.com
elbasheer.marketing@gmail.com
www.darelbasheer.com

دار البشير للثقافة والعلوم